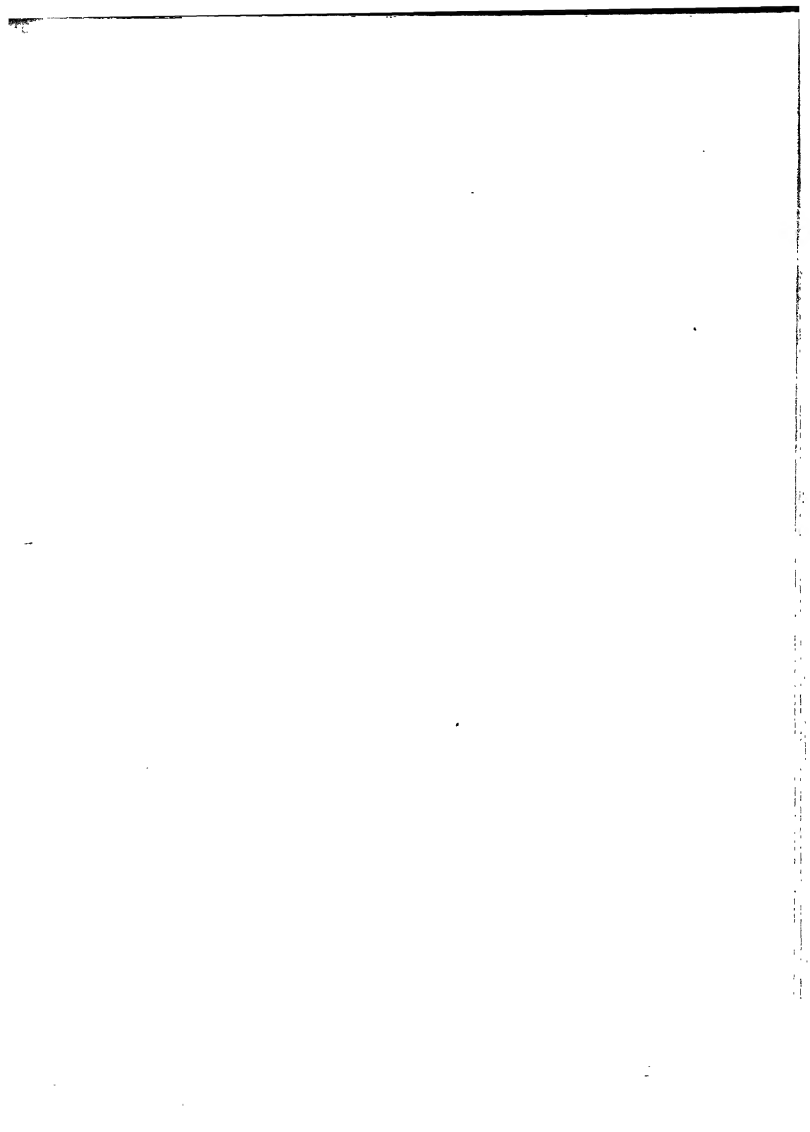


عالم الفكر

المجلد الخامس العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٥

المشكلة السكانية



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٧٥
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية * وزارة الإعلام - الكويت : ص ٠ ب ١٩٣

المحتويات

المشكلة السكانية

- التمهيد بقلم التحرير ٣
- الهجرات وتحركات السكان الدكتور عبد الكريم اليان ١٥
- مشكلة التزايد السكاني والزها في تطور التربية في الدكتور عبد الكريم أحمد ٦٥
- البلاد النامية
- المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالمدول النامية الدكتور علي السلمي ٩١
- الموارد المالية وعلاقتها بالسكان بقلم : د. س. ويتنسكاي ١١٩
- ترجمة فاروق مصطفى اسماعيل

آفاق المعرفة

- طبيعة الإنسان الاستاذ زكريا فهمي ١٢٧

ادباء وفنانون

- دبنيه ويج فيلسوف الجمال الدكتور ثروت عكاشة ١٧٧

عرض الكتب

- سيرة فرجينيا وولف عرض وتحليل الدكتور طه معهود طه ٢٢٩

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم .

المشكلة السكانية

تقديم

ربما لم يحظ موضوع من الموضوعات المتعلقة بالإنسان من الاهتمام قدر ما يحظى به الآن موضوع السكان وكثافتهم ومصيرهم ، وما يتعلق بذلك من مشكلات توفير الطعام والخدمات الاجتماعية: والصحية والتعليمية وفرض العمل لهم ، وثمة ما يدل على أن ذلك الاهتمام أمر قديم يرجع الى أولى العصور التي لدينها عنها معلومات وثيقة مؤكدة ، فبعض النقوش والكتابات المصرية القديمة مثلاً تشير الى الزيادة أو النقصان في عدد السكان في مصر وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحالة فيضان النيل ، كما أن اليونان والرومان اهتموا بمشكلة تزايد أو نقصان السكان ولكن لاعتبارات مختلفة هي في الأغلب اعتبارات عسكرية وحربية ، خاصة وأن المجتمع الروماني بالذات كان يطمح للناحية العسكرية قدراً كبيراً من العناية والاهتمام ، ثم التقل ذلك الاهتمام الى كثير من فلاسفة وكتاب العصور الوسطى الذين اهتموا بالحياة الاجتماعية، وقد يكفي أن نشير هنا الى ابن خلدون الذي افترض في مقدمته المشهورة لمشكلة زيادة

السكان والعلاقة بينها وبين العمران في فصل يحمل عنوان (فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو تفاضل عمراتها في الكثرة والقلّة) وهو عنوان له دلالتة ومفراه ، إلا أنه يمكن القول على العموم أن المشكلة لم تدخل المجال العلمي الدقيق إلا منذ القرن الثامن عشر ، وعلى الخصوص حين كتب **مalthus** مقالته القصيرة الشهيرة عن مشكلة السكان التي لم تلبث أن تضخمت وتمتعت بعد عدة مراجعات ، بحيث وصلت في آخر الأمر إلى كتاب من ثلاثة أجزاء وأن كان يحمل نفس العنوان الأصلي وهو « **مقال عن مبدأ السكان** *An essay on the Principle of Population* » وفي هذا الكتاب يوجه مalthus الانتظار - ربما لأول مرة - بشكل منهجي إلى اختلال التوازن بين زيادة السكان وزيادة الطعام اختلالا شديدا يندر بكثير من الاخطار والشرور ، وفي الوقت ذاته تقريبا نجد عالم الاجتماع البلجيكي الشهير **Quetelet** يهتم بدوره بدراسة السكان مستخدما المنهج الإحصائي للتعرف على الظواهر السكانية المختلفة ، وتعتبر كتابات مalthus وكتيبه البداية الحقيقية للدراسات السكانية ، وأن كان ثمة ميل إلى إغفال دور كتيبته الذي لم يقدر لدراسته أن تجد من الدبوع والانتشار ما أتيح لكتاب مalthus ، ومن هنا كان مalthus يعتبر أهم من لفت الانتظار إلى خطورة المشكلة السكانية التي ارتبطت باسمه منذ ذلك الحين حتى الآن .

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن الفضل يرجع في آخر الأمر إلى العلماء الأمريكيين في تطوير علم السكان ، والوصول به إلى المستوى الذي بلغه في الوقت الحالي من الدقة والعمق ، وبخاصة بعد أن بدأ عدد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين اهتموا بدراسة الظواهر السكانية يتعرضون لجوانب جديدة لم يهتم بها علماء السكان الأوائل ، مثل التغيرات التي تطرأ على التركيب السكاني نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي ، الذي يعتبر من أهم سمات الحضارة الحديثة ، واستخدام الآلات وما ترتب عليه من ظهور علوم جديدة كان لها تطبيقاتها في مجال الصناعة والعلم ، مثل علوم الكمبيوتر والسيرناتيقا أو النوجيه الذاتي للآلات ، ثم الاتجاه نحو (الأتوميشن) أو التحكم الذاتي في الآلات ، وتأثير ذلك كله على القوى العاملة والإدارة والكفاءات المختلفة في المجتمع الصناعي الحديث ، بل وأثر التصنيع على البيئة الطبيعية وما نجم عن ذلك من تلوث الهواء والماء والتربة ، وتأثير ذلك التلوث في البشر وفي موارد الثروة الزراعية والحيوانية . فهذه كلها مجالات جديدة تماما لم يتطرق إليها علماء الاجتماع والسكان والأنثروبولوجيا إلا منذ الستينات من هذا القرن .

وكل هذا معناه أنه على الرغم من كل ما يقال عن قدم وعراقة الاهتمام بالمشكلة السكانية ، فإن الإدراك الحقيقي للمشكلة في كل إبعادها تمت معالجتها كمشكلة عالية تواجه المجتمع الإنساني بأسره ، وليست كمشكلة محلية يعاني منها مجتمع معين بالذات هو أمر حديث إلى حد كبير جدا ، ولقد تمثل هذا الوعي أو الإدراك بوجه خاص في اهتمام هيئة الأمم المتحدة بها ، بحيث عقدت في السنوات الأخيرة عددا من المؤتمرات العامة ، لكل من أهمها مؤتمر بلغراد الذي عقد في أغسطس ١٩٦٥ ، ثم اعتبار العام الحالي (١٩٧٤) هو السنة الدولية للسكان ، وفيها عقد أكثر من مؤتمر عالمي ، وعدد من الندوات والمحطات الدراسية تناولت كلها مشكلة تزايد السكان وعلاقة ذلك على الخصوص بتوفر الطعام والتناقص التي قد تنجم عن ذلك .

ومع التسليم بأن السكان في العالم يتزايدون بسرعة رهيبة. فإن هذا لا يعني أن تلك الزيادة متساوية ومتماثلة في كل المجتمعات أو الدول ، بل أن ثمة اختلافات وفوارق محلية واسعة يجب أن تؤخذ في الاعتبار . يضاف إلى ذلك أن المشكلة الأساسية لا تتمثل في حقيقة أن مجرد الزيادة العددية في حد ذاتها ، بل أنها تكمن بالآخرى في اختلال معدلات الزيادة في السكان ونمو الامكانيات الاقتصادية، وما يريد من وقع المشكلة أن الزيادة السكانية تحدث بشكل أكبر في الدول المتخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وقد وصل بعضها إلى حد الانفجار السكاني في السنوات الأخيرة ، ثم أن هذه الزيادة ليس مرجعها في كل الأحوال الزيادة الطبيعية عن طريق الولادة وحدها ، وإنما هناك عوامل مساعدة تتمثل في تقدم الطب والعناية بالصحة والخدمات الاجتماعية ، مما أدى إلى السيطرة على انتشار الأمراض والأوبئة وارتفاع معدلاتها من انخفاض معدلات وفيات الأطفال على الخصوص وارتفاع متوسط العمر ، ومع أنهم أصعب الأمور التكلم بدقة عن معدلات المواليد والوفيات في المجتمعات البدائية ، وفي كثير من المجتمعات النامية ، ومع أنه من الصعب أيضا القول بما إذا كانت درجة خصوبة الجنس البشري ارتفعت عما كانت عليه من قبل ، فإن التحسن الملحوظ في مستوى الخدمات مسؤول بفر شئ من كثير من هذه الزيادة (انظر على العموم كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي عن : علم السكان ، صفحات ١ - ٧) .

وكل هذا من شأنه أن يدفع إلى التساؤل : ما هو موقف العلماء من هذه الزيادة المطردة السريعة في السكان ؟ وهل هناك موقف موحد ازاء هذه الزيادة الملهلة ؟



الواقع أن العلماء ينقسمون ازاء هذه المشكلة إلى قسمين أو فئتين تتعارض أفكارهما ، كل التعارض ، أحدهما مع الأخرى حول مضمير الإنسان ومستقبل المجتمع الإنساني إذا ظل السكان في العالم يتزايدون بغير ضابط أو قيود ، والطريف في الأمر أن كلا من هاتين الفئتين من العلماء يعتقدون في آرائهم وأفكارهم على بعض الحسابات والتقديرات العلمية ، وعلى اعتبارات إنسانية ودينية واجتماعية معا ، ولكن بينما تنظر الفئة الأولى من العلماء إلى مستقبل الإنسان نظرة متشائمة إلى أبعد حدود التشاؤم ، تعالج الفئة الأخرى المشكلة بنظرة ملؤها التفاؤل والأمل .

وقد تكون النظرة المتشائمة هي أقدم النظرتين ، أو على الأقل هي التي نهت الإذهان إلى مشكلة الزيادة السكانية وازدهام العالم بكونه بشكل يندب بالخطر . والمعروف أن زعيم هذا الاتجاه التشاؤمي هو **مالتوس** الذي نشر رأيه في كتابه الذي سبقته الإشارة إليه ، ثم لم تلبث دعوته إلى الحد من تكاثر السكان أن انتشرت بين أوساط كثيرة مختلفة من العلماء والكتاب ضمت عددا من المفكرين الاقتصاديين ، ورجال الدين المسيحي من البروتستانت ، وبعض العلماء الاجتماعيين الديموقراطيين ، بالإضافة إلى عددا من المحافظين الماديين . ويستند أصحاب هذه النظرة في تبرير موقفهم من ضرورة الحد من سرعة التكاثر إلى الخوف والإشفاق مما سوف يتعرض له الجنس البشري من بؤس وشقاء وجوع وأمراض وأوبئة وفقر نتيجة لاختلال التوازن بين الموارد الطبيعية وسكان العالم . ومع ذلك فالظاهر على ما يقول الاستاذ **سوفي Sauvey** أن ثمة بعض العوامل الأتانية الأخرى تكمن وراء هذه الدعوة ، وهي عوامل تتمثل إلى حد كبير في خوف الأغنياء

من أن يضطروا الى اقتسام الموارد مع من هم أكثر منهم فقرا وأشد احتياجا ، ثم ان الزيادة السكانية قد تؤدي الى ثورة الجماهير الفقيرة على الملوك وأصحاب الاراضي وأصحاب رؤوس الاموال ، والى تفتيت الملكيات وما يرتبط بهذا كله من حرمان الاغنياء من بعض ممتلكاتهم ، فكان هذه الدعوة لا تصدر دائما عن الرغبة المخلصة في تحقيق خير الانسان والمحافظة على انسانيته وكرامته من ان تهدر بسبب المتاعب التي تنجم عن تلك الزيادة السكانية غير المنظمة .

أما أصحاب النظرة الأخرى المتفائلة (وفيهم أيضا عدد من رجال الاقتصاد والاجتماع والدين من الكاثوليك الذين يحرمون وضع أية قيود على النسل أو تحديده) فانهم يرون ان هناك قدرا كبيرا من المبالغة والمغالاة في التخوف من مصير الجنس البشري ، وما سوف يتعرض له من مجاعات وامراض . فلا يزال العالم في نظرهم مليئا وازخرا بموارد طبيعية كثيرة لم تستغل بعد ، كما ان هناك مناطق ومساحات هائلة من الأرض لا تزال تغطيها الغابات والاحراش ، كما هو الحال في افريقيا مثلا ، وتظهر هذه الموارد الفسيحة من الغابات وزراعتها يمكن ان يوفر الطعام لآلاف الملايين من البشر ، يضاف الى ذلك الموارد الغذائية الموجودة في أعماق البحار والمحيطات والتي لم تستغل حتى الآن ، بل ان تقدم العلم سيؤدي بالضرورة الى ايجاد انواع جديدة من الطعام الصناعي او غير الطبيعي تتوفر فيه كل الامكانيات الغذائية التي يتطلبها الانسان ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو ان يغير البشر من عاداتهم الغذائية ، وهي مسألة يمكن تحقيقها بالتدريج وعن طريق التربية والتوجيه والتدريب .

وليس من شك في أن المناخ الفكري العام الذي كان يسود أوروبا في اواخر القرن الثامن عشر واول القرن التاسع عشر كان من العوامل الاساسية التي ساعدت على ظهور تفكير مalthus وذبوع نظريته ، فقد ولد مalthus في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر (١٧٦٦) واستمرت حياته حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر (توفي عام ١٨٣٤) ولقد كان القرن الثامن عشر هو عصر الفلسفات المثالية التي تمثلت في كتابات عدد كبير من الفلاسفة الاجتماعيين ، سواء في فرنسا من امثال **كوندورسيه** Condorcet او في بريطانيا من امثال **ويليام جودوين** William Godwin . وكان هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون يؤمنون ايمانا عميقا بمستقبل الانسانية ، وأن مصير الانسان زاهر نظرا لان الفكر الانساني الخلاق يسير بطبيعته نحو الترقى والتقدم ، كما ان الحياة الاقتصادية سوف تزدهر هي ايضا بمرور الزمن تبعا لارتقاء الفكر الانساني وتقدم الكفاءات والمهارات التي يكتسبها الانسان طيلة الوقت . وهذا كله معناه ان العالم - في نظر هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين - يسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الخير للانسان ، ونحو مستقبل يفتحي فيه الفكر والجريمة والحرب والامراض ، وهي كلها ضرور تنشأ في الاصل عن انخفاض مستوى المعيشة ، وسوف يؤدي هذا كله بالضرورة ايضا الى ان يستتب الامن في ذلك العالم ، مما يستتبع ضرورة الاستغناء عن الحكومة وما تعارسه من سلطة على الناس . فكان المجتمع الانساني في تقدمه الطبيعي انما يشبه لكي يصبح مجتمعا حرا طيقا لا يخضع لاي شكل من اشكال الحكومات وما يرتبط بالحكومات من شر وقهر .

ولقد كانت هذه الحركة الفكرية التي تستهدف خلق العالم المثالي او اليوتوبيا متأثرة بالاهداف والدعاوى النبيلة التي كانت الثورة الفرنسية والثورة الامريكية تهدفان الى تحقيقها ،

وليس كتاب مالثوس في أساسه إلا نوعاً من الاعتراض على هؤلاء المثاليين الاجتماعيين الذين كان يطلق عليهم عموماً اسم Social perfectionists وبخاصة على آراء وليم جودوين الذي كان يعتقد نظرة مفرقة في التفاؤل عبر منها بوضوح في كتابه « العدالة السياسية Political Justice » الذي كان يرى فيه أن الإنسان سوف يرتقي بالطراد إلى أن يصل إلى أعلى الدرجات للنمو العقلي وطول الحياة والاكتمال الصحي ، فضلاً عن خلو العالم من كل الأمراض الاجتماعية من أوبئة وحروب وجرائم وبقر وبؤس وغير ذلك ، وأن كل فرد في المجتمع سوف يعمل لما فيه صالح الآخرين ، وأن الخير والرخاء سوف يعمان رغم نكاثر البشر . وفي الوقت ذاته كان جودوين يعتقد أن الغريزة الجنسية سوف تلتطف وتهذب كثيراً نتيجة لذلك الرقي العقلي والفكرى الذي يحققه الإنسان . وهذه كلها آراء أقرب إلى آراء كوندورسيه الذي كان يعتقد أنه سوف يمكن إشباع الغريزة الجنسية دون أن يؤدي ذلك إلى ارتفاع نسبة المواليد . (راجع في ذلك اشباع الغريزة الجنسية دون أن يؤدي ذلك إلى ارتفاع نسبة المواليد . (راجع في ذلك Downes ; Books That Changed the World, Mentor Books, 1960, p.54)

وموضوع كتاب مالثوس ليس جديداً تماماً ، فالمسألة كانت قد ظهرت قبل ذلك بمدة في كثير من كتب القرن الثامن عشر نفسه كما هو الحال مثلاً في بعض كتابات بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin التي ناقش فيها مشكلة نمو السكان . ومع ذلك فإنه يمكن القول بحق أن أحداً من هؤلاء الكتاب لم يقلع في إبراز المشكلة بنفس القوة والاصالة والحساس التي تجدها في الكتاب الخاص بمالثوس . أضف إلى ذلك أن مالثوس كان معاصراً لـ Adam Smith وبنجامين Thomas Painه . وإن كان أصغر منهما كثيراً . ولكن بينما كان آدم سميث يتكلم في كتابه الشهير « ثروة الأمم The Wealth of Nations » عن أسباب الفنى والثروة وطبيعتها ، كان كتاب مالثوس يتكلم عن أسباب الفقر وطبيعته ، ومن هنا يمكن القول أن كتاب مالثوس يكمل بشكل أو بآخر كتاب سميث الذي كان قد ظهر قبل ذلك بـ اثنين وعشرين عاماً ، أو هو على الأصح يعالج المسألة من زاوية مغايرة .



ويرتكز كتاب مالثوس على مسألتين أساسيتين هما : أن الطعام لازم لوجود الإنسان ، وأن الغريزة أو الرغبة الجنسية هي أيضاً لازمة لوجوده وسوف تظل محتفظة دائماً بقوتها . والواقع أن كل المثاليين يسلمون بالمسألة الأولى ، ولكن بعضهم مثل جودوين كانوا يظنون أن الرغبة الجنسية سوف تخف وتتنازل إلى حد كبير جداً بمرور الزمن وارتقاء الفكر الإنسان . ولقد لاحظ مالثوس رداً على ذلك أنه على الرغم من كل ما حققته الإنسان من تقدم ورفي منذ كان في حالة الوحشية أو الهمجية الأولى ، فإنه لم يطرأ أي تغيير على رغبته الجنسية ، إذ يبدو أنها لا تزال الآن على نفس الدرجة من القوة التي كانت عليها منذ أربعة آلاف سنة مثلاً (راجع Downes , op.cit., p. 55) .

من هاتين المسألتين وضع مالثوس مبداه الاساسي الذي تقوم عليه نظريته ، وهو أن خصوبة الإنسان وقدرته على التناسل أقوى وأشد من خصوبة الأرض وقدرتها على إنتاج الطعام للإنسان ،

وعلى ذلك فإنه إذا لم توضع قيود وضوابط على عملية الإنشغال فسوف يتزايد البشر بمعدلات تفوق كثيرا زيادة الطعام ، وقد مير من ذلك في مبادئه الشهيرة التي صاغها في شكل حكم عام من أن السكان يتزايدون في متواليات هندسية بينما يزداد الطعام بمتواليات حسابية . وقد استند مالتوس في ذلك على دراسته بعض الأوضاع السكانية في أمريكا وبريطانيا ، فقد لاحظ مثلا أن سكان أمريكا في ذلك الحين قد تضاعفوا خلال جيل واحد (أى خلال خمسة وعشرين سنة) رغم عدم ادخال المهاجرين إليها في الحساب . إلا أن بعض العلماء يزعمون أن مالتوس قفر قفزة واسعة جدا في الوصول إلى ذلك التعميم الكلي الذي لا يستند إلى مبررات كافية ، لأن أمريكا نفسها كانت تمر بمرحلة استثنائية في تاريخها .

وحين أراد مالتوس تطبيق هذا المبدأ على بريطانيا أخذ في الاعتبار مسألة توافر الطعام وإمكانية زيادة إنتاجه ، فوجد أنه إذا استغلت كل الأرض القابلة للزراعة أحسن استغلال وابتدث الطرق فإن إنتاج الطعام سوف يتضاعف أيضا في السنوات الخمس والعشرين الأولى ، ثم تبدأ التناقص في الظهور بعد ذلك ، فبينما يتضاعف السكان مرة ثانية فيصبحون أربعة أضعاف ما كانوا عليه في أول الأمر قبل خمسين عاما فإن الطعام يزداد إلى ثلاثة أضعاف فقط . وبعد خمس وعشرين سنة أخرى يتضاعف السكان مرة أخرى فيصبحون ثمانية أضعاف ما كانوا عليه في الأصل بينما يزداد الطعام إلى أربعة أضعاف الأصغر فحسب . وبعد قرن كامل من سنة البدء يكون السكان قد بلغوا ستة عشر ضعفا عما كانوا عليه بينما يكون الطعام خمسة أضعاف فقط وهكذا ، على ما يظهر من الجدول البسيط التالي :

السنة	١	٢٥	٥٠	٧٥	١٠٠	١٢٥
الزيادة السكانية	١	٢	٤	٨	١٦	٣٢
الزيادة في الطعام	١	٢	٣	٤	٥	٦ (الخ)

وواضح من ذلك مدى اتساع الفجوة واختلال التوازن بين الموارد الغذائية وعدد السكان بمرور الزمن ، ويصرف النظر عن مدى دقة هذه الحسابات وما إذا كان السكان يتزايدون بالفعل بنسب هندسية دقيقة ويتضاعفون كل خمسة وعشرين عاما بينما يزداد الطعام بنسب ومتواليات حسابية ، فالذي يهم هنا هو أن المبدأ العام نفسه يتسم بدرجة عالية جدا من الصدق ، ونعني بذلك أن الهوة بين السكان والطعام تزداد اتساعا طيلة الوقت . وهذا هو المبدأ الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا حين نتعالج هذه المشكلة . وهذا هو ما تنبه إليه الدراسات المختلفة التي يفحصها هذا العدد من **المجلة** فالفارق الهائل بين الزيادة السكانية وزيادة الموارد الغذائية هو السبب في معظم الأمراض والمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية . والواقع أن هذا الأمر يعتبر من أهم المسائل التي يوليهما علماء التخطيط والتنمية والبلدات في المجتمعات المتخلفة والنامية - معظم اهتمامهم حتى وإن لم يقبلوا نظرية مالتوس بعد أفرها .

ومن الصعب على المجتمع - أيا كان - أن يقبل استمرار ذلك التفاوت أو تلك الهوة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام، ومن هنا كان لا بد من وجود بعض العوامل التي تعيد ذلك التفاوت إلى الوضع الطبيعي أو العملي المقبول . ولقد كانت هناك دائما عوامل كثيرة جدا خارجية أو (إيجابية) على ما يسميها مالتوس وبعض معاصريه لا تخضع في الاغلب لإرادة الإنسان ، وتلعب دورا هاما في تضيق تلك الهوة والفجوة مثل الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية التي تزيد اعدادا كبيرة من البشر . ولكن إلى جانب ذلك كثيرا ما كانت المجتمعات الإنسانية تلجأ إلى الحروب لحل مشكلة زيادة السكان بالنسبة للطعام، انما الاهم من ذلك والاكثر هي تلك العوامل التي تخضع لإرادة الإنسان وترتبط بها ويتحكم فيها العقل البشري ، وهي في اغلب الأحيان عوامل « وقائية » أو « سلبية » تتمثل بأفضل صورها في الامتناع الاختياري عن الانجاب، ولقد كتبت مالتوس يعتقد أن الإنسان يمكنه أن يتحكم في نسله من طريق تأجيل الزواج إلى سن متأخرة حتى يستطيع الفرد أن يهيئ لنفسه وضعا اقتصاديا يسمح له بأن يكفل أسرته بعد الانجاب . ولقد طبق مالتوس ذلك المبدأ على نفسه فلم يتزوج إلا في سن الثامنة والثلاثين وهي سن متأخرة - على الأقل بالنسبة للسائد في العصر الذي عاش فيه . « فكان الزوجية » كانت في رايه هي افضل وسيلة فعالة لحل تلك المشكلة رغم ما فيها من خروج على الطبيعة الإنسانية وتنكر لها .

ولقد ذهب مالتوس في هذا الطريق إلى أبعد ما ينادى به الكثيرون من المهتمين بالمشكلة السكانية وضبط النسل وسياسة اللامة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية، واقترح - إلى جانب رايه في ضرورة تأخير الزواج وبخاصة بين الطبقات الفقيرة حتى سن متأخرة - كثيرا من الاقتراحات التي لا تخلو من التطرف بل ومن القسوة والتنكر لكثير من المبادئ الإنسانية النبيلة . فقد كان يعارض كل ما من شأنه أن ييسر الحياة للطبقات الفقيرة ويرى في « قوانين الفقر » افسادا لحياة هؤلاء الفقراء ، كما أن الاحسان في كل صورة ، سواء كان احسانا فرديا خاصا يقدمه الافراد بدافع العطف والشفقة، أو احسانا منظما رسميا تشرف عليه الحكومة ، هي كلها أمور غير مرغوب فيها ويجب أن تحارب ، لانها تقدم للفقراء المال دون أن تزيد من كمية الطعام الذي يمكنهم الحصول عليه بذلك المال ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف المعيشة وتفاقم مشكلة النقص في الطعام والمؤن . وعلى العموم فقد كان مالتوس يرى أنه يجب عدم تشجيع الطبقة العاملة وما إليها على الانجاب مادام العمال والفقراء عموما غير قادرين على تربية الاطفال وإمالتهم . ولقد كان مالتوس منطقيا مع نفسه ومع مبادئه حين عارض فكرة بناء المساكن الاقتصادية للفقراء ، لأن توفر المسكن يشجع على الزواج المبكر ويؤدي بالتالي إلى زيادة جديدة في السكان .

وكان من الطبيعي أن تجد هذه الآراء ترحيبا من جانب ثقات كبيرة من الأغنياء في بريطانيا ، وأن تقابل بكثير من الحماس من بعض الطبقات الحاكمة ومن كبار الملاك والإقطاعيين وأصحاب

رؤوس الأموال ، لأن مalthus زود هذه الجماعات بحجة ترد الفقر العام الشامل ، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي الى الزواج المبكر وكثرة الإنجاب بدلا من ردهما الى سوء توزيع الثروة على ماكان يذهب اليه كثير من المفكرين الاشتراكيين . الا ان هذه الآراء تعرضت الى جانب ذلك للنقد والمعارضة من كثير من البيئات والفئات : من رجال الدين المحافظين ، والفلاسفة الاجتماعيين ، ورجال الحرب وبعض الراسماليين المحافظين ، الى جانب الاشتراكيين الراديكاليين .

كان الاشتراكيون الراديكاليون من امثال **وليام طومبسون** William Thompson يرون ان مalthus تجاهل الاسباب الحقيقية لبؤس الفقراء وسوء حالهم ، وهم الذين يعيشون على البطاطس فحسب ويؤلفون غالبية السكان في بريطانيا ، بل وغالبية الجنس البشري في اى زمان واى مكان . ولقد وصف هؤلاء الاشتراكيون الراديكاليون افكار مalthus بأنها افكار سقيمة وقاذفة وقذرة ، وتم عن قدر كبير من السذاجة والغفلة والغباء . اما رجال الدين فانهم كانوا يرون في كتابات مalthus وآرائه خروجاً على الدين وتعاليمه ، وانكاراً لقدرة الله الخالق وتعدداً على ارادته في عمران الارض . وهذا الموقف من رجال الدين فيه اتهام خطير بالنسبة لرجل تخصص أصلاً في اللاهوت وشغل احد المناصب الدينية .

وكان هجوم العسكريين على آراء مalthus نتيجة منطقية لاشتغالهم بالحرب التي تحتاج لاكثر ما تحتاج الى البشر الذين يعتبرون هم (وقود) المدافع او (علف) المدافع حسب تعبير **دوائر** . فأي تحكم في السكان عن طريق التحكم في المواليد معناه حرمان رجال الحرب من أهم اداة في كسب الحرب التي تحتاج الى موارد متجددة من الشباب القادرة على حمل السلاح . ومن الظريف ان نذكر هنا ما قاله **فردريك الأكبر** حين نصحه أحد رجال الدين بعدم المغالاة والمبالغة في الاتفاق على الجيش البروسي ، وان الله مع الجيش ومع الشعب ، اذ رد عليه فردريك بقوله انه واثق كل الثقة من عون الله ، ولكنه يعرف أيضاً ان الله يحب ان يقف بجانب الجيش الضخم الجرار .

الا ان اعنف هجوم على آراء مalthus جاء من العلماء الفلاسفة الاجتماعيين الذين كانوا يعنون - او بعضهم على الاقل - بدراسة واقع الانسان ومصيره وقدرته ، وكانوا يؤمنون ايماناً كبيراً بكرامته وقدرته الخلاقة التي تستطيع تطويع الصعوبات وتذليلها . كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرون ان موارد الطعام ليست محدودة الى ذلك القدر الذى يذهب اليه مalthus ، وان ثمة على ما سبق ان ذكرنا - مجالات واسعة عريضة لانتاج الطعام المتنوع الوفير ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو زراعة الاراضي التي لم تزرع بعد ، والعمل على زيادة انتاج الاراضي المزروعة فعلا عن طريق الاستعانة بالمخصبات المختلفة ، والاستفادة بما احرزه العلم من تقدم في هذا المجال . فتصور مستقبل الانسان على انه مستقبل مظلم اعتمادا على بعض الافكار المتعلقة بتناقص الطعام بالنسبة للافواه الجائعة ، والخوف من حدوث المجاعات فيه حكم على الانسان بالفشل وعلى

قبرانه بالنضوب والقصور والعجز ، أى ان فيه كفرانا بقدرة الانسان الخلاقة المبدعة المتحركة ، والمُشاهد على العموم انه كلما نضب مورد للطعام امكن للانسان ان يكتشف موارد اخرى جديدة . وهذا الموقف متأثر بفلسفة وآراء القرن الثامن عشر التي تجد اقوى صدق لها في كتابات **كولبورنيسيه** عن امكان تحقيق التقدم بغير حدود . . . ولقد كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرمون نظرية مalthus بضييق الافق على اعتباراتها تنظر الى الامور من زاوية ضيقة للغاية ، وتجعل حجم السكان يتوقف بطريقة مباشرة ، وتكاد تكون مطلقة على موارد الطعام . وليس على الموارد الطبيعية في عموما . ومع التسليم بأهمية الطعام في تحديد حجم السكان فان ذلك الحجم يتزايد ايضا نتيجة لزيادة ووفرة الموارد الاخرى ، وتوفر فرص العمل وكثرة الاختراعات ، وهذا هو ما حدث فعلا في القرن التاسع عشر - قرن الثورة الصناعية بحق . وربما كانت غلطة مalthus كما يقول هؤلاء العلماء الفلاسفة ، هي انه لم ينظر الى العالم كوحدة يمكن ان يعوض النقص في مجتمع ما في جانب ما بما يوجد في مجتمع آخر في جانب آخر ، وهذا معناه ان نظرية مalthus قد تصدق على مجتمع معين بالذات ، ولكن من الصعب قبولها بالنسبة للعالم اجمع كوحدة .

بيد ان كل هذه الانتقادات والاعتراضات لم تمنع آراء مalthus وافكاره من ان تنتشر وتذيع ، ومن ان تؤثر في عدد كبير من الكتاب والمشتغلين في المشكلات الاجتماعية وليس فقط بمشكلات السكان . وقد ساعد على قبول تلك الآراء ملاحظه هو نفسه من ناحية وكثيرون غيره من ناحية اخرى من ان معدلات الولادة تنخفض كلما تقدم المجتمع وزاد نصيب اعضائه من التعليم ، وكلما استطاع ان يحقق مستويات اعلى من التقدم الاقتصادي . وربما كان اول مظهر عملي لدى تأثير آراء مalthus هو قيام بريطانيا باجراء اول تعداد عام للسكان فيها عام ١٨٠١ ، اى بعد ظهور كتاب مalthus بثلاث سنوات ، وذلك بعد ان كانت فكرة اجراء التعداد تقابل بكثير من المعارضة والاستنكار بل والرفض . وكان لهذا التعداد في ذلك الوقت بالذات دلالة عظيمة لان بريطانيا كانت مقبلة على بوادر الثورة الصناعية ، وانه كان لابد ازاء ذلك من التعرف على نوعية القوى العاملة في ذلك الحين . ومن هنا يمكن القول ان كتاب مalthus كان له دخل - ربما بشكل غير مباشر - في التخطيط لمستقبل بريطانيا الصناعي رغم ما قديبدو في هذا القول من مبالغة .

• رد مalthus على ذلك بالاتجاه الى المبدأ المعروف بمبدأ العائد المتناقص او القلة المتناقصــة Principle of Diminishing Returns في الزراعة (بل وفي مختلف مجالات النشاط البشرى) . ففي بداية مراحل التطور والتنمية نجد ان استخدام الوسائل التكنولوجية يعطي عائدا متزايدا (وغير مثال لذلك في رايه هو ان استثمار اى منطقة جديدة تؤدى الى زراعة مساحات جديدة واستغلالها بها من موارد) ولكن بعد الوصول الى نقطة معينة تبدأ الحقول لتفقد خصوبتها ولقدرتها وجودتها شيئا فشيئا وبذلك يقل العائد او القلة بالتدرج ، وكثيرا ما يفسر السكان ازاء ذلك الى ان يهجروا الارض تماما . وتكرر هذه العملية قد يؤدي آخر الامر الى اختفاء الارض الصالحة من الوجود تماما .

بل الواقع ان تأثير كتاب مالتوس تمدى مجال البحوث السكانية الى مجال العلوم الطبيعية ذاتها . وربما كان افضل مثل لذلك هو ما اعترف به داروين Darwin نفسه صراحة من تاثيره بذلك الكتاب . والمعروف ان التعبير الشائع « الصراع من اجل البقاء » "Struggle for Existence" الذى يعزى عادة الى داروين ، كان قد استخدمه مالتوس في الاصل ، وقد اوحى ذلك التعبير الى داروين برأيه في ان الخصائص الجيدة تبقى وتستمر ، بينما تتضاءل الصفات والخصائص الضعيفة وتراجع الى ان تختفي تماما ، مما يساعد في آخر الامر على ظهور انواع جديدة لها صفات قوية . وهذا هو اساس نظرية داروين في التطور . وهذا القول نفسه يصدق على الفرد وسل والاس Alfred Russel Wallace الذى يعترف هو ايضا بتاثير نظريته التطورية بكتاب مالتوس .

• • •

والهم من هذا كله هو ان كتاب مالتوس عن « مبدأ السكان » يعتبر نقطة تحول جدى في الفلسفة الاجتماعية وفي توجيه الاهدان الى المبدأ الاساسي العام الذى لا يزال هو ركيزة أية محاولة للتنمية في المجتمع الانساني حتى الان ، ونعني بذلك مبدأ التوازن بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية على ما تكشف عنه الدراسات المنشورة في هذا العدد .

ولكى نمطي فكرة عن مدى الزيادة الهائلة السريعة في سكان العالم وبخاصة في المجتمعات النامية يكفي ان نذكر ان تعداد السكان في العالم في عام ١٩٦٠ كان ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) مليون نسمة ، وتدل بعض التقديرات المبدئية ان هذا العدد سوف يرتفع قبل نهاية هذا القرن الى ٥٨٠٠ مليون نسمة ، بينما تذهب بعض التقديرات الاخرى الصادرة من هيئة الأمم المتحدة الى ان العدد سوف يكون حوالي ٦٣٠٠ مليون نسمة ، وذلك في الوقت الذى تذهب فيه بعض معاهد الابحاث السكانية في امريكا الى التنبؤ بان تلك الالاف الثلاثة من الملايين التي كانت تعيش عام ١٩٦٠ سوف تضاعف خلال الاربعين سنة من عام ١٩٦٠ الى عام ٢٠٠٠ مرتين ونصف مرة تقريبا ، وبذلك فان سكان العالم في تلك السنة سوف يكونون ٧٤١٠ مليون نسمة ، ولكن هذه الزيادة لا تسير بنفس السرعة في كل المجتمعات الانسانية بل تختلف معدلات الزيادة من مجتمع لآخر كما سبق ان ذكرنا ، وانها ستكون اكثر ارتفاعا في المجتمعات النامية والمتخلفة عنها في المتقدمة ، او بالاحرى المجتمعات الصناعية الحديثة . فالزيادة السكانية في العالم ككل هي ١٧٪ سنويا ولكنها لا تصل في المجتمعات الصناعية الحديثة الى اكثر من ١٠٪ . بينما هي ترتفع في المجتمعات النامية والمتخلفة الى اكثر من هذا بكثير بحيث يتراوح بين ٢٠٪ و ٣٥٪ . وفي مصر بالذات - على سبيل المثال - نجد ان معدلات الزيادة تدور حول الرقم ٢٦٪ سنويا وهي اعلى من النسبة الموجودة في كثير من بعض البلاد المتخلفة الاخرى كاليهند مثلا . والدراسات

والبحوث المنشورة هنا مليئة بالأرقام ذات الدلالة، وقد لا تتفق تلك الأرقام والتقديرات بعضها مع بعض، ولكنها تشير إلى مدى خطورة الوضع في العالم بالنسبة لتزايد السكان وإلى شروء العمل على التحكم في تلك الزيادة بشكل أو بآخر ما دامست الزيادة في الطعام وفي الموارد الطبيعية لا تتناسب مع الزيادة السكانية، ويدخل في «الموارد» هنا الموارد المستغلة بالفعل والتي لا تزال في باطن الأرض، واستخدام الطاقة غير البشرية على السواء.

والغريب في الأمر في هذا الصدد أنه بينما يدرك الجميع خطورة هذا الاختلال في التوازن بين السكان والطعام، وضرورة العمل على إعادة التوازن المفقود إما عن طريق الحد من الزيادة السكانية وإما عن طريق العمل على زيادة إنتاج الطعام وحسن استغلال الموارد الطبيعية، وبينما تنعش شعوب كثيرة في العالم لخطر المجاعات التي بدأت تهدد الإنسان من جديد نجد أن الحكومات الأمريكية مثلاً في بعض الأحيان تدفع مبالغ كبيرة من المال للفلاحين مقابل عدم قيامهم بزراعة مواد غذائية جديدة نظراً لأن المخازن في تلك المناطق الزراعية تضيق بكميات الطعام الهائلة المكدسة فيها والتي تبلغ قيمتها بلايين الدولارات. وهذا يعني أن الولايات المتحدة تخلو من وجود مشكلات سكانية خاصة بها وإن كانت هذه مشكلات من نوع مختلف، فليس من المحتمل أن تتعرض الولايات المتحدة للمجاعة مثلاً نتيجة لانتفاظها بالسكان مثلاً يحدث في بعض جهات العالم الأخرى، ولكن المؤكد هو أن أسلوب الحياة هناك ومستوى المعيشة معرضان للخطر لأن النمو السكاني خلق بان يلتهم كثيراً من المزايا الاجتماعية التي حققتها أمريكا حتى الآن، نظراً لما يحتاجه الوضع من نفقات باهظة تنفق على الخدمات المختلفة التي يتطلبها عدد السكان المتزايد.

والظاهر أن الميل العام في كثير من المجتمعات التي تعاني من المشكلة هو نحو الاتجاه إلى العمل على التحكم في النسل وضيقة عن طريق ابتكار وسائل يتحكم بها في معدلات الخصوبة والمواليد مثلاً يمكن التحكم في معدلات الولادات من قبل. ومع أن هناك من يرى في الهجرة حلاً لمشكلة الزيادة السكانية فإن ذلك في الحقيقة حل جزئي فقط، قد يؤدي إلى اختفاء المشكلة من المناطق المكتظة بالسكان في الريف مثلاً، وذلك في حالة الهجرة الداخلية من الريف إلى المناطق الحضرية، أو اختفاء المشكلة في دولة من الدول التي تعاني من الزيادة السكانية وذلك في حالة الهجرة الخارجية إلى دولة أخرى أو مجتمع آخر غريب يحتاج إلى الأيدي العاملة، ولكن الهجرة ليست حلاً جذرياً للمشكلة ككل، إذا نحن اعتبرناها مشكلة عالمية وليست محلية. بل أن الهجرة ذاتها، وبخاصة إلى المناطق الحضرية، كثيراً ما تخلق مشاكل من نوع جديد مثل ازدحام المدن وزيادة البطالة وانتشار الجرائم وظهور المناطق السكنية المتخلفة، بل وكبر حجم المدن ذاتها إلى حد يفوق كل ما هو معروف عن المدينة بالمعنى التقليدي القديم للكلمة وظهور ما يعرف باسم «**المدينة العملاقة**» Megalopolis بكل ما فيها من تعقيدات، خاصة وأن المدينة العملاقة ليست في

عبد الكريم الياني

الهجرات وتحركات السكان

ينشط الناس في مجتمعاتهم ضمن اطار الزمان والمكان ، لا يستطيعون ان يخرجوا عن قيودهما طوال حياتهم ، ونشاطهم في مجال هذين الاطارين متفاوت ، فالزمان يتحرك ويجري دون رجعة ، فينشأ عن ذلك الميلاد والعيش والتعمير حيناً من الزمان ثم الوفاة . ولكنهم في ابان ذلك يشغلون حيزاً من المكان بأجسامهم ، وهم يذهبون ويجيئون ، وقد يسافرون فيجوبون المسافات ، ويقطعون الابعاد ، وقد يغيرون اماكن اقامتهم . وهم في اضطرابهم خلال المكان يجري بهم تيار الزمان ، فيتخطون الاعداد عمراً بعد عمر او توافيقهم المتون . فالزمان والمكان مشتبان اشد الاشتباك في كثير من الموضوعات ولا سيما موضوع السكان، مشتبان اشتباك الحياة والموت .

✕ المجتمع الانساني كيان حي ، وهو ينمو او يضخر بعوامل عدة متفاوتة : والعوامل التي لها هذا التأثير ويمكن قياسها بسهولة هي المواليد والوفيات والهجرة .

✶ الدكتور عبد الكريم الياني استاذ بجامعة دمشق ، عمار في الوقت الحاضر لشم الديمغرافيا في معهد اليوم الاجتماعية في بيروت . له العديد من المؤلفات والكتب كما اشترك في عدة لجان علمية وفي مؤتمرات عالمية كثيرة .

هذه العناصر تؤلف ما يدعى « حركة السكان العامة » أو « نمو السكان العام » . وهو في الغالب موجب ، أى أكبر من الصفر ، فهو زيادة . ولكنه قد يكون سالباً في نادر الأحيان ، فهو اذ ذاك نقص .

ويمكن ان نكتب :

حركة السكان العامة = مواليد - وفيات + هجرة الى البلاد - هجرة منها .

أما المواليد والوفيات فحصيلتهما تدعى « حركة السكان الطبيعية » أو « نموهم الطبيعي » . وأما الهجرة الى البلاد ومنها فتدعى « حركة الهجرة » . فاذا أربى القدوم على النزوح دعى الفرق « فيض الهجرة » . وان نقص عنه دعى « فيض الهجرة » . وقد يراد ادراك مدى النشاط في حركة الهجرة فيصرف النظر عن جهتها أى عن الدخول الى البلد والخروج منه ويجمع القادمون والنازحون معا فيسمى المجموع حجم الهجرة .

وسنعود الى بعض هذه المصطلحات عند الكلام على قياس حركة الهجرة ، ولكن يمكن الآن ان تمجّل بعض الشيء فنضرب مثالا على تأثير هذه العوامل مجتمعة .

في بلد ما يولد انسان كل سبع ثوان ونصف الثانية ، ويتوفى آخر كل تسع عشرة ثانية ، ويدخل واند كل دقيقة ونصف الدقيقة ويخرج نازح كل ثلاث وعشرين دقيقة . ففي هذا المثال عنصران موجبان يزيدان في الناس ، وهما المواليد والوافدون ، وعنصران سالبان منهم وهما المتوفون والنازحون . ولو تأملنا المجموع قليلا للاح لنا ان البلد يزيد نسمة واحدة في كل عشر ثوان ونصف الثانية .

بيد ان اولئك المسافرين الوافدين أو النازحين ليسوا كلهم مهاجرين . وليس السياح ولا القائلون برحلات استكشافية ، ولا الطلاب الموفدون للدراسة ولا المكلفون بمهمات قصيرة الامد ولا امثالهم بمهاجرين . انما يتصف المهاجرون بوصاف لا يتصف بها غيره من النازحين . وهو انه قد اجتمع امره على مغادرة وطنه اما ابداً واما الى امد غير محدود . ولا بد من اتخاذ بعض المعايير في تصنيف القادمين والنازحين . وقد اوصت هيئة الأمم المتحدة بتصنيف الذين ينتقلون من مكان الى آخر عند وصولهم في الاصناف الاربعة الآتية :

١ - المهاجرون الدائمون أى غير المقيمين (من رعايا البلد أو الغريباء عنه) الذين ينوون المكث لفترة تزيد على السنة .

٢ - المهاجرون الرقعيون أى غير المقيمين الذين يريدون ان يمارسوا عملاً في بلد الوصول لسنة أو أقل ، ويصنف من يرافقهم من اهليهم في الصنف الثالث .

٣ - الزوار الذين يرغبون في البقاء سنة أو أقل دون ان يمارسوا عملاً ما ، ويلقون معهم اهلوهم .

٤ - المقيمون (من رعايا البلد أو الغريباء عنه) الذين يؤوبون بعد غيبة تتجاوز السنة .

وفي امكنة المغادرة يصنف المفادرون على النسق الآتي أيضا :

١ - النازحون الدائمون أى المقيمون (من رعايا البلد أو الغريباء) الذين ينوون الإقامة في خارج البلد مدة تجاوز السنة .

٢ - المسافرين من أولئك المهاجرين الوقيتين في التصنيف السابق (يذكر أهلهم في الصنف الثالث) .

٣ - الزوار الذين أتوا زيارتهم .

٤ - المقيمون (من رعايا البلد أو الغريباء الذين ينوون الإقامة في خارج البلد لسنة واحدة أو اقل من سنة .

ولا شك أن الجماعات التي تتسم بصفات خاصة في زمن ما كاللاجئين والمثقلين والمطرودين ممن يوزعون على الأصناف السابقة يلزم أن يسجلوا بصفاتهم تلك على حدة عند قدومهم أو ذهابهم .

ويستبين مما سلف أن أمورا ثلاثة تقتضي الاستسلام لتحصيل التصنيف وهي محل الإقامة المعتاد ، مدة المكث أو الغياب ، والعزم أو النية المتعلقة بالعمل أو الشغل .

ولكن هذه التوصيات لا تجبري عليها الحكومات ، وإن كانت بوجه عام تعتبر المهاجر من عزم على ترك بلاده لمدة تطول .

وثمة تعبير آخر عن الهجرة وهو التحرك أو « الحراك » طفق يروج في الوقت الحاضر في علم السكان وفي علم الاجتماع .

في علم السكان فهو يدل على الانتقال المكاني أو الجغرافي ، وإما في علم الاجتماع فيبدل على تبدل الحال الاجتماعية ، كتغير الحرفة أو الطبقة الاجتماعية أو غيرها ، وقد يجتمعان فيبدل المراء محل إقامته ويبدل حرفته أو الحرفة التي اعتاد أهلوه أن يزاولوها .

والحراك أهم من الهجرة ، ولا بد لكي يكون هجرة من أن يواكبه تبدل في محل الإقامة ، وعزم على العمل في مكان الوصول . وقد نطلق لفظ الحراك على انتقال العمال من محال إقامتهم إلى مجال أعمالهم ، وعلى اختلاف الطللاب إلى مدارسهم ومعاهدهم ، وإن لم يكونا هجرة .

بحث الهجرة واسع ، وهو في الأصل جزء من علم السكان ، ولكنه يتعلق بالتاريخ ، إذ وجدت الهجرة منذ وجد الإنسان . وحركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ ، بل نحن العرب نؤرخ بالنسبة لهجرة مؤثرقة في تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد ، لأن بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة . ويتعلق بالسياسة ، فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية . ويتعلق بعلمي النفس والاجتماع لأن لها أسبابا ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم أخرى يطول استقصاؤها . وهناك هجرة للجماهير رؤوس الأموال ، وللنبات ، وللحيوان ولا سيما الطير . ولكن هجرة الإنسان هي أهم أنواع التحركات .

هذا الفصل الذي نكتبه ديمغرافي بمعنى أننا نقصر النظر فيه على جوانب علم السكان ،

فنتقدم فيه تبلياً من هذه الجوانب دون ادعاء الاحاطة، وسنقسمه الى أربعة اقسام. فنبحث في القسم الأول اسباب الهجرة الخارجية والداخلية، وفي القسم الثاني آثارها المتفاوتة ، ونعرض في كلا القسمين العوامل الاقتصادية والديمقراطية والثقافية الاجتماعية بوجه العموم . وسنرى أن بين الأسباب والآثار ارتباطاً جديلاً ، وأن بين تلك العوامل اشتباكاً وثيقاً ، وأن فعل كل منها وآثره يكونان نارة إيجاباً وتارة سلباً بحسب الظروف والملابسة .

ثم نشرح في القسم الثالث طرق قياس الهجرة وتضمن عناصرها ، ونشامل في القسم الرابع بعض اللحظات من الهجرة في البلاد العربية، ونختتم البحث بالإشارة الى الهيئات العالمية التي تهتم بالمهاجرين واللاجئين ، ونلحق به معجماً موجزاً بالمصطلحات التي جرينا عليها ، ثم بالمراجع البنيّة في هذا الشأن .

هذا ويجدر التنويه هنا بأن أكثر القضايا والاحكام التي اثبتناها نتائج بحوث حديثة كثيرة تتعلق بالهجرة إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حين انطلق تدفق الهجرة من العالم القديم الى العالم الجديد ، وحين طفق الاستعمار يكتسح بعض جوانب العالم القديم . وقد اعتمدنا في القسمين الأولين كتاباً صدر عن قسم السكان في هيئة الأمم المتحدة بعنوان « أسباب التطور الديمغرافي وعواقبه » . أما في الوقت الحاضر فقد تغير الأمر حين أصبحت الهجرة تخضع الى حد بعيد لتنظيم الدول واتفاقياتها .



- القسم الأول -

أسباب الهجرة الخارجية

دواعي الهجرة متعددة ومتفاوتة في المكانة ، وليس من السهل دائماً تعريفها ، وقد أجريت بحوث كثيرة على الدوافع الشخصية ، ولكن الاجوبة لم تكن بالضرورة صادقة او صحيحة ، وانما ظهرت نتائجها متصلة بالاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية التي تبدو مهمة في أمين المهاجرين . ثم أن تلك البحوث عملت الى حركات هجرات معينة ، فلا يجوز تعميمها .

وتعدد الدواعي وتفاوت مكانتها لا يجعلان آثارها في البلاد واحدة ، ولذلك لزم تتبع عواملها بشيء من التأمل والتفصيل ، ونحن نعرض في هذا الموجز أهم تلك العوامل التي أمكن تعيينها في مختلف الهجرات ونصفها كما ذكرنا في ثلاث زمر :

١ - العوامل الاقتصادية ٢ - العوامل الديمغرافية ٣ - العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية . ونفرق في الغالب بين العوامل النابذة التي تدفع الناس الى ترك مواطنهم الأصلية ، والعوامل الجاذبة التي تفريهم بالتقدم الى مواطن أخرى . قد يهاجر المهاجرون لأحوالهم الرديئة في بلادهم ، وقد تجذبهم في الوقت نفسه مغريات في البلاد الأخرى . فالتبذ والجذب يتحكمان في تيار الهجرة ، وهما يتناوبان تلك الزمر الثلاث الإنفة .

١ - العوامل الاقتصادية

لا شك ان العوامل الاقتصادية اهم دوافع الهجرة ، ولكن بعض الهجرات في التاريخ كان سببه المباشر على الأقل من طبيعة غير اقتصادية ، فعزى احدى موجات العرب قديما لخراب سد مارب ، كذلك هجرة اقوام التوتون والساميري الى بلاد الغال والى ايطاليا نجمت من غمر البحر جتلند حيث كانوا يقيمون . والحرب منذ المصور القديمة كانت دافعة الى الهجرة ، واضطهاد الاقليات لمختلف الاسباب حافز كبير لها على الهجرة ، ولكن حيث لا تكون اضطرابات اجتماعية ولا حروب ولا كوارث طبيعية يكون سبب الهجرة الرئيسي الرغبة في تحقيق مستوى حياة افضل ، وقد غلب في العصور الحديثة بروز العامل الاقتصادي على غيره ولو ان العوامل الاخرى بعض الأهمية .

يسمى المهاجرون على الغالب لتحسين احوال حياتهم المادية ، وتجذبهم المناطق التي تتوافر فيها الفرص الاقتصادية الحسنة والمكاسب المالية الثرية . ولكن ليس كل من تاح له تلك الفرص والمكاسب يرغب في مغادرة وطنه ، ولا كل من يرغب في مغادرة وطنه يستطيع الزواج ، ولهذا كان تأثير العوامل الاقتصادية يجرى ضمن اطار العوامل الحضارية والثقافية والسياسية والجغرافية .

مستوى الحياة - كثيرا ما لوحظ ان تيار الهجرة الدولية يجرى من البلاد ذات المستوى الحيوي المنخفض نحو البلاد ذات المستوى الحيوي المرتفع ، ولكن هذا الحكم يقتضي نصيبا من الاحتراز .

ينبغي اول الامر الانتباه لتفاوت مستوى الحياة بين فئات السكان في البلاد ، فقد يهاجر فريق من الناس من بلاد غنية الى بلاد فقيرة اذا حسبوا ان ثرواتهم سوف تنمو بالهجرة ، وقد يوازن المزارع بين دخل مزرعته وربحه في بلد الاغتراب ، لان الفرق حين يكون في صالحه اهم عنده من تفاوت مستوى الحياة في كلا البلدين وكذلك العامل ينظر في تفاوت الاجور بين البلاد الاصلية والبلاد المقصودة .

ثم ان المهاجر لا يبني عزمه على المقايضة بين شروط البلدين الراهنة فقط ، بل قد يستشف مستقبل تلك الشروط ، ويتأمل تبدل تلك الأحوال ، ويرجع النجاح في اقتحام المخاطر ، ويؤثر القوائد الموقعة على المعجلة وأن كان الواقع الراهن عنده اهم اجتذابا وافراء .

وربما نظري في رخص الحياة ويسرها ان كان له دخل ثابت او احيى على المعاش ، او اراد ان يؤوب الى بلاده فهو يتأمل القوة الشرائية للعالم الذي ادخره بالنسبة لمستوى المعيشة .

وقد يحول مستوى الحياة المنخفض دون الهجرة اذا حجب وصول المعلومات الى الناس من البلاد الاخرى او حطمهم بانخفاضه على الصبر والاذمان ، او عجزوا بسببه عن نفقات السفر ، وقد وجد ان تيار الهجرة من اوروبا نحو العالم الجديد قد مس اول الاسر المناطق التي تاورت بالحياة المدنية والتجارية ، وكان مستوى الحياة فيها مرتفعا بعض الشيء على خلاف المناطق الفقيرة جدا والمنعزلة بقلّة المواصلات اليها . وربما كان سكوت الكتل البشرية في آسيا نسبيا وقلة تحرّكها بالهجرة ناشئا عن شدة العوز والضييق .

توافر الأراضي وخصبها . - تتعلق الفرص الاقتصادية في الزراعة الى حد بعيد بسبيل الحصول على اراض طيبة بسعر معقول ، وقد دفع شح الأراضي وندرتها في بعض المناطق سكانها الى انتجاع مناطق اخرى تتوافر فيها الأراضي الطيبة ، فكان ذلك الشح داعيا للهجرة .

قلّة الأراضي قد نشأ عن كثافة الفلاحين ، وقد اعتبرت بعض الدراسات كثافتهم باوروبا سبباً للهجرة كما حصل في ايرلندة والمانيا والبلاد الاسكندنافية ابان القرن التاسع عشر وفي جنوبي اوروبا وشرقيها في غضون القرن العشرين ، فقد سار العرف والعادة في بعض تلك البلاد بتوزيع الممتلكات الزراعية على ورثة المالك . فكان نمو السكان جيلا بعد جيل يُقضي الى تجزؤ تلك الممتلكات وتفتتها ، حتى غدا بعض الفلاحين بدون ارض فحملهم ذلك على الهجرة . وقد حصل خلاف ذلك في بريطانيا ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد تجمع اكثر الأراضي بأيدي ملاكين كبار طفقوا يزرعونها بالحبوب ويحولون بعضها الى مراعي . فوجد الفلاحون والمزارعون الصغار انفسهم مضطرين للنزوح نحو المدن او خارج البلاد ، كذلك معظم الأراضي في ايرلندة كانت للملاكين غير قاطنين فيها ، وكان الفلاحون فقراء او مستأجرين لا تربطهم بالأرض الا علاقة واهية . حدث مثل هذا ايضا في شرقي المانيا والقسم الغربي من الامبراطورية الروسية حيث كانت تسود الممتلكات الكبيرة ويستحكم الفقر المدقع بين الفلاحين .

وقد ادت البحوث المبكرة لتلك الاحوال السيئة وعلاقتها بالهجرة الى الفرض التالي وهو ان النزوح تناسب شدته طردا مع الممتلكات الكبيرة وعكسا مع الممتلكات الصغيرة .

كانت صعوبة الحصول على الارض في اوروبا ذات صبغة نادرة ، وقد دم ذلك النبل الى حد بعيد كجذب الأراضي الاثف (العذراء) المتوافرة بأسعار زهيدة او مجانا في العالم الجديد . كانت تلك الأراضي في الولايات المتحدة قوية الاغراء في القرن التاسع عشر ، حتى اذا استنزفت توزعها الايدي المهاجرة طفق المهاجرون يسمون وجوههم شطر كندا .

وكما في اوروبا كذلك كان اكتظاظ السكان الزراعيين الفقراء في آسيا داعيا لهم الى الهجرة . لقد دفع بهم البؤس الى النزوح من الصين والهندوكوريا واليابان (قبل تصنيعها) منذ منتصف القرن التاسع عشر واغرامهم بالعمل في البلاد الاجنبية حتى باجور منخفضة وسيئة الشروط فنزحوا الى المزارع النائية والمناجم المظلمة والمصانع المرهقة . أمّا آسيا نفسها فليس فيها ما يغري المزارعين بالهجرة اليها حتى لو توافرت الأراضي ، ما عدا الشطر الاسيوي من سيبيريا في الاتحاد السوفياتي . ولقد بقيت اراضي منشوريا خلافا لبقية انحاء آسيا تستلهم هجرة جاليات صينية مدة طويلة .

يدل هذا على ان توافر الأراضي وحده لا يدفع الى الهجرة على مستوى عريض . فلقد كان في الولايات المتحدة عناصر اخرى رفدت ذلك التوافر ولفتت وجوه الناس نحوها . من هذه العناصر تحرك الرواد الأوائل نحو الغرب ، وقدمه طريق اللحاق بهم صبيادو الوحوش ، والمتاجرون مع الهنود الحمر ، والمنقبون عن المعادن والفلزات وغيرها كالذهب والنفط ، والزراع الذين تركوا مزارعهم الاولى بحثاً عن مزارع اشد اتساعا في السهول الغربية . فاللاحقون من

المهاجرين كانوا ينزلون الأراضي المعبدة والمعروفة ويسكنون في مزارع مستصلحة . ثم ساعد مدد السكك الحديدية ، ونمو طرق المواصلات الأخرى ، ونشوء المدن على توسعة المجال الاقتصادي امام المحاصيل الزراعية في منافسة العالم القديم ، وفي رواجها بالأسواق الداخلية الجديدة .

اما امريكا اللاتينية فلم تجتذب الا عددا ضئيلا من المهاجرين لهدف العمل الزراعي . ولم يضرب هؤلاء في أعماق البلاد ما عدا الارجننتين على الرغم من توافر الأراضي الواسعة ، ومن تشجيع السلطات . الا ان نظم امتلاك الأراضي ووجود الضرائب جعلت من العسير الحصول على مزارع جيدة بأسعار مغرية . ثم ان التضاريس وعسر المواصلات وصعوبة المناخ وردائه وعدم التنسيق في الاستثمار الزراعي وفي خطط النمو الاقتصادي والاجتماعي حال كذلك دون استقرار المزارعين في تلك الأراضي الفصح الشاغرة كما عوِّق النفوذ الى أعماق تلك القارة .

واستراليا مثل آخر على ان توافر الأراضي وحده ليس كافيا لاجتذاب المهاجرين . فان ثلث اراضيها ظل خاليا ، لان النفقات في استغلال الأراضي وانماها اكبر من قيمتها الانتاجية ، كما ان الشقاق التي لقيها الرواد الأوائل كانت أشد منها في البلاد الأخرى .

نمو النشاط غير الزراعي . - كان نمو الصناعة والتجارة وامثالها سببا طغى في تبدل احوال الهجرة على العامل الزراعي الذي برزت أهميته في القرن التاسع عشر . بل ان ازدهار الصناعة والتجارة وغيرهما من النشاط غير الزراعي غدا الحافز الأكبر على الهجرة قبل تصرم ذلك القرن . وحصل الامر نفسه في أوروبا وكندا وأمريكا الجنوبية وزيلندة الجديدة . وهنا لا بد من تبين عامل الصناعة حين تقوم اركانها في البلاد وايضاح تأثيره الإيجابي والسلبى في تدفق النزوح .

ففي الفترة الأولى لقيام الصناعة ورواج التجارة قد بطرا تغير في النظام الاجتماعي ، وهبوط في مستوى الحياة يحملان الناس على الهجرة . تلك هي العلة فيما دعى « حُمى الهجرة » التي أصابت أوروبا في أعقاب الثورة الصناعية . فقد تضاعفت أهمية الحرف اليدوية امام الصناعة القائمة ، وعجز محترفوها عن الوصول الى بلغ معيشتهم فدفعهم الموز الى النزوح . كان بين النازحين من ألمانيا بعد منتصف القرن التاسع عشر افواج من اصحاب الحرف اليدوية والصناعات البيتية وجدوا انفسهم قاصرين عن منافسة المصانع التي كانت ترداد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي ايضا ان تقع البطالة في المراحل الأولى من قيام الصناعة عند دخول الآلات الموفرة للعمل اليدوي فيتمسك الباهل (العاطل عن العمل) سبيلا آخر بعيد الشقة وهو النزوح .

وعلى العكس قد تنمو الصناعة والتجارة وامثالهما في البلد الذي كان اقتصاده زراعيا لا يوفر لسكانه حاجاتهم ومؤمن ، فاذا بهم يتحسن مستوى حياتهم وتجزل مكاسبهم ويتصدفون عن الهجرة كما حصل لدى دول أوروبا الشمالية والغربية في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . فقد شوّلت الهجرة منها على حين تدفقت من شرقي أوروبا وجنوبها ومن الشرق الاوسط الى العالم الجديد ، وكان هذا التدفق معينا على تصريف سلع تلك البلاد الشمالية والغربية وعلى زيادة ازدهارها . وغدت مدنهما الكبيرة تمتص اهل الأرياف من مناطقها الزراعية . لقد كانت ألمانيا تصدر المهاجرين الى العالم الجديد ، فلما تقدمت الصناعة فيها ابان الربع الأخير من القرن التاسع عشر غدت موردا سائغا لهم من أنحاء أوروبا .

اما في بريطانيا فلم ينقلب تيار الهجرة فيها ، ولكنه تضاعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي الوقت نفسه كثر المهاجرون اليها من ايرلندا . وكذلك كان ازدهار الصناعة في روسيا ، وقد تاخر بعض الوقت ، سببا في اجتذاب المهاجرين اليها من البلاد المجاورة . ومثله حدث في اليابان : كان النازحون يتدفقون منها عن طريق التعاقد مع الشركات الاجنبية . فلما تقدمت الصناعة بعد الحرب العالمية الاولى فيها جناح الكوربيون للعمل في مصانعها الفتية الناشئة التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومع ذلك بقيت اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين مصدرا للهجرة من ميدان الزراعة وغيره . وربما كان ذلك بدوافع غير اقتصادية كما سوف نشير الى ذلك في موضعه .

اما الانظار التي تستقبل المهاجرين فقد كان اتساع المدن ونشاط الصناعة فيها السبب في اجتذاب الناس ، ولا سيما في العقدين او العقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين . لقد سجل اعلى معدل للهجرة الى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية مباشرة حين ازدهرت الصناعة والتجارة جدا فيها . بل قبل ذلك الوقت بدهلا بأس كان المهاجرون الى الولايات المتحدة يمتصهم مراكزها الصناعية اكثر من الاراضي الزراعية . والامر على هذا النحو في كندا وامريكا الجنوبية وافريقية الجنوبية واستراليا وزيلندة الجديدة حيث يستقر المهاجرون في المدن ، تفريهم فرص العمل وارتفاع الاجور اكثر من الاراضي الشافرة . ويبدو مدى تحكم النشاط الصناعي والتجاري في تيار الهجرة حين تدرس العلاقة بين التحولات السنوية لحجم الهجرة ومراحل دورة التجارة في البلاد المقصودة .

وقد لوحظ اخيرا ان هذه البلاد دخلت في طور جديد قل فيه اجتذابها للمهاجرين . فقد اصبحوا يجدون عقبات يعسر تدليلها في الاقامة وفي مباشرة العمل على حسابهم ، اذ غدت رؤوس الاموال اللازمة جسيمة لا قبيل لاكثرهم بها ، ولا سيما ان طائفة كبيرة من المشروعات التي نشأت لا يستطيع المراء ان يمول امثالها وحده . فالذي ينوي الهجرة يجد نفسه امام احد حلين : ان يفدو فردا من افراد الطبقة الكادحة اما فيما وراء البحار او في بلد قريب من مسقط رأسه . فهو يؤثر الحل الثاني وان كان مستوى حياته يبقى ادنى منه في الاول . وقد برز من هذا التحليل سبب تمهل الهجرة العالمية في اوائل القرن العشرين ، ذلك ان المناطق الجديدة غدا عدد سكانها كثيفا فقلت فرص العمل فيها .

تقديم وسائل النقل - كان نداء الهجرة قويا حتى تغلب على مشقات السفر وعوائقه ونفقاته ولما تحسنت وسائل النقل والمواصلات حين تقدمت الصناعة والتجارة ذلت تلك العقبات المختلفة .

كان عبور المحيط شاقا وخطرا ، وكان السفر البري البعيد مسيرا وباهظ التكاليف حتى منتصف القرن التاسع عشر . كان يستغرق السفر في القرن السابع عشر من فرنسا الى كندا نحو ما شهرين ، وكان معدل الوفيات في الطريق يصل الى ٤٠ او خمسين في المائة ، ثم صار الطريق حوالى سنة ١٨٥٠ يستنزف شهرا ونصف الشهر . ثم نقصت المدة الى اسبوع سنة ١٩٣٩ وبهبط معدل الوفيات الى الصفر تقريبا . كان الرحيل بالراكب الشراعية شائعا قبل سنة ١٨٥٠ ، ولم يكد يعمل عام ١٨٧٣ حتى غدا ٩٦ في المائة من المسافرين يعطون البواخر . كما ان التنافس بين شركات الملاحة وتطبيقها التنظيمات العامة خفضت النفقات وقلت الاخطار .

كذلك ساعد ذبوع السكك الحديدية على تسير الأسفار ، فشقت السكك البلاد من دانيها الى قاصيها وأمانت على استغلال البقاع النائية ، كما حصل ذلك في الولايات المتحدة . ثم شقت النرع فكان لها قسط في تدفق تيارات جديدة من الهجرة ، كثره السويس وترعة باناما اذ فتحتا سبلا حديثة للتجارة . حتى الملاحة النهرية لم تعدم اثرا في تلك التيارات .

العوامل الاقتصادية التي تؤثر في معدلات الهجرة السنوية : - تناولت بعض البحوث تفاوت معدل الهجرة العالمية تبعاً لتفاوت المواسم الزراعية ولمراحل دورات التجارة . في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان عدد المهاجرين الذين يغادرون أوروبا تابعاً للموسم الزراعي . وهنا تقدم إيرلندا إلى الأمتة وأشهرها على تأثر القحط . لقد ازداد سكانها في غضون القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم وقف الازدياد بحلول سنين عجاف بعد صامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ولا سيما بين ١٨٤٥ و ١٨٤٧ حين اجتاحت القحط موسم البطاطا ، وهي غلة يعتمد عليها الناس في اقواتهم فابتعث تيارا كثيفا من النازحين . لقد اعتبر الباحثون المجاعة التي ألمت عام ١٨٤٧ السبب الرئيسي لدفقات المهاجرين التي شرعت تحمل كل سنة مائتي الف مهاجر إيرلندي في غضون السنين الثماني التي تلت ذلك العام . انها عجلت هجرة لا بل لها من ان تقع أجلا لأسباب أخرى هي اتساع الصناعة في بريطانيا وفي الولايات المتحدة وازدهار الاقتصاد فيها على حين كان مستوى المعيشة في إيرلندا منخفضا جدا والفلاح قليل الارتباط بالأرض لسوء الملكية . وقد تغيرت الظروف في السنوات الأولى من بداية النصف الثاني في القرن التاسع عشر ، فتحصنت الأحوال الاقتصادية في إيرلندا ، ومع ذلك استمرت الهجرة لا هربا من بؤس اسود ، بل ابتغاء لمعيشة كريمة فضلى .

تلك المجاعة لم تؤثر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في إيرلندا وحدها بل تجاوزتها الى بريطانيا ، كذلك كانت الهجرة من ألمانيا الى ما وراء البحار مرتبطة باضطراب الموسم . ولكن الارتباط خف ووهى بعد عام ١٨٥٠ حين تقدمت الصناعة فيها .

درس الباحثون أيضا الهجرة من السويد بين سنة ١٨٥٠ و ١٩١٠ فبدت لهم منوطة بالموسم الزراعي السنوي في أول هذه الفترة ثم ضعفت علاقتها به بعد عام ١٨٧٠ على حين ان التقلبات الدورية للاقتصاد الأمريكي بدت ذات اثر عميق فيها . وأيا كان الأمر فان العوامل الزراعية اذا شؤل اثرها في معدل الهجرة السنوى فهي لا تعدم اثرا اiban حقبة طويلة من الزمان .

جيمروم من اشهر الباحثين الذين درسوا تأثير التجارة في الهجرات الدولية . وقد تناولت دراسته الهجرة الى الولايات المتحدة خاصة في نصف القرن الذى سبق اعلان قانون ضبط الهجرة (اى الفترة بين ١٨٧٠ و ١٩٢٣ تقريبا) ، مع ان المؤلف يرجع حيناً الى اقدم من ذلك ، او يقتصر حيناً آخر على المعلومات التي تتعلق بالفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . وقد استند في دورات التجارة الى قرينه تتعلق باحصاءات وظائف العمل ، وبالملعبيات غير المباشرة من العمل ولا سيما ارقام الانتاج والأسعار والاستيراد ، فوجد ان مراحل الازدهار الاقتصادي كان يوازيها او يعقبها دفق اكبر من تيار الهجرة ، وان الازمات الاقتصادية قللت عدد المهاجرين دون ان توقف تماما ذلك السيل بحيث ان الوافدين لم ينقصوا قط عن النازحين خلال الفترة التي استوعبتها الدراسة .

ولم يقتصر جيروم على تأمل آثار دورات التجارة في الهجرة الى الولايات المتحدة بل انتبه للاوضاع الاقتصادية في البلاد الأصلية التي يغادرها المهاجرون كبريطانيا والمانيا واطاليا فرأى ان الحال الاقتصادية في الولايات المتحدة هي صاحبة التأثير الأوفر على وجه العموم . ان دورات التجارة بالبلاد الأصلية كانت متسابة في التقدم أو التأخر لأمثالها بالولايات المتحدة في اغلب الاوقات . فاذا ازدهرت الاحوال الاقتصادية في تلك البلاد جميعا زادت الهجرة الى الولايات المتحدة، وإذا شحنت فيها جميعا نقصت وضوئت. وإذا اتفق ان تفاوت الازدهار والشح بين تلك البلاد تبع تيار الهجرة حال الولايات المتحدة في الانساع أو الضيق وفي الرخاء أو الشدة . اما الهجرة من بريطانيا والمانيا واطاليا الى غير الولايات المتحدة فلا يوازي الخط البياني لها خط الهجرة الى الولايات المتحدة . ومن أجل ذلك يفتي جيروم الى هذه الخلاصة : وهي ان حركات الهجرة لا تتبع بالضرورة دالما الوضع الاقتصادي في المكان الأصلي ولا في المكان المقصود . وإنما تتعلق أهمية تيار الهجرة السنوي في ايان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة « النداء » الآتي من البلد المقصود أكثر منها بعامل الضيق في البلد الأصلي .

هذا ، ومع صحة تلك الدراسة على التقلبات السنوية ، اى في المدى القريب ، لا يمكن انكار آثار العوامل الاقتصادية في المدى البعيد .

ولقد قام باحثون آخرون بدراسات على الهجرة فكانت نتائجهم قريبة بعض الشيء من نتائج جيروم . درس ونسجيوس الهجرة الإيطالية الى الولايات المتحدة والى فرنسا والأرجنتين في فترة السنين ١٨٨٨ و ١٩١٣ ، فوجد ان تقلبات دورات التجارة في البلاد المقصودة كان لها أثر حاسم في سعة حركات الهجرة ولا سيما في النصف الثاني من الفترة المدروسة ، وذلك سواء ازات تلك التقلبات اشباهها في البلاد الأصلية أو لم توازها . وكذلك جرت بحوث على الهجرة من السويد فظهر ان تيار الهجرة هذه كان تابعاً للاوضاع الاقتصادية في الولايات المتحدة لا للاوضاع الاقتصادية في السويد . والنتيجة نفسها وجدت بالنسبة للهجرة من فرنسا الى الولايات المتحدة وان بدا لها الارتباط بعض الشيء بالوضع الاقتصادي في فرنسا بين ١٨٨٥ و ١٩١٤ ، فان المهاجرين لم يخرجوا من بلادهم ضيقاً بها ، وإنما خرجوا التماساً لتحسين احوال معيشتهم وإنما دخلهم . وهكذا كان الازدهار الاقتصادي في البلد المقصود حافظاً لهم على ركوب متن الهجرة .

يبد ان دراسات أخرى ابانت ان المهاجرين يهاجر الى امريكا الا حين يستطيع ان يدرج نفقات سفره اليها . وهذا يستلزم شيئاً من تحسين الاحوال في البلد الأصلي لكي يتبعها جميع تلك النفقات . فالهجرة مثلاً من ايطاليا الى امريكا اشتدت حين تحسنت الاحوال الاقتصادية في ايطاليا ، وضعت حين ساءت فيها وهذا كله يدل على ان ثمة وراء العامل الاقتصادي عوامل أخرى تستلهم الكشوف والتحليل .

ب - العوامل الديمغرافية

لنعم السكان الطبيعي اثر مباشر في العوامل الاقتصادية التي تتحكم الى مدى معين في تيارات الهجرة العالية ، وقد سبقنا الإشارة اليه عرضاً. فزيادة السكان الزراعيين تساعد على استغلال الأراضي واتساعها ، أو على العكس قد تفضي الى قلة الأراضي وضيقها وعدم توافرها . كذلك

تقدم القطاع التجارى والصناعى لا يعدم أثرا فى الهجرة من البلاد أو إليها ، وهو متعلق ببعض الشيء بالارتباط الواقع بين مدى الازدهار والاقتصادى ومعدل نمو السكان .

إن الناس حين يجمعون أمرهم على الهجرة أو يؤثرون البقاء فى بلادهم لا يفكرون فى العوامل الديمغرافية ، ولكنهم ربما كانوا خاضعين فى حلهم وترحالهم لها بعض الخضوع . بيد أن من الخطأ مجرد القول أن ارتفاع النمو الطبيعى للسكان يستدعى بالضرورة هجرة من البلاد ، وأن انخفاضه (معهمهم وزيادة الوفيات بينهم) يستدعى الهجرة إليها . نعى بذلك أن العلاقة بين الهجرة ومعدل النمو أو غيره من القرائن الديمغرافية ليست ضرورية حتمية ، بل هي احتمالية ، على خلاف بعض البحوث التي نوهت بعلاقة دقيقة بينها فى أزمنة وامكنة مختلفة . فقد زعم بعضهم أن شدة الهجرة فى كثير من البلاد الأوروبية فى الفترة بين ١٨٥٠ و ١٩٣٠ تبعت ارتفاع نمو سكانها الطبيعى الذى سبق الهجرة بنحو عشرين سنة ، وأن الهجرة من أوروبا الشمالية والغربية والوسطى لما قلت حوالى نهاية القرن التاسع عشر وناب عنها تدفق الهجرة من أوروبا الجنوبية والشرقية كان السبب فى ذلك انخفاض نمو السكان فى البلاد الأولى لا تقدم الصناعة والتجارة ، بل فى بعض الأحيان زادت الهجرة إليها على الهجرة منها لتناقص النسل . وقد غدت فرنسا على وجه الخصوص مقصدا يقصده المهاجرون لانخفاض معدل المواليد فيها أبان عشرات السنين .

على أنه قد تؤثر العوامل الديمغرافية تأثيرا عميقا فى سياسة الهجرة . ذلك أن البلاد التي تخشى نقصا فى سكانها تشجع الهجرة إليها حين يكون النقص خسارة لها فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، بل فى ميدان الأمن القومى أيضا . وفى مقابل ذلك قد يكون معدل النمو الطبيعى عاليا فى بلد ما والكثافة كبيرة فيه فتشجع حكومته الهجرة منه . بيد أننا قد نجد أحوالا أخرى تشجع الحكومات فيها الهجرة إلى البلاد مع ارتفاع معدل النمو متى كان الاقتصاد قليل الازدهار والأراضي وفيرة والثروات كثيرة . ذلك أن الهجرة ليست وحدها الوسيلة لزيادة الناس . فقد يشجع الزواج وتكاثر الأسر لاتساع ذريتها وهلم جرا ، ولكن الهجرة لها مزية وهي أنها أسرع فى زيادة السكان ، ثم يمكن بها اصطفاء المهاجرين بالنظر إلى السن والذكورة والانوثة ، فيؤاد فى العناصر الفنية والعاملة والذكور بالنسبة للشيوخ والعجزة وغير المنتجين والاناث .

ولقد كانت سياسة الهجرة التي تقصد إلى أهداف الديمغرافية موضع نقاش فى كثير من البلدان . فقد درست لجنة السكان الملكية فى بريطانيا قضية الهجرة إليها لترقد بها معدل النمو الطبيعى القليل الارتفاع . ومهدت فرنسا إلى فتح أبواب الهجرة لتتلافى تناقص سكانها الكامن وتقلل نسب الشيوخ وغير المنتجين . وقررت استراليا منذ حين أن تتلقى من المهاجرين نحوًا من سبعين الفا كل سنة لتزيد سكانها بمعدل واحد بالمائة ينضم إلى معدل النمو الطبيعى الذى هو أيضا واحد بالمائة .

وربما جاز فى البلاد التي يكون نمو سكانها الطبيعى مرتفعا أن تفتح باب الهجرة إليها : هجرة اصطفاية تختار فيها الشبان العاملين لتخفيف أعباء العميلة أو الاعالة التي تمثلها كثرة الاولاد فى البلاد فتزيد بأولئك الشبان قوة العمالة فيها . كذلك يمكن تشجيع الهجرة ليجاد التوازن بين

النساء والرجال ، فان استراليا بعد الحرب العالمية أعادت التوازن بين الجنسين بادخال انواع من المهاجرين عدد الذكور فيهم ضعفا عدداً اناث . وقد تنقلب هذه الاعتبارات فتشجع الحكومات الهجرة من البلاد . وكل ذلك لا يمكن ان يفصل تماماً عن العوامل الاجتماعية والثقافية

ج - العوامل الاجتماعية

كل امرئ لا بد من ان ينتسب الى شعب وان يكون له اهلون واصدقاء في وطنه يتكلم معهم بلغته . انه قد امتد ثقافة بلاده وتمرس بالنظم السياسية والادارية والعلاقات الاجتماعية فيها . وهذه كلها عقبات تترس في سبيل هجرته . ربما كانت تلك العقبات قوية في الماضي . فقلما كان المرء ينهض للتكثيف في الهجرة من دولة الى اخرى تحسيناً لمعيشته ، ولكنها ضعفت في العصر الحاضر ، ومع ذلك فما زالت قائمة شائعة . بالاستناد الى مدى مقاومتها حاول بعض الباحثين ان يفسروا هجرة البريطانيين الى ربوع الكومنولث المتعددة . فاللغة والعادات تيسر نجتهم كما تيسر نجعة الاسبان والبرتغاليين نحو امريكا اللاتينية ، والاييرلنديين نحو الولايات المتحدة .

ومن العوامل الميسرة للسفر ايضاً سهولة المواصلات والالام باحوال البلاد المقصودة ، كما ان الجبل بتلك الأحوال وصعوبة المواصلات من عوائق الهجرة . ومتى نشأ تيار من الهجرة بين بلدين ازدادت المعلومات عن البلد المقصود واشتد ذلك التيار بالتدريج ولا سيما اذا نجح المهاجرون الأوائل في أعمالهم ، فان نجاحهم هذا يحفز اقرباءهم واصدقائهم على اللحاق بهم . وربما بعث اولئك الى اهلهم بعون مادي يساعدهم على الهجرة . فقد جرت العادة في ايرلندة اذا هاجر قتي أو فتية منها الى العالم الجديد وفرأ نصيباً من المال لنفقات هجرة الباقي من الاسرة ولاعداد اقامتهم الجديدة . ويقدر عدد الذين هاجروا بهذا العون المادي من ايرلندة الى الولايات المتحدة بنسبة ٧٠ في المائة . في مقابل ذلك نجد من عوائق الهجرة في العصر الحاضر قيام الضمان الاجتماعي وتأمين مختلف الخدمات الاجتماعية في البلاد المتقدمة . فهذه الامور من شأنها ان تدرا عن السكان اشباح الضيق وتخفف عنهم اعباء العيال لتمسكهم باوطانهم . كذلك تأمين العامل من طوارئ العمل ومن المرض ومن البطالة يجعله شديد التعلق ببلده ، وخصوصاً اذا لم يتوافر له مثل ذلك في البلد المقصود البتة او لا يتوافر الا بعد انقراط سنين معدودة . فالتشريع الطيب لصالح السكان وصالح العمال قد يعترض في سبيل الهجرة او يحول وجهتها . عمدت بعض البلدان الى عقد اتفاقيات بينها وبين بلدان اخرى يكون بحسبها العمال المهاجرين حقوق متساوية في الضمان الاجتماعي لدى كليهما كما جرى بين المملكة المتحدة من جهة واستراليا وزيلندة الجديدة من جهة ثانية : واقامت البلاد الاسكندنافية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية « سوقاً مشتركة للعمل » .

ربما يكون لبعض الشركات او الهيئات الاهلية او للبلاد نفسها مصالح في تشجيع الهجرة من البلاد او اليها ، كاتحاد ارباب العمل وشركات النقل واتحاد العمال وجمعيات الخير والاحسان وامثالها . وقد تبوأ هذا التشجيع مكانة كبيرة في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابان الهجرة الى العالم الجديد .

لقد حفزت شركات السكك الحديدية في الولايات المتحدة الناس على عمارة الاراضي التي على جانب السكك حين انتقلت ملكيتها اليها ، وذلك بالدعاية الواسعة وتخفيض اجور السفر

وانشاء مكاتب لاستقبال المهاجرين ومساعدتهم وتيسير دفع الثمن تلك الأراضي . وكذلك كان لشركات الملاحة في اواخر القرن التاسع عشر اثر كبير في تنظيم الهجرة الى العالم الجديد وفي تيسيرها ، حين كانت تنشر المعلومات الوافية عن سبيل العمل وتبحث عن الأبدى العاملة وتعين على تمويلها في السفر . ثم منعت حكومات البلاد التي تصدر العمال مثل ذلك النشاط على تلك الشركات التي لم تكن تضع نصب آمينها مصالح العمال انفسهم .

اما ارباب العمل فكانوا بطبيعة الحال يشجعون على الهجرة الى بلادهم الأبدى العاملة المتوافرة الرخيصة والاختصاصية . ينبغي ان ننوه هنا بتلك الأبدى النشيطة التي هاجرت من الصين واليابان والهند الى بعض القارات ولا سيما العالم الجديد إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . فكانت نفقات السفر والإقامة يدفعها ارباب العمل على أن يعمل أولئك المهاجرون عندهم عددا من السنين يتفقون معهم عليه .

ثم رأت الحكومات عدم مشروعية تلك العقود فمنعتها ، بل حرم بعضها على ارباب العمل أن يأتوا بعمال من خارج البلاد .

ذكرنا آنفا ان اتحاد العمال او نقاباتهم قد تشجع على الهجرة . هذا ما حدث في بريطانيا حين سمحت نقابات العمال في الصناعات الأساسية الى انشاء صندوق خاص لمعونة العمال المنتسبين اليها عند هجرتهم وذلك في سنوات البطالة والاضراب ، وان عجزت في بعض الأحيان عن رفدهم بالمال . ولما توطدت مراكز تلك النقابات في المضمار الاقتصادي والسياسي صدقت عن تشجيع الهجرة .

لا يخفى ان سياسات الحكومات نحو الهجرة من البلاد او اليها ذات آثار كبيرة في تلك الحركات . وذلك بما تضعه من تشريع يشجع عليها او يحصرها او يمنعها .

وربما كان من المناسب أن نذكر في هذا السياق بعض الأمثلة . لقد خصصت حكومات بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر مبالغ مناسبة للبحث على هجرة الفقراء منها تخفيفا للضغط الديمغرافي فيها ، وتقوية لعلاقات الإمبراطورية بمستعمراتها . فقد سهلت السلطات المسؤولة اذ ذاك في الفترة بين ١٨٤٧ - ١٨٦٩ نزوح ٣٣٩ ألف مهاجر الى استراليا وإلى مناطق أخرى من الإمبراطورية . وكذلك يرث بعد الحرب العالمية الأولى بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣١ مفادرة أربع مائة ألف شخص الى الدومينيون .

وشجعت إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية الهجرة منها ، فمنحت الشركات الإيطالية بعض العون حين يكون لها مشروعات في خارج إيطاليا يستطيع ان تستعمل فيها عمالا إيطاليايين .

وكذلك فعلت حكومة اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين فدفعت بالمهاجرين من ابنائها الى امريكا الجنوبية وإلى منشوريا . وكان من أهدافها تخفيف اكتظاظ الزراعيين على أراضيها من جهة ، والتوثقة لسيطرتها الاقتصادية والعسكرية في الشرق الأقصى . ويسجل التاريخ في أطواله قديما وحديثا محاولات متعددة من هذا النوع الاستعماري .

وأحيانا يحدث العكس . وهو ان البلاد تضيق على الهجرة منها . وهذا ما حصل في أوروبا خلال القرن الثامن عشر ، وفي الصين من سنة ١٧١٨ الى سنة ١٨٦٠ ، وفي اليابان لم يسمع بالهجرة الا منذ عام ١٨٦٥ . وقد عقدت اليابان مع الولايات المتحدة اتفاقية بموجبها لزم خفض عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وماجاورها من المناطق . وفرضت الهند قيودا على العمال من ابنائها صونا لهم كيلا يتعاقدوا مع شركات أجنبية ، ثم منعت هجرتهم عن طريق التعاقد منذ سنة ١٩٠٢ . وأحاطت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية نفسيهما بسياس من التدابير قتل الهجرة منهما . ومن المعلوم ان الاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية تمنع الهجرة منها حماية لرعاياها وتفهما انسانيًا للعدالة الاجتماعية .

وسنرى مثل ما سبق تقريبا حين نتأمل أسباب الهجرة الداخلية .



اسباب الهجرة الداخلية

تكاد تكون الاسباب التي تحفز على الهجرة من بقعة الى أخرى في داخل البلاد معادلة للأسباب التي تحفز على الهجرة الخارجية . فحيثما توافرت أسباب العمل وتيسرت سبل الوظائف وارتفعت الأجور والرواتب وازدهرت المرافق الاقتصادية وجادت غلات الأراضي زراعية او معدنية او نفطية اشتدت النجبة اليها . وكذلك اذا تفاوت معدل النمو الطبيعي ، الذي هو الفرق بين معدلي المواليد والوفيات من منطقة الى أخرى في البلاد ، فقد يستدعي هذا التفاوت تيارا داخليا للهجرة من المنطقة التي فيها معدل النمو الطبيعي مرتفع الى المنطقة الاخرى . ولما كانت البلاد واحدة يسودها نظام تشريعي وسياسي واحد وتفمرها ثقافة واحدة تقريبا سؤل عامل الثقافة والسياسة والتشريع في هذا المجال عنه في مجال الهجرة الخارجية .

بيد ان ثمة ضربا من الهجرة الداخلية ذامكانة بارزة في المجتمعات . وهو الهجرة الريفية الى المدن . انها تتبع درجة تقدم الصناعة وتغير الثقافة وتبدل نمط المعيشة ، وهذه كلها من خصائص التطور الاجتماعي الحديث في مختلف بقاع الدنيا . ولهذا تعالج هنا على وجه الخصوص هذه الهجرة الريفية ولا سيما انها تؤول غالبية الهجرة الداخلية . ونجرب على النسق السلي سلف في الشطر الألف فلم بالعوامل الاقتصادية أولا ، والديمقراطية ثانيا ، والثقافية والاجتماعية ثالثا ثم نشير الى اثر العوامل الجغرافية ولاسيما المسافات التي تفصل بين المناطق التي ينتابها تيار الهجرة من جهة الى أخرى .

١ - العوامل الاقتصادية :

لا شك ان تيار الهجرة الداخلية يخضع للآثار الاقتصادية كما في الهجرة من دولة الى أخرى . بل يبرز هذا الخضوع اشد وامق لان الحواجز التي تحول دون الانتقال من منطقة الى أخرى في الدولة الواحدة هنا ضئيلة وضعيفة من اليسر التغلب عليها ان وجدت . ولتيسير البحث نصنف العوامل الاقتصادية لثلاثة أصناف ١ - سناذة ٢ - جاذبة ٣ - عامة .

١ - **العوامل النابذة** - تتعلق على الغالب بالزراعة ، وتصدر عن نظام التملك للأراضي . فإذا كان في المنطقة ملاكون كبار ومعال زراعيون يكدحون ولا ينالون إلا الزهيد من الأجر أغرتهم الهجرة إلى المدن للعمل فيها حيث يكون كسبهم أعلى . على أنه قد تحدث هجرة ريفية في مناطق يملك جزءا كبيرا من الأرض مزارعون صغار . بل قد تحدث أيضا حين تكون الأراضي بأيدي ملاكين صغار مستقلين ، سجلت ذلك بعوث المسح المعدة في هذا الشأن . ويرى بعض الباحثين أن من عوامل الهجرة هذه قوانين الميراث التي تمنع تجزئة الأراضي ، فتحمل الشبان على مغادرة قراهم إلى المدينة التماسا للعمل والرزق . على أنه قد تكون تجزئة الأراضي في المقابل أجزاء صغيرة جدا يعجز ريع استثمارها لصفرها عن سد حاجات الأسرة دافعة إلى انتجاع المدن .

لقد تحسنت وسائل الزراعة واشتد اعتمادها على الآلات في البلاد المتقدمة ، فقلل ذلك من الحاجة إلى الأيدي العاملة في استغلال الأراضي . فمن الطبيعي أن يهاجر الفائض من تلك الأيدي العاملة إلى المدن . كانت الزراعة في الماضي وسيلة لدى الزارع للحصول على بلوغ معاشهم وحاجات أسرهم . ولكنها تطورت مع الزمن فأصبحت سبيلا للتجارة والربح . وغدا الزارع المتصل بالأرض يحسب حسابيه وينظر في الربح المادي الذي يكسبه من العمل في الأرض واستغلالها . فهو يرتبط بالأرض عن طريق ذلك الربح . فان نقص بعد كل حساب مما يمكن أن يكسبه من المال في المدينة حفزه حب المال على ترك أرضه وأهملها .

ويرى بعض الباحثين أن النظام الرأسمالي مسؤول عن تلك الهجرة ، لأن من شأنه أن يضعف الطلب على الأيدي العاملة الزراعية ويزيد من طلب الأيدي العاملة الصناعية . وهكذا يتكون فيض من الأيدي العاملة الزراعية في الأرياف تعيش في الضيق والقلة ، فهي تنزع نحو المدن .

توجد هذه الهجرة في البلاد الاشتراكية . ولكن ظروفها تختلف عما سبق . ذلك أن مردود العمل الزراعي في المزارع الجماعية حكومية أو أهلية يكون عاليا . فالعدد الفائض من الأيدي العاملة يواجه أما نحو أراض جديدة تستغل وتستثمر ، أو نحو مراكز صناعية . ويتم هذا التوجيه المنسق بإشراف الدولة حرصا منها على مصالح رعاياها وتلافيا للآلام أو العنت الذي قد يعترض المهاجرين المغتربين .

وليس من الضروري أن تكون المناطق الفقيرة جدا هي التي يركب أبناؤها متون الهجرة إلى المدن . فقد يهاجر من المزارعين من غلاتهم مرتفعة نسبيا ولكنهم يأملون في هجرتهم أن يجدوا أحوالا أفضل وأنسب لهم مما هم فيه . وقد تكون تلك الآمال أكثر مساورة لنفوس المزارعين أولي الغلال الحسنة منها لنفوس أولئك الذين سد الفقر عليهم نوافذها ومسارها .

وقد تجري الهجرة بين مناطق ريفية متفاوتة في الخصب والغلال بالبلد نفسه . فتكون الشروط الحسنة المتوافرة للزراعة ذات شأن كبير في اجتذاب الريفيين من مناطقهم التي تضيق بهم ويضيقون بها . ولقد كان هذا الأمر في الأزمنة الحديثة ذا مكانة عالية في تطور بعض البلدان كما سبقت الإشارة إليه .

٢ - **العوامل الجاذبة** . . تنوافر وظائف العمل في المناطق الصناعية ، وتتكاثر أسرع من

امثالها في المناطق الزراعية . وكلما ارتفع دخل المراء اشتد طلبه للسلع المصنوعة والخدمات المتهيشة في المدينة . وقد ادى تنظيم الفسلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادي التابع لها من القرى الى المدن ، كالتهيشة النهائية لمشتقات الالبان وتحضير اللحوم وحفظها . وهكذا تكثر سبل الموارد الاقتصادية في المدن . ثم ان نمو السكان الطبيعي في المدن اضعف عادة منه في الارياف . وهكذا يتم بطبيعة الامور انجذاب طائفة من الريفيين الى المراكز المدنية ، والى الوظائف غير الزراعية فيها بصرف النظر عن تفاوت الاجور واختلاف مستوى المعيشة .

نكفي ان انضم الى تلك الامور ان مستوى المعيشة والاجور في المدن اعلى منها في الارياف . بل ان وظائف العمل فيها اكثر انتظاما وربما كانت اشد ثباتا ؟ !

ويذكر بعض الباحثين مثالا على عرض وظائف العمل واهميتها في اجتذاب الناس حكاية قديمة بعض الشيء وهي مدينة زلين Zlin في تشيكوسلوفاكيا انشيء فيها مصنع للاحذية فلما بدأ المصنع يتسع طفت المدينة الصغيرة التي لم يكن عدد سكانها يزيد سنة ١٩٢٤ على ٥٠٠ نسمة تجتذب اليها سكان المزارع المجاورة حتى بلغ عدد سكانها سنة ١٩٣١ ثلاثين الفا .

٣ - العوامل الاقتصادية العامة - ظاهرة الهجرة الى المدن او منها مرتبطة بالظروف الاقتصادية ارتباطا وثيقا . فاذا ازدهرت تلك الظروف احتاجت الاماكن الصناعية الى مزيد من الايدي العاملة التي تأتي في الغالب من الريف . فالريف بهذا الاعتبار ذخر الايدي العاملة . واذا ساءت الظروف توقفت الهجرة الريفية او ضعفت وحلت البطالة . بل قد ينقلب تيار الهجرة فيحمل بعض الذين لا عمل لهم في المدينة الى الريف .

الواقع اكثر اشتباها مما سلف ذكره . ذلك ان تيار الهجرة ذو اتجاهين في وقت واحد . تشتد الهجرة من الريف عند ازدهار الظروف الاقتصادية في المدن ، كما تقدم . ولكن في الوقت نفسه يهاجر من المدن الى الريف بعض قدماء المهاجرين ، يؤوبون الى مسقط رؤوسهم لدى بزوغ النشاط الاقتصادي في تلك القرى ، اولانهم لم يجدوا عملا قابوا الى اهلهم ، او هم قد اجمعوا امرهم على الهجرة نحو مدينة اخرى . يضعف هذا التيار في اتجاهيه حين تحل الازمات ، فلا تتوافر وظائف العمل كما لا يتوافر المال لتأمين السفر . ثم ان بعض الدول تمنع هونا ماليا للذين لا عمل لهم ، فهم يمكنون حيث يقبضون ذلك العون .

ان تكاليف السفر ونوع المواصلات عاملان مهمان في تيسير الهجرة او تعويقها . ولكن الازمنة الحديثة من خصائصها البازرة ان وسائل المواصلات على تفاوتها قد تقدمت تقدما كبيرا من سيارات وقطر تدرج جوارب الارض او بوخترجوب البحار والانهار او طائرات كالنسر تجوز الافاق . وكل ذلك من شأنه ان ييسر الهجرة بانواعها .

ب - العوامل الديمغرافية

بصرف النظر عن التفاوت في ازدهار الاقتصاد نجد ان العوامل الديمغرافية نفسها لا تعدم أثرا في توجيه تيار الهجرة وذلك بسبب الاختلاف في معدل نمو السكان بين مناطق البلاد .

من المعلوم أن معدل المواليد في الارياف أعلى منه في المدن ، وينجم عن ذلك أن معدل النمو في الأولى أكبر منه في الثانية على الرغم من أن معدل الوفيات في القرى أكبر منه في المدن . هذا ما هو حاصل في الوقت الحاضر . ذلك أن معدل الوفيات قديما ربما كان في القرى اضعف منه في المدن لأمدة قريب . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فأصبح في المدن أقل منه في الارياف لأعمار معينة .

لقد تغيرت أحوال المدن في العصر الحاضر عنها في الغابر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرت المياه النقية إلى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف، كما انتشرت النظافة، وأشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من أغذية وملابس ومسكن ، إلا أنه ما يزال في المدن مجال للتحسين في أحوال المصانع ولهاثائها الداكن المزدحم ، وفي محروقات مطايا المواصلات كالسيارات والشاحنات وأمثالها ، وما يزال الدخان والفجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن . ومع ذلك تتوافر السيطرة فيها على العلل الحادة والأمراض المعدية فمعالجتها الحسنة أسهل منها في الريف .

ثم إن الصحة لا تتعلق بالأجر ولا بالملاطولا بالخدمة الصحية بل تتعلق أيضا بعادات الناس وهي التي تتحكم فيها التربة والدكاء ، وتتعلق بالغذاء وبمستوى المعيشة ، وترتبط بمقدار الدخل ولو أن هذا الارتباط اخلت تخفف منه قوانين تأمين الطب والضمان الاجتماعي .

أرياف معدل الوفيات نسبيا في الريف يعزل بعض الشيء من معدل المواليد المرتفع أيضا فيه ، ولكنه يبقى على ارتفاع معدل النمو السنوي للسكان في القرية بحيث تكون الزيادة أكبر على وجه العموم في الريف . تلك الزيادة لا بد لها من أن تغدو المدن القليلة المواليد نسبيا . هذا ما حصل في مدن أوروبا الصناعية الكبيرة من أمثال باريس ولندن وبروكسل وفيينا وبرلين وغيرها .

ثم هنالك عوامل ديمغرافية أخرى تؤثر في الهجرة الداخلية كالزواج ، بأن يكون الزوجان المتحابان مقيمين في بلدين مختلفين . يذكر الباحثون أن العادات في بعض قرى الهند تفرض على أهل القرية أن يتزوج ابنها وبنتها من أهالي قرية أخرى . وبسبب هذه العادات ينجم جزء لا بأس به من الهجرة الداخلية عن عقود الزواج .

هذا وفي المدن الشرقية الكبيرة أكثر المهاجرين إليها من الذكور الشباب على حين تحمل الهجرة من الارياف في شمالي أوروبا كالسويد ومثلا الفتيات اللاتي يضيقن ذرعا بريهن إلى استكلم وإسلا وفوتبرغ وأمثالها للعمل فيها إلى حد أن هذه الهجرة الانثوية الداخلية تؤدي إلى إزيمات في زواج الذكور الريفيين الذين بقوا متصلين بأراضيهم الزراعية حيث يفوق عددهم عدد الإناث .

ج - العوامل الثقافية والاجتماعية

ليست الهجرة الريفية إلى المدن مترتبة على توافر وظائف العمل وحده . بل هي منوطة إلى جانب ذلك بإطلاع المهاجرين على ذلك التوافر ووجوهه . فقد تكون قلة اطلاع الناس في منطقة على أحوال منطقة أخرى في بلد متسع حائلة بعض الشيء دون الهجرة . وكذلك تكون

حائلة دونها شدة الروابط في الأسرة او بين ابناء القرية كلها . بيد انه قد انتشر التعليم وذاقت الثقافة وسهلت المواصلات واشتد اختلاط الناس بين مختلف المناطق في المجتمع الواحد وزاد اطلاع بعضهم على شؤون بعض . وهذا كله مما يترقديار الهجرة ويزيده .

ومع ذلك ما زال توجد في الدولة الواحدة الشاسعة الاطراف عوائق امام الهجرة الداخلية . منها اختلاف العرق وتفاوت اللغة وهما اللذان يفسران بعض التفسير ضعف تيار الهجرة في الهند لتعدد اللغات فيها ونظام الطبقات وتفاوت العادات والثقافات .

وهنا تأتي سياسة الدولة في دعم تيار الهجرة من منطقة الى اخرى او في تعويقه وحجزه .

يكون دعم تيار الهجرة بفتح مكاتب تعطي معاومات عن مجالات العمل في مختلف المناطق ، وباعداد برامج لاتواع التدريب المهني اللازمة للعمل كي يتلاءم العامل المهاجر مع العمل الذي سوف يمارسه .

وقد يكون التشجيع على الهجرة بمنح رقع من الأرض المهمة للمهاجرين كي يستغلوها ، كما حصل سابقا في الولايات المتحدة وكندا وبلاد امريكا اللاتينية وزيلندة الجديدة وغيرها ، او بمنع عون مالي كما حصل في الاتحاد السوفياتي لحمل المزارعين والايدي العاملة المتخصصة على الهجرة الى المدن في شرقي البلاد .

وقد تكون في البلاد مناطق مكتظة بالسكان واخرى متخلخة بهم . فتعتمد الحكومات الى تشجيع الهجرة من الاولى نحو الثانية . لقد نظمت الحكومة الاندونيسية الهجرة فيها من جزيرة جاوة المزدحمة الكثيفة الى الجزر المجاورة القليلة السكان . وشجعت الحكومة اليابانية على الهجرة من الجزر المتوسطة ذات الكثافات العالية الى جزيرة هوكايدو في الشمال . ومع ذلك فلم تنجح مثل هذه المحاولات النجاح الكافي لتخفيف الضغط بالمناطق المزدحمة .

ويكون تعويق الهجرة الريفية دعما للزراعة في الارياف وذلك بادخال الاصلاحات الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية والثقافية . فقد توزع فيها الملكيات الكبيرة وبشجع العمران وقام صناعات متممة للزراعة وتنشط الحياة الثقافية والاجتماعية .

العوامل الجغرافية

تتناول بعض البحوث علاقة الهجرة الداخلية بالمسافة التي يجتازها المهاجر . ان اختيار المكان وبعد الشقة منوطان بعوامل مختلفة كتوافر المعلومات المفيدة الدقيقة عن ذلك المكان ، وسبل العمل فيه وتشابه الحياة الصناعية في البلد الاصلي وفي البلد المقصود .

على ان ستوفر Stouffer لم يجد علاقة ضرورية بين الانتقال والمسافة وانما وجدها بين بين الانتقال وتوافر سبل العمل ووظائفه . فزعم ان عدد المهاجرين الذين يجوبون مسافة ما متناسب طردا مع وظائف العمل المتوافرة في نهاية الطريق ، وعكسا مع وظائف العمل التي تنهيا في ابان الطريق . ومع ذلك فان قضية الهجرة اشدها اشتباكا من تلك العلاقة المبسطة . وسنعود الى تأمل رايه في صدد قياس حركة الهجرة .

هذا وإن الحواجز الطبيعية تؤلف حائلاً يقف أمام سهولة الهجرة الداخلية في البلاد الواحدة كما هو حاصل في سويسرة وفي التروبيج . فربما كانت التضاريس الجبلية قد قللت بعض الشيء من شدة اتساع عمران مدنها .

وفي مقابل ذلك قد يكون لكبر الدولة واختلاف مرافق الحياة فيها وتعدد تلك المرافق شأن في زيادة تيار الهجرة .

وإذا تمعنا في هذا الأمر تفهمنا بالقياس إلى الهجرة الداخلية حركة الهجرة من دولة صغيرة قليلة المرافق إلى دولة كبيرة متعددة المرافق .

وقد يكون للمناخ العنصري الجيد أثر عميق . وقد قيل إن لطف مناخ كاليفورنيا كان أشد جذبا للمهاجرين من بريق الذهب .



القسم الثاني

الآثار الاقتصادية للهجرة

١ - لما كانت الهجرة تحمل الفئات الفتية المنتجة لزم أن تغير نسبة عدد المنتجين إلى العيال . ولذلك كانت ذات مكانة في ميزان النفقات التي تقتضيها اعاشة العيال من شيوخ وأطفال . فإذا كان الشعب الذي يتلقى الهجرة حرماً بالمعنى الديمغرافي (أى قليل المواليد) نجم عن تلك الهجرة تخفيف أعباء العيلة . وقد يكون للدولة المهاجر إليها سياسة في الحث على الزواج والانسال فتزيد كثرة المواليد في البداية أعباء العيلة ولذلك تكون هجرة الشباب من العاملين إلى البلاد مرحباً بها إذ تخفف تلك الأعباء .

إن هجرة العناصر الفتية من الناس هجرة عمل منتج ، ولكن هذا العمل المنتج يحمل في أطوائه المبالغ التي قدمتها البلاد الأصلية لتنشئة تلك العناصر وتربيتها واعدادها طوال مدة الفتوة والشباب ، كما يحمل ريعها وثمراتها . كل ذلك يقدم هدية إلى البلاد المقصودة في قوى أولئك العاملين الجسدية والفكرية . وهكذا يستبين كيف أن تيارات الهجرة التي حملت الألوف المؤلفة من الأوروبيين ومن سكان الشرق الأوسط إلى أمريكا وفزمت على أمريكا نفسها تلك النفقات الكبيرة التي يقتضيها ذلك الأعداد وتلك التربية والتنشئة . فحملت في أشخاص المهاجرين إليها ثراءً كبيراً وريعاً متعاضداً . ومن الصعب حساب مقدار ذلك الربح والثراء . وقد أجرى مثل ذلك الحساب الذي يتنبع تكاليف الإنسان منذ ولادته إلى أن يبلغ سن العمل والهجرة ولكن الأرقام ليست الا تقريبية ، إذ كانت تختلف وسائل التربية والتنشئة والأعداد باختلاف الأشخاص والمجتمعات وتفاوت الأعمال والاختصاصات .

تذهب تلك المبالغ هداً أذن بالنسبة للبلاد التي يهاجر منها المهاجرون ، وكان هؤلاء يتهايون مما هم مدينون به لاجتماعهم الأصلي . ولما كان جلهم أو كلهم من الشباب كما ذكرنا كانوا يخلطون

وراءهم طائفة كبيرة من الشيوخ والعجزة والأطفال الصغار أى يزيدون اعباء البيلة في ذلك المجتمع الذى غادروه . على انه قد يئد المهاجرون اهلهم بالمال حينما بعد حين ، فيتلافون بذلك تلك الاعباء او يؤوبون بثرواتهم بعد تجميعها الى اوطانهم الاولى .

ب - يرى باحثون أن هجرة أدوات الإنتاج تنفسي الى تعادل اسعارها في مختلف البلاد . فاذا كانت اليد العاملة رخيصة ومزدحمة في مكان وهاجرت الى مكان آخر هي فيه قليلة وغالية ، ادى ذلك الى انخفاض اجورها في الاماكن المقصودة وارتفاعها في الاماكن الأصلية حتى ينتهي الأمر الى درجة التعادل .

يصح هذا الرأى حين تنافس اليد العاملة المهاجرة اليد العاملة الوطنية في اسواق العمل . ولكن هذه المنافسة أصبحت ضيقة المجال نادرة الوقوع بسبب التشريعات التي تحدد من الهجرة وتحمي اليد العاملة الوطنية . ويسبب عدم اختصاص المهاجر احيانا وقلة اطلاعه على شروط العمل في البلاد المتقدمة صناعيا فقد يقع التنافس في الاعمال التي لا اختصاص فيها ، وعندئذ يستغل ارباب العمل جهود المهاجر حيث يعمل فيحمي ابناء البلد اسباب العنت والمشقة . ومع ذلك فقد يؤدي انخفاض الأجور في المجالات غير الاختصاصية الى انخفاضها في مجال الاختصاص .

على أن ذلك الانخفاض لا يقع حين تكون اليد العاملة المهاجرة معينة لليد العاملة الوطنية داعمة لها مكمله ابانها في بلاد تنشأ فيها مشروعات واسعة جديدة تزيد في الإنتاج الوطني وتوسع الموارد الاقتصادية ، فترفع بالتالي مستوى الأجور وذلك كما حدث في الهجرة الى الولايات المتحدة سابقا . فانه لما زاد مرض اليد العاملة غير الاختصاصية ابان الهجرة إليها فتفتحت آفاق جديدة للعمل أدت الى رفع مستوى الحياة ورفع الأجور معه .

ان التنسيق بين الأجور واسعار السلع المصنوعة يحتاج لبعض الوقت ، ولهذا كان انتظام الهجرة يسمح بأمثال ذلك التنسيق وتكون الأجور اقل تعرضا للاضطراب مما لو جرت الهجرة بدفقات مفاجئة غير متوقعة . على أن نقابات العمال في البلاد المتقدمة تشرف على مستوى الأجور وتحول دون انخفاضه .

والتحليل نفسه ينطبق على الأجور في البلد الأصلي الذي تصدر عنه الهجرة . نعم هنا يكون التأثير مباشرا فالعامل لا يجهل شروط العمل وهو لا يضطدم بتشريع يحدد له مقامه . ربما يسبق الى الوهم أن الأجور ترتفع لنقص اليد العاملة ولكن ذلك لا يحدث دائما . فقد تكون الهجرة حائلة دون تنسوء مشروعات جديدة فلا تزيد الموارد الاقتصادية ولا يرتفع مستوى الحياة .

ج - هذا وغالبا ما يظن أن الهجرة الى البلد تعرض طائفة من سكانه لخطر البطالة وان الهجرة منه تقلل ذلك الخطر .

ربما كان هذا التخوف سببا في تحديد نطاق الهجرة ببعض البلاد ايام الازمات عند حلول البطالة فيها ، كما كان سببا في حمل بعض البلاد على تشجيع الهجرة منها . بيد أن دراسات جديدة انتهت الى نتائج مغايرة . لذلك يظن .

يأتي المهاجرون من ميادين مُعيَّنة . ويقومون بمناطق مُعيَّنة أيضا ، فلا ينافسون مباشرة اليد العاملة الوطنية . وربما دخلوا في مشروعات جديدة فسدَّوا الحاجات المطلوبة في بعض الصناعات وزادوا النشاط الاقتصادي . وربما أدى النزوح في المقابل من بعض ميادين العمل في البلاد الأصلية إلى ضيق وعسر ينتهيان إلى البطالة وشرح الموارد .

ثم إن المهاجرين مستهلكون أيضا زيادة على كونهم منتجين ، فهم يحتاجون إلى سلع الاستهلاك المختلفة من مساكن وأثاث وملابس وأطعمة وغيرها ، فهجرتهم تزيد الطلب على أمثال تلك السلع .

وإذا ضم المهاجرون بينهم ممثلين لثلاث أنواع العمل فلا يلزم من هجرتهم حلول البطالة في البلد التي يهاجرون إليها .

لا يزاحم الأطباء والحلاقون أحدا على حد تعبير « ألفرد سوفي » ، لأن المهاجرين أنفسهم بحاجة إلى حلاقين وإلى خدمات طبية متنوعة .

وينطبق التحليل نفسه على أحوال البلد الأصلي الذي تصدر عنه الهجرة . ومعنى ذلك أن مواقب الهجرة في هذا المجال ليست بسيطة ، وإنما تتداخل هي وشؤون أخرى بحيث تكون احتمالية .

إن البطالة في التحليل الماركسي عاقبة لامندوحة منها لتراكم رؤوس المال في المجتمعات الرأسمالية . ويمكن خفض البطالة بتشجيع الهجرة من البلاد مندثرة . ذلك أن الرأسمالية قد اتسعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر اتساعا سريعا ، وكانت الهجرة من أوروبا مُستبعدة فانتشرت البطالة وحلَّ الشقاء بين أفراد الطبقة الكادحة في أوروبا الغربية . ولما اشتدت الهجرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتمست الدول الغربية لها أسواقا جديدة في مستعمراتها كان ذلك علاجا غير مباشر للبطالة وللضيق عندها . ثم بدأت الهجرة من جنوبي أوروبا وشرقيها ولكنها لم تكن كافية لكي تعطل آثار تراكم رؤوس الأموال . ولما حلَّ القرن العشرون اشتد تكديس رؤوس الأموال في أوروبا وتجاوز إمكان التنسيق بين البطالة واستغلال أسواق المستعمرات الكثيرة على الرغم من تدفق تيارات الهجرة فكثر البطالة وتدنَّت الأجور . ويقدر بعض الباحثين عدد العمال المهاجرين من أوروبا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ بخمسين إلى ستين مليون عامل . يدخل في هذا العدد الإنشاء المنحدرون من المهاجرين أنفسهم . فلو لم تدفق تلك الهجرة إلى خارج أوروبا لكانت البطالة المزمنة التي ستستحكم بين أولئك العمال حافزا على اندلاع الثورات في بلادهم .

وإيا كان الأمر فإن الروثة تقتضي تأمل سياق الهجرة ، وتستدعي تبين مختلف العوامل المرافقة لها في البلاد التي تمسها ، وتستلزم استبانة غزارتها وطول أمدها وآثارها القريبة والبعيدة .

هذا ولا بد في صدد بحث الآثار الاقتصادية من الإشارة إلى الأموال التي يأخذها المهاجر أو يهربها إلى مكان هجرته الجديد خوفا عليها من أن تمسها يد التأميم . وكذلك لا يفوتنا التلويح

بالمبالغ التي يدخرها المهاجر في بلد هجرته ويرسلها إلى أهليه وذويه كما سلف أو يرجع بها عند أوبته النهائية . والمهم هنا حسن التصرف بتلك الاموال وتشميرها في كلا الجانبين ، وكذلك حسن تلافى خروجها أو دخولها . فلكل أمر جانب سلبي وآخر إيجابي .

ولا شك ان هذه العواقب الاقتصادية ملتزمة بالآثار الديمغرافية .

الآثار الديمغرافية

سبق ان المعنا بأن ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان في قطر يحفز على الهجرة منه ، وأن انخفاضه يشجع على الهجرة اليه . في المقابل تستطيع الهجرة نفسها ان تكون مؤثرة في معدل النمو الطبيعي على التفصيل الآتي :

لو بقي الناس في امكنتهم الأصلية لتصعب عليهم حسن استغلال الموارد الطبيعية في العالم ، كما يتصعب عليهم ان يفسحوا في مجال العيش لأفواج جديدة ما فتأ تدف إلى العالم في قنط المواليد . لقد ساعدت هجرة الناس إلى أماكن قليلة السكان كما حصل في أمريكا وكما يحصل في سيبيريا على إقامة التوازن بين عدد الناس والموارد المتوافرة ، من وجهة النظر هذه يمكن القول ان الهجرة دعمت زيادة النمو الطبيعي للسكان في العالم على فترات طويلة وإلى مدى بعيد، وأنه لولاها لامتنع على ذلك المعدل أن يزيد .

أما معدل نمو السكان الطبيعي في الأماكن المقصودة أو في الأماكن الأصلية فمن الصعب ايضاح علاقات عامة حتمية لآثار الهجرة فيه . تلك الآثار متعلقة بصفات الهجرة هل هي نهائية أو طويلة الأمد ، وبأعمار المهاجرين وجنسهم من ذكور وإناث ، وبمعدل المواليد والوفيات في تلك الأماكن المقصودة ، وبخصب السكان المحليين ووفياتهم ، كما يمكن استشفاف تلك الآثار أيضا في سكان الأوطان الأصلية التي صدرت الهجرة منها .

الهجرة إلى البلاد وأثرها في نمو السكان - يرى بعض الباحثين أن الهجرة إلى البلاد لا تؤثر في زيادة سكانها إلا إذا حملت معها تنظيماً اقتصادياً جديداً ناجماً أو غيرت نمط استهلاك السلع بينهم . ومن الواضح أن هذه النظرة تعزى إلى نظرية مالتوس في السكان .

ويرى آخرون أن تلك الهجرة قد يكون لها أثر ولكن غير مباشر في معدل نمو السكان ، وأن أثرها هذا قد يكون خفض ذلك المعدل حين توفيق عمران المدن وفي تقدم الصناعة وتحسين مستوى المعيشة وتبديل نمط السلوك من الوجهة النفسية . وإذا أقام المهاجرون بالمدن كان مقامهم عائلاً للهجرة الريفيين من أهل البلاد إلى تلك المدن فيحافظ الريفيون على معدل نموهم الطبيعي . وهكذا نجد أن الأمور احتمالية ، وليس من التبصر في شيء أقحام علاقة حتمية ثابتة في هذا الشأن .

إذا افلطنا السكان الأصليين في المكان الذي وصل إليه المهاجرون فإن زيادة سكان هذا المكان بالمهاجرين أنفسهم تامة لأمد الهجرة ، فإن كانت الهجرة نهائية واستمر مقامهم بالمكان ربوا وازدادوا ازدياداً كبيراً أول الأمر وذلك بسبب تركيبتهم الفتى ، فإن أكثرهم من الشباب ومعدل الوفيات بينهم ضئيل . بيد أن هذا الازدياد الشديد لا يلبث أن يتمهل إلا إذا استمرت الهجرة . فإن

توقفت أو ضوّلت لم يلبث عامل الزمن أن يغير تركيبهم العمري ، ويوجهه نحو الشيخوخة والهرم
فينقص عندئذ معدل المواليد بينهم ويرتفع معدل الوفيات .

ويلاحظ في الهجرة الخارجية ارباء الذكور في العدد على الإناث وهذا يفضي الى ارتفاع نسبة
الزواج بين النساء المهاجرات ، وإلى التذكير فيه فيرتفع معدل الخصب بينهم أيضا . ولكن ربما
يتمهل الازدياد بعض الشيء أن بقي جزء من الذكور عازبا . وقد يختلطون بالسكان الأصليين ويتزوجون
من نساءهم فيكون ذلك عاملا في زيادة السكان .

إن المهاجرين في الغالب يأتون كما سبق من بلاد معدل المواليد فيها عال فيبقى هذا المعدل
بينهم في مقامهم الجديد عاليا أيضا . ولكنهم بالتدريج قد يكتسبون عادات البلد الجديد
ويتجهون نحو الانصهار فيه اتجاهها سريعا أو بطيئا بحسب الظروف . وقد يكون البلد الجديد صناعيا
فيحلمهم طراز الحياة فيه على تنظيم أسرهم ، وضبط نسلهم . ولكن هذا الضبط لا يكاد يتم إلا
بعد جيل أو جيلين .

ويرى **هلفاكس** وهو عالم اجتماعي من مدرسة **دوكايم** الفرنسية أن العامل المرفولوجي
ذو اثر بليغ في زيادة النسل أو قلته ، وأن الناس هجرتهم نحو مناطق قليلة السكان يزيد نسلهم
بصورة عامة . وبالعكس إذا وصلوا الى مناطق غاصّة لا بد أن يحدثوا من ذريتهم كما يفعل المراء
في الزحام حين يلم من ذاته . وكل ذلك يأتي بصورة غير مباشرة عن طريق التأثير بنفقات
المعيشة وانماط التفكير والسلوك المشترك .

الهجرة من البلاد وأثرها - لقد ألمنا بعض الشيء بأثر الهجرة في معدل نمو السكان للبلد
المقصد فما هو أثرها في ذلك المعدل نفسه للبلد الأصلي الذي انطلقت منه الهجرة ؟ هنا أيضا
يصعب الوصول الى علاقة حتمية جازمة . ذلك أن بعض الباحثين يرون أن هذه الهجرة حين
تخفف الضغط الديمغرافي في البلد الأصلي وتنقص عدد بعض الافواج فانها على المدى الطويل
تنشط الزواج فيه وتدم خصب الانسان وتزيد العاقبة معدل النمو . ويسرون أن أوروبا إنما
ازدادت ذلك الازدياد السريع إبان القرن التاسع عشر بعد هجرة طائفة كبيرة منه . نستطيع أن
نتفهم هذا الرأي حين نشبه المجتمع بالجسد . فكما ينشط الجسم بالتعويض حين يؤخذ جزء
ضئيل من دمه كذلك يتكاثر الناس ويربل المجتمع حين تهاجر طائفة منه . ويرى الباحث الإيطالي
كوراдо جيني أنه قد يصح ذلك في بعض البلاد ولكنه لا يصح في أخرى .

هذا الادعاء يرفضه آخرون حين يزعمون أن أوروبا يكون عدد سكانها أكبر بكثير لو لم
يمسها تيار الهجرة إذ كان يزداد سكانها ثمانية وعشرين مليونا فوق ما ازدادوا بين عامي ١٨٠٠
و ١٩١٠ لولا اجتياح ذلك التيار لها .

هذان الموقفان المتعارضان محتملان بالنظر الى سياق صروف الهجرة . فالهجرة من البلاد
قد تخفف الضغط الديمغرافي فيها وتحفز على النشاط كما سلف بالتذكير في الزواج وبالترقيب
في الذرية وبخفض وفيات الرضع ، أو قد تقف عائقا إذ يكون المهاجرون عن البلاد على الغالب
شبابا فتدخل الهجرة خلافا في توازن ثبات الأعمار بين الذكور والإناث ويرتفع معدل الوفيات ، لأن

وفيات المهاجرين الشباب اقل من وفيات المقيمين . وربما نقص بسبب الهجرة معدل المواليد في البلاد ايضا .

وهكذا يختلف النظر الى آثار الهجرة من البلاد هل تستطيع ان تخفض حقا مقدار الضغط الديمغرافي الحاصل بكثرة المواليد ؟ لقد تبين للباحثين ان هذا الخفض اسهل سبيلا واقرب مائى حين يحصل عن طريق التصنيع ورفيع مستوى المعيشة وتحسين وسائل الزراعة وزيادة الوعي والثقافة خصوصا في بلاد العالم الثالث ، وان الهجرة ليست الا بسعما وقتيا لذلك الضغط بهدئى ولكنه ليس بالعلاج الناجع .

هذا وعند اعتبار الهجرة الداخلية نوهت نظريات عرقية كآراء هانسن في ألمانيا وآخر القرن القرن التاسع عشر باهمية العرق الصافي الخالص الكثير التوالد في الارياف وهو الذى يمد المدن بنفيس من ابنائه الاشواس المقاديم ، ولكنهم يختلطون بغيرهم في المدن ويتأثرون بعادات هجينة وتنقص بذلك مواليدهم وينفصب بالتدريج ذلك الميتم الثر المتحد من الارياف الذى هو ذخر المجتمع ومصدر حضارته الخلاقة . وقد تبدت تلك الآراء على العموم ، ولكن الباحثين مع ذلك يرون ان معدل المواليد العام في البلاد لا بد من ان يتناقص بوجه عام بسبب تيار الهجرة الريفيه التي تحمل الشبان الى المدن وتغير من عاداتهم الديمغرافية فيها ، كما تترك فراغا ديمغرافيا بالارياف وراء تلك الفئات المهاجرة .

ومهما يكن من أمر هذه البحوث المتعارضة فان عددا من الأمم كاليابان مثلا اجتاحتها تيار الهجرة الريفيه وزاد سكانها على الرغم من ذلك حتى وقت قريب .

هذه الآثار كلها وثيقة الصلات بالأمور الثقافية والاجتماعية .

الآثار الاجتماعية

ليس المهاجرون منتجين ومستهلكين فقط، وإنما هم ايضا اناس هاجروا بعاداتهم ولفاتهم وأفكارهم ونحلهم الدينية وآرائهم السياسية ونوازعهم الشخصية وماضيههم السحيق وآمالهم المجنحة ، فلا بد من التوفيق بين ذلك ومقتضيات مجتمعهم الجديد . وهو عملية قد يطول امدها او يقصر ، يتم بنجاح او يفشل . وذلك متوقفا على تدابير السلطات المسؤولة عنهم في مسكان الوصول وعلى البيئة الانسانية التي ينزلون بين ظهرانيها .

عناصر الانسجام والتلاؤم متعددة لا بد من الاشارة الى بعضها .

قد يقع تنافس اقتصادى بين المهاجرين واهالي المنطقة فينتج عنه حذر وكراهية عميقان، والا فالحياة سهلة والوفاق غير عسير .

وربما يتعطل المهاجر عن العمل او يصيبه المرض فيبيت عبثا على الدولة المضيفة . فاذا منحت الدولة الصناعية المهاجرين حقوق رعاياها من التأمين على المرض والبطالة سهلت عليهم الاندماج ودرت منهم اشباح البؤس وما يجره من عواقب وخيمة واعباء ثقيلة على المجتمع نفسه .

على أنه قد تختلف العادات والتقاليد واللغة فيتصعب الاندماج وتدر مشكلات تنم على الشذوذ المدني وتشف عن النشوز الاجتماعي . والزواج المختلط يؤر شقاق ونزاع في بعض الاحيان .

ويبلد المهاجرون جهودا نفسية للعوامة ، فان ام تنجح ظهرت عنها اضطرابات عقلية متفاوتة ولا سيما بين ابنائهم ، لان الآباء يعيشون في اجواء نفسية شبه معزلة بسبب العادات المتأصلة لديهم . ولكن ابنائهم يعزفهم التفاوت بين عادات اهليهم وعادات اترابهم في المجتمع الجديد ، بين الاسرة وجو المدرسة ، بين الطباع الموروثة والتطبع المكتسب .

قد يتجمع المهاجرون من الشعب الواحد في بلد الهجرة ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم فيؤلفون ما يدعى بالجمالية وظهر امثال هذه الجمالية بشر مشكلة التعايش بينها وبين السكان الاصليين . وقد يتجه هذا التعايش نحو الانصهار بين الطوائف بحيث يؤثر بعضها في بعض ويفقد كل منها بعض خصائصه ، او نحو الاندماج بحيث يزول بعضها ويلدوب في البعض الآخر ، او هي تحافظ على التفرقة العنصرية بحيث تقيم هي من عاداتها وقوانينها ونظمتها حواجز فاصلة .

هذا وربما كان من المناسب ان نذكر هنا بعض الامثلة على النشوز الاجتماعي والاضطراب النفسي اللذين يتعرض لهما المهاجرون .

ان المسح الذي جرى على البولونيين في فرنسا كشف عن ان الدين اجرموا منهم وظهرت عليهم امراض الاختلال العقلي كانوا عمالا زراعيين يعيشون في مزارع ثائية معزولة لا سبيل لهم الى الاتصال بالناس .

لقد جرت محاولات لوصف مغبات الهجرة على شخصيات المهاجرين وعلى تكيفهم النفسي وعلاقة ذلك بالامراض العقلية . فلو حظ ان اعلى نسبة للعرض العقلي موجودة عند المهاجرين الذين وقعوا في ضروب من الصراع الذاتي ابان تلائمهم مع ثقافة اجنبية جديدة . وقد بدا رأى ابقراط أن المبعدين عن اوطانهم الاصلية تساورهم نوازع من الاضطراب شديدة . ولقد جاء في الشعر العربي :

وارحمنا للغريب في البلد لنا ذح ماذا بنفسه صنعنا
ضئع اخوانه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعنا

يدل مضمون هذين البيتين على حالة الضياع والقلق والحنين التي تخامر نفس المهاجر البعيد . وقد وضع هوfer عام ١٦٨٥ لفظة النوستالجيا اى الحنين لتدل على حال المهاجرين الذين تلوح عليهم امارات التفكير الدائم في اوطانهم ومعها سمات الحزن والارق والرهو في الطعام والضعف والقلق وخفوق القلب والذهول وكتمان المشاعر . ولكن قد تنطوى الموازنة بين المهاجرين وسكان البلاد الاصلية على مزالق خفية . ذلك ان المهاجرين الذين استجابوا لتيار الهجرة قد اصطفاهم هذا التيار اصطفاء شديدا وهم لذلك يشتركون في صفات خاصة تؤثر في نسبة المرض الذي قد يصيبهم .

لقد ساق مثلاً تيار الهجرة الماضي الى ما وراء البحار الشبان الذكور من أفقر الطبقات الاجتماعية في أوروبا وفي غيرها ، كما ساق فئات أخرى من مختلف الأعمار ذكورا وإناثا ، فلا تجوز عندئذ المقايسة بين أولئك المهاجرين جملة وبين السكان الأصليين المضيفين . لا بد عندئذ من الانتباه لبعض العوامل كتأثير قوانين الهجرة الاصطفائية وتأثير السن أو الجنس للتعرض للأمراض . ان بعض الذين هاجروا هم اناس يحبون التنقل ويكرهون الاستقرار ، وربما كانوا مهينين بذلك لمرض انقصام الشخصية . فكانهم اصطفوا انفسهم لركوب متن الهجرة . لقد كان هذا الاصطفاء الذاتي التفسير المفضل في ارتفاع معدل المصابين بالقصام بين الترويحيين الذكور الذين هاجروا الى مينيسوتا . وإبانت الكشف السريرية ان الهجرة قد تصيب صاحبها بمرض البارانيا . يمكن ان نسمي صاحبها باللغة العربية البرشاء او الفجفاج . ويعالج هذا المرض بإعادة المصاب الى الوطن الذي تركه والى الثقافة التي اعتادها وعاش في جوها ولاعت ميوله ونوازمه .

والطريف في البحوث التي أجريت على المهاجرين عند اضطرابهم انها اظهرت الاوضاع الاجتماعية لمرضاهم من خلال ضروب هذيانهم . فلقد ابرز مرضى القصام في الولايات المتحدة بين الذكور المنحدرين من اصل ايرلندي او اصل ايطالي مجموعة من الاعراض المتناقضة تتعلق تعلقا ظاهرا بثقافتهم الأصلية . يكابد ايرلندي الأمان على السكر ، كما يستحوذ عليه الاهتمام بالآثم والجرم فيغدو رهن الهيبان المستمر . ويجنح الايطالي نحو الشذوذ الجنسي (الجنسية الخلية) ويضطرب سلوكه ويبرز عداؤه للسلطة . هذه الفروق تعزى الى تأثير محيطهم الاجتماعي والثقافي . وقد جرت دراسة مشابهة على ايرلنديين وايطاليين مكثت الباحثين من توقع طائفة من ردود افعالهم . الاسر ايرلندية تسيطر فيها الأمهات ، والآباء لظلال لا شان لها ، والأولاد اطفال وإعباء أبداً قلقون مكبوتون جنسياً ، لهم مواهب الخيال لا العمل . ويسيطر في الاسر ايطالية الآباء ويطلقون لابنائهم حرية التعبير عن الانفعال والاعتداء (الجسدي) والقضايا الجنسية .

وإذا تنقت مجتمعات على غاية من التعارض في العرق والثقافة كما كان الامر عندما استوطن الأوروبيون في افريقية نشأت ضروب من الصراع الاجتماعي والسياسي تنقص حقا حياة الناس وتؤدي الى اضطراب الهيئات الاجتماعية اضطرابا جزئيا او كليا . وامثال ظاهرة الماوما في كينيا وتدنيس البضائع المشحونة في غينية الجديدة والحركات الوطنية الافريقية واممال العنف العرقي في المجتمعات المختلفة ، كذلك الجرائم الفردية بين الاطراف المتقاتلة المتعاقبة في جنوب افريقية ، كل تلك الظواهر يمكن ان تعتبر ضروبا شتى للصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي .

ذلك ان بعض انواع الهجرة ضرب من الغزو للشعوب بل قد رافقت الحملات العسكرية فعلا . ولا شك ان الاستعمار الغربي كان آفة كبيرة على كثير من الأقوام في مختلف نواحي الارض . وأيا كان الامر فان ثمة من الدراسات الواسعة التي تدخل في هذا النطاق ما يكاد يتجاوز الحصر .

آثار الهجرة الداخلية

هذا وإن آثار الهجرة الداخلية تشبه في مختلف المجالات آثار الهجرة الدولية . ويشيء من التأمل يمكن عرض آثار الهجرة الداخلية على غرار آثار الهجرة الدولية في المجال الاقتصادي والديمقراطي والاجتماعي ، مع بعض الفروق في التنظيم والاستمرار والتوجيه .

إن المدن تنمو كما سبق بالهجرة الريفية إليها . وإذا لم تنظم تلك الهجرة اشتد الازدحام في المناطق الفقيرة وتجاوز أمر تخطيط المساكن في الضواحي طاقة الحكومة . وقد تصعد الاسر وتشتد الاطفال وتستشري الجوع والجرائم وتضطرب الاخلاق وتشتد الملل . ولكن هنالك تطورا عاما في العادات يجري في مختلف المناطق قريبه او بعيدة ، دانيه أو قاصيه . ويزيد اشراف الحكومات في الوقت الحاضر على مختلف مرافق الحياة العامة والخاصة .

إن الهجرة الريفية في العصر الحاضر هي التي جعلت المدن تتكاثر وسكانها يزدادون ذلك الازدياد المتعاظم العملاق الى الحد الذي نجاهه اليوم . كان الريفيون قديما أكثر من المدنيين بوجه العموم . واليوم انقلب الميزان في البلاد الصناعية بسبب التطور الاقتصادي فأصبح مجموع سكان المدن أعلى بكثير من مجموع سكان الارياف . وبهذا الاتساع الكبير تغيرت حياة الانسان نفسها في المجال الاجتماعي والنفسي والتنموي . لقد قل شأن الجماعات الاولى كالاسرة الكبيرة والعشيرة والطائفة وأمثالها معا كان يؤلف اطارا يحف بالمرء من كل جانب وبمسكه في معترك الحياة ويربطه بمحيطه الانساني وبمدينته . فتفرقت تلك الجماعات وانتشرت في غمار الحياة وغدا المرء كائنا مَنفكلا بين سيول الجماهير الغفيرة يشمر بوحده ولا يرتبط الا بعمله ووظيفته ، وحلت العلاقات المالية محل العلاقات الودية الشخصية وصار الانتاج والاستهلاك هما القوتين الهامتين في كيان المدينة الكبيرة المتسعة .

إن التاريخ لا يرجع الى الوراء وأشكال الحياة المتمهلة لن تعود . وهذا الوضع الحاضر إنما هو عاقبة التطور الاقتصادي العميق . والمهم الآن هو اسباغ مزايا القلب والروح في أجواء المدن بالإضافة الى حسن التخطيط والتنظيم العقلين .

على أن الاتساع الكبير في عدد السكان المدنيين جعل الحكومات في بعض البلدان تتخذ التدابير المناسبة لتقوية تيار الهجرة الى الارياف ولا شك أن وسائل المواصلات البسيطة وجمال الريف وادخال بعض الصناعات فيه يدعم ذلك ، كما أن شيوع الهاتف والراديو والتلفزيون يقلل العزلة فيه ويزيد من الاتصال بالمدن أي زيادة .

لقد أسهنا في بيان أسباب الهجرة الخارجية والداخلية وآثارهما ما اتسع لنا مجال القول ، وذلك في توازن شديد بين الاسباب والآثار وفي تشابه كبير بين هاتين الهجرتين . وقد آن لنا أن نعرض طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها .

• • •

القسم الثالث

قياس الهجرة وتخمين مقاديرها

يعتمد العلم على القياس الى درجة انه قليل في تعريفه انه قياس المقادير . ذلك ان الظواهر اذا تلامحت بشكلها الكيفي بقيت غامضة وداخلها نصيب من الابهام . ومتى انقلبت بالقياس الى مقادير كمية ازداد وضوحها واشتدت دقتها وانجلت جوانبها العلمية . والهجرة كبقية الظواهر الديمغرافية تحتاج الى ان يتناولها القياس وتفترق الى ان تعبر عنها الارقام . وثمة طرق متعددة لقياسها أصبحت متعارفة يسهل عرضها . ولكن لما كانت الهجرة مشتبكة العوامل ، متفاوتة المعلومات في الدقة ، لزم الانتباه لذلك عند كل تطبيق ولدى اجراء كل حساب احصائي في هذا الشأن . ونحن نعرض هنا اشمل هذه الطرق واخصها بالتعليم .

القياس المباشر -

يتيسر هذا القياس حين يتيسر تسجيل حركة الهجرة كما تجرى في الواقع . واذا تمت الهجرة بالبحر او الجو من دولة الى دولة يصح الاعتماد على كشوف المسافرين في الباخرة او الطائرة لمعرفة نوع انتقالهم ، وذلك عند الانقلاء او الارساء . ولكن اذا كانت الحدود بين الدولتين برية غدا الاحصاء اقل دقة ما لم تتخذ التدابير لتمييز المهاجرين من السياح الذين لم يفسروا محال اقامتهم ولضبط حركة المرور على الحدود . وبوجه عام تؤخذ المعلومات في مراكز الهجرة عن خصائص المهاجرين الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والقومية حين يهاجرون من دولة الى اخرى ثم تجمع وتصنف وتبويب وتقدو صالحة للاستفادة . وقد يعتمد في احصاء الهجرة على جوازات السفر او سمات الدخول او تصريحات الإقامة او تصريحات العمل . فهي كلها تبرز هجرة الاجانب . اما في شأن الهجرة الداخلية فان بيانات تغيير محال الإقامة ، والجوابات عن بعض السؤالات المطروحة في التعداد وسجلات الأحوال المدنية وسجلات المعاهد العلمية وغيرها تشف عن هذه الهجرة .

نمجموع القادمين الى البلاد والنازحين منها يمدى حجم الهجرة كما سلف ، وينسب الى متوسط عدد السكان في السنة او في خلال فترة زمنية مسماة فيحصل معدل حجم الهجرة . وهو يقيس حركة الهجرة الخارجية التي تحدث من البلاد الى خارجها والعكس ، فيُنظر هذا القياس مدى نشاط تلك الحركة .

والفرق ما بين القادمين والنازحين والداخلين والخارجين يمدى « صافي الهجرة » او « ميزان الهجرة » . وهو فيض الهجرة اذا اربى عدد المهاجرين الى البلد و « غيظ الهجرة » ان نقص . وينسب صافي الهجرة الى عدد السكان في منتصف السنة فيحصل معدل صافي الهجرة او معدل فيض الهجرة او معدل غيظ الهجرة بحسب الاعتبارات .

ويمكن أن ننسب النازحين الى متوسط عدد السكان خلال السنة فذلك معدل التزوج أو معدل الهجرة من البلاد ، أو ننسب القادمين اليه فذلك معدل القدوم أو معدل الهجرة الى البلاد . وهكذا يتحصل معنا أربع علاقات بسيطة متميزة :

$$(1) \quad \text{معدل حجم الهجرة} = \frac{ق + ن}{د} \times \text{ثا}$$

$$(2) \quad \text{معدل صافي الهجرة} = \frac{ق - ن}{د} \times \text{ثا}$$

$$(3) \quad \text{معدل النزوج} = \frac{ن}{د} \times \text{ثا}$$

$$(4) \quad \text{معدل القدوم} = \frac{ق}{د} \times \text{ثا}$$

... (ق) عدد القادمين ، (ن) عدد النازحين ، (د) متوسط عدد السكان في السنة (ثا) عدد ثابت يعتبر في الغالب مائة أو ألفا .

ان الهجرة الى المجتمع بمثابة المولودية ، فهي تزيد في السكان ، والهجرة منه بمثابة الوفاة فهي تنقص السكان ، وان كان اليون كبيراً جداً وشاسعاً بين الوفاة والهجرة من الوجهة الفردية ومن الوجهة الانسانية ، اطال الله اعمار المهاجرين ورد غريبتهم . ولكن النظرة الديمغرافية على الأغلب حسابية . ثم ان معدل صافي الهجرة يشبه الى حد ما معدل النمو الطبيعي الذي هو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات .

على انه يمكن ان نلاحظ ما يلي :

١ - معدل المواليد ومعدل الوفيات يتعلقان بمجتمع ما . بيد ان معدل الهجرة الى البلد يقرن طائفة من مجتمع بمجتمع آخر قد يختلف في كثير من الخصائص عنه .

٢ - معدل المواليد ومعدل الوفيات وامثالهما امور عامة ومستمرة في مختلف المجتمعات لا يخلو منها مجتمع ، على حين تيار الهجرة تتغير جهاته ويشهد او يضعف بحسب الظروف وبحسب البلدان والمجتمعات .

٣ - يمكن ايضا حساب نسب خاصة باعمار المهاجرين من البلاد او اليها وبجنسهم من الذكور والاناث ، وبقومياتهم وبصفات اخرى لهم اقتصادية او ثقافية او غيرها .

٤ - مهما دق ضبط الهجرة فهي لا شك اقل انضباطا من تسجيل المواليد والوفيات ولذلك كانت معدلاتها اقل دقة ايضا .

٥ - في حساب الهجرة الداخلية قد تعد هجرة المهاجر من مكان الى آخر مرتين : مرة بصفة النزوج ومرة بصفة القدوم .

التخمين أو القياس غير المباشر :-

١ - يكون ذلك بطريقة الإحصاء الحيوى ، اذ يحسب الفرق بين نمو السكان الكلي المستعمل على الهجرة ونمو السكان الطبيعي المتصدر على المواليد والوفيات . فالفرق يعطينا ذلك التخمين :

$$ك = م + ن - و + ص$$

(ك) عدد السكان في التعداد الأول ، (ن) عدددهم في التعداد الثاني الذى جرى بعد فترة (ز) من الزمن ، (م) المواليد خلال الفترة ، (و) الوفيات ، (ص) صافي الهجرة

$$\text{فيكون ص} = (ك - ن) - (م - و)$$

وفي هذه الحال ينبغي ان يكون تسجيل المواليد والوفيات دقيقا .

٢ - وكذلك تعتمد طريقة التعمير في القياس غير المباشر . وهي ان يؤخذ عدد السكان في التعداد الأول ثم ينتبه لنسب التعمير في فئات الأجيال المختلفة ويحسب ما يصير اليه عدد السكان في زمن التعداد الثاني . والفرق بين التعداد الثاني وحصيلته حساب التعمير يعطي صافي الهجرة :

$$\text{ص} = ك - ن$$

ولما كان هذا الحساب يجرى على أجيال مختلفة من السكان أمكن ان يكشف حاصل الحساب عن صافي الهجرة في كل فئة من فئات الأعمار .

٣ - وقد يلجأ الى طريقة مكان الميلاد . ذلك ان أغلبية التعدادات في العالم تضع سؤالاً عن مكان ميلاد الشخص . فيصح عندئذ ان تقارن مكان الميلاد بمكان الإقامة الحالي لنستخلص صافي الهجرة في زمن التعداد . فنحن اذ ذلك نطلع على مقدار المهاجرين بين المقيمين من السكان . ولكن هذه الطريقة لاتعملنا شيئاً عن زمن هجرة المهاجر . وكذلك لا تشف منها دائماً ، اذ ربما عاد المهاجر بعد هجرته الى مكان اقامته الأصلي قبيل التعداد .

٤ - يضاف الى جميع ما سلف المسوح السكانية . فهي تستطيع ان تستشف بطرقها الخاصة من تيارات الهجرة . ولكن طرق المسح بالعينة هذه عامة وليست مقصورة على الهجرة . فتكفي الإشارة إليها .

هذا ، ومتى عرفت المقادير السالفة أمكن حساب قرائن او أدلة عديدة مختلفة تشف عن مدى الفائض او الناقص من الهجرة في كل بلد كما يلي :

$$\frac{\text{النازحون}}{\text{القادمون}} = \frac{ن}{و}$$

(١)

(٢)	حين ق	$\frac{ق - ن}{ق}$	=	فيض الهجرة القادمون
(٣)	حين ن	$\frac{ن - ق}{ن}$	=	فيض الهجرة النازحون
(٤)		$\frac{ق}{ق + ن}$	=	القادمون حجم الهجرة
(٥)		$\frac{ن}{ق + ن}$	=	النازحون حجم الهجرة
(٦)		$\frac{ق - ن}{ق + ن}$	=	فيض الهجرة حجم الهجرة

وربما يجدر أن نذكر أمثلة على بعض العلاقات السابقة فنأخذها من استراليا :

$$١٢٧٠٥٨٦ = \text{مدد المهاجرين إليها خلال سنة ١٩٦١}$$

$$٩٥٨١٤٧ = \text{مدد المهاجرين منها خلال سنة ١٩٦١}$$

$$١٠٥٠٨٠١٨٦ = \text{عدد سكان استراليا مقدرا في ١ تموز (يوليو) سنة ١٩٦١}$$

$$١٢٤١ = \frac{١٠٠٠ \times ١٢٧٠٥٨٦}{١٠٥٠٨٠١٨٦} = \text{معدل القدوم}$$

$$٥٤٦ = ١٠٠٠ \times \frac{٥٩٤١٤٧}{١٠٥٠٨٠١٨٦} = \text{معدل النزوح}$$

الفرق بين المعدلين يعطي معدل ميزان الهجرة وهو فيض = ٦٤٥

جمع المعدلين يعطي معدل حجم الهجرة أو مدى نشاطها = ١٧٤٧

أما القرائن التي سلفت فمن السهل حسابها . منها مثلا :

$$\% ٥٤ = \frac{٦٨٤٤٣٩}{١٢٧٠٥٨٦} = \text{فيض الهجرة القادمون}$$

وهذا معناه أن نسبة الفائض إلى القادمين هو ٥٤ في المائة .

وكذلك يمكن أن نحسب :

$$\% ٣٧ = \frac{٨٦٤٤٣٩}{١٨٦٤٧٣٣} = \frac{ق - ن}{ق + ن}$$

أي نسبة الفائض إلى حجم الهجرة هو ٣٧ في المائة هكذا ..

ولو أجرينا الحساب على إيطاليا عام ١٩٦١ لوجدنا أن ميزان الهجرة فيها هو غيظ لأن تيار النزوح أقوى من تيار القدوم .

وقد ينسب فيض الهجرة الى مقدار النمو الطبيعي للسكان فنحصل على النسبة المئوية لنمو السكان بالهجرة الى نموهم الطبيعي .

$$\frac{ق - ن}{و - م} \times ١٠٠$$

(ق) القادمون كما سبق ، (ن) النازحون ، (م) المواليد ، (و) الوفيات .

ناخذ المثال الآن على جاميكا بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠

ميزان الهجرة = ١٣٠٦٠٥ -

النمو الطبيعي للسكان = ٣٦٦٤٠٧٥

$$\frac{١٣٠٦٠٥ -}{٣٦٦٤٠٧٥} \times ١٠٠ = ٣٥٠٧ -$$

وعليه يكون

أي أن أكثر ثلث كمون نمو السكان مضاع بالهجرة من جاميكا .

هذا ويمكن حساب احتمال الهجرة أو التعرض لها لفئة من فئات الإعمار وليكن العمر لهذه الفئة (ز) وذلك في فترة سنة أي ز ، ز + ١

$$زح = \frac{نز}{لنز + ١/٢ و}$$

باعتبار (زح) احتمال نزوح الفرد من تلك الفئة أو ذلك الفوج ، (ن) عدد النازحين من أبناء ذلك الفوج بذلك العمر في غضون السنة ، (ل) عدد ذلك الفوج في منتصف السنة (و) (ز) عدد الوفيات في ذلك العمر خلال السنة نفسها . أما القادمون الذين هم في سن (ز) وهم معرضون للهجرة فقد انضموا في عداد الفوج (ل) . (ز)

يبد أن احتمال القدوم لا يمكن استناده الى عدد سكان منطقة الوصول لأن القادمين هم من غير هؤلاء السكان وليسوا جزءا منهم .

هذا ومن المناسب أن نشبه الى أن عدد المهاجرين لا يعادل عدد ميرات الهجرة ، لأن مهاجرا واحدا قد يقوم بالهجرة عدة مرات في خلال حقبة من الزمان ولا سيما اذا تطاولت الحقبة . ويتعرب عدد المهاجرين من عدد مرات الهجرة كلما قصرت تلك الحقبة . ولذلك اعتبرت السن في التصنيف الآنف معيارا لطول مدة الإقامة أو مدة الغيبة

الهجرة والنموذجيات الرياضية

كان العلماء عامة يتكلمون في بحوثهم على القرنين الكلية والنظريات العامة . وقد طرا تطور في فلسفة العلوم على اعتباراتهم ، فأصبحوا يحددون الآن في الغالب بدلا من تلك الالفاظ عن

النموذجات . ومن المناسب هنا ان نورد بعض النموذجات الرياضية الكثيرة المستعملة خاصة في تبين تيار الهجرة الداخلية كي نوفي البحث بعض حقه . وفي سياق بحثنا نبرز شيئا قشيبا صفات النموذج الرياضي للتنمسي الى بعض تعبيراته المطبقة في هذا المجال .

النموذج الرياضي نظرية شرطية استنتاجية ومعنى ذلك انه جملة من القضايا او المصادر تؤدي بعد قبولها الى جملة من النتائج والاعتبارات .

قد يعرض الباحث هذه الاعتبارات والنتائج على محك التجربة وعلى ميدان المشاهدات والملاحظة لمعرفة انطباقها على الواقع . ولكن يمكن الاستغناء عن هذه المقايسة . امكان الاستغناء هذا من المقايسة اول السبيل للتفريق بين النظرية والنموذج ، لان النموذج امر فكري صرف يقدم حلا يمكن قبوله او رفضه . ربما يصح القول ان بعض النموذجات اكثر واقعية من غيرها . ولكن لا يجوز هنا القول انها صادقة او الصق بالصدق بالمعنى المنطقي للصدق . ومع ذلك فالنموذج ليس مجرد تركيب اعتباطي .

النموذج نظرية تحاول ان تفسر طبيعة ظاهرة ما بصرف النظر عن كونه اما صادقا واما كاذبا على حد التعبير المنطقي . وهذا معناه انه لا مانع من وجود عدة لنموذجات تقدم ايضاحات متفاوتة لظاهرة واحدة دون ان يلغى بعضها بعضا . وهذه سمة ثانية لتفريق النموذج من النظرية بالمعنى العام التي لا بد من ان تكون لها صفة الشمول او الكلية . لقد قالوا قديما : لا علم الا بالكماليات . ولكن النموذج الرياضي قد يفسر حادثة خاصة او ظاهرة مفردة ، فقد اتخذ النادر او المفرد في العصر الحاضر مكانه في فلسفة العلوم ، لان المفرد او النادر بصفته نادرا او مفردا قد يعارض العام والكل فيستدعي اعادة النظر في المكاسب العلمية لتوسعة وجهة النظر . هذه امور معروفة في فلسفة العلوم نوه بها الفكر الفرنسي الراحل فاستون بشلاد . ويمكن ذكرها هنا في مجال النموذج التي يطبق في الاحوال المفردة او الخاصة احيانا من المجال الانساني او الاقتصادي . يمكن مثلا التعبير عن قواعد سير مشروع من المشروعات الصناعية او الاقتصادية بنموذج رياضي . بل يمكن القول ان تقدم الرياضيات والعلوم الانسانية الحديث كان متصلا بملازمة الامور الخاصة او المفردة وتحليلها . لا شك ان النموذج بطبيعته يشتمل على قضايا كلية ، ولكن احكام القضايا الكلية كانت تمجروحها عن ايضاح تلك الظواهر فكان لا بد من ان يلتحق بها بعض القضايا الجزئية او الاحكام المفردة .

هذه التوطئة البسيطة اردنا ان تقدمها لنشرح بعض النموذجات الرياضية التي وضعها الباحثون لايضاح ظاهرة الهجرة الداخلية وقياسها . وتظهر محاولات تطبيق النموذجات الرياضية عليها جازبا من جوانب التطور في تطبيق الرياضيات على العلوم الاجتماعية .

لقد ظن الباحثون منذ منتصف القرن التاسع عشر انهم يستطيعون ان يضعوا قوانين او نظريات عامة للهجرة . لم درس رافنشتاين Ravenstein ظاهرة الهجرة في التكتل . وقد درس من المجتمعات الاخرى سنة ١٩٠٦ ، ولخص نتائج دراسته في سبع قضايا يمكن ان تعتبر مجموعا ضربا من النموذجات السكونية المشتقة من الواقع . وهذه الاحكام او القوانين هي الآتية :

١ - اغلب المهاجرين يؤثرون الامكنة القريبة من اماكن الشئمة قل المهاجرون .

٢ - الناس الذين هم على مقربة من المدن الكبيرة يهاجر بعضهم إليها حين تزدهر الموارد الاقتصادية فيها ، والفراغ الذي يتركونه في أعمالهم يملؤه مهاجرون ريفيون يأتون من الأماكن القاصية في البلاد .

٣ - كل تيار للهجرة يقابله تيار معاكس يمثله .

٤ - أهل الحضر أقل اندفاعاً نحو الهجرة من أهل الريف .

٥ - كلما كانت الهجرة قريبة أرى العنصر الاتنوي فيها على الدكور .

٦ - تقدم الصناعة يزيد في معدلات الهجرة .

٧ - رغبة الناس في تحسين أحوالهم الاقتصادية أقوى حافز لهم على الهجرة . هذا إلى جانب حوافز أخرى غير مؤكدة .

لقد مر نحو تسعين سنة على بيان تلك العلاقات ، وما زال أكثرها سليماً وإن كان غير حتمى . ومن المعلوم أن الأمور الاجتماعية وعلاقاتها الجارية إنما هي رهن التغير الدائم خلال الزمان بتغير الأحوال ، فهي « لا تدوم على ديمية واحدة ومنهاج مستقر » كما كان يقول ابن خلدون .

وكانت ميكانيك نيوتون مسيطرة على عقول العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بحسب أن يمكن اعتمادها في مختلف الاعتبارات ومتفاوتات البحوث ، فقبِلوا في إيضاح ظاهرة الهجرة بينها وبين قانون تجاذب الكتل سواء كانت مغناطيسية أو غيرها . ولما كانت الكتل هنا عبارة عن المدن والأرياف زعموا أن تيار الهجرة متناسب طردياً بين كتلتين قطبيتين من السكان أو مركزين لهم ، والكتلة هنا عدد السكان في كليهما ، ومتناسب عكسياً مع مربع المسافة :

$$Y = \frac{K \cdot X^2}{P^2}$$

يعتبر **ذيف Zipf** أن توزيع السكان في بلد ما ينظمه توازن قوتين متضادتين : قوة التنوع ، تيسر نقل المواد الأولية تيسيراً اقتصادياً إلى مراكز الإنتاج ، وقوة التوحيد ، تنظم نقل السلع والغلات إلى المستهلكين . فالتوزيع الحاصل يجعل نفقات النقل في حدها الأدنى : وهي نفقات نقل السلع والأشخاص . ويختار العلاقة $Y = \frac{K \cdot X^2}{P^2}$ ، فيطبقها على طائفة كبيرة من

الأرقام التي تتعلق بوسائل الإعلام والمواصلات « كالتلغرافات والخطات الهاتفية وحمولات السكك الحديدية والباصات والطائرات » في داخل الولايات المتحدة . وقد عمد باحثان آخران هما **جون. ك. ستوارت John, Q. Stewart** و **وليام وارتز William Warntz** من أنصار ما نفعوه بالفيزياء الاجتماعية إلى استعمال العلاقة في رسم ما دعوه مصورات القوى الكامنة لتوزيع السكان مستندين إلى التشابه بين علاقات ذيف ونيوتون . وهناك خطوط متساوية الكمون كما في الفيزياء .

ولما درس **تيودور أندرسون** Th. Anderson مؤخرًا احصاءات الهجرة في الولايات المتحدة اعتبر العلاقة هي $\frac{ك \times ك}{ب} \times ث$ ، ووجد أن (ب) فيها تتغير من ٤.٥ الى ٣.٣ . فالقيم الضئيلة

تتعلق بهجرة أهل المدن ، والقيم المرتفعة تتعلق بهجرة أهل الريف ، وأنها بوجه عام هبطت بعض الشيء في غضون قرن (من ١٨٥٠ الى ١٩٥٠) . ومن الواضح أن (ثا) في العلاقة يمثل عددا ثابتا آخر .

تلك العلاقة التي هي نموذج رياضي تدعى علاقة باريتو زيبف أحيانا نسبة الى العالم الاقتصادي المشهور باريتو وإلى الباحث الذي عاود معالجتها . وهو نموذج بُني أول الأمر على اعتبارات نظرية محض . ولا شك أنه هو وأمثاله لا يشف عن سداد الفروض التي يستند إليها إلا بعد عدد واف من الأمثلة التي ينطبق عليها .

ثم إن الذي يسوغ وجود (ك) و (ل) في البسط (أو الصورة) هو أولاً أن عدد الراغبين في الهجرة بالمكان الأصلي متناسب طردا مع عدد سكانه ، وإن عدد وظائف العمل الفارغة في المكان المقصود متناسب أيضا مع عدد سكانها .

يبد أن هذا الفرض الأخير معرض للنقد ، وهو أنه إن كانت تلك الوظائف الفارغة متناسبة في المكان المقصود مع عدد سكانه فذلك حين تكون حركة الهجرة قائمة على التعويض . أما حين تنشأ وظائف عمل جديدة في المجتمع الأصلي أو المجتمع الآخر فلا بد من تغير ذلك التناسب . وربما كان الأفضل في دراسة هجرة الغرباء الى البلد المقصود أن نعتبر (ل) ممثلة لعدد الغرباء فيه لا لعدد سكانه .

ثم إن علاقة باريتو - زيبف تقدم لنا نظرة دقيقة في التجاذب بين سكان منطقتين . ولا شك أن تيار الهجرة من منطقة مسماة الى منطقة ثانية تختلف شدته عنها من المنطقة الثانية الى الأولى . ولكن هذا الاختلاف يمكن تلافيه بتغيير العددين الثابتين حسب اعتبار النزوح من المنطقة أو القدوم إليها .

نموذج الهجرة هذا من مزاياه البساطة . ومن السهل معرفة المتغيرات الداخلة فيه ، ولذلك كثر استعماله مع تعديلات متعددة واعتبارات متفاوتة مشتقة من مجرد النظر أو مبنية على الواقع .

يبد أن باحثين آخرين اقترحوا نماذج أخرى طبقوها على الهجرة . ولا بد ههنا من إيراد بعضها لإفادة . وهي تعطي نتائج قريبة من دستور باريتو زيبف ، ولكنها تقتضي إدخال عدد أكبر من الثوابت . ويزداد سداد تطبيقها مع زيادة هذه الثوابت .

اقترح غ. كغورف G. Kulldorf علاقة أسية على الشكل التالي :

$$تي = ثا - ل (ه - ب)$$

حيث (تي) عدد المهاجرين من المكان الأصلي ، (ثا ، ل ، ه) ثوابت موجبة وحيث البعد بين البلدين ب // ه ، وط هو العدد الأسّي في اللوغاريتم الطبيعي (e) .

$$\text{ثم اقترح علاقة ثانية على الشكل : } \frac{\text{ثا}}{\text{ب}} = \frac{\text{ط}}{\frac{-(\text{لوب} - \text{ر})}{\text{ب}}}$$

حيث ب < ١ . و (ثا ، ر ، ي) ثوابت ، (لو) اشارة الى اللوغاريتم .

ان ا. هـ. جونسن O.H. Johnson ينظر الى الهجرة على انها سيال يصدره مركز وتمتصه
بيئة هي السكان المقيمين في المكان المقصود . والعلاقة عنده هي : $\frac{\text{ثا} - \text{ط}}{\text{ب}} = \text{تي}$

(ط) العدد الاسي في اللوغاريتم الطبيعي ، (ر) ثابت الامتصاص ، (ب) البعد ، (ثا) عدد ثابت .

وكل من هذه العلاقات النموذجية قد تستعمل في غرض آخر غير حساب الهجرة . فقد جربت هذه العلاقة الاخيرة في دراسة انتشار غبار الطلع من الازهار .

وقد تقدمت هذه الدراسات حين استطاع س. ا. ستوفر سنة ١٩٤٠ ان يقترح نموذجاً رياضياً استغنى في التعبير عنه من ذكر المسافة الجغرافية المباشرة ، فانترض ان عدد المهاجرين الى مسافة مسماة بتناسب طرذاً مع عدد « وظائف العمل المروضة » في نهاية المسافة ، وعكسا مع مجموع وظائف العمل المروضة في خلال هذه المسافة .

هنا تقع المشكلة في تعريف وظائف العمل المروضة وحسابها . وكل ما يمكن فعله هو حساب مجموع المهاجرين الذين وصلوا الى المنطقة وكانوا مقيمين بها في فترة الزمن المتجرة ايا كان مصدر هجرتهم ، وهو ما اعتمدته ستوفر نفسه . والتعبير الرياضي لهذا النموذج هو :

$$\text{تي} = \frac{\Delta \text{س}}{\text{س}}$$

(تي) هو دائماً عدد المهاجرين من المكان الأصلي المقيمين في المكان المقصود ، ($\Delta \text{س}$) عدد وظائف العمل المروضة في المكان المقصود ، (س) عدد الوظائف المروضة في الدائرة التي مركزها نقطة تمثل المكان الأصلي ونصف قطرها ب الذي هو البعد الجغرافي . ويتمثل المكان المقصود بشريط دائري عرضه ($\Delta \text{ب}$) محصور بين دائرتين متحدتي المركز نصفا قطريهما ب - $\frac{\Delta \text{ب}}{2}$ ، ب + $\frac{\Delta \text{ب}}{2}$ ، فتكون ($\Delta \text{س}$) عدد وظائف العمل المروضة في هذا المكان الشريطي ، (س) عدد الوظائف المروضة في دائرة ثالثة متحدية المركز مع الدائرتين الأولىين ونصف قطرها (ب) .

وقد اقترح ستوفر نمطاً آخر لنموذج الهجرة الرياضي اخذه ووسعه الباحثان اومرغال Omer Galle وكارل تاوبير Karl Taeuber نكتفي بالاشارة اليه خوف الاطالة .

وقد نجح تطبيق هذين النموذجين على الهجرات الامريكية نجاحاً كبيراً ، ولكنهما لم يمتنعاً عن النقد ولا سيما حول ما يراود بالوظائف المروضة . فقد اتسعت الصناعة اتساعاً كبيراً في منطقة ما ، فلا يشغل بعض الوظائف فيها وهكذا اذا حسبنا عدد الوظائف بشاغليها لا يكون الحساب دقيقاً . اما في المناطق الريفية فالمرعة تستطيع ان تغذي شخصاً جديداً مثلاً دون زيادة وظيفة معينة

له . فالقياس الذي يقتضي حساب العدد الكلي للمقيمين في المنطقة ربما لا يقابل العدد الحقيقي للوظائف المعروضة . ثم ان عدد المهاجرين المتوقع الذي يقيس تيار الهجرة هو جزء من العدد الكلي للمهاجرين المستعمل في النموذج والمعتمد في قياس الوظائف المعروضة . فالنتيجة يتضمنها الفرض .

وثمة نموذجات رياضية للهجرة غير ما سبق تتناولها من جهة تطورها وبديل شدتها في خلال الزمن ، وهذه يمكن ان ندعوها تطويرية . وقد اقتصرنا على النموذجات القليلة الالفة اذ كانت تستعمل على القليل ، المهم من المتغيرات كعدد السكان وعدد المهاجرين والبعد بين البلدين وعدد وظائف العمل المعروضة .

وللنموذجات اصناف كثيرة منها النظرى ومنها الوصفي ، منها السكوني ومنها التطوري ، منها الحتمي ومنها الاحتمالي ، وهلم جرا .

ومجمل الكلام ان عدد المهاجرين المتبادل بين منطقتين تابع طردا لقوة النبد في المكان الاصلي ، وقوة الجذب في المكان المقصود ، وعكسا للبعد الجغرافي اى المسافة المكانية او لعدد الوظائف المعروضة في الطريق وهو ما يمكن تسميته بالبعد الاجتماعي .



القسم الرابع

الهجرة في البلاد العربية

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث ، فاذا نظر اليها على انها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظر الى الدول القائمة فيها اعتبرها هجرة خارجية دولية . اما الموقف الاول فيسوّفه ان الشعب فيها يكاد يكون واحدا ، وقد اختلط بعضه ببعض في غمار التاريخ مكونا بلقته وثقافته وحضارته وعاداته ومأخيه وامجاده وآلامه وآماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من ارسخ شعوب الدنيا كيانا واعمقها وجودا في الارض وفي السماء .

واما الموقف الثاني فيسوّفه ان لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على ارضها وعسوية في هيئة الامم ونظاما اقتصاديا وسياسيا يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين تلك الدولات (التصغير هنا التحجب) ، لان اقامة الحواجز لا تستطيع ان تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية ولا ان تمش الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن ان تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى اليادين . واذا كانت أوروبا على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها ومأخيهها وتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالوكب الانساني الحضاري لا بد من ان تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات متعددة وان بقيت السيادة الكاملة لكل منها مصونة ومحصنة .

وهكذا لا مندوحة من دراسة الهجرة في كل دولة منها . وحقا تكاد تكون الهجرة على الرغم من تشابهها فيها من بعض الجوانب متفاوتة الخصائص جدا . ويحتاج تأمل الهجرة في كل دولة من تلك الدول وإيضاح سماتها الى افاضة واسعة في تأمل الأرقام وتبين التطور الاقتصادي والديمقراطي والاجتماعي والسياسي . وهذا يؤلف موضوعا يحتاج الى معالجة مستقلة ربما تناح في المستقبل القريب . ومع ذلك يجدر ذكر بعض الامثلة البسيطة مع الأرقام للدلالة على جوانب من تلك الهجرة . وربما لا تميز هذه الأرقام أحيانا بين العرب والاجانب من المهاجرين .

لقد غدت بعض البلاد العربية مناطق تستقبل المهاجرين كإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت وليبيا والسعودية بسبب التطور الاقتصادي المتصل باستخراج النفط على ان بعضها الآخر كان وما زال مصدرا للمهاجرين كسوريا ولبنان . ونحن هنا نلم ببعض خصائص الهجرة في الكويت ثم في سوريا ولبنان .

الكويت بلد من اصغر البلاد في العالم ودخل الفرد فيه من أعلى المستويات . من أهم اللامع الديمغرافية لهذا البلد وجود عدد كبير من المهاجرين غير الكويتيين فيه وقد جاؤوا في العدد السكان الأصليين في السنين الأخيرة . والجدول الآتي يعطي فكرة واضحة عن عدد المهاجرين والأصليين في البلاد وهو يبين التركيب السكاني في أربعة تعدادات للسكان بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٧٠ .

السنة	الكويتيون	غير الكويتيين	المجموع
١٩٥٧	١١٣١٢٢	٩٢٨٥١	٢٠٦٤٧٣
١٩٦١	١٦١٩٠٩	١٥٩٧١٢	٣٢١٦٢١
١٩٦٥	٢٢٠٠٥٩	٢٤٧٢٨٠	٤٦٧٣٣٩
١٩٧٠	٣٤٧٣٩٦	٣٩١٢٦٦	٧٣٨٦٦٢

معدل النمو السنوي العام في الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٧٠ يبلغ ٣ ، ١٠ ٪

وإذا طرحنا معدل النمو الطبيعي في الكويت وهو حول ٣ ، ٥ ٪

حصل معدل فيض الهجرة وهو ٨ ، ٦ ٪ وهو معدل مرتفع جدا .

ويرجع هذا الارتفاع الى ان الاقتصاد الوطني يتسع اتساعا كبيرا لا مندوحة فيه من الحاجة الى الطاقات البشرية . وهذا برغم ارتفاع معدل النمو الطبيعي وتشجيع الدولة له وهو من أعلى المعدلات في العالم .

ان معظم النشاط الاقتصادي يقوم به المهاجرون والجدول الآتي يبرز التفاوت بين الكويتيين والمهاجرين ذكورا وإناثا في عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ .

النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان			النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان			
المجموع	إناث	ذكور	المجموع	إناث	ذكور	
١٨٤٨	٠٠٦٦	١٨٠٢	١٩٠٦	٠٤٥	١٩٤١	الكويتيون
٤٥٤٢	٣٤٧	٤١٤٥	٥٧٤١	٣٤١	٥٤٤٠	غير الكويتيين
٣٢٤٨	٢٤٣	٣٠٤٥	٣٩٤٥	١٤٩	٣٧٤٦	المجموع

ويتبين مما سبق أن سكان الكويت يزدادون بسرعة كبيرة وأن أكثر من نصف هذا الزيد يعود إلى الهجرة . ولا شك أنه في التقديرات السكانية لمستقبل الكويت تبرز الهجرة الخارجية عاملا من أهم العوامل الديمغرافية . هذا وإن شدة تيار الهجرة إلى البلد ومنه مسألة تتعلق بسياسة الدولة وهذا أمر لا يمكن توقع اتجاهاته المقبلة على الرغم من أن البلاد ما تزال بحاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة في النشاط الاقتصادي لسنتين عديدة .

الهجرة من سوريا ولبنان

هذه الهجرة قديمة العهد نسبيا وكانت في الغالب تابعة لتيارات الهجرة العالمية كلما حصل تيار حمل معه فريقا من السكان . والذي كان يسهل هذه التبعية في السابق الاستعمار والضيقة وتجوئة البلاد وقلة الاستقرار الاجتماعي وسوء توزيع الثروة . كان اللبنانيون يطلق عليهم السوريون ولهذا قرنا ذكر سوريا ولبنان معا في الهجرة .

حملت الهجرة أول الأمر السوريين إلى بقية البلاد العربية ولا سيما مصر فاقاموا في القاهرة والاسكندرية وهذا شيء طبيعي يجرى في بلاد شقيقة . وكان في طليعة المهاجرين المثقفون هربا من الضغط التركي لم التجار والعمال . ولما أن وصل تيار الهجرة العالمية في أواخر القرن التاسع عشر إلى سوريا بدأت الهجرة تستخف السوريين دفعات قوية إلى الولايات المتحدة حول سنة ١٨٩٠ ولكن القوانين التي وضعتها هذه البلاد في سبيل الهجرة خفف تيارها . وقد جذبت المكسيك السوريين واللبنانيين إليها حتى بلغ عدد المهاجرين منهم خمسة عشر ألف نسمة سنة ١٩٢٧ . ثم صدف المهاجرون عنها للاضطهادات الدينية التي نشبت فيها ، وتحول القسم الأكبر من المهاجرين إلى أمريكا الجنوبية ولا سيما البرازيل والأرجنتين والأوروغواي ، وبعضهم توقف في بوليفيا وفنزويلا . ثم شرع السوريون ينتجعون افريقية ولا سيما بعد سنة ١٩٣٥ . وقد حدثت الهجرة إلى الشرق الأقصى بطريق غير مباشر إذ يسافر السوري مبدئيا إلى الولايات المتحدة ويجمع بعض الثروة ويعبر المحيط الهادي . وقد تحصل الهجرة إلى تركيا وإيران في بعض الظروف . وما تزال الهجرة تجري نحو أمريكا الجنوبية وافريقية وذلك أن بعض الأسر كانت قد هاجرت إليهما فهي تدعو بعض أفرادها أو أقربائها إلى اللحاق بها . ويكاد يوجد السوريون واللبنانيون الآن في أغلب بقاع الأرض .

وقد بلغت شدة الهجرة من لبنان وسوريا بالنسبة لعدد السكان حدا جعل الشعراء يشيدون بالأوبة ويتغنون بالحنين إلى الوطن . وربما استطاع الشعراء أن يقولوا في بعض الأحيان ما لا يقوله النثر في بيان آفات الهجرة . يقول الشاعر القروي :

رثوا على الوطن القديم ترابه	هذا أقل البر يا فيّسابه
ذاك الأهاب الفض تحت ثيابكم	بالأمس كان أهابه وثيابه
تعجبون لضغفه ولو أنكم	فيه لكنتم جنسده وحرا به
ليت الأحبة عند ازماع النوى	للفرب أقلق دونهم أبوابه
أو ليت برّ الشام أدرك أن نسي	سفر الزنود الصامرات خرابه

ويصعب احصاء المهاجرين السوريين واللبنانيين في العالم ويزيد في صعوبة هذا الاحصاء ان فريقا من المهاجرين تجنسوا بالجنسية الأجنبية . ويقدر عدد المهاجرين بمليون نسمة تقريبا اكثرهم في أمريكا الجنوبية .

ويؤثر المهاجر مكانا على مكان في هجرته اذا كان له قريب او صديق فيه والا تبع ذلك مجرى الصروف . وللأخبار المروية عن مكان الهجرة وأحوال الأبيين منه والقوانين الموضوعة حول ذلك تأثير كبير . وتألفت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والأدب والعلم والسياسة والاقتصاد . وأدب المهجر الحديث يذكرنا بأدب الأندلس القديم . ولكن تلك الجاليات بدأت تنصهر في المجتمعات الأجنبية شيئا فشيئا وتنسى ذرياتها لغتها الأصلية بالتدريج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا إليها ما عدا فريقا آخر الإياب إلى الأوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح أمامه أبواب العمل والرزق فالتكأ إلى أهليه . ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي أسرته فرجع حامدا جمعه .

ويبدو من ذلك ان لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات الم جمعة في البلاد الأجنبية . ويضاف أن المهاجرين لا ينسبون أهليهم فهم يمدونهم بالمال في الحين بعد الحين . وتلوح هذه الهجرة الديمغرافية مستتبعة لهجرة مالية أضعف منها تجري بعكس اتجاهها . هذا زيادة على الدعاية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون ببلادهم الأصلية .

بيد ان مساوئ الهجرة أكثر من مزاياها اذا انها تلحق بالبلاد نقصا في القوى الديمغرافية والاقتصادية . فالمهاجرون كما سلف شباب أو كهول أي هم في سن العمل والإنتاج . فلما هاجروا أضاعت البلاد فيهم رجالا منتجين ، كما تضاعف فيهم مجموع النفقات التي استلقتها تربيتهم وتنشئتهم وريعتهم ، ولا تفي بهذه الخسارة لروثهم الم جمعة ان عادوا بها إلى البلاد أو أرسلوا نصيبا ضئيلا منها إلى أهليهم ، لأنهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتروا في بعض المشروعات أو استصلحوا الأرض فزادوا رأس المال هناك . ولولبشوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد . ومع ذلك فثم مجال للمناقشة تتلامح جوانبه مما سبق في القسمين الأول والثاني من هذا البحث ، وهناك دراسات حديثة تقدر توزع اللبنانيين في العالم سنة ١٩٥٩ على الشكل الآتي :

أمريكا الشمالية	٤٢٠ ٠٠٠	(منهم ٤٠٠ ٠٠٠ بالولايات المتحدة)
أمريكا اللاتينية	٦٩٢ ٠٠٠	(منهم ٣٥٠ ٠٠٠ بالبرازيل) (و ٢٠٠ ٠٠٠ بالأرجنتين)
أفريقية	٧٠ ٠٠٠	(منهم ٣٠ ٠٠٠ في مصر)
أوقيانوسية	٢٧ ٠٠٠	
أوروبا	٥ ٠٠٠	
جزر الكناري أو الخالدات	٣٥٠	
آسية	١٥٠	(وربما كان هذا التقدير منخفضا)
المجموع :	١٢١٤ ٥٠٠	

أى حوالي مليون وربع المليون . وفي تلك السنة نفسها كان عدد اللبنانيين اولى الجنسية اللبنانية في لبنان نفسه مليوناً ونصف المليون . وعندئذ يؤلف المهاجرون من اللبنانيين ٤٥ ٪ تقريباً من الرعايا اللبنانيين عامة . فكان لبنان المثقف الممول يضع رجلاً على الجبل في أرضه ورجلاً على اليابسة في ما وراء البحار .

أما الهجرة الخارجية الى سوريا ولبنان فقد كانت على دفعات بسبب بعض الكوارث كهجرة الأرمن على أثر مذابحهم سنة ١٨٩٤ و ١٨٩٥ وبعد تسلط حزب تركيا الفتاة على الحكم . وكذلك هجرة الآشوريين سنة ١٩٣٣ . بيد أن أهم هجرة تلقتها سوريا بل أكبر أفرقتها من البلاد العربية منذ هجمات النتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . أنها غزو سياسي وعسكري تحت ظاهر قومي لأناس ينتسبون لقوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى براء منه . وقد تسببت بجللاء الفلسطينيين الى مختلف البلدان . ولعل في الأفاق العالمية ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة .

هنالك هجرة دائمة بين سوريا ولبنان ، ولبنان هو الذي يتلقى الآن هجرة العمال السوريين لارتفاع مستوى الأجور وللنشاط الاقتصادي الواسع فيه . وقد تلقى أيضاً هجرة الاغنياء والتمويليين السوريين مع رؤوس أموالهم المهربة اليه .

وربما كان من المناسب هنا أن نورد تحقيقاً احصائياً بالعينة أجرته مديرية الإحصاء المركزي ببيروت على القوى العاملة بلبنان في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ ظهر فيه أن عدد الغرباء من عرب واجانب يبلغ حوالي ١٧٧١٧٥ يؤلف المهاجرون العرب منهم ٩٠ ٪ والاجانب ١٠ ٪ . ذلك العدد لا يشمل الفلسطينيين الذين يقدر عددهم بحوالي ١٣٠٠٠ ممن يعيشون في المخيمات ، وربما وصل عددهم الآن الى ٣٠٨١٧٥ . أما مديرية الأمن العام فتقدر عدد الغرباء المقيمين في لبنان بنحو ٥٦٤٠٥١ بالاستناد الى تصريحات الإقامة وتجديدها . منهم ٢٧٩٥٤١ سوريا و ١٩١٢١٧ من بلاد عربية أخرى و ٩٣٢٩٨ من الاجانب .

وإذا قدر سكان لبنان في تلك السنة بما يقرب من ٢٠٣٩٥٠٠٠ فان الغرباء يؤلفون ربع السكان تقريباً (٢٣ ٪ بالضبط) .

أما الهجرة الداخلية في سورية ولبنان فلانحة من الالام بها . اذ يهاجر الفلاح او القروي الى المدينة متى تعلم نظراً لبون الكبير بين حياة المدن وحياة الريف ولا تساع مجال العمل في المدينة . والريف السوري في الداخل على جماله مهمل للغاية . ولا يكاد المرء يجد فيه الضرورى من الشروط الصحية والاجتماعية والثقافية . ولوائه اخذ بالعباية والانعاش والتعهد وحسنت الأحوال الصحية والاجتماعية فيه لا يمكن خلق تيارات للاصطياف والاستجمام على الأقل . ومن الناس من يغلب عليهم حب الطبيعة والميل الى الهدوء والتأمل فيؤثرون المقام في الريف ولو بعض اشهر السنة .

ويهاجر الفلاحون الموزون الى المدينة طلباً للعمل والرزق والكفاف ويقومون عادة في ضواحيها قبل ان تنالها يد التنظيم . وقد يتشرد أطفالهم ولا يزال التشرد في بلاد الشرق احدى الآفات الكبيرة . وتبيّن أنه لا تقع على الافراد فحسب بل على المجتمع البلى لا يعالجه معالجة ناجعة .

وفد كثير من الفلاحين وفودا موسميا رجالا ونساء الى المناطق الزراعية في موسم الحصاد ليقوموا به لتقاء بعض الاجور الزهيدة فتمتلي بهم اسواق المدن قادمين اليها من القرى القريبة. وهم حين يكونون في ساحات حمص وحماة بانتظار عقود العمل يقومون برقصات الدبكة الشعبية الجميلة الشائقة للتسلية . وقد ضوّلت هذه التحركات بسبب دخول آلات الحصاد الحديثة .

كذلك نجد في بادية الشام تحركا موسميا للبدو الرحل في رعاية الماشية . وفي لبنان الشمالي هجرة موسمية طرقة يترجع بها سكان قرية زغرتا بين هذه القرية ابان الشتاء للأعمال الزراعية وبين قرية اهدن في الجبل للكسب حين يحل موسم الاصطياف .

وسوف يورع الفلاحون في سوريا على اراضي الجزيرة توزيعا منظما بعد الانتهاء من سد الفرات .

على انه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الا ان نوه بتيار من الهجرة جديد وفريد في نوعه الى البلاد المتقدمة الفنية ، وهو هجرة العقول . ونخص هنا في البحث هذه الهجرة من سوريا .

هجرة العقول

ذلك ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة ، كما ان نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة . ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية المتقدمة تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة . ولهذا طفقت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث .

ان الحاجة التي نؤمها بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الأخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذي أفادته الدول المتقدمة في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليها قد عزز ذلك التيار ودعمه . وكل زيادة في جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر . فقد املت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصر ذلك التيار ولا سيما ان تلك العناصر في الغالب ناشئة فنية تومض بالوعد . فكان فقدانها في بلادها الأصلية « ضيئاً على ائالة » كما يقول المثل العربي القديم . وليس ما يمنع تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من رأس المال البشرى هذا من ان تضع لامتناسه خططا سرية وعظيمة باطنة وظاهرة .

ان هذا التيار في الحقيقة يندفع من مختلف البلاد متقدمة ومتخلفة بحسب الاغراء المادي والظروف الملائسة . ولكن نسبة الكفايات الفكرية المهاجرة في مجموع السكان لدى بعض البلدان المتخلفة اعلى منها لدى البلدان المتقدمة حين تهاجر طائفة من علمائها ومفكرها الى بلاد اوسع منها وأكثر اغراء . ذلك ان بعض الكفايات العلمية في ايطاليا وفرنسا والكثيرا وغيرها تهاجر الى الولايات المتحدة ، على حين ان كثيرا من العناصر الفنية العلمية تهاجر من بلاد العالم الثالث الى مختلف نواحي العالم المتقدم .

والذي يسترعى الانتباه ازدياد عدد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى أوروبا والولايات المتحدة . وهذه الزيادة ناشئة عن قوتي جذب وجذب كما هو شأن تيارات

الهجرة عامة . قوة النبل في البلد الاصلية ضالة الرواتب والاجور واضطراب الاحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع التلمذ الناشي عليها ان يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضالة فرص العمل العلمي وانخفاض المردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية في بحثه وانتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف في البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والعنوية واعداد هائل من الاجهزة والمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتسام الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون اسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي .

هذه الهجرة التي تحتاج البلاد الاصلية تستنزف خيراتها وتطبخ بمواردها وتعوق تقدمها . ان العالم الذي اعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه ان يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه في تقدمها ، وذلك انما يتم في سني حياته المنتجة ، فكان هجرته الى البلاد الفنية هدية من فقير معلم جمع بثلث معيشته وقدمها للموسر الثرى ليزيد ثراه ويساره ، ولا سيما ان تلك السنين المنتجة سوف تمضي في البلد المقصود .

هنالك تخمينات كثيرة حول تلك الهجرة في مختلف البلدان ، ربما يكون من المناسب ان نعطي مثالا واحدا على هذا النوع من الهجرة في بلد عربي على الاقل وهو سورية .

تخمين هجرة الكفايات العلمية في الفترة ١٩٥٦ - ١٩٦٩

الطب	الهندسة	العلوم الاساسية	الطب البيطري	الزراعة	الاسنان طب	الصيدلة	المجموع
٢٧٦٩	٣٠٤٩	١٣٩٢	٤٤	٤١٩	١٩٥	٣١٤	٨١٨٢
٦٥٪	٦١٪	٥٩٪	٥٠٪	٣٩٪	٣٤٪	٣٣٪	٥٧٪

ارقام تخمينية
نسبة المهاجرين
بين المختصين
في القطر

من هذا الجدول يبدو ان اكثر من نصف المختصين في سوريا يغادرونها الى بلد آخر واذا علمنا ان البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة في تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبين لنا العواقب النافسة لهذه الهجرة والواقف العاقبة لاولئك المهاجرين . ولا بد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها واسباغ التكريم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر . وقد كان للعلم في ماضي البلاد العربية اعلى مكانة واجل شان واسمى غاية . ومثل هذا الفن واقع في بقية البلاد العربية . وهو من العقبات العالية التي تترتب في سبيل تقدمها السريع . ولا شك ان الخسارة من هذا النوع تستلزم خسارات تالية متفاقمة . ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يخرج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدان افراد متعددين ، ومبالغ طائلة وامكانيات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغي اعطاء العالم مكانة طليعية في تنمية المجتمع ، وتقديم افضل الاحوال المناسبة ، وعونه على القيام باعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفي المجال العالمي ان امكن .

خاتمة

ان سمات الهجرة منذ الحرب العالمية الأخيرة تبدلت تبدلا عميقا في انحاء الأرض فقد اتسع اشراف الدول على تيارات الهجرة واستحكم ، ولا سيما عقب الفوضى التي استمرت طوال الحرب في هذا الشأن فأصبح تيار الهجرة في العصر الحاضر موجها أو مأخوذاً على الأقل بالضبط اى بالتشجيع أو التعويق حسب سياسات الحكومات . ثم ان اقواما جلوا عن مساكنهم وأوطانهم بسبب الحرب الفاشية وبعض الاتفاقيات التي تلتها بعضهم استقر ، وبعضهم آب أو يرغب في الأوبة ، وبعضهم رغب في هجرة جديدة . كل ذلك جعل هيئة الأمم المتحدة وطائفة من الدول تولي عنايتها الاشراف على أولئك الناس واعادتهم الى مواطنهم الأصلية ، أو تتكفل مساعدتهم بوجه عام ، ولو الى امد محدود ، سواء كانوا لأجنيين أو منقولين أو مهاجرين . وربما كان من المناسب في ختام هذا البحث ان تلقي نظرة على الهيئات العالمية والحكومية التي تجعل نصب امينتها الاشراف على تلك التحركات . فلقد تألف اكثرها بغاية هذا الاهتمام الى زمن محدود وهي :

- ١ - لجنة الحكومات لعون اللاجئين (C.I.R.)
 - ٢ - ادارة هيئة الأمم المتحدة للعون والتعمير (U.N.R.R.A.)
 - ٣ - الهيئة العالمية لعون اللاجئين (I.O.R.) وقد خلفت المنظمين السابقتين من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان مركزها جنيف .
 - ٤ - اللجنة العليا للاجئين في هيئة الأمم المتحدة (U.N.H.C.) اتت بعد الهيئة السالفة ونجّلت مدتها عدة مرات .
 - ٥ - هنالك جمعية غير تابعة لهيئة الأمم مركزها جنيف تهتم بالمهاجرين الأوربيين وتساعدهم في هجرتهم وهي (C.M.E.) تكونت سنة ١٩٥١ بمبادرة من الولايات المتحدة .
 - ٦ - وثمة لجان أضيق مما سبق تهتم بالمهاجرين . منها لجنة في المجلس الأوربي ، ومنها منظمة الصليب الأحمر وغيرها .
 - ٧ - وفي البلاد العربية وكالة غوث اللاجئين (UNRWA) تهتم باللاجئين الفلسطينيين . ولكنها على خلاف المنظمات السابقة لا تستطيع ان تساعدهم على الرجوع الى اوطانهم . وجل عملها تخفيف البؤس الذي هم فيه .
- تلك المنظمات على الرغم من اعمالها الجيدة لا تسمو الى غاياتها المحيدة .

والخلاصة ان الانسان بطبيعته يتداوله عاملا النبد والجذب الاجتماعيان ، وتتنازعه قوتان : النزوع الى الحركة والتنقل والتغير ، ثم الميل الى الهدوء والاقامة والمحافظة . فهو يضطرب ويقيم ، ويتحرك ويسكن ، وهلم جرا . وهو اينما حل وحيثما رحل يجازف ويركب الاخطار . وينجم عن كل ذلك ظواهر انسانية واجتماعية ليست الا جزءا من الظواهر الطبيعية

العامه . لقد استعرنا فيما سبق لفظ التيار من بعض الظواهر الطبيعية كتيارات البحار والسيول والمد والجزر للتعبير احيانا عن ظاهرة الهجرة . ولما كانت الظواهر الطبيعية تحتاج الى التنظيم للاستفادة منها ولتوزيع خيراتها الثرية بسلامن التعرض لافاتها المدمرة ، كذلك نرى لزوم الاهتمام بالظواهر الانسانية التي تنضوي الهجرة في نطاقها ، لكي تنظم ، ان في الداخل وان في الخارج ، تنظيمًا معقولا يتحامي الفتن ويتلافى الكوارث ويمنع الحروب ويدفع النزاع ويسعى لوثام المجتمعات واسباغ العدالة والسلام في ربوع امانا الأرض .

على اننا في عصر يؤذن كل شيء فيه بالتفسير نظرا للتطور الكبير في التكنولوجيا . ولا احد يستطيع ان يستشف المستقبل وأن يتوقع ما فيه من مفاجآت . وربما جاء يوم تفتح فيه في باب الهجرة فصل يتعلق بعدد النازحين الى كواكب جديدة ملائمة .



معجم المصطلحات

فرنسي	انكليزي	عربي
Probabilité	Probability	احتمال
Statistiques migratoires		
Statistiques de migrations	Migration statistics	احصاء الهجرة
Minorité	Minority	أقلية
Rapatriement	Repatriation	إعادة للوطن
Surpeuplement		
Surpopulation	Over-population	انكشاف السكان
Accommodation	Absorption	امتصاص
Production	Production	إنتاج
Intégration	Integration	اندماج
Fusion	Fusion	اتصاف
Acculturation	Acculturation	انطباع ثقافي
Chômage	Unemployment	بطالة ، تطل من العمل
Exchange de population	Population exchange	تبادل السكان
Sous-peuplement		
Sous-population	Under-population	تخلخل السكان
Autorisation de séjour	Residence permits	تصاريح الإقامة
Autorisation de travail	Labour permits	تصاريح العمل
Coexistence	Coexistence	تعايش
Ségrégation	Segregation	تفرقة السكان
Assimilation	Assimilation	تمثل
Colonie	Colony	جالية
Exode	Exodus	جلاء
Déterminisme	Determinism	حتمية
Migration totale	Gross migration	
Volume total des migrations	Volume of migration	حجم الهجرة
Mobilité	Mobility	حرارة ، تحرك ، انتقال

الهجرات وتحركات السكان

فرنسي	انكليزي	عربي
Mouvement naturel de la population	Natural population movement	حركة السكان الطبيعية
Mouvement général de la population	General population movement	حركة السكان العامة
Cycle économique	Business cycle	دورة التجارة
Visas d'entrée	Visas Entry permits	سمات الدخول ، تأشيرات الدخول
Voyageurs	Travellers	سياح
Politique migratoire	Migration policy	سياسة الهجرة.
Migration nette	Net migration	صافي الهجرة او ميزان الهجرة
Balance migratoire	Balance of migration	
Pression démographique	Population pressure	ضغط السكان
Expulsion	Expulsion	الطرد
Méthode de mouvement naturel	Vital statistics technique	طريقة الاحصاء الحيوي
Méthode des coefficients de survie.	Survival ratio technique	طريقة نسب التمتع
Durée d'absence	Length of absence	طول الغيبة
Emigration nette	Net emigration	فيض الهجرة
Immigration nette	Net immigration	فيض الهجرة
Listes de passagers	Passenger records Passenger lists	كشوف المسافرين
Réfugié	Refugee	اللاجئ
Durée de présence	Duration of stay	مدة الإقامة
Niveau de vie	Level of living Standard of living	مستوى المعيشة
Enquête	Survey	مسح
Taux de natalité	Birth rate	معدل المواليد
Taux de mortalité	Death rate	معدل الوفيات
Lieu d'origine	Place of origin	المكان الاصل

فرنسي	انكليزي	عربي
Lieu de départ	Place of departure	مكان المغادرة
Lieu de destination	Place of destination	مكان الوصول
Lieu d'arrivée	Place of arrival	الكان المقصود
Personne déplacée	Displaced person	المنقول
Accroissement naturel	Natural increase Natural growth	نمو طبيعي
Accroissement brut	Total growth	نمو عام أو كلي
Modèle	Model	نموذج
Migration	Migration	الهجرة
Immigration sélective	Selective immigration	الهجرة الانتقائية
Immigration	Immigration	الهجرة الى البلاد (القوم)
Migration de retour	Return migration	هجرة الإياب
Migration externe	External migration	هجرة خارجية
Migration extérieure		
Migration interne	Internal migration	هجرة داخلية
Migration intérieure		
Migration internationale	International migration	هجرة دولية
Emigration	Emigration	هجرة من البلاد (التروح)
Migration saisonnière	Seasonal migration	هجرة موسمية

المراجع العربية عامة

- ١ - المعجم الديموجرافي التمدد اللغات - وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٦
- ٢ - عيد الكريم اليافى - في علم السكان - جامعة دمشق ، ١٩٥٩ .
- ٣ - عيد الكريم اليافى - فصول في المجتمع والنفس - دمشق ، ١٩٧٢

خاصة

- ٤ - القوى العاملة في لبنان - تحقيق بالمينة - مديرية الإحصاء المركزي بيروت ، ١٩٧٢ .

الانكليزية عامة

- 1 — Multilingual demographic dictionary — English Section — United Nations Population studies, n°29, 1958.
- 2 — The determinants and consequences of population trends, ST/SOA/Ser.A/17 United Nations, 1953.
- 3 — Bogue, D. J., Principles of demography, U.S.A., 1969.
- 4 — Shryock, H. C., Siegel J.S. and Associates, The methods and materials of demography, Bureau of Census, U.S.A., second printing, 1973, Vol. 2.
- 5 — Spiegelman, M., Introduction to demography, Revised edition, U.S.A., 1970.

خاصة

- 6 — Demographic measures and population growth in Arab Countries, Cairo demographic centre, n°I, 1970.
- 7 — Eckwa — Demographic situation in Kuwait, pop. con. 5/E, 1974.
- 8 — Galle Omer R. and Taeuber Karl E., Metropolitan migration and intervening opportunities — American sociological review, 1966. Vol. 31.
- 9 — Hagerstrand, T., Migration and area Lund studies in geography, n°13, 1957.
Geographic measurements of migration — Entretiens de Monaco en Sciences Humaines, 1962.
- 10 — Jerome, H., Migrations and business cycles National bureau of economic research, N.Y. 1926.
- 11 — Khoury, F., From village to suburb Order and change in greater Beirut University of Chicago Press, 1974.

- 12 — Murad, J., Brain drain
Ecwa/pop. con. 1 up 6/E., 1974
- 13 — Olsson, G., Distance and human interaction
a migration study, Geografiska annaler, vol. 47, 1965.
- 14 — Ravenstein, E.G., The laws of migration, Journal of the royal statistical society,
1885 and 1889 (U.K.).
- 15 — Stouffer, S., Intervening opportunities : A theory relating mobility and distance,
American sociological review vol. 5, n°4, 1940.
Intervening opportunities and competing migrants Journal of regional science,
vol. 2, 1960.
- 16 — Zipf, G.K., The P1 P2/D Hypothesis : On the intercity movement of persons
American sociological review, vol. 11, 1946.

الفرنسية عامة

- 1 — Dictionnaire démographique multilingue
Volume français — Nations Unies — Etudes démographiques n°29
- 2 — Hugon, P., Démographie, Dalloz, 1971.
- 3 — Landry, A., Traité de démographie, Ed. Payot, 1945.
- 4 — Sauvy, A., Théorie générale de la population, vol. 2, Ed. PUF, 1966.
- 5 — Courbage, Y. et Fargues, Ph., La situation démographique au Liban Tome 2
Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1974.

خاصة

- 6 — Courgeau, D., Les champs migratoires en France
I.N.E.D., cahier n°58, 1970.
- 7 — Dollat, L., Migrations humaines, „ Que sais-je ? ”, n°224, PUF, 1965.
- 8 — Safa, E., L'émigration libanaise, Univ. St. Joseph, Beyrouth, 1960.
- 9 — Touma, T., Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les maronites au
Liban du XVIIe siècle à 1914.
Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1971.
Un village de montagne au Liban (Hadeth-el-Jobbé), Paris et la Haye, 1958.

د. عبد الكريم أحمد

مشكلة التزايد السكاني وأثرها في تطور التنمية في البلاد النامية

شهدت الاموم القليلة الماضية ظاهرة ملفتة للنظر ، وتثير قدرا كبيرا من القلق ، هي التزايد السريع في عدد السكان في العالم . اذ تؤكد كل التوقعات أن عدد سكان العالم ، الذي يبلغ الآن أقل من أربعة آلاف مليون نسمة ، سيصل في غضون ٤٠ عاما الى حوالي ثمانية آلاف مليون نسمة ، اي الضعف تماما اذا استمرت الزيادة بالمعدل الراهن . ورغم أن هذه الزيادة ليست مفاجئة ، بمعنى انها جاءت نتيجة لموامل طبيعية معروفة تماما، فانها برزت على السطح في السنوات الأخيرة ، واتخذت ابعادا دفعت عددا كبيرا من الخبراء الاجتماعيين والاقتصاديين الى الاصرار على انها باتت خطيرة فعلا وارتفعت أصواتهم تحذر من نتائجها ، وتدعو بشدة والحاح الى

تكتيل الجهود لمواجهة ، وتؤكد ان « الانفجار السكاني » يهدد الحضارة البشرية كلها بكارث
فظيمة اذا نحن فشلنا في ايجاد الحلول الملائمة بها . (١)

ومنذ اربع سنوات اصدرت الأمم المتحدة دراسة عن حالة سكان العالم ، كانت العبارة
الاولى التي استهلكت بها هذه الدراسة هي : « يمكن ان نقول عن يقين ان العصر الحديث شهد
تحولا ثوريا حقيقة في ميزان تكاثر الجنس البشري . . . فلم يتسن قط في اى عهد من عهود التاريخ
خفض معدل الوفيات بين البشر الى المدى الذى تسنى في غضون السنوات المائة الأخيرة » . وتعقد
الدراسة مقارنة بين البلاد النامية والمتقدمة في هذا الصدد ، فتشير الى ان هذه الظاهرة السكانية
(هبوط معدل الوفيات) بدأت في البلاد المتقدمة . منذ منتصف القرن الماضى ، اما في البلاد
النامية فقد برزت الظاهرة الى الوجود « بروزا أكثر نجائية واكبر حجما ابتداء من منتصف القرن
الحالى فحسب » .

وقد يساعدنا على توضيح ابعاد هذه الزيادة ان نعرض صورة لتطور الزيادة السكانية في العالم
مستقاة من نتائج دراسة نشرتها منظمة اليونسكو في مايو الماضى ضمن حملة التنبيه والتحذير التى
اشرفنا عليها .

كان عدد سكان العالم في مطلع القرن الماضى ، اى منذ اقل من ١٧٥ سنة ، حوالي الف مليون
نسمة ، ثم زاد هذا العدد الى ٢٠٠٠ مليون نسمة في عام ١٩٣٠ ، ثم الى ثلاثة آلاف مليون في عام
١٩٦٠ ، وسيصل الى حوالي ٤٠٠٠ مليون في العام القادم . اى ان عدد سكان العالم ، الذى
زاد حوالي ٣٠٠ مليون نسمة فقط في ستة آلاف عام ، ثم زاد حوالي ٧٠٠ مليون نسمة في الـ ٢٠٠
عام التالية ، (٢) زاد حوالي ١٠٠٠ مليون في ١٣٠ سنة (من ١٨٠٠ الى ١٩٣٠) ، ثم الف مليون
أخرى في الـ ٣٠ سنة التالية من ١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم الف مليون ثالثة في حوالي خمسة عشر عام
فقط .

ان هذه الصورة الرقمية لاشك مقلقة ، وهي تفسر الى حد كبير تشاؤم القائلين بأنه اذا
استمرت الزيادة بهذا المعدل فان سكان العالم سيصلون الى ٦٥٠٠ مليون نسمة قبل نهاية هذا
القرن .

وكما اشرفنا ترجع هذه الزيادة الى عملية طبيعية بحثة لا تنطوى على عنصر المفاجأة ، فكما
تقدم الإنسان في مدارج الرقى صار أكثر قدرة على محاربة العوامل التى تجعل عمر الفرد أقل
مما يستطيع ان يصل اليه بحكم تكوينه البيولوجي، مثل المجاعات والكوارث الطبيعية والأمراض

(١) من اهم الشواهد على الخطورة التى يسببها الضباب على نتائج هذه الظاهرة ان الانبياء طالعنا مؤخرا بان
هيئة الأمم المتحدة دعت الى عقد مؤتمر عالمي يضم ممثلين من ١٥٠ دولة للنظر في مواجهة آثارها . وقد تم انعقاد هذا
المؤتمر في النصف الثاني من شهر أغسطس الماضي ، وقال كورت فالدهايم في خطاب افتتاحه « ان هذا المؤتمر أخطر
وأهم مؤتمر دولي تنعقد الهيئة - إذ يتعين على المؤتمر ايجاد حلول مناسبة لشكلة الانفجار السكاني المصحوبة بانخفاض
المواد الغذائية في جميع أنحاء العالم مما يهدد بحدوث مجاعات رهيبية وخاصة في الدول النامية » .

(٢) يقدر الضباب ان عدد سكان العالم قبل استقرار الجنس البشري في الزراعة (اى منذ حوالي ٨٠٠٠ عام) كان
لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة باى حال من الاحوال ، بل لعله كان القرب الى خمسة ملايين . وأنه بلغ ٢٠٠ مليون نسمة منذ
التي عام فقط .

الوبائية ، والحد من آثارها المدمرة . وأدت ذلك بدوره الى انخفاض معدل الوفيات وإطالة الفترة التي يستطيع فيها الفرد ان ينجب . وقد تحقق هذا التقدم كله تقريباً في المائتي سنة الماضية — وهي الفترة التي زاد فيها عدد السكان من ١٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مليون نسمة دون ان نتنبه لمفزي هذا التصاعد السريع في معدل الزيادة . وهكذا وجدنا أنفسنا لأول مرة في التاريخ البشري ، أمام « ثورة ديموجرافية » تهدد في رأى البعض ، بكارثة ماحقة .

ولسنا في حاجة ، ونحن حيال هذه الصورة الى تأكيد ان مثل هذا التزايد في السكان له آثار عميقة على الجهود المبذولة لنشر التعليم وتحسين نوعيته ، وبخاصة في البلاد النامية . فالجانب التربوي من الصورة يشير الى ان مجموع من هم في سن الدراسة من (٥ الى ١٩ سنة) قد زاد في الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨ حوالي ٢٠٠ مليون تلميذ ، اي بمعدل زيادة سنوية ٢٣٥ (٢) ويرى الخبراء ان متوسط الزيادة السنوية في عدد هذا القطاع من السكان سيصل الى ٣٦ مليون نسمة سنوياً طوال الربع قرن التالي، اي ان على الاجهزة التربوية ان تستعد لمواجهة صبه اضافي على ما تحمله الآن يقدر بحوالى الف مليون تلميذ قبل ان ينتهى هذا القرن .

فإذا ادخلنا في اعتبارنا ان هذه الأرقام تنصب على العالم كله ، الدول المتقدمة والنامية على السواء ، وانها تمثل في الواقع عبئاً بالنسبة للبلاد النامية أكبر بكثير مما تمثله بالنسبة للبلاد الأخرى ادر كنا بعض ابعاد المشكلة بالنسبة لنا ، وعندما نضيف الى ذلك الأعباء الإضافية التي تقع على عاتق الاجهزة التربوية في المنطقة التي يعيش فيها كما سيأتي تفصيلاً والمواقف الكثيرة الأخرى التي تقلل من فعالية أية جهود تبذل في سبيل التغيير الاجتماعي عموماً فيها ، تصبح في وضع افضل لدراسة هذه المشكلة وتقدير متطلبات مواجهتها .

لقد حاولنا في هذه المقدمة ان نعرض الخطوط الرئيسية للقضية المطروحة ، ويبقى أمامنا الآن ان نتناول كلا من هذه النقاط بشئ من التحديد فيما يتصل بالبلاد النامية ، ولكن قبل ان نخوض في هذا الجزء من البحث ينبغي ان نشير الى حقيقتين هامتين ، تتعلق اولاهما بالقضية ككل ، والأخرى بظروف البلاد النامية بصفة خاصة .

ان هذا التزايد المدل في عدد سكان العالم ، الذي بلغ من حدته ان صار يطلق عليه « **الانفجار السكاني** » ، ليس ظاهرة منعزلة ، بل هو جزء من تطور واسع النطاق يمثل ثورة حضارية شاملة في جميع مناحي الحياة ، الاقتصادية والعلمية ، واكبتها — ونجم عنها — تغير ضخم في الخريطة السياسية للعالم وبخاصة وضوح انقسام الجنس البشري الى مجموعتين متميزتين من الشعوب — شعوب متقدمة وأخرى نامية (٤) . وقد صاحب هذا التطور الضخم تطور آخر على صعيد الوعي الاجتماعي والفردى هو في الحقيقة الذى يفضى على كل التطورات الأخرى مفزاهما الحالي .

(٣) زاد عدد سكان العالم في نفس الفترة أكثر قليلاً من ٥٠٠ مليون نسمة اي بمعدل ٢٪ سنوياً وهو اقل من معدل زيادة لتلاميذ المدارس كما نرى .

(٤) يرى البعض ان أهم المشكلات التي يواجهها العالم الآن ثلاث : زيادة الهوة بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة . زيادة العدد المطلق للذين . الانفجار السكاني (وقائع اليونسكو ١٩٧٢) . ولكن من الجلي ان هذا الرأى لا يمس الا بعض جوانب الصورة .

والحقيقة الأخرى التي نريد الإشارة إليها هنا هي أنه من الخطأ أن نتصور أن كل المشاكل التربوية التي تعانيها البلاد النامية ترجع أساساً إلى ما يطلق عليه الانفجار السكاني ، فهناك عوامل أخرى عديدة يتطلب الأمر عرضها حتى تأتي الصورة متكاملة ويمكن الإحاطة بالمشكلة وجلوورها إذا أن البلاد النامية تختص بمجموعة من السمات المشتركة التي لها أثر كبير في تفاقم المشكلة وفيما يترتب عليها من ظواهر تربوية خاصة، ولا مندوحة أمام الباحث من التعرض لهذه السمات إذا أراد أن يعطي انطبعا صحيحا من القضية ، خصوصاً وأن هذه السمات تترك آثارا مباشرة وغير مباشرة في كل مناحي النشاط البشري ، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، في هذه البلاد بحيث لا يمكن استيعاب خلفية أية قضية من قضاياها دون الإلمام بها . (٥)

فكل البلاد النامية تقريبا تعرضت مثل السيطرة الأجنبية ، واستغلال اقتصادي شوها نموها واضعفا بنيتها الاجتماعية والاقتصادية بصورة تكاد تكون متماثلة فيها جميعا ، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نعزو كل ما بين البلاد النامية من تشابه في السمات إلى هذا العامل وحده ، إلا أنه لا ينبغي أن التشوية الذي تعرض له نموها بسببه كان له أثره الواضح فيها جميعا .



كان متوسط الواليد في البلاد النامية والمتقدمة على السواء حتى منتصف القرن الماضي يبلغ حوالي ٤٠ في الألف والوفيات حوالي ٣٠ في الألف ، ثم بدأ معدل الوفيات ينخفض في البلاد المتقدمة حتى وصل الآن إلى أقل من ١٠ في الألف، بينما ظل ثابتا تقريبا في البلاد الأخرى حتى منتصف القرن الحالي ، أي منذ أقل من خمسة وعشرين عاما ، إذ ظل معدل الوفيات فيها فوق ٣٢ في الألف . ولكننا لا نلبي أن نفاجأ في السنوات القليلة الماضية (ومما يسترعى الانتباه أن هذه الفترة ذاتها هي الفترة التي بدأ فيها انحسار الاستعمار الغربي) بهبوط معدل الوفيات في هذه البلاد إلى النصف تماما ، أي حوالي ١٦ أو ١٧ في الألف ، كما صاحب ذلك بطبيعة الحال ارتفاع في متوسط الأعمار من حوالي ٤٠ سنة إلى أكثر من خمسين سنة .

وبذلك صارت الحصة التي لدينا الآن هي أنه إذا كان الجنس البشري كله يتزايد في الوقت الحاضر بما يقدر بحوالي ٧٠ مليون نسمة سنويا ، فإن أكثر من ٥٥ مليون منها في البلاد النامية وحدها ، بينما لا تتجاوز الزيادة السنوية في البلاد المتقدمة في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان أكثر من ١٤ مليون ، أي بنسبة ٤ إلى ١ .

وفيما يتصل بالأطفال، وهم العنصر الرئيسي حاليا في الجانب التربوي من المشكلة ، فإن معدل الوفيات بينهم في البلاد النامية هبط من ٢٣٠ إلى ١٤٠ في كل ألف طفل ، بل أن بعضها هبط فيه

(٥) لا يلوننا هنا أن نسجل أن ذلك لا يعني أن كل البلاد النامية متطابقة بعضها مع بعض ، فهناك اختلافات واضحة بينها وتفرق كل منها ، أو كل مجموعة منها ، بعدة خصائص يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند محاولة اكتشاف الطول الملائمة لاشكائها . ولهذا السبب عمدنا إلى تفصيل مكان خاص للبلاد العربية في هذا البحث . وفيما يتصل بالسمات المشتركة بين البلاد النامية ، انظر مثلا « ميد الكريم أحمد » « القومية والمذاهب السياسية » القاهرة ١٩٧٠ . حيث يوجد بحث مسهب حول الموضوع والآراء المختلفة فيمناقشة بالراجع التي تعالجه .

المعدل الى مادون ٣٠ في الألف - حوالى المعدل السائد في بعض اكثر البلاد تقدما . (٦) ويعنى ذلك ان على الأجهزة التعليمية ان تواجه زيادة سنوية في مجموع من يجب تعليمهم تبلغ ٤ ٪ على الأقل من هذا المصدر وحده، بالإضافة الى الزيادة الأصلية .

كما يعنى من ناحية أخرى، لها صلة مباشرة أيضا بالواقع التربوى في البلاد النامية ان اية محاولة لتحسين مستوى الميثة وتحسين أوضاع الطبقات الأقل دخلا ، التي تتألف منها الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد ، مقضى عليها بالفشل الى حد كبير ، او على الأقل لا يمكن ان تصيب سوى نجاح ضئيل جدا ، لان ارتفاع معدلات الزيادة السكانية تبتلع معظم نتائج الجهود المبذولة في هذا السبيل ، كما يبدو بوضوح من نتائج التجربة الجزائرية والمصرية في هذا المجال ، وهما من التجارب الرائدة التي كتلت فيها كل امكانيات المجتمع لتحقيق هذا الهدف .

وعندما نعود الى الجانب التربوى البحث نجد في معظم البلاد النامية عاملين آخرين مهمين ساعدوا على ذلك التدفق الزهيب الذى شاهده المدارس فيها .

ففى مواجهة الاستعمار الأجنبي كان مطلب « الاستقلال » والتخلص من النير الأجنبي والاستغلال الاقتصادي المصاحب له أولوية خاصة على الأهداف الأخرى في هذه البلاد ، فكرست له شعوبها أكبر قدر من جهودها على حساب غيره من الأهداف ، ومن بينها العمل على تعليم أبنائها ، فظلت النسبة الغالبة بينهم محرومة منه . وقد حصلت معظم هذه الشعوب على استقلالها بعد نضال طويل ودام في كثير من الحالات ، وكان على رأس هذه الحركات النضالية عادة قيادات من المثقفين من أبناء البلاد ممن لا ينتمون الى « طبقة » اجتماعية معينة ، وبحكم أن هذه القيادات تفتقد الى التأييد الطبقي في دعم حكمها للبلاد بعد الاستقلال فانها لم تجد أمامها سبيلا سوى السعى للحصول على تأييد الجماهير . وفى الغالب كان من أهم ما قدمته القيادات الجديدة لجماهير شعوبها ائاحة فرصة التعليم وتيسير سبله وتخفيض نفقاته ، أو رافعا كلية عن عائق التعليم . ومن الجلى ان ذلك أدى الى تدفق سيل ضخم من الطلاب والتلاميذ مما القى عبئا ثقيلا تنوء به أكتاف الأجهزة التربوية في هذه البلاد .

وعلىنا ان نضيف الى ذلك مصدرا آخر من مصادر زيادة عدد من يجب أن يتمتعوا بالخدمات التعليمية في البلاد النامية، ونعنى به ظاهرة الإقبال على تعليم الفتيات في مناطق كثيرة من هذه البلاد . فالى عهد قريب كان عدد البنات في المدارس أقل بكثير من الأولاد ، وكان ذلك يرجع الى عروف الأهل عن ارسال بناتهم الى المدارس لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية . ولكن في الفترة الأخيرة بدأت تظهر في عدد كبير من هذه المناطق اتجاهات اجتماعية تؤدي الى زيادة الاهتمام بتعليم البنات ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي زيادة مجموع التلاميذ من ناحية ، وضرورة تغيير بعض جوانب مهمة من النظام التعليمي ذاته من ناحية أخرى . وكلها أمعاء تعتبر جديدة ، ومفاجئة ، على الأجهزة التربوية خصوصا في المناطق التي مازالت تطالب بأن يكون للاناث مدارس خاصة لا يختلطن فيها بالذكور .

(٦) جمعت هذه المعدلات والتوسعات وما سبقها ، من نشرات هيئة الأمم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة ومن النشرات الإحصائية الرسمية المتاحة التي تصورها بعض الدول .

هذا ، ويلعب التركيب السكاني من الناحية العمرية دورا غير صغير في زيادة المشاكل التربوية حدة في البلاد النامية . اذ ان نسبة من هم في سن الدراسة التقليدية - اى اولئك الذين بين الخامسة والخامسة عشرة على الأقل - السى مجموع السكان تزيد في هذه البلاد عنها في البلاد المتقدمة كثيرا ، ففي الاولى تبلغ هذه النسبة حوالي ٢٣ في المائة - وتصل في البلاد العربية الى ما يقرب من ٢٧٪ - ولا تكاد تصل في الثانية الى اكثر من ١٨ في المائة . وبعملية حسابية بسيطة نجد **اولا** : ان المجهود الذى يجب ان تبذله الاجهزة التعليمية في البلاد الاقل حظا تزيد - عندما يتساوى عدد السكان - حوالى ٥٠٪ عن المجهود الذى يلقى على عاتق الاجهزة المقابلة في البلاد الاكثر تقدما بسبب هذا العامل وحده ، وثانيا ، بنفس العملية الحسابية البسيطة نستطيع ان نتبين ان في مثل هذه الاوضاع تكون نسبة ما يبقى بعد ذلك من السكان القادرين على الانتاج - اى اولئك الذين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين - اقل في البلاد النامية منها في البلاد الاخرى ، وبالتالي فان عدد من يمكن توفيرهم للقيام بالخدمات التربوية ، وكذلك ما يمكن تخصيصه من امكانيات مادية ، اقل بكثير ايضا . واذا اخذنا في الاعتبار ما نعرفه من ضعف انتاجية الفرد في بلادنا عموما ، وانه لا يستطيع عادة ان يستمر في العمل الى الخامسة والستين (بل ان متوسط العمر نفسه لا يصل الى هذا السن (٧) ، وكذلك ان نسبة كبيرة من الاناث في كثير من المناطق النامية لا يسمح لها حتى الآن بالعمل او تعمل في اعمال غير منتجة مثل الخدمة في المنازل ، لعزوف الكثيرين عن تعليم بناتهم كما اسلفنا ، استطعنا ان نتصور مدى العبء الكمي وحده ، الذى تروح تحته الاجهزة التعليمية في البلاد النامية .

وقد اندفعت معظم المجتمعات النامية ، بعد ان تخلصت من الاستعمار مباشرة ، ولم يحدث ذلك الا منذ عهد قريب جدا بالنسبة لعدد كبير منها ، في صراع مرير ضد عوامل التخلف الداخلية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . واعتبر قادة هذه المجتمعات ان التغلب على الجهل بالذات ونشر التعليم على اوسع نطاق هو الضمان الوحيد للمحافظة على الاستقلال الذى حققته بلادهم باعتباره الوسيلة الرئيسية في القضاء على العاملين الاخرين وفي تحقيق التنمية التى تتيح لشعوبهم الحياة الانسانية الكريمة .

فاذا أضفنا الى ذلك ان القيم الاجتماعية تغيرت كثيرا في معظم هذه المجتمعات بعد ان دخلت في مضمار الدول المستقلة ، وخصوصا تلك التى مرت بثورات اجتماعية ، بحيث ان « الجدارة » - التى تحولت في البلاد النامية الى مجرد الحصول على « الشهادة المدرسية » - اخذت تحل محل الانتماء الاجتماعي في بعض المجتمعات ومحل المال في مجتمعات اخرى ، في توفير الامتياز الاجتماعي والاقتصادي . وقد جعل هذا التحول في القيم التعليم الوسيلة الرئيسية للرفق الاجتماعي والاقتصادي بالنسبة للأفراد في هذه البلاد ، وبذلك برز عامل آخر من العوامل التى حدثت

(٧) يبلغ متوسط عمر الفرد في البلاد المتقدمة ٧١ سنة ، ولا يتجاوز ٥٨ سنة في البلاد النامية .

بالجماهير الى التدفق على المدارس . ودفعت القيادات الى زيادة هذا التدفق اشتعالا باعتبار ان التعليم هو العصا السحرية التي يمكن ان تحقق للمجتمعات سبل التقدم (٨) .

الا ان البلاد النامية في اندفاعها نحو التعليم لم يكن لديها الوقت الكافي ، ولا الامكانيات الفنية والمادية ، لتطوير نماذج تربوية خاصة بها تسد احتياجاتها الحقيقية ، ولذلك عمدت في اغلب الاحيان الى التقليد الاعمى للنماذج الأوروبية باعتبارها خلاصة ما بلغته « التربية الحديثة » من تقدم وفعالية . بل كثيرا ما رأينا بعض التربويين في بلادنا يقبلون على نماذج ثبت فشلها فعلا في البلاد التي وضعتها اصلا . كما سارع بعضهم الى التقاط أى اتجاه جديد في تكنولوجيا التربية يظهر في البلاد المتقدمة - التي تختلف ظروفها وواقعها تماما - حتى قبل ان تثبت اصحابه انفسهم من صلاحيته . وقد أدى ذلك الى ارتفاع نفقات التعليم بشكل يتجاوز كل الحدود المتصورة للعائد منه ، كما كان عاملا مساعدا في القضاء على النماذج التعليمية الخاصة التي كانت اصلا في هذه البلاد - مثل « الكتاب » في بعض البلاد العربية - وكانت هذه النماذج ذات قيمة تربوية لا تنكر ولكنها تحطمت باسم « تحديث التربية » دون ان تبدل أية جهود حقيقية لتطويرها بحيث تتفق مع التغيرات الكبرى الأخرى التي تمر بها المجتمعات النامية .

واكثر من ذلك ، كان من نتائج هذا الاندفاع في تقليد النماذج التربوية الغربية ان أصبح النظام التعليمي في البلاد النامية اكثر تأثرا باحتياجات البلاد المتقدمة التي نقلت عنها سذه النماذج منها باحتياجاتنا التي تختلف تماما . وقد كان لذلك آثار ضارة في كثير من الاحيان ، ليس اقلها انها أرغمتنا على زيادة الاعتماد على البلاد المتقدمة أكثر فاكتر ، في حين أصبحت لدينا أعداد ضخمة من الخريجين في مجالات لا حاجة بنا اليها ، ونقص واضح في المجالات التي نحن في أمس الحاجة اليها فعلا ، مما نجم عنه مشكلة عميرة الحل هي مشكلة بطالة ذوى المؤهلات العليا وما يترتب عليها من آثار اقتصادية وسيكولوجية واجتماعية سيئة . (٩)

(٨) يعبر أحد خبراء التربية في معرض شرحه للجهود المبذولة في تحديث « التربية » في جنوب آسيا عن وجهة نظر مقاربة قائلا : ان التعليم يمكن ان يعبر أكثر العوازل لصالحية في تضييق الهوة مع الوقت بين الرخاء والفقر ... إذ برغم ان التعليم لا يستطيع ان يساعد كثيرا على التريب بين الدخول على المدى القصير ، فإنه بالتأكيد يستطيع ان يفعل الكثير في الرأى حياة الأفراد كما في حياة الأفياء . ويضم رايه بان « المجتمعات النامية تستطيع ، بموعونة النوع الملائم من التربية ان تحقق اكتفاء ونواظا قد لا يستطيع تحقيقها بعض المجتمعات الثرية » .

Prem kirpal ,, Modernization of Education in South Asia ; The Search for Quality,, International Review of Education No. xvii 1971.

(٩) أوردتها تقرير لجنة فور ص ٢
ويروم ان الكتاب يسجل عدة اتجاهات في هذه العبارة قد لا تتفق معه في بعضها ، الا ان حديثه ينهي عن مدى ما يملكه بعض التربويين في البلاد النامية على التعليم كنموذج للأرض التي تعاني منها هذه البلاد وكوسيلة لتحقيق أهدافها .

(٩) يلعب بعض علماء الاجتماع الى ان الدفاع للبلاد النامية في الاخذ بالتربية على الانماط الغربية أدى الى عدة نتائج ضارة بهذه البلاد أ - تركيز التنمية في المدن على حساب الريف مما يؤدي الى اتساع الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدن والريف ب - صارت الانماط الانتاجية والاستهلاكية تعكس حاجات الأفياء أكثر مما تعكس حاجات الفئات الأفقر حالا ، ج - تزايد الاعتماد من جانب البلاد النامية على البلاد الفنية ، وتناقص القدرة على الاعتماد على الذات د - تحكم ايدي قليلة في الانتاج واستئثار الجبهة الساحقة من التأثير فيها .

Peter Harper : ,, Prospects " Vol. III No. 2 1973 P. 192.

والرأى هنا ينصب علم 'تنمية' بمعناها الواسع الا اننا نرى باعيننا انه ينطبق تماما على التنمية في المجال التربوي .

المسلم بها ان النظام التعليمي عندما يكون مجرد تطبيق لنماذج قامت في بيئة مختلفة يثير مشاكل ويترك فجوات تحدث اضرارا بالغة على كل المستويات ويعرقل النمو الطبيعي للمجتمع الذي يتعلق به الامر .

وعلى اكتاف هذا النظام التعليمي المشوهة والأجهزة الفاسدة القيت اعباء الزيادة المتصاعدة في اعداد التلاميذ الناجمة عن الانفجار السكاني والعوامل الأخرى التي اشرنا اليها . وقد بدل العاملون في الخدمات التعليمية في بعض البلاد النامية - بمعونة مشكورة من جانب بعض المنظمات الدولية - جهودا بطولية لمواجهة هذه الأعباء وبرغم ذلك كانت النتائج مخيبة للآمال وغير مرضية بالنسبة لجميع الاطراف ، وتعللت الأصوات من كل جانب وتوالت الاتهامات بالعجز والتقصير وكثرت الحلقات والقمعرات واللجان المتخصصة لاستقصاء الأسباب وعلاج الحالة .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رجال التربية والمشتغلين بالخدمات التعليمية في البلاد النامية ومحاولة تبرئتهم من هذه النتائج التي خيبت الآمال البراقة الأولى المعقودة على التعليم . ولكننا لابد ان نسجل بعض العوقات وجوانب النقص والأعباء الإضافية الملقاة على عاتق الأجهزة التعليمية في البلاد النامية حتى تتضح الصورة أكثر امامنا .

أولاً : ان كل البلاد النامية تقريباً تمر ، بحكم ظروفها وتطلعها الى التقدم ، بفترة من الانتقال السريع من مجتمعات زراعية تقليدية الى مجتمعات تلعب فيها الصناعة دوراً متزايداً في الإنتاج . ويصاحب هذا الانتقال عادة قلقة اجتماعية واقتصادية عميقة الاثر في تكوينها ، كما تتطلب تدريباً شاقاً على وسائل الإنتاج الحديثة ، وتكوين المهارات والخدمات التي تفتقد اليها واللازمة لسير المجتمع الحديث في جميع المجالات - ومن الجلي أن العبء الأكبر في القيام بهذه المهام يقع على عاتق الأجهزة التربوية بمختلف أنواعها ، بما فيها أجهزة تعليم الكبار .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الظاهرة ان اللفتة على التنمية الاقتصادية السريعة بهدف رفع مستوى المعيشة لدى شعوب طال حرمانها من كثير من مستلزمات الحياة ، دفع البلاد النامية الى تكثيل الجهود في هذا الاتجاه وتكريس كل الامكانيات المتاحة لهذا الغرض . وتحت هذا الشعور ربط النظام التعليمي في كثير من الحالات بالاحتياجات الاقتصادية في اطار ما يسمى « بخطة العمالة » . ومن المعروف ان محاولة تنظيم البناء التعليمي بما يتفق مع متطلبات التوسع الاقتصادي (الذي قد يتطلب مثلاً زيادة عدداً للفنيين المتوسطين اكثر مما يتطلب زيادة عدد المؤهلين تأهيلاً جامعياً) تواجه عادة عقبات شديدة ناجمة عن تطلع معظم التلاميذ الى الالتحاق بالتعليم العالي والجامعي ، لما يعود عليهم به من مؤايد اقتصادية واجتماعية ، حتى عندما تكون الامكانيات المتاحة غير كافية لاستيعابهم جميعاً . وعلى الأجهزة التعليمية ان توفق بين هذه الاتجاهات المتعارضة والا تكون قد فشلت في جانب هام من مهمتها .

ولا يسعنا هنا الا الاشارة الى ان الضعف المشهود للامكانيات المادية والفنية في البلاد النامية يجعل قيام الأجهزة التربوية فيها بهذه المهام اصلاً بطريقة مرضية مشكلة عسيرة جداً ، خصوصاً

بالنظر الى أن من السمات المشتركة بين هذه البلاد أنها جميعا تقريبا تعاني هجرا شديدا في معظم الكفاءات الفنية والإدارية الضرورية للقيام بالمهام التي تتطلب تدريبا علميا طويلا ومكلفا (١٠).

ثانياً : لا يقتصر العبء الملقى على عاتق الأجهزة التعليمية في البلاد النامية على القيام بالمهام الخاصة السابقة ، بالإضافة الى المهام العادية التي تقوم بها الأجهزة المقابلة في البلاد المتقدمة ، وفي ظل ظروف اجتماعية قاسية وتقص شديد في العناصر الأساسية في العملية التربوية ، هناك مهمة أخرى ضخمة تقوم بها هذه الأجهزة تتطلب جهودا شاقة وخبرات متعددة ومرونة كبيرة في مواجهة مشكلاتها ، وهي مهمة محو الأمية . فمن المعروف إن الأمية متفشية بشكل وبائي في معظم البلاد النامية ، وقد بدأت بعض هذه البلاد في محاربة هذا المرض منذ عشرات السنين ، ولكن ورغم كل الجهود المبذولة في محو الأمية يزداد العدد المطلق للأميين عاما بعد عام (وإن كانت نسبتهم لمجموع السكان تقل) بسبب النمو السكاني الكبير . ففي حين كان عدد الأميين في العالم ٧٠٠ مليون في عام ١٩٥٠ صار يقدر بأكثر من ٧٨٣ مليون في ١٩٧٠ - أي بعد عشرين عاما من الجهود المتصلة في هذا المجال . فضلا من أن نتائج التجارب العديدة التي نشأ عنها في ميدان محو الأمية في مختلف البلاد النامية أثبتت بما يدع مجالا للشك أن الأساليب الحالية المستخدمة لا تحقق الأهداف المرجوة ، ولا حتى ما يقرب منها في المدة المحددة لها . وما زال أمام التربويين الذين يعملون في هذا الميدان أن يبذلوا جهودا أكبر لبلورة الأساليب المثلى التي تحقق نتائج أسرع وأكثر ثباتا .

ثالثاً : لقد تبين بالأحصاءات الدقيقة أن هناك خسائرا كبيرة في الطاقات والمال تحدث أثناء العملية التعليمية في البلاد النامية ، من أبرزها ترك الدراسة قبل انتهائها لأسباب مختلفة ترجع في كثير من الأحيان لأسباب اقتصادية . إلا أن قسما كبيرا من هذا الفاقد يرجع أيضا الى عيوب في النظم التعليمية يمكن تلافيها .

فالنظام التعليمي في معظم البلاد النامية مثالا يعطى أهمية خاصة لاجتياز « الامتحان » في الانتقال من سنة دراسية الى أخرى . ويؤدي ذلك الى نتيجتين مباشرتين . فهو يدفع عددا من التلاميذ الذين « رسبوا » الى الانصراف كلية عن التعليم قبل أن يكونوا قد حصلوا على شيء له قيمة دائمة وبذلك ينضمون الى جحافل الأميين ، كما تكون النفقات التي تكبدها المجتمع لتعليمهم قد ذهبت هباء . ومن ناحية أخرى لا يخفف انصراف هؤلاء « الراسبين » عن التعليم من العبء الكلي لأن أعدادا مقابلة من الذين يرسبون يتقون « للاعادة » وهم كفيلون بزيادة العبء الى ما كان عليه أو أكثر . (١١) .

ولا شك في أن جانباً غير صغير من الفاقد التعليمي الكبير الذي يزيد من تكلفة التعليم في البلاد النامية ، ويلقى أعباء من نوع خاص على المدرسة يعود أيضا الى ضعف المستوى الصحي

(١٠) من الأمثلة البارزة على ذلك أن الاستقصاء الذي أجرته اليونسكو في عام ١٩٦٦ حول الأوضاع التعليمية في أفريقيا جاء فيه أن خريجي العلوم يمشون ٢٠ كلم لكل ١٠٠٠٠ من السكان ويقابل هذا الرقم ٢٠ ، ٤ ، ٢ على التوالي لاسيا (بما فيها اليابان) وأمريكا اللاتينية والبلاد العربية .

(١١) بدأت بعض البلاد النامية في الاتجاه الى تعديل نظمها التعليمية لتتلافى هذه الظاهرة ، ولكنها ما زالت حتى الآن منتشرة على نطاق واسع وفي حاجة الى جهود جادة للتخلص منها بصورة مرضية .

بين التلاميذ ، بسبب سوء التغذية والعادات غير الصحية المنتشرة بين الفئات الأفقر حالا من سكان هذه البلاد ، وما ينجم من ذلك من ضعف عام في مستوى التحصيل والاداء بينهم . لذلك نجد ان من الواجبات الرئيسية التي تطالب بها المدرسة الاهتمام بنوع خاص بصحة روادها ، بل وتغذيتهم مجانا في كثير من الأحيان ، وما يترتب على ذلك من مجهود خاص للقيام بالمهام الكثيرة المتعلقة به .

وابعا : هناك نوع آخر من المهام التي تفرضها الظروف على العملية التربوية في كثير من البلاد النامية تتطلب جهودا اضافية وتعقد المناهج وتقتطع جزءا غير صغير من وقت وطاقات الأعداد المحدودة المتاحة من المعلمين . ففي عدد من البلاد النامية ، وبخاصة تلك التي تتألف من جماعات مختلفة لغويا أو دينيا أو سلاليا وتسعى الى دعم وحدتها ، يقع على عاتق المدرسة دور كبير في القيام بهذه المهمة وتطالب بالاسهام بنصيب الأسد عاتق اعداد سكانها لتقبل فكرة الوجود في دولة واحدة . ويكون ذلك شاقا بصفة خاصة في البلاد التي تتمتع فيها الجماعات المختلفة لغويا وتجد المدرسة نفسها مضطرة الى القيام بمهامها المختلفة بأكثر من لغتهم المحافظة على عدم المساس بأى من القيم المتباينة التي يثير المساس بها حساسيات خاصة في مثل هذه التجمعات السكانية المختلطة .

ويزداد هذا النوع من المهام تعقيدا عندما يكون على النظام التربوي في بلد من البلاد النامية ان يواجه اختلافات كبيرة في مستوى التعليم وانتشاره وكفاية عناصره بين منطقة ومنطقة داخل البلد الواحد - كما هو الحال بين المدينة والريف في الأغلبية الساحقة من هذه البلاد . (١٦)

ولا يقتصر هذا النوع من المهام على البلاد المؤلفة من جماعات مختلطة ذات خلفيات حضارية متباينة ، وهي مهام لا يدرك عادة مدى تعقدها وأثرها العميق في العملية التربوية سوى من يعانونها فعلا ، بل يشمل جانبا آخر من الجهود التعليمية في كل البلاد النامية تقريبا . فهذه البلاد كما أشرنا حظيت بالاستقلال بعد نضال شاق بحيث صارت المحافظة على هذا الاستقلال هدفا تربويا قائما بذاته ؛ ولذلك صار من واجبات المدرسة العمل على المحافظة على « الشخصية القومية » وبث « روح الوطنية » ودعم « الوحدة القومية » . وقد يبدو أن هذه المهمة ليست ذات شأن كبير بالنسبة لما أسلفنا من مشاكل ومهام ، وبخاصة ان شيئا من هذا القبيل يقع أيضا على عاتق المدرسة في البلاد المتقدمة . ولكننا نستطيع ان نشير الى أي مدى تحتل هذه المهمة مركزا متميزا بين أهداف التربية في البلاد النامية ومقدار ما تستغرقه من طاقات ووقت ، عندما نراجع مقررات المؤتمرات والحلقات التي تعرض لمشكلات التعليم وأهداف التربية في هذه البلاد ، فان مطلب المحافظة على الطابع القومي وترسيخ دعائم الشخصية القومية يعتبر مهمة ذات أولوية خاصة نجد صدها بوضوح في البرامج المدرسية والمواد الإضافية التي تلتهم جزءا غير صغير من جهود المدرسين والتلاميذ على السواء (١٧) .



(١٦) لا يقل الأمر عند الاختلاف بين المدينة والريف ، فقد توجد هذه الاختلافات بين مناطق باكملها . ففي الهند مثلا تبلغ نسبة عدد القديين في المدارس في المرحلة الإعدادية ٧١٪ في كمبالا بينما لا تزيد عن ٢٢٪ في بهار . ويبلغ الفرق أكثر من ذلك في السودان بين بعض المناطق الشمالية والجنوبية .

(١٧) انظر مثلا ما تيزو وعقراوي « التربية في الشرق الأوسط العربي » ص ٦٩٤ ، وهو ترجمة غربية لدراسة قام بها في البلاد العربية من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ . وهذا وإن كانا يتحدثان عن هذه الظاهرة أصلا في البلاد العربية فانها تشمل كل البلاد النامية باختلاف درجات نموها . ففي مؤتمر البندقية الذي عقد في ١٩٧٢ يعبر مندوب ليبيا عن القار من هذا القبيل قائلا « ان بحث ثقافة وطنية يعني تمكين البلاد من أن تجد من جديد روحها ووازنها المعنوي واعدادها لاستيعاب التقدم دون أن تلوث فيه » (وقائع اليونسكو . أكتوبر ١٩٧٢)

هذه هي بعض المهام التي تلقى على عاتق أجهزة التعليم والتربية في البلاد النامية والعقبات التي تواجهها . وهذا هو جانب من الظروف القاسية التي عليها أن تقوم بدورها في ظلها .

وعلى أن نشير هنا إلى أن « المدرسة » في هذه البلاد يفترض فيها أن تقوم بهذه المهام جميعا ، بالإضافة إلى المهمة التقليدية ، في غمرة تطور سريع لا تكاد تستطيع أن تلاحقه ، وبدون أية مساعدة جديّة من المؤسسات والوسائل التربوية الأخرى في المجتمع ، مثل وسائل الإعلام الحديثة التي يفترض فيها أنها من الوسائل الأساسية في التعليم (١٤) .

وعندما نأخذ ذلك كله في الاعتبار نستطيع أن نتصور الدلالات الحقيقية للتزايد السكاني السريع ، الذي يولد كل مشكلة من هذه المشاكل حدة ويجعل كل عقبة أكثر خطورة وأصعب حلا ، وأن ندرك مدى تأثيره في تطور التربية في البلاد النامية .

وسنحاول أن نعرض بالتفصيل نتيجة واحدة من النتائج التي تفجرت بصورة يكاد يعجز معها الجهد التربوي من تحقيق أي تقدم في البلاد النامية ، وهي مشكلة « الكم والكيف » التي تعتبر أخطر ما يواجه التربويين في هذه البلاد من قضايا .

ولكن لما كانت هذه القضايا كلها حيوية جدا وخطيرة حقيقة بالنسبة لبلادنا فإننا سنفرد السطور التالية لتسجيل دلالات ما تقدم بالنسبة للعبء .

منذ قرابة عشرين عاما التي أحد رواد التربية الحديثة من العرب محاضرة يحلر فيها من مخاطر الزيادة السكانية السريعة ويمرّوظاهرة « أن الإنسانية في كثير من أنحاء العالم تتعذب لما يعانيه الأفراد والجماعات من ألم الجوع إلى « الزيادة المطردة في السكان » . ثم ينتهي إلى أن هذه الحالة الأسيفة « حدث بأحد علماء الأنثروبولوجيا أن يتساءل : هل لنا بعد هذا أن نعيب على الاسكيمو الذين يقتلون المجانين ؟ » (١٥)

وليس بغريب أن ترتفع إحدى الصيحات الأولى للتنبيه إلى خطورة المشاكل الناتجة عن التزايد السريع في عدد السكان من بلد عربي . إذ أن عدد سكان البلاد العربية زاد في غضون الستينات الماضية وحدها بنسبة تقرب من ٣٢٪ من مجموع السكان ، أي أن العرب زادوا حوالي ٣٠ مليون نسمة في عشر سنوات بمعدل نمو سنوي ٢.٢٪ ؛ وهو معدل لا تكاد تعرفه أية منطقة أخرى

(١٤) قد يكون من المفيد هنا أن نورد بعض الأرقام التي تدل على ضعف ما يمكن أن يكون لوسائل الإعلام الحديثة من فعالية في هذا الميدان في البلاد النامية فقد قدرت نسبة الصلح في إفريقيا بنسخة واحدة لكل ١٠٠٠ من السكان ، وفي البلاد العربية ١٨ نسخة لكل ١٠٠٠ ، وفي أوروبا وأمريكا ٣٥٠ لكل ألف . وتقدر نسبة أجهزة الراديو بجهاز واحد لكل ١٠٠٠ في إفريقيا ، أما في أمريكا فعدد أجهزة الراديو أكثر من عدد السكان (١٣٣٩ لكل ١٠٠٠) . ومن أجهزة التلفزيون لا يوجد في كل البلاد النامية سوى خمسة ملايين جهاز بينما يوجد في البلاد المتقدمة حوالي ٢٤٥ مليون ، أي بنسبة واحدة إلى ٢٩ برغم من أن عدد السكان الأولي يبلغ ثلاثة أمثال الثانية .

(١٥) د . امي بظفر في محاضرة ألقاها في ٢٦ ديسمبر ١٩٥٢ بعنوان « التربية الجنسية ومشكلة السكان » نشرت في مجلة « التربية الحديثة » العدد الرابع - أبريل ١٩٥٥ . ونحن وإن كنا نختلف معه فيما يوحى به من أن السبب في الجوع الذي يعانيه عدد كبير من سكان العالم هو مجرد « الزيادة المطردة في السكان » ، إلا أننا اردنا أن نسجل هنا صيغة التحذير المبكرة هذه .

في العالم ، ربما باستثناء بعض المناطق في امريكا اللاتينية . فاعلى معدل لتزايد السكان في الفترة ذاتها في البلاد النامية الأخرى هو حوالى ٢.٦٪ ، بينما تكاد تقف الزيادة السكانية في البلاد الاكثر تقدما عند ١٪ فقط . (١٦)

وتشير الدراسة التى اعتمدنا عليها في توضيح ابعاد هذه الصورة الى انه من المتوقع ان ترتفع نسبة الزيادة السكانية في السبعينات الى اقل قليلا من ٣.٩٪ أى حوالى ٤.٨ مليون نسمة في السنوات العشر من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ .

فما هو نصيب المدرسة العربية من هذه الأرقام ؟ في عام ١٩٧٠ كان عدد من هم في سن المدرسة من أبناء العرب (بين ٥ - ١٤ سنة) يبلغ حوالى ٣٣ مليون تقريبا ، ومن الطبيعي ان نتوقع زيادة هذا العدد بصورة يقول عنها كاتب هذه الدراسة انها « زيادة خطيرة ومحرجة » خلال السبعينات ، وهى حوالى ٣٤ مليون طفل جديد . أى ان الزيادة المتوقعة خلال السبعينات ستبلغ حوالى ٧٥٪ من المجموع في عام ١٩٧٠ .

وتؤكد الدراسات التى تجرى حاليا في بعض اجهزة الاحصاء السكانى والتربوى في البلاد العربية ان هذه الأرقام غير مبالغ فيها ، بل انها تكاد تكون اقل مما تسفر عنه المؤشرات المختلفة (١٧) .

الا ان المدرسة العربية لا تستوعب كل هذا العدد كتلاميذ ، فهناك قسم غير صغير منهم ، بخاصة في المناطق الريفية والصحراوية ، لا تراهم المدارس . ولكننا نستطيع ان نتصور العبء الكمي على مدارس التعليم العام بمراحلة الثلاث ، الابتدائى والاعدادى والثانوى ، عندما نرجع الى الأرقام المتاحة في هذا الصدد من النشرات الرسمية لبعض الدول العربية . ونستطيع ان نأخذ نموذجا للاحصاءات التعليمية في مصر ، اذ هى تمثل أكثر من ثلث مجموع سكان البلاد العربية كلها .

في العام الدراسى ٦٦/٦٧ كانت المدارس الابتدائية في مصر تضم قرابة ثلاثة ملايين ونصف وفى عام ٧٢/٧٣ كان الرقم قد اقترب من أربعة ملايين لتلعب ، بمعدل زيادة سنوية من ٣٪ الى ٣.٥٪ في السنوات الثلاث الأخيرة .

وبلغ عدد تلاميذ المرحلة الاعدادية في ٦٦/٦٧ حوالى ٦٧٨ الفا ، ارتفع الى أكثر من مليون في العام الماضى ٧٢/٧٣ ، بمعدل زيادة بين ٦.٩٪ وأكثر من ١٠٪ في السنوات الثلاث الأخيرة . وفى

(١٦) الدكتور محمد الفنام « التربية في البلاد العربية » مطبوعات المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها في البلاد العربية - بيروت ، ص ٨ وما بعدها . وهذا المؤلف وثيقة مهمة من الوثائق التربوية العربية تتضمن كثيرا من الاحصاءات والافكار البنيية على دراسة مستقبلية للواقع التربوى العربى . ويحدد الفنام المعدلات السنوية المتوسطة للزيادة في البلاد العربية المختلفة (مستندا الى تقديرات قسم السكان في منظمة الأمم المتحدة) من عام ١٩٦٣ و ١٩٦٨ كما يلى : الجزائر ٢.٩٪ ، السنغودى ١.٧٪ ، البحرين ٢.٥٪ ، العراق ٢.٤٪ ، الأردن ٢.٢٪ ، الكويت ٢.٨٪ ، ليبيا ٢.٧٪ ، المغرب ٢.٩٪ ، قطر ١.٧٪ ، مصر ٥.٢٪ ، السودان ٢.٩٪ ، سوريا ٢.٩٪ ، تونس ٢.٥٪ ، جنوب اليمن ٢.٢٪ .

(١٧) تمل الاحصاءات التقديرية الرسمية في مصر على ان عدد السكان زاد من حوالى ٢١٥ مليون في ١٩٥٢ الى ٢٤.٨ مليون بمعدل نمو سنوى ٢.٨٪ من ١٩٥٢ الى ١٩٦٠ و ٢.٥٤٪ من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ ثم هبط الى ٢.٢٤ بعد عام ١٩٧٠ - ويهزى الهبوط في المعدل في السبعينات الى نقص في معدل المواليد نتيجة لعمليات تنظيم الأسرة والارتفاع العام في مستوى المعيشة والتعليم .

المرحلة الثانوية وصل عدد التلاميذ في ٦٦/٦٧ إلى ٢٤٤ ألفا ارتفع إلى ٢٢٢ ألفا بمعدل زيادة وصلت إلى ٨٤٪ في عام ٧٢/٧١ و ٣٪ في العام الماضي (١٨) .

ونستطيع أن نخلص من هذه الأرقام إلى حقيقتين لكل منهما أثره البالغ في الأعباء الملقاة على عاتق المدرسة العربية . الأولى هي أن عدد الخدمات التعليمية حاليا في البلاد العربية لا تصل إلا إلى ثلث من يجب أن تصل إليهم على أحسن الفروض ، وإن لنا أن نتوقع أن يتزايد هذا العبء بسرعة كبيرة في السنوات القادمة . والحقيقة الثانية هي أن معدلات الزيادة في عدد تلاميذ التعليم العام مرتفعة عن معدلات النمو السكاني كما هو واضح من معدلات الزيادة في المرحلة الإعدادية في السنوات الثلاث الأولى من السبعينات التي تفوق كثيرا معدل النمو السكاني في أوائل الستينات . ولا شك أن الحقيقة الأولى تساعد كثيرا على تفسير هذا الارتفاع في معدل زيادة التلاميذ بالنسبة لمعدل النمو السكاني . ولكن هناك أيضا أسباب أخرى هي بعض ما أشرنا إليه فيما يتعلق بالبلاد النامية . ولعل أوضح هذه العوامل ، وما يمكن أن نتحقق منه بالأرقام ، هو الإقبال المتزايد في مصر على تعليم البنات ، فقد ارتفع عدد التلميذات في التعليم العام بمراحله الثلاث ، ومعه دور المعلمين والمعلمات ، من حوالي ٦٢٢ ألف في عام ٥٣/٥٤ إلى ما يقرب من ٢ مليون في عام ٧٢/٧١ أكثر من ثلاثة أرباعه في المرحلة الأولى الابتدائية ، أي أن هذه الأعداد مستتويذة أكثر فاكثرا في المستقبل القريب جدا (١٩) .

وهناك عامل آخر هام ، من العوامل التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث على البلاد النامية عموما ، ينطوي أكثر من غيره على تفسير للانخفاض نحو التعليم في مصر في السنوات الخمس والعشرين الماضية ، هو تغير وجهة النظر العامة إلى التعليم واعتباره أحد العناصر الرئيسية ، بل والعصر الأول ، في التقدم الاجتماعي والاقتصادي مع التشجيع الكبير من جانب القيادات الحاكمة لهذا الاتجاه . ولا نعتقد أنه يمكن تفسير زيادة عدد التلاميذ القديين في المدارس الابتدائية مثلا إلى ثلاثة أمثاله في أقل من عشرين عاما (من ٤ مليون في ١٩٥٣ إلى قرابة ٤ مليون في ١٩٧٢) إلا إذا دخلنا في الاعتبار هذا العامل .

ولا يقتصر العبء الكمي الذي تتحمله معظم المدارس العربية على هذا التصاعد السريع في عدد الأطفال الجدد . إذ إلى جانب أولئك الذين لم يبدأوا تعليمهم بعد ، هناك أولئك الذين بدأوا المرحلة الأولى ولم يستطيعوا إكمالها لأي سبب من يجب تعليمهم منذ البداية . (٢٠)

(١٨) هبط معدل الزيادة السنوي في المرحلة الثانوية في مصر من ١٦٩٪ في ٦٦/٦٧ إلى ٦٨٪ في ٦٨/٦٩ ثم إلى ٦٨/٦٩ و ٦٩/٦٨ و ٦٩/٦٨ وأخيرا إلى ١٥٧٪ في ٧١/٧٠ ثم عاد إلى الأوضاع ثانيا إلى ٦٨٪ في ٧٢/٧١ ، وليس هناك تفسير ديموجرافي أو اجتماعي واضح لهذا الهبوط الأخير . وقد يرجع السبب إلى تعديلات في بعض الأوضاع الإحصائية التي عدل منها في السنوات التالية .

(١٩) دخلت هذه الأرقام من دراسة نشرها مركز التوثيق التربوي في القاهرة عام ١٩٧٢ بعنوان « التربية والتعليم في جمهورية مصر العربية » .

(٢٠) هذا ويقتد البعض بأن قرابة نصف عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية لا يستمرون إلى نهايته ويخرجون بعد سنة أو اثنين أو ثلاثة ، أي أنهم لا يمكن أن يكونوا قد استفادوا شيئا ويجب العمل على استعدادهم إلى حظيرة المدرسة وتعليمهم منذ البداية . (نشرت الصحف القاهرة أن وزير التربية والتعليم فاجأ بعض مدارس التعليم الإلزامي ووجد أن الطلبة التلاميذ الذين مرت عليهم أربع سنوات ما زالوا لا يقرأون والكتابة بصوتهم) . والتقدير المساند بين المشتغلين بالتربية في مصر مثلا أن حوالي ثلث الميزانية المخصصة للتعليم الإلزامي يضيع بسبب هذه الفئة التي لا تتم تعليمها إلى نهاية المرحلة الابتدائية ولا تكون قد استفادت شيئا .

ويؤدى التوزيع السكاني في البلاد العربية بين الريف والحضر الى زيادة الخدمات التعليمية صعوبة بالنظر الى الازدياد السائد في الريف العربي وانخفاض مستوى المعيشة فيه . ومن المعروف ان نسبة سكان المدن في البلاد العربية اقل من ٤٠٪ من مجموع السكان ويعيش الباقي في الريف - بالإضافة الى نسبة صغيرة مازالت تعيش كبدو ورغم الجسود المبدولة لتوطينهم وتمويدهم على الاستقرار الزراعي والحرفي . ويعنى آخر فان أكثر من نصف العرب الذين يجب إيصال الخدمات التعليمية اليهم يتطلبون جهوداً مضاعفة في ظل ظروف لا تتوافر فيها العناصر الأساسية للعملية التعليمية بصورة تتيح للأجهزة المختلفة أداء دورها التربوي بشكل جدي . (٢١)

وأخيراً ، وليس آخراً ، لا يسعنا هنا إلا الإشارة الى أن البلاد العربية كانت من أوائل البلاد النامية التي أخذت بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية وتشتبعت بمبدأ ديموقراطية التعليم وعملت جاهدة على تطبيقه (٢٢) .

وكانت نتيجة كل هذه العوامل توسعاً ضخماً في التعليم امتد الى كل ركن في الساحة العربية برغم الظروف الشديدة القسوة التي تحدثنا عنها .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا هو : هل أمكن تدبير متطلبات هذا التوسع ، من مدرسين مؤهلين تأهيلاً ملائماً ، وأبنية مدرسية وأدوات كافية وكتب مدرسية ووسائل تربوية مساعدة في مستوي لائق ؟ أو بمعنى آخر هل أمكن الاحتفاظ بالمستوى المأمول . (٢٣) وهو مستوى مرتفع الى حد كبير إذا صدقنا الشعارات المرفوعة للتعليم ؟

يجيب على هذا التساؤل أحد خبراء التربية العرب قائلاً : هناك ما يشبه الإجماع على أن توسع التعليم في هذه البلاد لم يصاحبه بوجه عام تحسين مقابيل لنوعيته ، بل أن هذا التوسع لم يحصل في الغالب إلا على حساب هذه النوعية (٢٤)

أن مشكلة الكم والكيف هذه ليست قاصرة على البلاد العربية كما أشرنا ، وليس السبب فيها هو التضخم المستمر في معدل الزيادة السكانية وحده ، ولكن لا شك أن هذا العامل هو أحد العوامل الرئيسية التي أدت الى هذه الظاهرة وزادتها حدة وبروزاً في البلاد النامية كلها .



(٢١) ان ضعف الخدمات التعليمية في الريف في البلاد العربية امر ملحوظ استرعى انتباه معظم المشتغلين بأمر التربيين في البلاد . وقد كانت « قللة حظ أبناء الريف من فرص التعليم » أحد أوجه النقص في التعليم العربي التي سجلها مؤتمر وزراء التربية العرب الذي عقد عام ١٩٧٠ في مراكش .

(٢٢) كان من مقررات مؤتمر وزراء التربية العرب المذكور تأكيد حق كل مواطن عربي في التعليم بالجودة والاعتماد على العناية المعاصرة .

(٢٣) جاء في مقررات هذا المؤتمر أيضاً « الأخلاص بمفهوم التربية المستديرة المتكاملة أثناء لشخصية الإنسان ، وتجهيزها للمعرفة ، ومواكبة للتطورات العلمية والاجتماعية في عصر سريع التغير » و « أهمية تحقيق التوازن الكمي والتخصص النوعي للتعليم وكذلك بين الجوانب النظرية والعملية في التربية المدرسية »

(٢٤) الفنام ، المرجع السابق ص ٣٠ . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد ان أكد ان جميع البلاد العربية تقريباً تشكي من نقص خطير في معظم عناصر العملية التعليمية من المعلمين الى المباني والأجهزة الى مستوى اكتساب ونتائج الاختبارات .

كان التوسع الكمي في التعليم في البلاد النامية نتيجة شبه حتمية للعوامل العديدة التي أشرنا إليها . وقد صاحب هذا التوسع هبوط ملحوظ في نوعية التعليم في معظم هذه البلاد . فكل أصبح لزوما على قادة البلاد النامية وشعوبها أن يختاروا بين الكم والكيف ، بمعنى أنه من المستحيل ، أو على الأقل من العسير جدا ، تحقيق التوسع الكمي في التعليم إلا على حساب نوعيته . مادامت الإمكانيات المادية والفنية المتاحة قاصرة عن تحقيق الهدفين ، الكم والكيف معا ؟ وأنه إذا أريد تخريج مواطنين متعلمين تعليما حديثا وجيدا فلا بد من الحد من عدد الذين تتاح لهم فرص التعليم بحيث يصبح وقفا على نخبة متميزة تختار على أساس معايير محددة ، مثل درجة الذكاء أو القدرة على التحصيل أو القدرة على الانفاق .

هذا هو ما يطالب به البعض الآن كما قال مدير عام اليونسكو في تقريره الذي أشرنا إليه سابقا . فهو يتحدث عن ذلك متسائلا : أن البعض يطالب الآن بالحد من سرعة الانطلاق الرائع الذي شهدته الستينات في التعليم في البلاد النامية بنجدة المحافظة على الكيف : فهل هذا هو الحل الأمثل ؟

وهل إذا سلم الخبراء التربويون وقادة البلاد النامية بوجود هذا التناقض بين الكم والكيف يستطيعون التحدث بعد ذلك عن « ديمقراطية التعليم » ، وهل تقبل شعوب البلاد النامية هذا الحل ؟

لا شك أن « ديمقراطية التعليم » هدف تصبو إلى تحقيقه كل الدول ، متقدمها وناميها على السواء . ولكن في حين أن الدول المتقدمة استطاعت أن تقطع شوطا طويلا في تحقيقه في ظروف مواتية وفي مدة زمنية مريحة نسبيا بحيث كان في وسعها أن تتغلب شيئا فشيئا على كثير من المشاكل التي تواجه مثل هذه المسيرة ، فإن البلاد النامية في تطامها إلى تحقيقه بدورها وجدت نفسها فجأة تواجه أنواعا جديدة من المشاكل الصعبة وبخاصة المشكلة التي نتحدث عنها ، مشكلة الكم على حساب الكيف أو الكيف على حساب الكم .

وقد كثر النقاش حول هذه القضية واختلطت فيها المفاهيم بحيث تراكت الأفكار والحلول بصورة تتطلب من الدارس أن يبذل جهدا خاصا في تحليل مضامينها وتنسيقها حتى يستطيع أن يبين خيوطها الأساسية .

إن أول ما يطالعنا في هذا الخليط من الأفكار هو تساؤل يلح في طلب إجابة واضحة تنير السبيل لما يمكن أن يأتي بعد ذلك ، وهو : ماهي مقتضيات الديمقراطية في ميدان التربية ، وبمعنى آخر ماهو جوهر مفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ؟

من الملاحظ أن الأقبال المتزايد على التعليم ظاهرة عامة في جميع أنحاء العالم وفي كل المجتمعات أيا كان مقدار تقدمها أو نموها وإيا كانت أوضاعها الاجتماعية والسكانية أو ثقافتها أو مميزاتها الحضارية . ومن ناحية أخرى فإن آراء الناس في أي بلد في العالم وتصوراتهم عن مجتمعاتهم في المستقبل مهما تنوعت فإن عناصر رئيسية من عناصر هذا التصور لا بد أن يكون تنمية الموارد الطبيعية والبشرية التي يملكونها .

فهل هذا الأقبال هو نتيجة الرغبة في التنمية ، أم أن هناك قيمة أخرى تتدخل في الأمر بحيث لا يمكننا تفسير ديموقراطية التعليم في ضوء هاتين الحقيقتين ؟

هناك إجابتان مختلفتان على هذا التساؤل ، تذهب أحدهما الى أن ديموقراطية التعليم ، وهي هنا مقترنة بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ، تعنى « مقعداً في قاعة الدرس لكل راقب في التعليم » في المجتمع . وبرغم أن هذه الإجابة تنصب على أن المجتمع عليه أن يكتل مكاناً في المدارس لجميع أبنائه دون إشارة الى محتوى ما يتلقاه التلميذ أو نوعية التعليم ، وبالتالي نوعية المواطن الذي تخرجه المؤسسات التعليمية، فليس هناك في الوقت الحاضر ، في حدود علمنا ، من يقبل هذا التفسير ، بل يصر أصحاب هذه الإجابة دائماً على أن الكم يجب أن لا يكون على حساب الكيف بأي حال ، وإنهما يجب أن يسيرا جنباً الى جنب في كل خطوة يتقدمها المجتمع الى الامام تربوياً ؛ وأن كانوا لا يحددون ماهية هذا « الكيف » أو الأسس التي يتصورونها لتحديده .

ويذهب أصحاب الإجابة الثانية الى أن ديموقراطية التعليم هي أساساً مفهوم يتحقق بالارتقاء بالمجتمع ككل تربوياً وسد احتياجات التقدم تكنولوجيا واجتماعياً بحيث يعم « الخير » جميع أبناء المجتمع . فالديموقراطية هنا لا تنصب على تكافؤ الفرص التعليمية لأفراد المجتمع دون تمييز باعتبار أن ذلك هو « خير » المجتمع تربوياً ، بل تنصب على « خير » آخر أكثر عمومية وأوسع نطاقاً .

ولكن أول ما يتبادر الى الذهن هنا هو أن تحقيق هذا الهدف يتطلب اختيار أكثر الأفراد قدرة على ملء الفجوات الموجودة ، أو المتصورة ، في البناء الاجتماعي ومنهم فرصة أوسع ونصيباً أوفر في الجهود التربوي للمجتمع . وهذا في رأينا برغم أنه يخلصنا من مشكلة الكم والكيف من حيث تصبح الزيادة الكمية غير مطلوبة لذاتها ، ينطوي على نفى مباشر لمفهوم ديموقراطية التعليم كما تفهمه أغلبية الناس عموماً .

إذا أن الاهتمام تربوياً « ببعض » أفراد المجتمع دون الآخرين ، أيا كانت المبررات « والخير » الذي يحققه ذلك ، يجعل من مبدأ تكافؤ الفرص مفهوماً مشوهاً ، خصوصاً عندما نأتي الى المعيار الذي سيختار بمقتضاه المحظوظون وتعيين الحكم الذي سيضع مواصفات أولئك الذين يرشحون لملء الفجوات ، بل ومن الذي يحدد هذه الفجوات ؟ وهل معيار تحديد أولويات ملء الفجوات - حتى إذا اتفق عليها - هو احتياجات المجتمع القائم أم مجتمع المستقبل ؟ وغير ذلك من الثغرات الأخرى التي تخلق مشاكل جديدة بدلاً من أن تحل المشكلة التي تواجهنا أصلاً .

ولنعد الآن الى تحليل الإجابة الأولى لعلنا نخلص منها الى بعض الأفكار التي قد تنير أمامنا السبيل .

علينا أولاً أن نسجل أن ديموقراطية التعليم لا يمكن ، كما أسلفنا ، أن تعنى مجرد تكافؤ الفرص للجميع في الحصول على مقعد في مدرسة ، أو أن يكون التعليم - بصرف النظر عن نوعيته - في متناول كل راقب فيه ، بل أنها تعنى أيضاً وببنفس القدر من التركيز أن يكون مضمون التعليم وأهدافه مما يحقق الأهداف الديموقراطية بصفة عامة ، وأن يرتفع مستوى الفرد من جميع النواحي معنوياً ومادياً - أي أن لا يكون مجرد وسيلة لإعداده لكسب لقمة العيش .

ومن ثم فإن مجرد المساواة في فرص الدخول في المدارس لا تعنى التكافؤ في الفرص التعليمية ، حيث أن أولئك الذين لديهم قدرة اقتصادية مرتفعة يستطيعون الحصول على مساهمات

تعليمية اضافية تتيح لهم سد النقص في الخدمة التعليمية التي يتلقونها مع زملائهم الأرق حالا ، كما يساعد على التفوق المدرسى على هؤلاء الزملاء اى أن انخفاض مستوى الخدمات التعليمية معنى في الحقيقة تمييز « البعض » على غيرهم حتى وإن وصلت هذه الخدمات الى الجميع .

نستطيع ان نخلص من ذلك أولا الى انه لا ديمقراطية في التعليم ، ولا تكافؤ في الفرص التعليمية ، الا اذا سار التقدم في الاتجاهين معا - زيادة مطردة في عدد من تصل اليهم الخدمات التعليمية وتحسين في نوعية هذه الخدمات - فهما يمثلان في الواقع جانبين مترابطين تماما لقضية واحدة . وعلينا ان ندرك انه رغم الضغوط الهائلة التي يمثلها التصاعد الكبير في النمو السكاني وغيره من العوامل الأخرى التي تزيد من التدفق على التعليم ، فان التوسع الكمي غير المحبوب بجهود مقابلة لتحسين النوعية لا يحل المشكل ، بل انه في الحقيقة يخلق مشاكل جديدة أكثر خطورة ونحدر بفكرة التربية بأكملها الى مستوى الشعارات الديماغوجية التي تعتبر مرضا متفشيا في كثير من البلاد النامية . بل ان شعوب هذه البلاد ذاتها قد بدأت ، كما تدل الشواهد التي يستطيع ان يلمسها كل من يههم الأمر ، ترفض هذا النوع المشوه من التعليم وصرنا نسمع اصدااء المطالبة بتحسين النوعية في كل المحافل (٢٥) .

ان عدم التناقض بين الكم والكيف في التعليم والترابط العضوي بينهما قد صار أمرا مسلما به من الجميع نظريا ، ولكن التطبيق الفعلي مختلف تماما . اذ يبدو أن الاجهزة التعليمية في البلاد النامية وما يتوفر لديها من امكانيات مادية وفنية اضعف من أن تتحمل اعباء هذه المهمة المزدوجة ، ومن المشاهد بصفة عامة ان النظام التربوي في بلدنا عندما يعجز عن ملاحقة الزيادة في الاعداد او سرعة التطور الاجتماعي ينخفض مستوى الخدمات التي يقدمها ، وهكذا تنشأ مشكلة الكم والكيف .

والواقع ان الضغوط الاجتماعية والسياسية المختلفة التي اسلفنا الاشارة اليها دفعت العاملين في الخدمات التعليمية في البلاد النامية الى منح الاولوية للتوسع الكمي والتركيز على تخطي العقبات التي تعترضه بحيث اخذت القضايا الأخرى التي تتعلق بالمشغول والمستوى لتتراجع عما هي جديرة به من اهتمام . فلم يعد لدى هؤلاء التربويين وقت او طاقة كافية لمواجهة القضايا التي تتطلب التغير السريع اعادة النظر فيها مثل علاقة التربية بالمجتمع وبالتعلم نفسه او علاقة التربية بالمعرفة . بل ان المشتغلين بالتخطيط التربوي ، الذين يعتبرون الدعامات التي يعتمد عليها المجتمع في المحافظة على التوازن المطلوب بين الهدفين ، انصرفوا عن هذه القضايا ولم نعد نجد في انشطتهم وكتاباتهم اهتماما حقيقيا بالمستوى والمضمون .

وقد جاءت فترة في التقرير الذي قدمه مدير عام اليونسكو في اوائل عام - ١٩٦٩ عن نشاط المنظمة ما يؤكد هذه الظاهرة اذ يقول : « ان الدور الاساسي الذي قامت به نظريات

(٢٥) جاء في تعليق على مؤتمر وزراء التربية الافريقية الذي عقد في نيروبي ١٩٦٨ ، « ان اليدا العام الذي يحظى الان بالاندياد والانتقال بان النمو (الكمي) ليس هدفا يمكن تحقيقه بمعدل من نوعيته ومن ما يسهم به في التوافق الاجتماعي والسعادة البشرية ، ان هذا اليدا ينطبق أيضا على التربية » .

التخطيط التربوي وتطبيقاتها لادماج التربية في خطط التنمية في بلاد العالم الثالث ومواجهة مقتضيات التزايد السكاني وانطلاق الامانى الديمقراطية نتيجة للاستقلال ، ان هذا الدور يفسر دون شك ان تلك النظريات والتطبيقات كانت في البداية تنحصر تقريبا في النواحي والعوامل التربوية التى يمكن قياسها كميا ؛ ثم يستطرد مدير عام اليونسكو موضحا « كان تخطيط التربية يبدو وكأنه مقياس لكميتين : الاهداف من جهة والوسائل من جهة اخرى ، وفيما بين اعداد النماذج الاقتصادية القياسية من جانب ، واقامة أجهزة التعبئة من جانب آخر ، اغفلت حقيقة التربية ، وهى السلوك التربوي الانساني ، حتى صارت في المكان الثانى من الاهمية ... لقد كان تخطيط التربية ينظر اليه ويستفاد منه على الاكثر في ترشيد التوسع الكمى للتعليم في البلاد النامية» . ونحن وان كنا نوافق مدير عام اليونسكو على ان الضغوط المختلفة تفسر اندفاع المخططين التربويين لتكريس جهودهم في الاتجاه الكمى واهمالهم لما أطلق عليه « حقيقة التربية » ولكنها ، في نظرنا ، لا تبرر هذا الاهمال . كما تختلف معه في ان ذلك حدث في « البداية » فقط ، لانه ما زال يحدث حتى الآن على جميع المستويات ولا يقتصر على التخطيط التربوي وحده ، بل ينصب على جهود الخبراء من كل نوع تقريبا في ميدان التربية . اننا نرى باعيننا ، بل ويشارك بعضنا مرغمين في ذلك ، كيف يلجأ العاملون في المؤسسات التربوية أحيانا الى مواجهة الزيادة الكمية في التلاميذ بواسطة اجراءات يعلمون تماما ما تحدثه من اضرار بالغة ، مثل تحميل احد عناصر العملية التربوية اعباء اكثر مما اعدت له لتخفيف الضغوط التى يتعرضون لها - فعندما لا تتوفر الامكانيات لبناء مدارس مثلا يضطر بعضهم الى الالتجاء الى نظام الفترتين في اليوم الواحد فتستخدم الابنية المتاحة لفريق من التلاميذ صباحا ولاحر مساءوا يتجهون الى استخدام ابنية غير صالحة بالرة كقاعات للدرس، وهم يعلمون تماما ان عدد المعلمين المتاحين وطاقاتهم لا يمكن ان تكفى لمواجهة هذا الاجراء الذى يلقي اعباء شبه مستحيلة على المدرسين وعلى العناصر الاخرى مما يترك اثرا بالغ السوء في نوعية الخدمات التعليمية المقدمة ، ولكنهم يحتجون بان عملية اعداد المدرس اللائق شاقة ومكلفة وطويلة وان محاولة توفير المدرسين دون اعداد كاف اسوا تأثيرا في النوعية في نهاية المطاف .

ان مواجهة مشكلة الكم والكيف هذه لا تتحقق بالحلول الجزئية والجزافية أو الشعارات الديماجوجية الجوفاء والاجراءات التى تخفف الضغوط . ان الامر يتطلب حولا جذرية شاملة تنصب على اعادة النظر في اهداف التربية ذاتها واساليبها ونظمها . ان هذا ، في رأى معظم من يعتمد برايمم من الخبراء ، هو الامل الوحيد في التوفيق بين مطلبين ملحين بنفس الدرجة لا معنى لديموقراطية التعليم الا بهما معا . وفي سبيل ذلك ينبغي عدم الضن باى جهد لاجتذاب ذوى الكفاءات الرفيعة الى مهنة التعليم ودمج أجهزة البحث التربوي بأفضل الخبرات .

ان القدرة البشرية التى سجلت التقدم المذهل الذى عرفه العصر الحديث في مختلف مناحى الحياة لا يعجزها ان تجد الحلول الملائمة لهذه المشكلة - التى لا يكون هناك معنى لاي تقدم اذا لم نحلها .

ومن الطول المطروح في هذا الصدد محاولة الحد من النمو السكاني الطرد الذى يشهده العالم الآن . وبرغم أن الزيادة السكانية الضخمة ليست هى العامل الوحيد الذى أدى الى المشكلة الكبرى

التي يواجهها التطور التكنولوجي الآن ، وبرغم أن علاج هذه الزيادة لن يؤدي الى أكثر من تخفيف الضغط وتأجيل الحاجة الملحة الى حل المشكلة في جوهرها فإن من واجبتنا الانتهى هذه الدراسة قبل أن نسجل بعض الأفكار المتصلة بها .

الواقع أن وجهات النظر تختلف بشكل واضح فيما يتصل بخطورة الزيادة السكانية السريعة في العالم وأساليب التعامل معها ، فالبعض يذهب الى أن هذه الزيادة تهدد العالم في المستقبل القريب بكارثة بحيث إذا لم تتخذ إجراءات حاسمة وسريعة فلن تمضي بضع سنوات حتى « يأكل الناس بعضهم بعضا » .

وهناك فريق آخر يجنح الى التفاؤل على أساس أن التقدم التكنولوجي الباهر الذي تحقق حتى الآن ، والذي يتحقق كل يوم ، كفيل بسد حاجات الملايين الراضية من البشر .

وبرغم أن هذه الفريق يعلن صراحة اعتراضه على التركيز المبالغى فيه على بعض الإجراءات ، مثل تنظيم الأسرة وسياسات تحديد النسل ، بل ويعتقد دعماته أن الزيادة السكانية هي زيادة في عدد الأيدي العاملة ومن الممكن أن تكون ميزة كبرى إذا أحسن استخدامها ، فإنه يتفق مع أصحاب الرأي الأول في أن هناك حاجة ماسة الى إصلاحات جذرية ، اقتصادية واجتماعية وتربوية وسياسية ، على نطاق عالمي .

ولكن ماهي « الإجراءات » التي يقترحها كل من الفريقين ؟ يؤكد بعض أصحاب الرأي الأول ، وهم الذين يطلق عليهم « المالتسيون الجدد » New Malthusians ضرورة إيقاف النمو السكاني بصورة حاسمة عن طريق الوسائل الدعائية أن أمكن ، والا فبالإجراءات التشريعية ، بل وعن طريق التدخل البيولوجي إذا تطلب الأمر . كما يطالب هذا البعض كذلك بالحد من التعليم بحيث يقتصر على سد احتياجات العمالة .

وينظر عدد من دعاة هذا الاتجاه الى القضية على أنها أساسا مشكلة أخرى من مشاكل البلاد النامية ويجب معالجتها على هذا الأساس . فالهدف الجوهري في رأي بعضهم هو أن تحقق البلاد النامية معدلا متوسطا لنمو الانتاج القومي الإجمالي لا يقل عن ٦٪ ، لأنه بذلك إذا أمكن إيقاف معدل النمو السكاني عند ٢.٥٪ زاد الناتج القومي للفرد بنسبة ٣.٥٪ في السنة وهذا كاف لمضاعفة الدخل المتوسط للفرد خلال عشرين عاما . (٢٦)

والملاحظة التي تسترعى الانتباه في مثل هذا الرأي أنه في الوقت الذي تطالب فيه الدول النامية بالحد من التزايد السكاني ، نجد بعض الدول المتقدمة تسعى الى « استيراد السكان » ، فبرلين مثلا تدفع أمانات مهاجرين . وقد ترددت أصدا هذه الملاحظة في أقوال الدافعين عن الاتجاه الثاني الذين يذهب بعضهم ، كما جاء في مقدمة التقرير الذي وضعته اللجنة الدولية لتنمية التربة

(٢٦) ديتال بهرمان « كيف يسفر العلم والتكنولوجيا الى خدمة التنمية » وهو مقال نشر في « وقائع اليونسكو » أكتوبر ١٩٧٢ ، تعليقاً على أعمال لجنة الأمم المتحدة الاستشارية لتطبيق العلوم والتكنولوجيا في مجالات التنمية . ومن الجلي أن كاتب المقال يرى أن مضاعفة دخل الفرد في البلاد النامية - على انخفاضه الشديد حالياً - في شترين عاما هدف كاف ، أما التطلع الى مستوى قريب مما تحقق في البلاد الأخرى فإن في رأيه بعيد المثال وحتى ذلك الهدف التواضع لا يمكن أن يتحقق الا بإيقاف النمو السكاني عند ٢.٥٪ سنويا .

برئاسة إدجار فور ، الى ان مثل هذه العلاجات من شأنها ان تدعم الفوارق غير العادلة القائمة الآن داخل كل مجتمع وبين الشعوب المختلفة وتعميقها وأن تزيد من التشويه الاجتماعي الذي يعتبر لب المشكلة . (٢٧)

ويهاجم هذا التقرير وجهة نظر « المالتسيين الجدد » من ناحية أخرى ، على أساس انه حتى لو قبلت وجهة النظر هذه فإنه من العسير جدا تطبيقها لضعف امكانيات التنبؤ باحتياجات العمالة ومواصفاتها في ظل التغير الاقتصادي والتكنولوجي السريع والمستمر الذي يمر به العالم الآن ، وبخاصة فيما يتصل بالبلاد النامية .

وكانت التوصية التي انتهت اليها اللجنة صاحبة التقرير فيما يتصل بالربط بين التعليم والعمالة هي « ان هدف التربية فيما يتصل بالعمالة والتقدم الاقتصادي ينبغي الا يكون مجرد اعداد للشباب والبالغين لهنة محددة بدائها طوال الحياة ، بقدر ما يكون العمل على خلق افضل الظروف والمواصفات للحركة داخل المهن المختلفة وتوفير الحافز الدائم لاثارة الرغبة في التعليم والتدريب لدى الفرد » ، وهي توصية تنطوي كما نرى على اتجاه معاكس تماما لما يدعو اليه المالتسيون الجدد .

ويعبر ، بصورة اوضح وأكثر تأكيداً ، عن هذا الاتجاه المعاكس للمالتسية الجديدة بحث ألقى في المؤتمر الذي عقدهه اليونسكو في باريس في مطلع هذا العام حول موضوع « السكان والقانون » جاء فيه « ان نمو السكان يؤدي الى انجاز اقتصادي افضل ، على المدى الطويل ، ومن الجمود السكاني » ، ثم يضيف صاحب البحث ان وجهة النظر القائلة بان خفض معدل الزيادة السكانية في البلاد النامية خطأ ، « وقبولها واصدار قوانين للحد من النسل على اساسها قد يؤدي الى مأساة » .

ومما هو جدير بالذكر ان وجهات النظر الرسمية المعلنة التي عارضت الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكاني تنقسم الى نوعين . فبعضها يتخذ هذا الموقف على اساس ايدولوجي ، والبعض الآخر يتخذ على اساس ما تعلّمه ظروفه الطبيعية والمادية .

نقد قال **المراقب الصيني** في اجتماع لجنة السكان التابعة لهيئة الاسم الذي عقد في جنيف في نوفمبر من العام الماضي « اننا قد تعلمنا من تجربتنا الخاصة انه غير صحيح وغير صادق القول بان الزيادة السكانية هي السبب الرئيسي في فقر البلاد في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وتخلّفها ، وان اتباع سياسة سكانية يؤدي بصورة قاطعة الى حل مشكلات الفقر والتخلف » .

ويحدد السوفييت وجهة نظرهم في هذه القضية على اساس ايدولوجي اوضح كما يأتي : « تدل التجربة التاريخية على ان النمو السكاني لا يمكن ان يكون عقبة للنمو الاقتصادي والثقافي . اذ لما كانت الحياة الاجتماعية اساسها هو مستوى الانتاج المادي وطرّفه ، فان حل مشكلة الموازنة بين النمو الاقتصادي والاجتماعي والنمو السكاني لا يتطلب الحد من النمو السكاني ليتلاءم مع النمو الاقتصادي ... » ، ولكنه يكمن في تحقيق معدلات من النمو الاقتصادي تتجاوز معدل النمو السكاني وتضمن ارتفاعا في مستوى المعيشة » .

(٢٧) Learning to Be من مطبوعات اليونسكو ١٩٦٧ . ولنا عودة الى هذا التقرير فيما بعد والى بعض التعليقات التي ايرت حوله .

أما النوع الثاني من وجهات النظر الرسمية التي تعارض الدعوة إلى سياسات الحد من النمو السكاني فتتمثلها بعض الدول النامية التي تملك مساحات شاسعة من الأرض وموارد ضخمة بالنسبة لعدد سكانها مثل البرازيل وشيلي . وتذهب وجهات النظر هذه إلى أن التركيز على مشكلة زيادة السكان بهذا الوصف ودون ربطها أصلاً بالموارد الطبيعية غير المستغلة في كل بلد أمر غير مقبول ، فالبلاد التي تزايد عدد سكانها في القرن الماضي اعتماداً على الموارد الطبيعية للبلاد الأخرى - وهي لا تزال تعتمد على هذه الموارد لردها - بل ولحياتها حتى الآن - تريد من البلاد النامية أن تحد من الزيادة السكانية فيها حتى لا يزيد عدد سكان العالم إلى حد يهدد بكارثة . أي أن البلاد التي يبلغ معدل السكان فيها بين ١٠٠ و ٣٠٠ لكل كيلو متر مربع لا تحتمل أعباء مواجهة الكارثة التي تهدد العالم ، في حين يطلب إلى البلاد التي يبلغ المعدل فيها أقل من ٢٠ نسمة لكل كيلو متر المربع أن تحتمل وحدها العبء الرئيسي في علاج المشكلة .

ومن هذا المنطلق قال مندوب شيلي في هيئة الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٧١ أن مشكلة النمو السكاني قضية معضنة تثيرها الدول المتقدمة كحجة تبرر بها تقاعسها عن القيام بواجباتها حيال المجتمع العالمي ، وأن ما يتطلبه الأمر حقيقة هو « مواجهة أسباب التخلف من طريق زيادة المساعدات التجارية والمالية وتسهيل انتقال التكنولوجيا الحديثة والتعاون بين البلاد المتقدمة والنامية في جميع ميادين المساعدة الفنية » .

ومن ناحية أخرى نرى بعض البلاد النامية الأخرى تبني وجهة النظر المعارضة على أساس أنها « تتركز تماماً على رفع مستوى معيشة الفرد وحل مشكلة البطالة ، أو حتى ضمان استمرار المعدل الحالي للتعليم المدرسي ، يكاد يكون مستحيلًا إذا استمر المعدل الحالي للنمو السكاني » كما قال مندوب تونس .

وبين البلاد العربية تبنت كل من مصر وتونس والمغرب سياسات تهدف للحد من التزايد السكاني، فقد أصدرت الحكومة التونسية مثلاً عدداً من التشريعات في هذا الاتجاه ، مثل رفع سن الزواج وتحديد المعونات العائلية لمن لديهم أكثر من ثلاثة أبناء ، وإباحة عمليات الإجهاض .

وهكذا نرى أن القضية تتعدد فيها الاتجاهات بحيث لا يكاد يعرف من يقين أي سبيل هو الصحيح ، ويعتمد أكثر الخبراء الآن إلى الوقت الحاضر إلى الاكتفاء بإطلاق صيحات التنبيه والدعوة إلى العمل على اكتشاف الحلول ، كما فعل مدير عام اليونسكو في تقريره عام ١٩٦٩ الذي أسلفنا الإشارة إليه عندما قال « المهم أن يعرف المجتمع البشري الآن أنه سائر في عملية تحول سكاني وثقفي وفكري وخلق على نطاق لم يسبق له مثيل ، وأن تغيير التعليم جذرياً يقع في صميم هذه العملية . وحل مشكلة التعليم ... عامل مؤثر في درجة الوضوح والتمكن من فهم الإنسانية لهذا التحول والسيطرة عليه ، ومن ثم فعليه تتوقف إلى حد ما طبيعة هذا التحول » ، أو كما فعل سكرتير عام هيئة الأمم المتحدة في خطاب أعلانه لعام ١٩٧٤ « عام السكان العالمي » قائلا « يولد كل سنة ١٢٧ مليون طفل ، ويبلغ سن الدراسة ٩٥ مليون فرد ، ويصل ١٩ مليون إلى سن الخامسة والستين ،

وينتظر أن يرتفع هذا المعدل في المستقبل . . أن كل أمة وكل مجتمع وكل أسرة يجب أن تقيم باناً مدى تأثير هذه الاتجاهات في أمالها في الحياة الأفضل وفي التربية الرفع وفي الصحة الاحسن وفي السعادة» (٢٨)

ان هذه التصريحات الرصينة تلم بأطراف القضية كلها تقريباً وتدعو الى العمل الجاد على حلها ، لكن بعض البلاد المكتظة فعلاً بالسكان مثل مصر لا تستطيع أن تحلها بمفردها حلاً جذرياً يستأصل المشكلة من منابعها ، كما أنها لا تستطيع أن تنتظر حتى يتكثف الجنس البشرى ويسخر قدراته العظيمة في الوصول الى جوهر هذا التحول والسيطرة عليه ، وليس أمامها الا أن تلجأ الى بعض الحلول الجزئية المطروحة لتخفيف الضغط والحصول على متنفس مؤقت : فترة من الوقت تمكنها من التقاط أنفاسها وتتيح لها المشاركة في إيجاد الحل .

وليس لهذا السبب وحده تلجأ بعض مثل هذه البلاد الى الدعوة لتحديد النسل وتنظيم الأسرة ، فلأمم جانب آخر مهم جداً بالنسبة لها، فتتخير الاسرة له هدف آخر ينصب على رفع مستوى « الأسرة » - وهى الوحدة البشرية الأساسية - وعلى تأكيد كرامة المرأة والطفل بمنح المرأة فرصة حرمت منها طويلاً ومنح الطفل نصيباً أكبر من الرعاية الضرورية لنمو الكائن البشرى في المراحل الأولى من نموه .

فالى عهد قريب جداً كانت المرأة في معظم المجتمعات التقليدية ينظر اليها على ان مهمتها الوحيدة في الحياة هى الانجاب وتربية الاطفال والاعمال المنزلية الأخرى ، وأن الرجل هو المسئول عن النشاط الخارجى الذى يوفر للأسرة الدخل الذى يعيش به . ولكن الملاحظ الآن في جميع بلاد العالم تقريباً أن عدد النساء اللاتي يعملن في الأنشطة الاقتصادية المختلفة خارج المنزل يتزايد، بحيث بدأت الفوارق بين الجنسين في هذا المجال تزول شيئاً فشيئاً . وكان من آثار ذلك أن بدأ الاتجاه الى تعليم الفتيات لامدادهن للقيام بأعمال أفضل تدر عائداً اقتصادياً أوفر - وليس لأعدادهن لحياة أفضل وأسعد في مجتمعاتهن . وقد آن الأوان لتغيير هذا الاتجاه والاهتمام بالمرأة لذاتها ، ولعمل الجهود المبذولة في بعض البلاد لتنظيم الأسرة تكون بداية خطوة سليمة في هذا الاتجاه .

كما أنه من الملاحظ أن أطفال الاسر الصغيرة العدد يتمتعون عادة بصحة أفضل ومستوى اقتصادى وثقافى أرفع ، ومن هنا أيضاً كان تنظيم الأسرة هدفاً ضرورياً إذا أردنا لابنائنا حياة أسعد.

ولكن ما الحل في القضية الرئيسية التي يدور حولها البحث ، قضية تزايد السكان بهذه الصورة الملهلة ؟

ان القضية من الخطورة بحيث تتطلب مناوافة قصيرة من التأمل نحاول فيها البحث عن الطريق المؤدى الى حل . فالعالم يمر الآن فعلاً بمرحلة من التغير السريع الذى كادت إبعاده تفلت من مقدرة البشر على الاستيعاب والمحاولات التى يبذلها خبراء التربية ، والخبراء الآخرون في

(٢٨) The Unesco Courier (مايو ١٩٧٠) . وهو عدد خاص أصدرته المنظمة بمناسبة « عام السكان العالمي » بعنوان

« وفدا كم سيكون عدداً » .

مختلف الميادين الاجتماعية والتقنية للحاق بالتغير السريع ، ومحاولة التنبؤ بخط سيره في كل من هذه الميادين لم تحقق حتى الآن النجاح الذى يتوقعه أولئك الذين يحسنون الظن بالتقدم الذى بلغه الإنسان في العصر الحديث .

ولسنا هنا بمعرض البحث عن حل شامل للقضية بجميع جوانبها العديدة ، وكل ما نطمح فيه هو إثارة بعض النقاط التى قد تفيد في تحديد الطريق الذى يمكن أن نسير فيه سعياً وراء حل للجانب التربوى منها .

ولكن برغم أن التربية ، كما يقول تقرير « لجنة فور » ، عالم قائم بذاته ، فإنها في الوقت ذاته انمكاس للعالم كله . إنها جزء من المجتمع تعمل على تحقيق أهدافه وتنمية موارده ، ولكنها أيضاً تؤثر فيه ربما أكثر من أى عامل مفرد آخر .

فما هي حقيقة المشكلة التى تواجه التربية الآن ؟

إن المشكلة الحقيقية في اعتقادنا هى أن الأنماط التربوية التقليدية التى حددنا أنفسنا داخل أطرافها في البحث عن الحلول هى في الواقع أنماط قامت أصلاً لفائدة قلة في عالم يعيش فيه الكثيرون ، مثلها في ذلك مثل الأنماط الاقتصادية والاجتماعية التقليدية الأخرى . وعندما بدأت القيم التى تعتمد عليها هذه الأنماط تنهار فوجدنا بأن هؤلاء «الكثيرين» يريدون أيضاً ، ومن حقهم ، أن يحصلوا على ما كان متاحاً للقلة فقط . وعندما مجزنا عن إيجاد الحلول على أساس الأنماط التقليدية تهيجنا واتجهنا إلى تحطيم ما هو قائم دون تفكير جدي في البديل . لقد حططنا الأساس التربوية القائمة وهبطننا بمستواها إلى الحضيض تقريباً واكتفيناً بأن نلقى التبعة على مشكلة « الكم والكيف » لأننا عجزنا عن إيجاد الحلول - وكان من الطبيعي أن نعجز مادامنا قد كبلنا أنفسنا مقدماً بأسس ونظم وأساليب تربوية لم تعد صالحة أصلاً لمواجهة التغيرات الكبرى التى يمر بها الجنس البشرى الآن . إن التغير المطلوب صعب ، ومحاولة القيام به على الأساس التقليدية مستحيل .

ومن المعروف أن تغير النظام التربوى في مجتمع ما حتى يتكيف مع الظروف المتغيرة أمر عسير ، لأن النظام التربوية تملك على حد قول البعض ، قوة دفع ذاتية تدفعها إلى المحافظة على ذاتها وإلى مقاومة التغير . ولكننا لا نتحدث هنا عن صعوبة تغير النظام التربوى في مجتمع ما ، بل نتحدث عن الصرح التربوى القائم بأكمله ، نتحدث عن - « وجهة نظر » الجنس البشرى في طريقة حياته بأكملها ، وعن تغير أسس الحضارة الغربية التى سادت العالم المعاصر بأكملها .

إننا نتحدث عن ثورة يجب أن تقوم داخل عالم التربية حتى تواكب التغير الثورى الذى يمر به العالم وتمهد السبيل لوجهة نظر جديدة تجعلنا في وضع أفضل لحل المشاكل الكبرى التى نواجهها . إن ربط التخطيط التربوى « بالعمالة » مثلاً قد أصبح الشعار المفضل في معظم البلاد النامية ، وبعض البلاد المتقدمة ، برغم أننا جميعاً نعرف عن يقين أن التعليم عندما يوضع في خدمة التنمية الاقتصادية يؤدي إلى التركيز على تنمية إحدى قدرات المتعلم على حساب قدراته الأخرى ويخلق منه كائناً ذا جانب واحد . فهل فكرنا في ربط « العمالة » بيمول الناس وقدراتهم بدلاً من إخضاع هذه القدرات والميول للعمالة ؟

أن تقرير لجنة فور الذى اشرنا اليه يعتبر من السمات التى تتميز بها التربية فى العصر الحديث أن نموها ينجح الآن على نطاق العالم ، ولأول مرة فى تاريخ البشرية ، الى أن يسبق التنمية الاقتصادية ، بعد أن كانت التربية تتبع باستمرار النمو الاقتصادى . ويؤكد أن الدول السابقة فى هذا المضمار بنجاح هى اليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية !! .

أن هذا ، فى رأينا ، لم يحدث من قريب أو بعيد ، وكل ما حدث هو أن التربية كانت تتبع النمو الاقتصادى فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى معين ، وهو مبدأ حرية التعامل *laissez faire* ، وصار ذات الشيء يحدث الآن فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى آخر هو « التخطيط » .

ثم يحدد التقرير المذكور سمة أخرى من سمات التربية فى العصر الحديث ، وهى أن التربية تعمل الآن ، ولأول مرة فى التاريخ أيضاً ، على أعداد الناس لنوع من المجتمعات لم توجد بعد . ويشير الى أن هذا الاتجاه يبدو بوضوح فى البلاد التى تسعى نحو إقامة مجتمعات تختلف جذرياً عن حاضرها فى أعقاب تغييرات عميقة حدثت فى نوعية قيادتها الاجتماعية أو السياسية . ولا شك أن ذلك صحيح الى حد بعيد جداً ، فأحدى سمات العصر الحديث كله أن « تصور » طلائع المجتمعات تنظيماً جديداً تراه أفضل لمجتمعاتهم ويقنعون شعوبهم باستخدام ارادتها فى خلق المجتمعات التى تصورها ، ويعملون بكل الوسائل الدمائية ، ومنها التربية ، لتحقيق هذا الهدف . ولكن هذه المجتمعات التى « لم توجد بعد » تقوم فى الحقيقة على الأسس والأنماط القديمة برغم كل ما يحيطها من بريق ، وليست دور التربية فى هذا كله سوى « أداة » أو « مقلب القط » ، فليس لها أى دور ايجابى حقيقى فى أعداد الناس لأن يتصوروا بانفسهم نوع المجتمعات التى تلائم قيمهم الجديدة قبل أن تعدهم للعيش فيها .

والسمة الثالثة التى يتحدث عنها التقرير هي التناقض الذى بدأ يظهر بين إنتاج المؤسسات التعليمية وحاجات المجتمعات التى تعمل فيها هذه المؤسسات ؛ وهذا أيضاً صحيح ، والسبب الرئيسى فيه يؤيد وجهة النظر التى نحاول عرضها هنا . أنه يرجع فى جوهره الى التفسير الجذرى فى القيم ، التى أصبحت ترى أن من حق الكثيرين أن يحصلوا على الخير ، والثبات العنيد للأنماط التقليدية ، التى قامت فى خدمة القلة .



وما دمنا بصدد الحديث عن محاولة التخلص من الأنماط ذاتها باعتبارها قيوداً على حركتنا يجعلنا عاجزين تماماً عن اكتشاف الحلول الجذرية الشاملة لمشاكلنا الكبرى ، فإن الفرصة مواتية للتحدث عن فكرة « التقدم » فى البلاد النامية والأنماط التى صيغ فيها .

أن مفهوم التقدم بمعنى « اللحاق » بالمجتمعات الأكثر تقدماً ينطوى بوضوح على أن البلاد النامية يجب أن تسير فى ذات الطريق الذى سارت فيه البلاد الأخرى وأن « تنقلب » فى الأنماط السائدة فيها .

ومن وجهة النظر التي نعرضها يعتبر مفهوم التقدم بهذا المعنى قيّداً على البلاد النامية ويضعها فيما يشبه « قميص المجانين » الذي يصنع خصيصاً ليشل حركتهم حتى يمنعهم من الإبداع .

ولكن لحسن الطالع بدأت بوادر التغيير في هذا الاتجاه تبدو هنا وهناك ؛ إذ برغم أن « النموذج الغربي » ظل هدفاً رئيسياً من أهداف التنمية والتقدم بالنسبة للبلاد النامية ، فإنه قد أخذ الآن يفقد بعض بريقه لديها . فقد بدأت بعض المجتمعات النامية تفكر في تطوير نظم اجتماعية وسياسية خاصة بها . « نابعة من تراثها » ، وإن كانت المحاولات التي قامت في هذا الاتجاه لم تحقق نجاحاً لأنها لم تستطع أن تتخلص من الانماط الاجتماعية والسياسية التقليدية في بلورة أفكارها . ولكن البادرة وجدت ، وستنمو إذا هيئت لها الظروف المواتية .

لقد آن الأوان لأن يتخذ التقدم في البلاد النامية من البلاد المتقدمة نماذج لا ليحتذى بها ولكن ليتجاوزها بهدف خلق حضارة أكثر تلاؤماً مع القيم الجديدة التي تمخض عنها تطور الوعي البشري .

إن المشكلة التي يواجهها الجنس البشري الآن جديدة تماماً ، ومن ثم فهي تحتاج إلى حلول جديدة قد يكون بعضها بمثابة فتحة في الغلام . الاثنا نستطيع أن نقلل من مخاطرها إلى الحد الأدنى إذا نحن وفرنا لها ما هي جديرة به من جهود وإمكانات مادية وتقنية ومهارات بشرية متاحة .

ومن الطبيعي أن تعجز البلاد النامية عن القيام بهذه المهمة وحدها في وقت مناسب ، ولكن هل المشكلة هي مشكلة البلاد النامية وحدها ؟

يبدو أن هذا هو التصور الغالب في كثير من دوائر الغرب . فعلماء البلاد المتقدمة ومفكروها قد اكتفوا حتى الآن بتقديم النصائح الجاهزة التي لا تستند إلى دراسة جادة أو بحث علمي عظيم . ونظرة واحدة إلى مجموع ما ينفق في أنشطة البحوث فيها تدل على أن ما نقوله لا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، (٢٦)

إن المشكلة ليست بالقطع مشكلة البلاد النامية وحدها ، بل إن فواهرها في البلاد المتقدمة تكاد تكون أكثر شيوعاً . وفي ميدان التربة وحده تكفي مظاهرات التمرد والقلق التي ظهرت بين الطلبة في أكثر بلاد العالم تقدمياً في السنوات الأخيرة للدلالة على مدى حاجة الأنظمة التربوية فيها إلى تغيير . فالحاجة الملحة إلى القيام بثورة في المفاهيم التربوية ليست مقتصرة على بعض البلاد في العالم دون البعض الآخر . أنها ظاهرة عامة نجمت عن سرعة نمو الوعي البشري وعدم ملاحقة التغييرات الاجتماعية والفنية والاقتصادية لهذا النمو بسرعة كافية ، وهي تقض مضاجع التربويين في جميع أنحاء العالم .

(٢٦) يقدر أن ٩٨٪ من مجموع أنشطة البحوث والتنمية التي تجري في العالم (خارج البلاد الاشتراكية) تنطلق بها أدم متقدمة وتخصص منها حوالي نصفها لشؤون الدفاع والغذاء والطاقة الذرية ، كما ينصب ٢٦٪ منها على البحوث الصناعية المرتبطة بالاستهلاك و ٢٢٪ للبحوث الأساسية ، ولا يبقى سوى ١٪ تقريباً للبحوث التي يترأسها أنها تهم العالم الثالث .

وحتى اذا كانت هناك مشاكل تمس البلاد النامية أكثر من غيرها ، هل يعني ذلك ان تظل البلاد النامية بلدا نامية وتظل البلاد المتقدمة بلدا متقدمة ؟

ان انقسام العالم الى دول متقدمة وأخرى نامية ، فضلا عن انه ليس الصورة المثلى للعالم في الوعي البشرى الجديد ، يعرقل جهود الجنس البشرى ككل في الاستفادة من قدراته العظيمة ، ولن نرى بشائر الفجر الجديد الا عندما نتكاتف جميعا على تحقيق الوحدة لعالم متناسق نعيش فيه في سلام .

★ ★ ★

على اسمي *

المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية

تحتل المشكلة السكانية اهتماما بالغا لدى الاقتصاديين والسياسيين ورجال علم الاجتماع وغيرهم من المشتغلين بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وقد اسهمت فروع مختلفة من المعرفة الإنسانية في محاولات تحليل تلك المشكلة وتحديد مظاهرها ومسبباتها . كما شاركت جميعا وبدرجات متباينة في تقديم مقترحات علاجها والتخفيف من آثارها .

وبرغم انقضاء السنوات الطويلة منذ الكشف عن خطورة المشكلة السكانية واحتمالاتها المدمرة للرفاهية الإنسانية عموما ، وبرغم الحصيلة العلمية الوافرة من الدراسات والنظريات التي تحاول سبر غورها والتمسك الحلول لها ، فما زال التقدم نحو الحل الحاسم لتلك المشكلة العالمية يسير وثيلا . والاحساس يتفاقمها واحتمال خروجها عن السيطرة يهدد الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي لكثير من شعوب العالم .

* الدكتور علي السلمي استاذ ادارة الاعمال المساعد بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، والمار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الكويت . له العديد من المؤلفات والبحوث . ومن أهم مؤلفاته : الادارة العلمية والسلوك الانساني في الإدارة .

وفي بحثنا هذا سنحاول تحليل العلاقة الحقيقية بين المشكلة السكانية وبين عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واستعراض المداخل التقليدية لمعالجة مشكلة تزايد اعداد السكان ، ثم نطرح مدخلا جديدا يناقض كثيرا من تلك المداخل السابقة ، ويقدم اطارا متكاملا للتعامل مع السكان باعتبارهم عنصرا فعالا في احداث النمو الاقتصادى والاجتماعى ، وبعد الفكرة الشائعة من أن الكيان السكاني للمجتمع يمثل عبئا اقتصاديا يجب التخلص منه أو تقليصه .

ويعتمد مدخلنا في دراسة وتحليل المشكلة السكانية على مفاهيم ونظريات علم الادارة (١) باعتباره العلم المختص بدراسة طرق تحليل المشكلات واتخاذ القرارات ، واعداد الخطط الهادفة الى تأمين العلاج الامثل للمشكلة، وصولا الى تحقيق نتائج وغايات ينشدها المجتمع أو بعض فئاته ، وذلك في حدود ما هو متاح من موارد وامكانيات ، وفي اطار الظروف والاضاع السائدة وما قد تفرغه من قيود على حرية الحركة والتصرف .

وعليه فان بحثنا يتعامل مع المتغيرات الآتية :

= المشكلة السكانية .

= التنمية الاقتصادية .

= التنمية الاجتماعية .

كذلك يحاول البحث اختبار بعض الفروض الأساسية وهي :

- أن تزايد عدد السكان المستمر هو العامل الأساسي في احداث التخلف الاقتصادي والاجتماعي .

- أن الزيادة المضطردة في اعداد السكان تعوق جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .
- أن السبيل الامثل للدولة النامية لكي تحقق النمو الاقتصادي والاجتماعي يتجسد في ضبط الزيادة السكانية ووضع قيود على اعداد السكان .

- أن انخفاض عدد السكان في الدولة النامية يؤدي الى الاسراع بمعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وسوف نعمد الى تحليل هذه الفروض واختبارها معتمدين على اسلوب التحليل المنطقي، الذي يستند الى الاسس والمفاهيم النظرية . ولا بد لنا اذن من أن نحدد اولاً الاطار الفلسفي الذي يدور هذا البحث في نطاقه .

١ - يمثل علم الادارة المعاصر حصيلة متكاملة من البادئ والمفاهيم والمعارف مستمدة من التحليل النظري والتجريبي للمشكلات الانتاجية ، والتي تتفاعل مع كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية في تكوين اطار فكري شامل .

الاطار الفلسفي للبحث

ينطلق هذا البحث من ركيزة فلسفية مؤداها ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي عملية حركية Dynamic ومستمرة ، تحتاج الى حشد كل الموارد والامكانيات المتاحة من ناحية ، كما تحتاج الى التخطيط والتنظيم العلميين من ناحية اخرى . ومن ثم فان احداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية انما يتوقف بالدرجة الاولى على امرين : **الأول** هو انواع وكميات الموارد والطاقات المتاحة للاستغلال في المشروعات الانمائية ، **والثاني** هو اسلوب وكفاءة ادارة عمليات الانماء (٢) .

وانطلاقا من هذا المفهوم نصل الى الاسس المبدئية الآتية :

- ١ - ان السكان هم عنصر في احداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية في اى مجتمع .
- ٢ - ان عدد السكان ليس هو البعد الوحيد للاسهام في التنمية ، بل ان نوعيات هؤلاء السكان وخصائصهم تمثل بعدا اخطر واهم في عمليات التنمية .
- ٣ - ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تعتمد فقط على الطاقات المتاحة فعلا ، بل تركز الى حد كبير على ما يمكن الكشف عنه من طاقات وما يظهر من موارد محتملة .
- ٤ - ان القدرة على الاستفادة القصوى من الطاقات والموارد المتاحة والمحتملة هي العنصر المتحكم في تحديد معدل النمو الاقتصادى والاجتماعي . وان هذه القدرة ترتبط بالسكان دون غيرهم من عناصر وموارد الانماء .

وحيث نصل بتفكيرنا الى هذه المرحلة ، فان المنطق يقودنا الى استنتاج رئيسي يحكم التحليل الوارد في هذا البحث تماما ، وهو ان كفاءة الادارة ونعالياتها في المجتمع تمثل العامل الحاسم في تقرير مصير جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

المشكلة السكانية :

تختلف الاساليب المستخدمة في التعبير عما يسمى بالمشكلة السكانية وذلك بحسب الخلفية العلمية والاهتمام الخاص بمن يقوم بالتعبير . **فالتعبير الاقتصادي عن المشكلة السكانية** يتبلور عادة في انها الزيادة المستمرة في اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات انتاج السلع والخدمات اللازمة لاشباع احتياجاتهم ، الامر الذى ينعكس في انخفاض نسبي للدخل القومي ، وتقلص نصيب الفرد من هذا الدخل ، ومن ثم ينحدر مستوى المعيشة ويتهدد المستوى العام للرفاهية الاقتصادية في المجتمع . ويستخدم تعبير « الانفجار السكاني » عادة للدلالة على الزيادة الصافية المتعالية في اعداد السكان بالقياس الى احجام السلع والمنتجات ، خاصة الغذائية منها .

٢ - يتفق معظم كتاب الادارة الان على ان مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي في الاساس مشكلة ادارية ، ومن ثم يركزون على اهمية ما يسمى « ادارة التنمية » Development . Administration

ومن ناحية ثانية نجد علماء الاجتماع ينظرون الى المشكلة السكانية من زاوية آثارها الاجتماعية من حيث التغيير المترتب عليها في الهيكل الاجتماعي ، واختلاف الأهمية العددية للطبقات الاجتماعية المختلفة . وهم يركزون على المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الزيادة السكانية، ومنها مشكلات انحراف الشباب وانتشار الجرائم، والتحول الإخلاقي في المعتقدات والقيم الناشئة عن الفقر وانخفاض مستوى المعيشة . كذلك يهتم علماء الاجتماع في تحليلهم للمشكلة السكانية بآثارها على الحركة الاجتماعية Social Mobility وعلى حركات الهجرة سواء الداخلية أو الخارجية . وهم يخلصون في النهاية الى استنتاجات تشير بشكل أو آخر الى الاخطار المصاحبة لزيادة أعداد السكان ، ومن ثم فهم يباركون الحلول القائمة على منطق ضبط الزيادة السكانية بشكل عام .

وعلى النقيض من اسلوب علم الاقتصاد ومنهج علم الاجتماع ، فان علم الإدارة ينظر الى المشكلة السكانية نظرة شمولية متكاملة ، يأخذ بعين الاعتبار أبعادها المختلفة ، وذلك وفقاً لمنطق أن السكان هم أحد عناصر المجتمع ، وبالتالي فهم يمثلون نظاماً فرعياً Sub-System ضمن نظام أكبر Total-System (٢) هو التكوين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري للمجتمع .

وبالتالي فان المشكلة السكانية في التصور الإداري هي **عدم القدرة على استغلال الطاقات والموارد البشرية المتاحة والقدرات والمهارات الإنسانية التي يملكها المجتمع بدرجة تحقق الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع** . ومن ثم فان المنطق الإداري يرفض اعتبار زيادة السكان في حد ذاتها مشكلة ، كذلك فان هذا المنطق لا يعتبر أن تحقيق خفض في عدد السكان سوف يؤدي بالضرورة الى تحسين الأوضاع الاقتصادية أو المعيشية للناس في مجتمع معين .

ان المشكلة السكانية الحقيقية في التحليل الإداري هي توفر طاقات بشرية لا تسهم في إنتاج السلع أو الخدمات التي يحتاجها المجتمع ، أو تسهم ولكن بقدر أقل مما تسمح به إمكاناتها الفعلية . ومن ثم فانه طبقاً للتحليل الإداري نحن نعالج بين المشكلة السكانية وبين انخفاض كفاءة استخدام العنصر البشري في الأنشطة الإنتاجية للمجتمع . وعلى ذلك فان القضية الأساسية في موضوع السكان يمكن أن تتبلور في الإبعاد الآتية :

١ - أن عدد السكان في أي مجتمع هو محصلة لتفاعل العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (٣) .

٢ - نحن نشير بذلك الى مفهوم النظم The systems Concept والذي يسود الفكر الإداري الحديث . ويقصد بالنظام ذلك الهيكل أو التكوين الكلي الذي يتكون من أجزاء أو نظم فرعية تقوم بينها علاقات تفاعل واعتماد متبادل بحيث أن السلوك النهائي أو الموقف العام للنظام الأكبر يكون محصلة لتفاعل الأجزاء المكونة له .

٣ - يقسم بعض المختصين هذه العوامل الى درجات من حيث مدى تأثيرها في حجم السكان الى طويلة الأجل ، متوسطة الأجل ، وعارضة ، الفظ

٢ - أن المحتوى الحقيقي لتلك العوامل المؤثرة في عدد السكان ينحصر في النظام الإداري Administrative System السائد في المجتمع، ودرجة الكفاءة في إدارة عمليات الإنماء الاقتصادي والاجتماعي ، ومن ثم الكفاءة في استخدام طاقات السكان المتاحة .

٣ - أن تركيب السكان من حيث درجات المهارة والمعرفة والقدرة على الإنجاز يفوق في أهميته عدد السكان من حيث الارتباط بالنشاط الاقتصادي والانتاجي للمجتمع ، كذلك فإن هذا التركيب السكاني هو في حد ذاته نسيج للنظام الإداري السائد ، ودرجة تطوره وكفاءته في أعداد وتأهيل السكان لمباشرة الأعمال الانتاجية بكفاءة .

من التحليل السابق نخلص إلى حقيقة هامة هي أن المشكلة السكانية كما حدثنا هي نتيجة مباشرة لمستوى الكفاءة الإدارية السائدة في المجتمع ، ومن ناحية أخرى فإن هذه المشكلة بدايتها تعود مرة أخرى لتسهم في خفض مستوى الكفاءة الإدارية بالمجتمع ، وهكذا تدور العلاقة في حلقة جهنمية تبدو للناظرين في مظاهر اقتصادية واجتماعية مضللة تبعدهم عن التصور الصحيح للمشكلة .

أن قصور وتخلل النظام الإداري في المجتمع، وانخفاض مستوى الكفاءة الإدارية به انعكس على شتى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وتتضح مظاهر انخفاض الكفاءة الإدارية بالدرجة الأولى في :

١ - عدم الدقة في تحديد الأهداف الاقتصادية والاجتماعية ، ومن ثم توجيه الموارد والطاقات المختلفة نحو مشروعات ومجالات للتشغيل ليست هي الأفضل أو الأمثل ، وبالتالي يتدنّى العائد منها وتحقق خسائر صافية للمجتمع في صورة ضياع فرص أفضل للاستثمار.

٢ - عدم الدقة في التخطيط (أو عدم الالتجاء إلى أسلوب التخطيط أصلاً) بما يؤدي إليه ذلك من سوء التوقيت وتضارب الأنشطة وتداخل الجهود بشكل يقلل من الانتاجية الكلية ، ويحول بين عناصر الانتاج وبين أن تصل بكفاءتها إلى الحد الأمثل . كذلك فإن سوء التخطيط يتجلى في ضعف التنسيق بين مجالات الاستخدام المختلفة ، الأمر الذي يترتب عليه وفرة في المتاح لبعض المجالات أكثر من حاجتها ، ونُدرة في المتاح لمجالات أخرى بما يقل عن حاجتها ، والمحصلة النهائية لكل تلك المظاهر هي قصور الناتج الكلي عن الوفاء بالاحتياجات التي يتطلبها المجتمع .

٣ - عدم الدقة في التنظيم والتنسيق ، وتداخل الاختصاصات وتضارب السلطات وتناقضها ، وخلق تنظيمات وأجهزة تستفرق كميات هائلة من موارد المجتمع دون أن تسهم بإنتاج يتعادل وتلك الموارد . أن بطء الإجراءات وتعقد أساليب العمل ، وتجمد القواعد والسياسات كلها مظاهر متكررة وشائعة للتخلل الإداري ، بما يترتب عليه من تواضع الإنجازات وارتفاع تكلفتها الحقيقية بالنسبة للمجتمع .

٤ - غياب الرقابة الموضوعية والمتابعة المستمرة لأوجه النشاط المختلفة ، بما يسمح بوقوع الأخطاء والانحرافات واستمرارها ، وتفاقم آثارها السالبة على الجهاز الاقتصادي والكيان الاجتماعي .

ان الدعوى الاساسية التي نطرحها في هذا الجزء من البحث هي ان **التخلف الادارى في المجتمع هو السبب المباشر للمشكلة السكانية ، وبالتالي للمظاهر الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عليها .** **كذلك فان هذه المشكلة ومظاهرها تعود مرة اخرى لتنعم وتكرس التخلف الادارى لتزداد المشكلات حدة وتعقد مظاهرها وتتداخل بما يواعد بينها وبين الحل السليم .**

ان هذه العلاقة المتبادلة بين المشكلة الادارية وبين المشكلة السكانية هي في تصورنا لب المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الدول النامية . ولنا ان نستدل على سلامة هذا الاستنتاج من الدلائل التالية :

١ - ان الدول النامية سواء في افريقيا أو آسيا أو امريكا اللاتينية تعاني جميعا من التخلف الادارى بدرجات شديدة . وانها جميعا تتسم بسيطرة التنظيمات البيروقراطية التقليدية على النظم الاقتصادية فيها .

٢ - ان الدول النامية تتسم بصفة اساسية وهي الارتفاع النسبي في اعداد السكان بها . ان معظم هذه الدول تعاني مما اصطلح الاقتصاديون على وصفه بالانفجار السكاني .

٣ - ان معظم هذه الدول النامية تعاني من ارتفاع مستمر في معدلات المواليد ومعدلات الزيادة الصافية سنويا في اعداد السكان .

٤ - كذلك تتسم هذه الدول بتخلف التركيب النومي للسكان كالآتي :

أ - ارتفاع نسب الاطفال والشيوخ بين السكان .

ب - ارتفاع نسب النساء غير المستغلات .

ج - انخفاض نسبة القوى العاملة الى اجمالي السكان .

د - انخفاض نسبة القوى العاملة المنتجة الى القوة العاملة الاجمالية .

هـ - ارتفاع نسبة العاملين في اعمال الخدمات والمهن غير المنتجة (كالباعة الجائلين ، والخدم ، والاعمال المعاونة في الهيئات والمؤسسات والشركات) .

و - ارتفاع نسبة العاملين باجهزة الادارة الحكومية البيروقراطية بالقياس الى المستغلين بالمهن الصناعية والانتاجية .

ز - تخلف التركيب المهني للقوة العاملة وشيوع العمل بالمهن اليدوية والتي لا تتطلب قدرا عاليا من المهارة .

ح - انخفاض المستوى التعليمي العام للسكان وشيوع الامية بين افراد القوى العاملة .

ط - انخفاض المستوى الصحي العام وشيوع الامراض بين افراد القوى العاملة .

ي - انخفاض المستوى العام للانتاجية بين افراد القوى العاملة .

فإذا أضفنا إلى الدلائل السابقة دليلاً آخر هو أن معظم الدول النامية تشغل أساساً بأنواع النشاط الاقتصادي الأقل إنتاجية كالزراعة أو التعدين ، وحتى تلك الدول التي تتمتع بثروات خاصة كالنفط أو بعض الحاصلات الزراعية الهامة كالقطن والحبوب مثلاً ، إلا أننا نجدها غير قادرة على استثمار تلك الثروات بالاتجاه إلى تصنيعها وتحقيق العائد الأمثل منها . بالعكس فالشاهد أن هذه الدول تعتمد أساساً على تصدير هذه الثروات إلى الدول المتقدمة اقتصادياً في صورتها الخام لتستبدلها بالسلع الاستهلاكية في المقام الأول .

كذلك يلاحظ يلاحظ أن هذه الدول النامية والتي تعاني من الزيادة في أعداد سكانها لم تحاول الإفادة من الوضع السكاني للدول المتقدمة التي تفتقر إلى اليد العاملة ، ولم تلجأ إلى استثمار طاقتها البشرية الهائلة كمصدر للدخل القومي من خلال التهجير إلى تلك الدول الغنية على نطاق واسع منتظم .

نخلص من كل ما سبق إلى أن المشكلة السكانية ليست هي زيادة أعداد السكان بل هي في الأساس عدم قدرة الجهاز الإداري في المجتمع على استثمار طاقات هؤلاء السكان ، وتحويلها إلى إنتاج نافع له قيمة . ومن ثم فالمشكلة إدارية وليست ديموجرافية أو اقتصادية .

واستكمالاً للتحليل فإننا نتوجه الآن إلى دراسة **التغير الثاني** في بحثنا وهو التنمية الاقتصادية لكي نستدل على مدى ارتباطه بالمشكلة السكانية ، وللتأكد من سلامة ما توصلنا إليه من استنتاجات تتعلق بتلك المشكلة .

التنمية الاقتصادية :

تمثل التنمية الاقتصادية إحدى العلامات البارزة في التاريخ الحديث لكثير من بلدان العالم ، وهي التحدي الرئيسي الذي يواجه شعوباً متعددة في عالمنا المعاصر . وقد اختلفت الآراء حول ماهية التنمية الاقتصادية ، كذلك اختلفت المداخل الهادفة إلى إحداثها ، وتتركز أهداف التنمية الاقتصادية عادة في القضاء على مظاهر التخلف الاقتصادي والتي تبدو فيما يلي :

١ - انخفاض مستوى الدخل الفردي وما يترتب على ذلك من سوء التغذية ، وانتشار الأمراض وارتفاع نسبة الأمية وتدهور حالة الإسكان للغالبية من أفراد المجتمع .

٢ - انشغال الغالبية من السكان بأشغال النشاط قليل الإنتاجية ، خاصة في الزراعة والخدمات وانتشار ظاهرة البطالة المقتمة ، حيث يزيد عدد العاملين دائماً عن الاحتياجات الحقيقية للعمل .

٣ - ازدياد الميل إلى الاستهلاك مع ضعف مستويات الدخل والاستثمار .

٤ - انخفاض المستوى العام للإنتاجية في المشروعات وارتفاع التكلفة النسبية للإنتاج .

ولقد كانت مظاهر التخلف الاقتصادي محل اهتمام ودراسة الاقتصاديين لفترات طويلة ، كما

جذبت انتباه المفكرين الاجتماعيين الى المشاركة في ايجاد حلول لها ومن اهم النماذج الشائعة عن مداخل احداث التنمية الاقتصادية ما يلي :

اولا : النموذج الاقتصادي الكلاسيكي (٥) : الذي يقوم على اساس الاقتناع بأن القانون الطبيعي هو الفلسفة الحقيقية في الحياة، وبالتالي فإن « الحرية » هي محرك النمو والازدهار في المجال الاقتصادي . وتتلخص مبادئ الفكر الكلاسيكي عن التنمية الاقتصادية في الآتي :

١ - القانون الطبيعي هو اساس تنظيم الحياة الاقتصادية ، ومن ثم تكريس الحرية الاقتصادية .

٢ - تقسيم العمل الى الحد الذي يقبله السوق .

٣ - تحرير التجارة الخارجية حيث تقوم كل دولة بتصدير السلع التي تتمتع فيها بمزايا نسبية .

٤ - احداث تراكم رأسمالي يتم تمويله من القيمة الفائضة .

٥ - الاعتماد بالتكوين الرأسمالي الجديد والتطوير التكنولوجي للتغلب على مضار الزيادة في السكان خاصة والموارد القومية محدودة واثابتة .

ويقوم المنطق الاساسي للنموذج الكلاسيكي على أساس ان ضغط الزيادة السكانية على الموارد الطبيعية المحدودة يؤدي الى تعويق عملية النمو على الرغم من الزيادة في التكوين الرأسمالي . اى ان المشكلة السكانية بمعناها الاقتصادي واضحة في هذا المنهج الفكري باعتبار انها عائق في سبيل التنمية .

ثانيا : نموذج الابتكار كمدخل للتنمية (٦) : وقد روج له الاقتصادي شومبيتر Schumpeter حيث اوضح ان التجديد والابتكار هما مصدر الارباح ، وان المزيد من الارباح هو اساس التنمية الاقتصادية . ويعود التجديد والابتكار في نظرية شومبيتر اساسا الى « المنظم Entrepreneur الذي يمارس وظائف البحث عن الجديد في الانتاج ويقوم على تنفيذه .

ويتسع مفهوم التجديد في نظرية شومبيتر ليشمل محاولات تغيير معدلات الموارد الى الاستخدامات ، وزيادة الطلب الفعال ، وتخفيض اسعار عناصر الانتاج او تحقيق مزايا الوفورات في الانتاج . ومن خلال عمليات التجديد يحصل المجددون من المنتجين على مزايا إضافية تسمح لهم بتحقيق ارباح غير عادية ، مما يشجع على اجتذاب رؤوس الاموال لهذا النشاط الانتاجي ، الامر الذي يؤدي الى انخفاض نسبي لمعدلات الارباح نتيجة للتوسع الانتاجي . ومن ثم يواصل المجددون محاولات الابتكار للاحتفاظ بتفوقهم النسبي على منافسيهم . ومع كل موجة من موجات التجديد يرتفع المد الاقتصادي للمجتمع وينتقل خطوة في طريق النمو والتقدم .

المدخل الإداري لمعالجة المشكلة السكانية بالدول النامية

ويرمز من نظرية شومبيتر بعض الأفكار الهامة التي سنعود إلى تأكيدها حين نناقش المدخل الإداري للتنمية الاقتصادية ، وهذه الأفكار هي :

١ - أن الإدارة العلمية للإنتاج التي يمارسها المنظم في رأى شومبيتر هي العنصر الحاسم في أحداث التجديد ومن ثم النمو الاقتصادي .

٢ - أن منطق الإنماء عند شومبيتر هو منطق ايجابي يستند إلى فكرة الخلق والإنشاء الجديد .

٣ - أن التكنولوجيا لها دور هام في أحداث النمو .

تلك الأفكار مترابط معاً ، وسيكون لها مكانها الهام في المنطق الإداري عن التنمية الاقتصادية .

ثالثاً : لقد عبر آرثر لويس (٧) عن مفهوم آخر للتنمية الاقتصادية يستند إلى أن التنمية هي في الأساس عملية تراكم رأس المال الذي يستخدم لتجهيز طاقة العمل التي يتم نقلها من قطاع الزراعة إلى قطاع الصناعة . أن انتقال الأيدي العاملة من قطاعات الإنتاج الأقل إنتاجية مثل الزراعة إلى القطاعات الأعلى إنتاجية كالصناعة يحقق زيادة في الإنتاجية الكلية للمجتمع .

ويتضح أن نموذج لويس يقتصر على إبراز دور رأس المال في أحداث التنمية ، وإنما يشترك أيضاً عنصر العمل وقبيل فكرة تحسن الإنتاجية كعامل مساعد للنمو الاقتصادي .

وبرغم اختلاف النماذج الاقتصادية في مفاهيمها عن التنمية الاقتصادية ، إلا أنها تركز بشكل عام على أربعة عناصر تعتبرها محركات للنمو الاقتصادي هي :

١ - تراكم رأس المال .

٢ - التغير في حجم السكان .

٣ - التنظيم .

٤ - تقسيم العمل .

وقد كانت نظرة الاقتصاديين إلى السكان مختلفة فيما يتعلق بأثر الزيادة السكانية على النمو الاقتصادي . فالبعض منهم كان يعتقد أن الزيادة السكانية ستعوق التنمية ، وتقلل معدلاتها كما كان ريكاردو وسميث يعتقدان (٨) . بينما كان كينز يرى أن زيادة عدد السكان تعني زيادة الطلب ، وهو من العوامل المشجعة على الاستثمار والنمو الاقتصادي (٩) .

٧ - W.A. Lewis, Economic Development with Unlimited Supplies of Labour, The Manchester School, May, 1954.

٨ و ٩ - Meier, G.M. & Baldwin, R.E. : Economic Development, N.Y., Wiley, 1957.

التصور الإداري للتنمية الاقتصادية :

ان الفارق الاساسي بين التصور الإداري للتنمية الاقتصادية وبين التصورات الاقتصادية لها يمكن ان يتضح من النقاط الآتية :

١ - ان المداخل الاقتصادية تركز على واحد أو أكثر من عوامل الإنتاج باعتباره المحرك الأساسي للتنمية ، بينما التصور الإداري ينظر إلى التنمية باعتبارها عملية متكاملة وشاملة تعتمد على تفاعل مجموعة العوامل الانتاجية وغيرها من المحددات الاجتماعية والانسانية لإنتاج معدلات معينة من الانماء الاقتصادي .

٢ - ان المداخل الاقتصادية تعتبر التنمية مشكلة مستقلة إلى حد ما عن خصائص وصفات المجتمع الانسانية وتقاليد وعاداته الحضارية ، بينما المدخل الإداري لا يفصل بين محاولات الانماء الاقتصادي وبين التكوين الاجتماعي والحضاري .

٣ - ان دور السكان والزيادة السكانية غير متفق عليه في المداخل الاقتصادية للتنمية ، إذ تعتبره بعض النظريات عاملاً موقفاً لجهود التنمية ومبداً لإتارها ، بينما تميل نظريات أخرى إلى اعتبار أن السكان والزيادة في أعدادهم من العوامل المساعدة على أحداث التنمية .

٤ - ان المداخل الاقتصادية عموماً تميل إلى تصوير التنمية الاقتصادية باعتبارها تغيراً مفروضاً على المجتمع من الخارج ، أي بفعل قوى ومؤثرات خارجية يتم إدماجها في الكيان الاقتصادي للمجتمع من خلال أحداث زيادات في التكوين الرأسمالي ، أو استيراد أشكال من رأس المال أو التطوير التكنولوجي . أما المدخل الإداري للتنمية فإنه يعتبرها تغيراً ذاتياً ينبع من داخل الكيان الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ولا تتحقق له الفعالية إلا من خلال قبول أفراد وجماعات المجتمع له ، وتحمسهم لأحداثه والمشاركة الإيجابية في تحقيقه . ومن هنا نجد التصور الإداري للتنمية الاقتصادية يضع أهمية كبرى في خصائص التكوين السكاني للمجتمع ، من حيث مدى تقبلهم لمفاهيم التنمية والتغيير والتطوير ، أو معارضتهم لمثل هذه الاتجاهات .

وفي ضوء هذه النقاط يمكن إبراز التصور الإداري للتنمية الاقتصادية في أنه محاولة أحداث تغيير شامل وجذري في نظم وعلاقات الإنتاج والعمل ، وأسس استخدام الموارد والطاقات المتاحة ، وخلق الظروف المناسبة لتطوير الطاقات والموارد ، واستقبال الطرق والأساليب الجديدة في الإنتاج ، كل هذا بهدف تحسين وتطوير الكفاءة الكلية للتشغيل الاقتصادي للمجتمع ، وتحقيق زيادات صافية في الإنتاج القومي كما ونوعاً ، وترشيد توزيع الناتج القومي بين المساهمين في انتاجه وفقاً لأسس ومعايير اقتصادية واجتماعية عادلة ومقبولة .

وتتركز أهم خصائص المدخل الإداري في التنمية الاقتصادية في الآتي :

١ - ان الإدارة العلمية تحقق بالتخطيط والتنظيم والمتابعة الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، ومن ثم تصل إلى أفضل النتائج الممكنة في إطار القيود والمحددات السائدة .

المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية

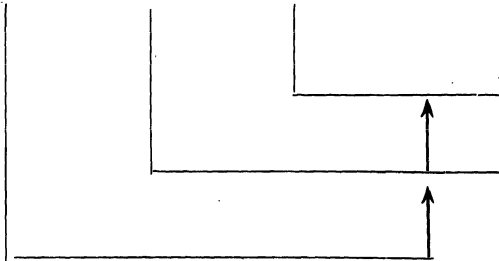
٢ - أن المنطق الإداري يعتبر العنصر البشري هو الركيزة الأساسية لجهود التنمية ، ومن ثم فإن توافر عناصر الإنتاج الأخرى لا قيمة له إلا إذا توفر العنصر البشري القادر والراغب في الإنتاج والعطاء .

٣ - أن التنمية الاقتصادية هي في حقيقتها تنمية للطاقات البشرية ، ومحاولة رفع كفاءة القوى العاملة ، وزيادة معدلات اسهامها في الإنتاج القومي .

إن الكفاءة الانتاجية هي محور التفكير الإداري في التنمية . وبالتالي فإن جهود الانماء يجب أن تتركز جميعا في محاولة رفع الكفاءة الانتاجية في الأنشطة الاقتصادية . وحيث أن السكان هم المصدر الأول للكفاءة الانتاجية ، إذن فالتنمية الاقتصادية تتوقف تماما على مدى كفاءة السكان ودرجة الافادة منهم في تعظيم الناتج القومي .

ولذلك فإن المدخل الإداري للتنمية الاقتصادية يعتمد على المنطق الآتي :

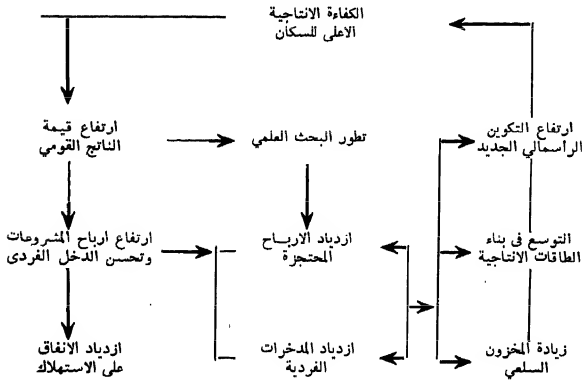
$$\frac{\text{قيمة الناتج القومي الإجمالي}}{\text{قيمة رأس المال المستخدم} + \text{قيمة المواد وعناصر العمل} + \text{قيمة الطبيعة المستخدمة} + \text{قيمة العمل الإنساني}} = \text{الكفاءة الانتاجية الكلية للاقتصاد القومي}$$



أي أن قيمة العمل الإنساني هي مصدر تنمية قيم رأس المال وعناصر الطبيعة ، ومن ثم هي مصدر الزيادة الحقيقية في الناتج القومي الإجمالي .

ويمكن تصوير العلاقة بين ارتفاع كفاءة السكان الانتاجية وبين التنمية الاقتصادية كما يلي :

شكل رقم (١)



ان الكفاءة الانتاجية للسكان هي مفتاح التقدم والنمو ، ومن ثم فان المدخل الاداري للتنمية الاقتصادية يركز على تعظيم هذه الكفاءة الانتاجية ، ومن ثم فانه يقدم حلولاً مختلفة للمشكلة السكانية كما سird تفصيلاً في جزء تال من هذا البحث .

التنمية الاجتماعية :

لعل تعبير « التنمية الاجتماعية » من اكثر التعابير الشائعة غموضاً نظراً لكثرة استخدامه للدلالة على اشياء مختلفة . وسبب اهتمامنا بدراسة هذا الجانب هو ارتباطه الشديد بالمشكلة السكانية ، وتعارض المفاهيم السائدة حول العلاقة بين السكان وبين محاولات التنمية الاجتماعية . وكما كان الشأن بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، فاننا نعرض هنا تحليلاً لمفهوم التنمية الاجتماعية توصلنا الى الكشف عن العلاقة بينها وبين المشكلة السكانية من ناحية ، وبين المنطق الاداري في الانماء من ناحية اخرى .

لقد شاع في كثير من الدول النامية ارتباط بين جهود التطوير والانماء الاقتصادي من ناحية ، وبين الرغبة في تحسين حال المجتمع وتوفير اسباب الرفاهية للمواطنين من ناحية اخرى . ومن ثم

اقتترنت التنمية الاجتماعية بالتنمية الاقتصادية في مشروعات وخطط الإنماء الخمسية والعشرية لدول العالم النامية .

ويلاحظ باستمرار ان مفهوم التنمية الاجتماعية السائد يخضع لمنطق تقديم مزيد من الخدمات ، واشكال الرعاية الاجتماعية للمواطنين بهدف التخفيف من اعباءهم ، والاسهام في حل مشكلاتهم ذات الأساس الاقتصادي غالباً . من ذلك ما نلاحظه ان جهود التنمية الاجتماعية تتجه في اكثر الأحيان الى :

١ - توفير درجات أعلى من الأمن الاجتماعي من خلال تطوير نظم وبرامج التأمينات الاجتماعية، والضمان الاجتماعي وغير ذلك من اشكال وضروب اسهام الدولة في تأمين حد أدنى من الدخل للمواطنين حال اصابهم بما يقعدهم عن العمل ، او ضمان هذا الدخل الأدنى لذويهم في حالة الوفاة .

٢ - تطوير وتحسين مستوى الخدمات الصحية والعلاج الطبي لفئات المواطنين ذوي الدخل المحدودة ، والعمل على مكافحة الاوبئة والأمراض المتوطنة ، ونشر الوعي الصحي بين افراد وجماعات المجتمع .

٣ - تأمين مستوى مقبول من الاسكان لدى الدخل المحدودة ، وتوفير فرص الحصول على سكن مناسب للمائلات الكبيرة التي قد تعجز بمواردها الذاتية عن تديره .

٤ - محاولة رفع المستوى الثقافي للمواطنين من خلال برامج هادفة الى تقريب الثقافة الحديثة لمفاهيم الانسان العادي ، ونشر التدقيق الفني بين الجماهير .

٥ - العمل على نشر التعليم وتخفيض تكلفته ومكافحة الأمية ووضع البرامج لتعليم الكبار .

كل تلك المظاهر لا تنتمي في تحليلنا الى التنمية الاجتماعية برغم ان هذا هو الاسم الذي يطلق عليها . ونحن نضع تلك الجهود جميعاً في فئة أنشطة الرعاية الاجتماعية او ما يطلق عليه Social Welfare حيث هي لا تهدف الى احداث تغييرات جذرية في الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، بل يقتصر اثرها على مجرد التخفيف من حدة الشعور بالمشكلات الاقتصادية وعدم العدالة الاجتماعية ، وبالتالي فان تأثير هذه المحاولات على الكفاءة الانتاجية للسكان يكون محدوداً الى حد بعيد للأسباب الآتية :

١ - ان هذه الجهود في الرعاية الاجتماعية تتعامل مع جوانب متفرقة من الحياة الاجتماعية للانسان ، ولا تتعامل مع المحددات الفعلية للكفاءة الانتاجية بشكل مباشر .

٢ - ان محاولات الرعاية الاجتماعية لا تصل الى الاسباب الحقيقية للتخلف الاجتماعي والذي يؤثر تأثيراً سلباً على الكفاءة الانتاجية للسكان ، وانما تتجه بالدرجة الأولى الى محاولة علاج مظاهر هذا التخلف الاجتماعي .

٣ - أن الأجهزة القائمة على توفير تلك الرعاية الاجتماعية تتعدد وتباین في اهتماماتها واساليبها ، ولا تصدر من سياسة موحدة او خطة متكاملة . وبالتالي فكثيرا ما يحدث ان يستفيد بعض المواطنين من خدمات مكررة لبعض هذه الأجهزة ، بينما يفشل آخرون في الحصول على أى قدر منها .

٤ - ومن الملاحظ ايضا ، ان تلك الجهود المبذولة في سبيل الرعاية الاجتماعية تنجھ في الغالب الى المواطنين في المناطق الحضرية من الدولة ، بينما لا تكاد تصل الى الآخرين في المناطق الريفية وذلك نظرا لبعدهم عن مراكز التأثير السياسي من ناحية ، ولتركز البيروقراطية الحكومية في المدن من ناحية أخرى . وبرغم الاتجاه السائد في بعض الدول مؤخرا والذي يطلق عليه اسلوب « تطوير المجتمع Community Development » والذي يرمي الى تجميع جهود الأجهزة العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية وتركيزها بالنسبة لمنطقة معينة (قرية ، او حي باحدى المدن) وتخطيط توفيرها على أساس تكاملي ، الا ان المنطق الذي تقوم عليه هذه الجهود ما يزال هو منطق الرعاية الاجتماعية وليس التنمية الاجتماعية الشاملة .

ومن ثم فان المنطق الإداري العلمي يعتبر ان تشتت جهود العمل الاجتماعي ، وعدم فعاليتھ منعكسان على المشكلة السكانية بشكل مباشر ، حيث لا يوفران الأساس السليم لرفع كفاءة السكان الانتاجية ، وبالتالي يتواجد اعداد من السكان لا يملكون القدرة او المهارة او الدافع للعمل الانتاجي ، وهذا ما يتمثل في المظاهر الاقتصادية للمشكلة السكانية ، اى زيادة اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات الزيادة في الانتاج القومي .

التصور الإداري للتنمية الاجتماعية :

ان التنمية الاجتماعية في المفهوم الإداري شأنها شأن التنمية الاقتصادية هي عملية تغيير جذرية تستهدف القضاء على اوضاع وعلاقات اجتماعية سائدة ، واحلال اوضاع وعلاقات جديدة محلها . وبشكل محدد فان التنمية الاجتماعية في التصور الإداري هي محاولة علمية مخططة ومتكاملة تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعي للأفراد في مجتمع معين بما ينعكس على الكفاءة الانتاجية للسكان بشكل ايجابي .

وبالتالي فان التنمية الاجتماعية تتصف بالخصائص الآتية :

١ - انها عملية شاملة ومتكاملة تتعامل مع المحددات الأساسية للسلوك الاجتماعي ، وتدرك التفاعل والتداخل بين تلك المحددات .

٢ - انها عملية مستمرة نظرا للتغير المستمر في محددات السلوك الاجتماعي ولضرورة متابعته بما يضمن استمرار توفر الظروف المساعدة على التحول الاجتماعي الإيجابي ، وتجنب الارتداد الى الاوضاع والعلاقات الاجتماعية السابقة .

ولقد وضح لنا ان التنمية الاجتماعية تستهدف في الأساس اعادة تشكيل التكوين السكاني للمجتمع وذلك من خلال التأثير على انماط السلوك الاجتماعي السائدة ، ونتيجة للدراسات في مجال

العلوم السلوكية (١٠) فقد تحدد طريق العمل من أجل التنمية الاجتماعية لرفع الكفاءة الانتاجية للسكان في أمرين :

الاول : محاولة التأثير في خصائص الانسان : وذلك بالعمل على تغيير مكوناته الشخصية وهي :

= مدركات الانسان واسلوبه في الفهم والادراك .

= دوافع الانسان ورغباته واهدافه .

= خبرات الانسان وتجاربه .

= اتجاهات الانسان ووجهات نظره .

= القيم والمعتقدات التي يؤمن بها .

= العادات والتقاليد التي يقدرها ويلتزم بها .

الثاني : محاولة التأثير في خصائص البيئة التي يعيش فيها الانسان ، وهي ذات شقين **بيئة مادية واخرى اجتماعية** ، والهدف هنا يتمثل في العمل على تغيير الجوانب الآتية في حياة الانسان :

= البيئة المادية المباشرة التي يعيش فيها وهي المسكن ومكان العمل .

= البيئة المادية المحيطة وهي المنطقة السكنية التي يقطنها والمنطقة التي يقع بها مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المباشرة في مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المحيطة في نطاق الاسرة والاصدقاء والاقارب .

= البيئة الاجتماعية غير المباشرة وهي تتمثل في المجتمع الكبير الذي ينتمي اليه الانسان .

وفي ضوء هذا التصور لمفهوم التنمية الاجتماعية تأخذ محاولات رفع الكفاءة الانتاجية للسكان بعدا جديدا ، كما نتبع حلول غير تقليدية للمشكلة السكانية .

وضع التكوين السكاني في مشكلة التنمية :

من خلال التحليل السابق توصلنا الى عدد من الاستنتاجات الاساسية التي يقوم عليها المنطق الذي يستند عليه بحثنا وهي :

١ - أن قضية السكان تمثل عنصرا هاما في مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٢ - ان التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية لا تنفصلان ، بل هما وجهان لنفس المشكلة ، وهي الرغبة في تطوير حياة الافراد والجماعات في المجتمع ، وتهيئة ظروف معيشية افضل لهم .

٣ - ان الكفاءة الانتاجية للسكان هي المحدد الاساسي والعامل الحاسم في فعالية جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٤ - انه يمكن باستخدام منطق واساليب الادارة العلمية رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ، ومن ثم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وهذا الانماء الاقتصادي والاجتماعي يسهم بدوره في رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ومن ثم تتراكم الآثار الايجابية للعمل الاقتصادي والاجتماعي .

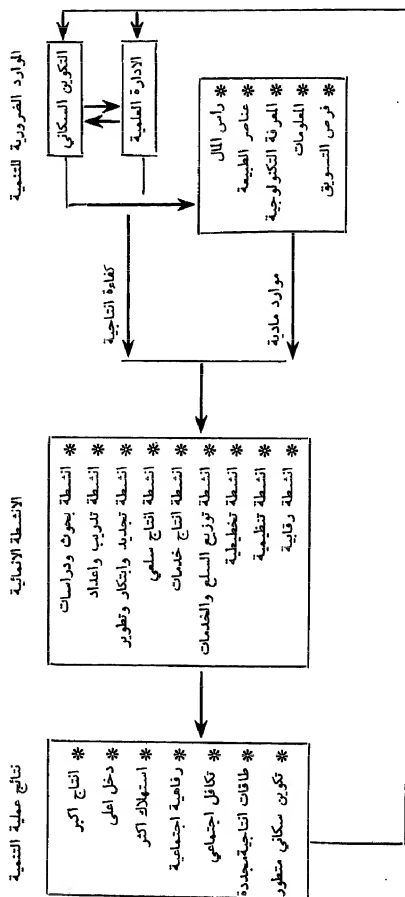
وخلاصة هذه الاستنتاجات ان التكوين السكاني يقع في صميم مشكلة التنمية ، ويلعب دورا مؤثرا في علاجها او تعويقها ، وذلك وفقا للخصائص الفعلية للسكان . وبصور الشكل التالي علاقة التكوين السكاني بعملية التنمية المتكاملة :

من الشكل السابق (رقم ٢) يتضح لنا ان توجيه اساليب الادارة العلمية نحو تعظيم الفائدة من التكوين السكاني ينتج مستوى مينا من الكفاءة الانتاجية . كذلك فان تفاعل الادارة العلمية والكفاءة الانتاجية للسكان يتيح فرصة لاستغلال الموارد المادية (خلاف العمل الانساني) المتاحة للمجتمع ، ومن جماع الكفاءة الانتاجية والموارد الاخرى المتاحة يكون اداء الانشطة الانمائية امرا ممكنا . وكنتيجة للعملية الانمائية تتحقق للمجتمع الفوائد المستهدفة والتي تتمثل بالدرجة الاولى في انتاج ودخل اعلى بما يتيح مستوى افضل للاستهلاك والرفاهية الاجتماعية . كذلك تزداد القدرة على التكافل الاجتماعي من خلال نظم توزيع الدخل . كما يكون في الاستطاعة خلق وتجديد الطاقات الانتاجية الجديدة للمجتمع بتاثير الاستثمارات وعمليات التكوين الراسمالي . واخيرا فان خصائص التكوين السكاني ذاتها تتعرض لتغيرات من تاثير الانشطة الانمائية ونتائجها ، وبشكل عام فان التكوين السكاني في نهاية دورة ما من دورات عملية التنمية سوف يصبح اكثر تقارباً مع المواصفات التي تتسم بها التكوينات السكانية في الدول المتقدمة صناعيا .

التكوين السكاني المتوافق مع متطلبات التنمية :

ان التساؤل الاساسي الان يتعلق بخصائص التكوين السكاني الامثل ، ونقصد ذلك التكوين السكاني الذي يتصف بخصائص مساعدة لعملية التنمية ومتوافقة مع متطلباتها .

ولاحظ ان الفكر الاقتصادي حين يتعرض للتكوين السكاني الامثل فانما يهتم بالدرجة الاولى بالعدد الامثل للسكان . وفي هذا المجال ترددت فكرتان حول العدد الاقصى من السكان ، والعدد



الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحلية والدولية

الادنى منهم (١١) وبرغم ان هذه الافكار تتعلق بتحليل في حالة السكون Static ، إلا أنها لا تثير الاهتمام الإداري كثيرا . وإنما التكوين الامثل للسكان في المفهوم الإداري يتجه الى خصائص السكان وتركيبهم النوعي والمهني ، وصفاتهم النفسية والاجتماعية والقيم والمعتقدات التي يؤمنون بها . أما العدد من السكان فيأتي في مرتبة تالية من الاهمية .

ونستطيع ان نقدم بعض الملامح التي اوضحت الدراسات الإدارية الحديثة ضرورة توافرها في السكان حتى تنهيا الفرص للتنمية الاقتصادية :

١ - توفر نسبة كافية من السكان في فئة العمر المناسبة للعمل والانتاج وهي تتراوح بين عشرين وخمسة واربعين سنة . ففي تلك الفئة العمرية يوجد السكان الذين يسهمون في المتوسط بدرجة اعلى واكفا من غيرهم في فئات العمر الادنى او الاعلى .

٢ - ارتفاع المستوى التعليمي بين السكان بشكل عام وبين الافراد في فئة العمر ٢٠ - ٤٥ بشكل خاص ، نظرا لانعكاس هذا التعليم المرتفع على امكانيات وقدرات الافراد في العمل .

٣ - ارتفاع نسبة القوى العاملة المنتجة الى اجمالي عدد السكان ، اي ارتفاع نسبة القادرين على العمل والراغبين فيه الى اجمالي السكان . وهذا الارتفاع في نسبة القوى العاملة يتيح فرصا للعمل الانتاجي ، ويسمح بتشغيل واستثمار الطاقات والموارد الانتاجية المتاحة .

٤ - توفر صفات نفسية محابية للنمو والتقدم بين السكان واهمها :

١ - وجود درجة عالية من الدافع الى الانجاز Need Achievement وهو الرغبة في تحقيق نتائج واهداف متميزة . وقد ثبت احد الباحثين وجود ارتباط بين الدافع الى الانجاز وبين درجة التقدم الاقتصادي للمجتمع (١٢) كذلك اوضحت الدراسات ذاتها ان اكثر افراد المجتمع تمتعا بالدافع الى الانجاز هم الاقدر على النجاح في الأعمال المتصلة بمجالات الانماء الاقتصادي .

ب - توفر درجة عالية من الرغبة في المشاركة Participation والانخراط في العمل Job Involvement بين السكان . ان هذه المشاركة والانخراط في العمل تعني ان اسهام الفرد في تحقيق اهداف الانتاج لا يقتصر على ادائه لواجباته الروتينية فحسب ، بل سوف يقدم على الابداع

١١ - يقصد بالعدد الاعلى للسكان Maximum Population ذلك العدد من السكان الذي يتحقق عند تساوي معدل الوفاة ومعدلات المواليد ، اي عندما تصبح الزيادة الصافية في السكان صفرا وذلك عند مستوى معين من الضخامة السكانية واساليب وطاقت الانتاج . وقد يتحقق هذا الحد الاعلى اما بفعل ارتفاع معدل الوفيات مع ثبات معدل المواليد ، او انخفاض معدل المواليد وثبات معدل الوفيات ، او تغير المعدلين في اتجاهين متضادين ولذلك نتيجة لاسباب صحية ، واجتماعية وسياسية واقتصادية . اما الحد الادنى للسكان فهو اقل عدد ممكن من السكان الواجب توافره لتمكن قيام حياة ونشاط اقتصادي او اجتماعي في بقعة ما .. راجع IAN, Bown, op.cit. p. 124.

١٢ - توصل عالم النفس دافيد مكلاوند من البات وجود ارتباط بين درجة توفر الدافع الى الانجاز في شعب من الشعوب وبين درجة التنمية الاقتصادية التي يحققها هذا الشعب . وقد اجرى مكلاوند دراساته على بيلات تاريخية من الولايات المتحدة الاميركية واطاليا وانجلترا . راجع مؤلفه :

McClelland, D.C., The Achieving Society Princeton : D. Van Nostrand Co., Inc., 1961.

والخلق والابتكار في محاولة لحل مشكلات العمل، والتماس طرق واساليب أكثر تطوراً في الإنتاج تعود عليه وعلى المجتمع بالفائدة. أن الشعور بالمشاركة والانخراط في العمل يؤدي إلى خلق الشعور بالمسؤولية الجماعية والمصلحة المشتركة. ويتبلور هذا الشعور في أنماط سلوكية في العمل والإنتاج تتميز بالإيجابية والإقدام. ولقد أوضحت إحدى الدراسات أن النجاح غير العادي الذي تحققه منظمات الإنتاج في مجتمع ما يتوقف إلى حد كبير على درجة الشعور بالمشاركة والانخراط في العمل بين العاملين في تلك المنظمات (١٢).

أن هذه الصفة في التكوين السكاني من أهم ما تحتاجه جهود الإنماء الاقتصادي في الدول النامية حيث يتبلور في أسهام المواطنين بالعمل من أجل الصالح العام، والحفاظ على الملكية العامة والثروة القومية، والشعور بالمسؤولية الكاملة حتى فيما يخرج عن حدود عمل الفرد. وكلها صفات تفتقر إليها الدول المتخلفة اقتصادياً.

ج - توفر درجة عالية من الرغبة في الانتماء Affiliation Need وهي درجة ارتباط الفرد بوطنه أو مجتمعه أو جماعته، ومدى شعوره بالرغبة في العمل من أجله. أن أهم ما تعاني منه كثير من الدول النامية ذلك الشعور بالتباعد والانفصال الذي يتسم به أبناءها، خاصة هؤلاء الذين يحققون مستوى أعلى من العلم والثقافة والخبرة الخاصة. ولعل قضية استنزاف العقول Brain Drain هو دليل حاسم على ذلك. أن هؤلاء الذين يتم استنزافهم هم شباب من أبناء الدول النامية، حققوا قدراً عالياً من العلم والخبرة ثم استقطبتهم دول كبرى غنية من خلال الأفرار بعقوبات شتى، مادية وغير مادية. ولكن ما يعنيننا هنا أن بلادهم النامية تحرم من خبراتهم وعلمهم بسبب نقص الرغبة في الانتماء لديهم. أن هؤلاء الشباب إذ يباعدون أنفسهم عن أوطانهم، ومن ثم تتدنّى مساهمتهم في انماءها إنما يدللون على قيمة توفر الرغبة في الانتماء لدى سكان دولة ما، حتى تتوفر ظروف أفضل للتنمية. وهنا لا بد من أن نورد تحذيراً هاماً هو أن الرغبة في الانتماء يجب ألا تفهم بمعنى التواجد المادي في الوطن، ولكن المقصد هو الانتماء الفكري والعاطفي للوطن، والعمل من أجل تحقيق أهدافه حتى ولو كان الفرد يقيم خارجه. ومن ذلك يستقيم في تصورنا مبدأ الهجرة من أجل تخفيف المشكلات الاقتصادية مع استمرار وجود الانتماء للوطن، وذلك إذا عمل أبناء الوطن المهاجرون على الإسهام في تمويل ودفع حركة الإنماء في بلدهم، ولو بشكل غير مباشر. ولعل في نجاح حركة الهجرة لإبناء لبنان واستمرار ارتباطهم بوطنهم، دليل على ما تقدم، يرغب أن كثيرين من هؤلاء المهاجرين قد تنسوا بجنسيات بلاد المهجر.

د - توفر درجة عالية من الرغبة في القدرة على تحمل المخاطر Risk-taking أن صفة أساسية في الأنشطة الإنتاج والأعمال المرتبطة بالتنمية هي نسبة المخاطر التي تحوط هذه الأنشطة، وعدم القدرة على التأكد من نتائجها. أن عدم التأكد Uncertainty ينشأ بسبب عوامل ومتغيرات كثيرة تتفاعل جميعاً لتجعل نتائج نشاط اقتصادي أو إنتاجي معين غير واضحة وقت

الاعداد لهذا النشاط . ومن ثم فان القائم باتخاذ قرار في هذا الشأن لا بد وان يتصف بدرجة مناسبة من الرغبة في تحمل المخاطر حتى يكون قادرا على اتخاذ قرارات تتسم بالجرأة والحسم من ناحية ، وحتى يتمكن من اتخاذ القرارات في التوقيت السليم من ناحية اخرى . ولقد وضع من دراسات عديدة ان المديرين في قطاع الاعمال الذين يحققون معدلات نجاح اكبر ، هم الذين يتصفون بالميل الى تحمل الاخطار (١٤) . وكذلك فانه يمكن التعميم بان درجة التقدم الاقتصادي لدولة ما تتأثر الى حد بعيد بمدى ميل سكانها الى قبول المخاطر وتحمل النتائج المترتبة على القرارات التي يتخذونها . والى جانب تلك الصفات النفسية التي يجب توافرها في سكان دولة ما حتى يصبحوا عنصرًا فعالًا في احداث التنمية الاقتصادية ، هناك عدد آخر من تلك الصفات نوردتها فيما يلي :

- الرغبة في القوة والميل الى السيطرة .
 - الرغبة في التنافس والميل الى تحدى الآخرين .
 - قبول التغيير وعدم التمسك بالقديم لذاته .
 - المرونة في التفكير وامكان تعديل الاراء والاتجاهات .
 - القدرة على الحركة السريعة في مواجهة المواقف المتغيرة .
 - القدرة على الاقتناع والتأثير في الآخرين .
 - تقدير الوقت واهميته .
 - تقدير الدقة والحرص على التدقيق في الامور .
 - القدرة على مواجهة الواقع وقبول ما يفرضه من التزامات .
 - النظرة المستقبلية للامور والقدرة على التنبؤ والتوقع .
 - النظرة الشاملة للامور والقدرة على ادراك الجوانب المختلفة للظاهرة او المشكلة .
 - القدرة على التخطيط والتدبير وفصل الظواهر الخارجية عن حقائق الامور .
- وحين نعدد هذه الصفات المرغوبة ، فنحن لا نقصد ضرورة توافرها في كل سكان دولة ما ، او ان توجد بدرجات متساوية ، ولكن القصد انه اذا توافرت تلك الصفات في نسبة مؤثرة من السكان الذين يشغلون مراكز قيادية في حركة الانماء وفي تلك الفئة من السكان الذين ينتمون الى القوة العاملة المنتجة فان ذلك كفيل باحداث حركة انمائية سريعة ومستمرة .

١٤ - Atkinson, J. W., „Motivational Determinants of Risk-Taking Behavior”, in Motives in Fantasy, Action and Society, ed. J. W. Atkinson.

Princeton, N. J. : D. Van Nostrand, Co. Inc., 1958.

واخطر ما يتعلق بتلك الصفات المرغوبة في السكان أنها ليست جميعها موروثة ، أى إن توافرها يخضع فقط لعوامل وراثية تخرج عن سيطرة الإنسان ، ولكن النسبة الكبيرة من هذه الصفات مكتسبة من البيئة الاجتماعية والحضارية ، وبالتالي يمكن اكتسابها للأفراد المعنيين من خلال إعادة تشكيل الجو الاجتماعي المحيط بهم . ومن هنا تنبع خطورة وأهمية الترابط العضوي بين التنمية الاجتماعية وبين التنمية الاقتصادية . ذلك أننا أوضحنا فيما سبق أن التنمية الاجتماعية تستهدف تغيير أنماط السلوك الاجتماعي تغييرا جذريا ، وهذا التغيير هو في حقيقته اكتساب الأفراد صفات وخصائص جديدة تتوافق مع مطالب التنمية الاقتصادية .

ويتم أحداث هذا التغيير الجذري في صفات وخصائص السكان (أو الفئة المقصودة منهم بالتغيير) من خلال استخدام أساليب ومفاهيم الإدارة العلمية ، المستندة إلى حصيلته المعرفية النابعة من العلوم السلوكية .

التكوين السكاني من وجهة النظر الإدارية

من خلال التحليل السابق نصل إلى تحديد للنظرة الإدارية إلى السكان . أن علم الإدارة على عكس علم الاقتصاد لا يعتبر السكان عيشا اقتصاديا ، وعلى عكس علم الاجتماع لا ينظر إليهم باعتبارهم مجموعة من المشكلات والصراعات الاجتماعية . أن السكان في المنطق الإداري لهم وظائف أساسية لها تأثيرها الهام على مستوى التنمية الاقتصادية ومعدلها . هذه الوظائف هي :

١ - الوظيفة الانتاجية :

أن السكان هم مصدر العمل وهم بالتالي عنصر الانتاج الرئيسي . وبرغم أهمية عناصر الانتاج الأخرى (رأس المال ، المواد) إلا أن العمل الإنساني هو أهم عناصر الانتاج جميعا . وتباين درجة اسهام فئات السكان المختلفة في العملية الانتاجية ، ومن ثم يعظم قدر السكان ، كلما زادت نسبة قوة العمل المنتجة بينهم ، وكلما ارتفع مستوى المهارة والقدرة للعاملين منهم .

وتهتم النظرة الإدارية بالقوة العاملة الكلية بين السكان من ناحية ، كما تهتم أكثر بالتركيب الوظيفي والمهني لهذه القوة العاملة . وتعمل الجهود الإدارية إلى أحداث تناسب وتوازن في التركيب الوظيفي للقوة العاملة - بحيث تتوازن الأعداد العاملة في الوظائف التالية :

- أ - الوظائف والأعمال الإدارية .
- ب - الوظائف والأعمال اليدوية المصنعية .
- ج - الوظائف والأعمال المتعلقة بالخدمات الانتاجية .
- د - الوظائف والأعمال اليدوية الزراعية .
- هـ - الوظائف والأعمال الذهنية والفكرية « خلاف الإدارية » .
- و - الوظائف والأعمال المتعلقة بالخدمات غير الانتاجية .

وتعمل المساهمة الانتاجية للسكان الى التزايد كلما اتجه هيكل القوة العاملة الى احتواء نسبة اعلى من شاغلي الوظائف الادارية والدهنية والفكرية . ومن ناحية اخرى فان الافراد العاملين في كل نوع من الوظائف السابقة يمكن تصنيفهم الى درجات ومستويات مهارة كما يلي :

أ - المستوى الاعلى من المهارة .

ب - المستوى المتوسط من المهارة .

ج - المستوى العادي من المهارة .

د - مستوى العمال غير المهرة .

ولا شك ان نسبة تواجد العمالة غير الماهرة تقل الى حد بعيد بين شاغلي الوظائف الادارية والدهنية عموما ، وتزداد عادة بين شاغلي الوظائف اليدوية المصنعية والزراعية ، والخدمات الانتاجية وغير الانتاجية .

وتزداد درجة اسهام القوة العاملة في تحقيق الناتج القومي وتحسين مستواه كلما ارتفع مستوى المهارة بين شاغلي الوظائف المختلفة .

٢ - الوظيفة الاستهلاكية :

ان للسكان وظيفة اخرى هامة مكمله لوظيفتهم الانتاجية ، وهي قيامهم باستهلاك السلع والخدمات التي ينتجها الجهاز الانتاجي للدولة . ولا تقل الوظيفة الاستهلاكية في اهميتها عن وظيفة الانتاج ، نظرا لان الاستهلاك من العوامل الاساسية المحركة لنظام الانتاج وللنشاط الاقتصادي عموما . ان الدورة الانتاجية المتكاملة تبدأ في حقيقة الامر من نقطة الاستهلاك الاخير (السوق) وذلك حين تحاول الادارة التعرف على احتياجات المستهلكين ورغباتهم ، التي يعمل الجهاز الانتاجي على تحويلها الى سلع وخدمات يقبل المستهلكون على شرائها مقابل ائتمان يتكون منها ايرادات المشروعات ، ومنها يتم تمويل حصول المشروع على عناصر الانتاج اللازمة لاستمرار العملية الانتاجية . ومن ذلك يتضح ان حجم السوق الحقيقي هو المحدد الفعلي لمستوى النشاط الانتاجي . ولا يقتصر اهتمام الادارة بالمستهلكين على الجانب العددي لهم ، بل ان اهتمامها يتجه اكثر الى الخصائص الاجتماعية والنفسية لهم ، ومنها على سبيل المثال ما يلي :

أ - حجم الطلب الفعال للمستهلكين المتمثل في القوة الشرائية المصحوبة بالرغبة في الشراء .

ب - دوافع الشراء والعوامل المحددة للقرارات الاستهلاكية .

ج - انماط الاستهلاك السائدة واسس توزيع الدخل القابل للانفاق على بنود السلع والخدمات المختلفة .

ان التكوين السكاني ، باعتباره اداة الاستهلاك ، يمثل عنصرا هاما في تحريك أنشطة الانتاج ، وخلق فرص للاستثمار وتشغيل الطاقات المادية للمجتمع ، ومن ثم خلق فرص للعمل وانتاج

الدخل . ومن الصفات الأساسية للمجتمعات المختلفة اقتصاديا تدني مستويات الاستهلاك ، وتختلف الانماط الاستهلاكية السائدة ، بينما تتسم المجتمعات المتقدمة اقتصاديا بارتفاع معدلات الاستهلاك وتطور انماطه . وبالتالي فإن نمط ومستوى الانفاق الاستهلاكي أصبح الآن من معايير قياس التقدم الاقتصادي .

٣ - الوظيفة الابتكارية :

ان للسكان وظيفة ثالثة وهامة هي انهم مصدر الحول الابتكارية الخلاقة للمشكلات التي تواجه المجتمع . ان العلم والمعرفة والفنون والآداب هي أدوات يستغلها افراد المجتمع من اجل تعظيم رفاهيته وتطوره . ولا شك ان ارتفاع المستوى العلمي والثقافي للسكان ينعكس ايجابيا على الانتاج من حيث الكم والنوع ، كذلك ينعكس على اساليب وطرائق الانتاج . ومن هذا الجانب يبرز تأثير هام للتكوين السكاني من خلال ادراكه واستخدامه لمفاهيم الادارة والتنظيم ، التي تسهم ايجابيا في رفع كفاءة الاداء وتشييد الانشطة الانتاجية والاقتصادية .

٤ - الوظيفة الاستثمارية :

واخيرا فان التكوين السكاني للمجتمع يمثل اصلا من اصول الرأسمالية الرئيسية . ان من المستطاع النظر الى افراد المجتمع بما يتميزون به من علوم ومعارف وخبرات على انهم فرص للاستثمار يمكن الحصول على عائد كبير من وراء تشغيل خبراتهم في مجتمعات اخرى تفقر اليها . ولعل ابرز الامثلة على ما نقصد اليه بهذه الوظيفة هو التكوين السكاني في مصر . ان مصر تتميز بوفرة في سكانها يزيدون عن احتياجات التشغيل الاقتصادي الامثل للحجم الحالي من الطاقات الانتاجية المتاحة ، وفي ضوء المستوى التكنولوجي والتنظيمي السائد ، ولكن مصر في الوقت ذاته تنفق جزءا كبيرا من دخلها القومي في اعداد وتكوين هؤلاء السكان ، واكسابهم خبرات علمية متنوعة في شتى مجالات العمل الانتاجي واعمال الخدمات .

وبالنظر الى الحدود المفروضة على الجهاز الانتاجي في مصر حاليا ، فان قدرته على استيعاب هذه الاعداد الوفيرة من اصحاب الخبرات محدودة ، ومن ثم يلجأون الى البحث عن مجالات للعمل في خارج مصر سواء في الدول العربية والافريقية المجاورة ، او في الدول الاوروبية والأمريكية (١٥) . وهؤلاء الافراد حين يبحثون عن اعمال خارج مصر ، فانهم يتعاملون على اساس فردي ، ويخضعون لصنوف من الاستغلال والمساومات وعدم الاستقرار الوظيفي لا تتعامل مع ما يسهمون به من خدمات للمجتمعات الجديدة التي يعملون بها . ومن هنا يأتي تصورنا للوظيفة الاستثمارية للسكان ، حيث لو تم تخطيط وتنظيم عملية تصدير العمالة الفائضة عن احتياجات المجتمع ، وتم تشغيلهم في دول اخرى وفقا لنظم واتفاقيات يؤخذ في الاعتبار عند عقدها عوامل الخبرة والمهارة والانفاق الاستثماري الذي انفقته الدولة المصدرة من اجل اعداد ابناءها وتأهيلهم ،

١٥ - اطن وزير الصحة في مصر مؤخرا ان ما يقرب من ٢٧٪ من الأطباء المصريين يعملون خارج مصر .

كما يراعى فيها من جانب آخر نفقة الفرصة البديلة Opportunity Cost بالنسبة للدولة المستوردة (١٦) ، لو تم كل ذلك لتمكن للدولة المصدرة تنمية مصدر هائل للدخل من ناتج عمل ابتاعها بالخارج .

نخلص من كل ما سبق ان للتكوين السكاني دور ايجابي بناء في احداث التنمية الاقتصادية لا بد من استثماره واتاحة الفرصة له لكي يؤتى ثماره . والسبيل الوحيد لتحقيق هذه الغاية هي اتباع مفاهيم واساليب الادارة العلمية من اجل استثمار المورد السكاني الى اقصى حد ممكن . وهذا ما سنفعله في الجزء الاخير من بحثنا .

استراتيجية التخطيط السكاني :

ان المنطق الادارى العلمي في تحليل المشكلات وايجاد حلول لها يتخذ النمط التالي :

- تحديد المشكلة تحديدا دقيقا يفصل بين الاعراض والمظاهر الخارجية من ناحية وبين اللب الحقيقي للمشكلة من ناحية ثانية .

- تحليل وتتبع العوامل والتغيرات التي تنشأ المشكلة الحقيقية بفعل علاقاتها المتفاعلة ، وتحديد انماط العلاقات بين هذه التغيرات وتأثيراتها النسبية على المشكلة موضوع البحث .

- التحقق من صحة الفروض حول اسباب المشكلة ، وسلوك المتغيرات المنشئة لها ، وذلك باساليب التحقيق العلمي المختلفة (ابتداء من الملاحظة الشخصية ، ثم تجميع البيانات الميدانية ، انتهاء باجراء التجارب الميدانية والمعملية) .

- تلمس الحلول البديلة للمشكلة وذلك في اطار الطاقات والموارد المتاحة على ان يؤخذ في الاعتبار القيود المفروضة على الحركة في مدى استخدام هذه الموارد .

- اختيار الحل الامثل الذي يحقق اقصى عائد مع ادنى التضحيات .

ان المنطق الادارى اذن يتجه في الاساس الى بناء استراتيجيات (١٧) كل منها تعد بتحقيق عوائد معينة في ظل ظروف متوقعة وتصبح مهمة اتخاذ القرار الادارى هي المفاضلة بين تلك الاستراتيجيات البديلة في ضوء الاهداف التي يحاول متخذ القرارات ان يصل اليها .

واعتمادا على هذا المنطق فسان المدخل الادارى لعلاج المشكلة السكانية يتبلور اذن في ضرورة بناء استراتيجية للتعامل مع تلك الظاهرة ، بما يضمن الوصول الى نتائج معينة مستهدفة .

١٦ - يقصد بنفقة الفرصة البديلة ، تلك النفقات التي كان لا بد للدولة المستوردة للتعامل ان تكفلها والوقت الاكبر انتظاره حتى تستطيع هي تكوين افراد من ابتاعها باعداد وغبرات معادلة للتعامل المستوردة .

١٧ - الاستراتيجية Strategy . في المعنى المستخدم هنا هي اسلوب استخدام وتحريك الموارد المتاحة للوصول الى هدف (او اهداف) محدد تحت ظروف وقواعد معينة او بتكلفة .

وقبل أن نشرع في رسم ملامح مقترحة لتلك الاستراتيجية لا بد لنا من إبراز بعض خصائص التفكير الاستراتيجي الواجب اخذها في الاعتبار عند تكوين استراتيجية سكانية :

١- أن التفكير الاستراتيجي يتسم بالشمولية، أي الإحاطة بكل المتغيرات الممكن إدراك علاقتها وتأثيرها في الظاهرة موضع البحث . ومن ثم فالاستراتيجية السكانية يجب أن تأخذ في الاعتبار كافة الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والسياسية للمشكلة السكانية .

٢ - أن الاستراتيجية الشاملة تبنى على أساس أهداف بعيدة المدى ، وفي ضوء نظرة ممتدة إلى المستقبل ، فهي لا تقتصر على إدراك الأوضاع القائمة فقط ، ولكنها تأخذ في الحسبان التطورات المحتملة في هذه الأوضاع . ومن ثم فإن الاستراتيجية السكانية للدولة ما يجب أن تكون مستقبلية ، تستهدف تحقيق نتائج حاسمة في مدى زمني بعيد نسبياً .

٣ - أن التفكير الاستراتيجي في الوقت ذاته يتعامل مع المواقف الحاضرة في إطار تصور شمولي للأوضاع المحتملة في المستقبل ، وبالتالي يمكن بناء استراتيجيات قصيرة أو متوسطة المدى لمعالجة المشكلة السكانية وذلك ضمن تصور استراتيجي شامل وطويل الأجل . ومن ثم تتكامل الجهود وتتراكم الآثار الإيجابية على مدى الزمن إلى أن تتحقق النتائج النهائية المرغوبة .

٤ - أن التفكير الاستراتيجي يعتمد في الأساس أسلوبين لمعالجة المشكلات ، الأسلوب الهجومي Offensive والأسلوب الدفاعي defensive ويتوقف اختيار أحد الأسلوبين على طبيعة الظاهرة موضع البحث وإدراك المخطط الاستراتيجي لتحقيق الظروف المحيطة ، وتقييمه لدى الموارد المتاحة والقيود المفروضة على استخدامها .

أن الاستراتيجية المقترحة لعلاج المشكلة السكانية في الدول النامية تقوم على الركائز الآتية:

١ - الهدف الاستراتيجي هو إحداث تغييرات هيكلية في التكوين السكاني وصولاً إلى التكوين السكاني الأمثل المتوافق مع متطلبات مستوى معين من النمو الاقتصادي والاجتماعي .

٢ - يمكن ترجمة هذا الهدف الاستراتيجي إلى هدف تكتيكي Tactical Objective هو العمل على الوصول بالكفاءة الانتاجية للتكوين السكاني إلى أقصى حد ممكن ، في إطار تصور واضح للطاقت الانتاجية المتاحة وللتطورات المحتملة فيها .

٣ - اعتماداً على فهم معين للكفاءة الانتاجية مؤداه أنها مقياس للنتائج بالنسبة إلى المورد المستخدم في الإنتاج ، فإن الكفاءة الانتاجية للتكوين السكاني =

النتائج القومي الإجمالي

عدد السكان

وبالتالي فإن الاستراتيجيات المطروحة للبحث من أجل زيادة القيمة النهائية لهذه النسبة

هي : العمل على خفض عدد السكان من خلال نتائج القومي

- ب - العمل على زيادة الناتج القومي الاجمالي مع ثبات عدد السكان .
- ج - العمل على تخفيض عدد السكان بنسبة اعلى من الانخفاض المحتمل في الناتج القومي الاجمالي .
- د - السماح بزيادة عدد السكان مع زيادة الناتج القومي الاجمالي بنسبة اعلى .
- وتتحدد الاختيارات بين تلك الاستراتيجيات البديلة على ضوء الاهداف القومية والاعتبارات الحضارية والعقائدية والسياسية .

{ - وبناء على المنطق الاداري الايجابي الذي قدمناه في هذا البحث فان الاستراتيجية السكانية المثلى بالنسبة لدولة نامية هي استراتيجية تضم البديلين الثاني والرابع ، بمعنى ان تكون هناك استراتيجية قصيرة او متوسطة المدى تستهدف تحقيق خفض نسبي في عدد السكان ، مع العمل على زيادة الناتج القومي من خلال التحسين المستمر في نوعية وخصائص وقدرات ومهارات هؤلاء السكان ، ثم يكون هناك استراتيجية اخرى طويلة المدى تستهدف تحقيق التكوين الأمثل للسكان ، مع التطوير المستمر في خصائصهم ونوعياتهم تتناسب مع الزيادات الاكبر في الناتج القومي ، وتسمح باستيعاب القدر المتزايد من الانتاج وتتيح بذلك الفرص لاستمرار التوسع الانتاجي والتشغيل الاقتصادي للطاقات .

هـ - وبلاحد ان البناء الاستراتيجي المقترح للسكان يتكامل مع استراتيجيات اخرى لا بد من تواجدها تستهدف رفع الكفاءة الانتاجية لمناصر الانتاج الاخرى وهي راس المال ومناصر الطبيعة (المواد) كما تستهدف تحسين وتطوير الكفاءة الادارية وتطوير وترشييد اساليبها وقراراتها .

ونعرض فيما يلي ملامح كل من الاستراتيجيات السكانية المقترحة :

الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى

وتستهدف تحقيق النتائج الاتية :

- ١ - تغيير التركيب النفسي للسكان .
- ٢ - تغيير التركيب الوظيفي للسكان .
- ٣ - تغيير التركيب الثقافي للسكان .
- ٤ - تغيير التركيب المهني للسكان .
- ٥ - تغيير تركيب المهارات للسكان .

وبصفة اساسية فان الاستراتيجية بعيدة المدى ترمي الى احداث تغيير هيكل جلدري في خصائص وهيكل التكوين السكاني للمجتمع ، تنعكس في المدى الطويل على الكفاءة الانتاجية

المدخل الإداري لمعالجة المشكلة السكانية بالدول النامية

ومعدلات التنمية الاقتصادية ، ومن ثم تحقق في النهاية التكوين الأمثل للسكان (العدد الأمثل والخصائص المثلى) .

وتصل الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى إلى تحقيق أهدافها من خلال سياسات وبرامج واساليب تتعلق بالعمل على تحقيق ما يلي :

- ١ - تغيير هيكل التنظيم الصحي واساليب الرعاية الطبية في المجتمع .
- ٢ - تغيير هيكل التعليم العام والمتخصص والعالي .
- ٣ - تغيير هيكل التنظيم الاجتماعي وتطوير النظم الاجتماعية السائدة من خلال تعديل هيكل التنظيم الاقتصادي ، وإعادة توجيه علاقات الإنتاج في المجتمع بما يسمح بتدفق في الاستثمارات من ناحية ، وتوازن في توزيع الدخل من ناحية أخرى .
- ٤ - تغيير النظم الثقافية وتطوير اساليب العمل في مؤسسات التثقيف والإعلام العامة .
- ٥ - تثير البيئة السكانية من خلال إعادة البناء المادي للمناطق السكنية المتخلفة ، وخلق فرص النمو الاجتماعي وترشيد العلاقات الاجتماعية بها .
- ٦ - إعادة صياغة المفاهيم والمقائد والقيم الحضارية السائدة في المجتمع بالتعليم والتثقيف والتنظيم الاقتصادي الجديد .

الاستراتيجية السكانية متوسطة المدى :

تستهدف هذه الاستراتيجية أحداث تحول مرحلي في تركيب القوة العاملة من بين السكان ، وزيادة مستوى الكفاءة الانتاجية للمشتغلين ، وذلك كهدف مرحلي يتكامل في المدى البعيد مع اهداف تغيير هيكل التكوين السكاني كله .

وتتجه هذه الاستراتيجية في الأساس إلى تحقيق ما يلي :

- ١ - خلق مجالات للعمل الانتاجي لاعداد العاملين في اعمال غير انتاجية .
- ٢ - تحويل العمالة من الصناعات الأقل انتاجية إلى الصناعات الأكثر انتاجية (في ضوء الطلب وظروف السوق) .
- ٣ - زيادة نسبة القوى العاملة إلى إجمالي السكان (بالعمل مثلاً على الاستفادة من النساء غير المشتغلات والأطفال حتى سن معينة) وتوجيه القوة العاملة الجديدة إلى الأعمال التي لا تتطلب قدراً كبيراً من المهارة أو الخبرة .
- ٤ - زيادة فعالية القوى العاملة الأساسية في الصناعات ذات الإنتاجية العالية من خلال التدريب المنظم والمستمر .
- ٥ - تغيير انماط السلوك الانتاجي للقوى العاملة بالعمل على تقليل مسببات ضعف الانتاجية

(الغياب ، التمارض ، تقييد الإنتاج ، الاسراف في المواد ، عدم الدقة في التشغيل) وذلك بالتدريب من ناحية ، وباستخدام نظم الحوافز الايجابية والسلبية من ناحية اخرى .

٦ - تحسين المستوى العام للكفاءة الانتاجية للقوى العاملة من خلال :

١ - التخطيط العلمي للقوى العاملة وتحديد الاحتياجات الدقيقة والنوعيات السليمة المطلوبة للعمل .

ب - التصميم العلمي للعمل Job design ووضع المعدلات القياسية للاداء وتصميم طرق واساليب العمل .

ج - الاختيار العلمي الموضوعي للأفراد ذوي المواصفات المناسبة للعمل ، وتدريبهم على طرق واساليب الاداء الموضوعية .

د - الاشراف العلمي على العاملين وتوفير التوجيه والارشاد اللازمين .

٧ - العمل على اعادة تكوين وتدريب النوعيات والاعداد الفائضة من القوى العاملة عن احتياجات الجهاز الانتاجي بالدولة ، من اجل استثمار طاقاتهم وخبراتهم في مجالات العمل المتاحة بالدول الاخرى التي تعاني قصورا في مواردها البشرية .

الاستراتيجية السكانية قصيرة الاجل :

وتتركز اهدافها على محاولة احداث تغيير سريع وملحوس في مدى الضغط السكاني على الطاقات الانتاجية من ناحية ، والعمل على زيادة المساهمات الانتاجية للسكان بشكل عام وتبليور فيما يلي :

١ - اعادة توزيع القوى العاملة بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة ، تحقيقا للتوازن بين العمالة وبين طاقات الانتاج الاخرى .

٢ - تسريع جانب من القوى العاملة ذات الكفاءة الانتاجية المتدنية والتي تمثل عبئا على العملية الانتاجية بما يحقق تحسينا في الكفاءة الكلية (احالة الشيوخ والمسنين الى التقاعد ، توفير العناية بالمرضى وذوى العاهات ، منع تشغيل الأحداث دون سن الرابعة عشرة . . الخ) .

٣ - تشجيع الهجرة الى الخارج في ظل ضوابط تمنع تسرب الكفاءات وتستبقي العمالة الاقل انتاجية .

٤ - تشجيع برامج ضبط النسل والتخطيط العائلي من خلال الحوافز الاقتصادية والاجتماعية .

٥ - التدريب السريع لرفع الكفاءة .

تلك كانت ملامح التفكير الاداري الاستراتيجي في موضوع السكان ، ولا شك ان التحقيق الامثل لهذه الافكار يتطلب وجود هيئة قومية في كل دولة نامية تعمل على اجراء الدراسات ، وتجميع المعلومات اللازمة لرسم الاستراتيجيات السكانية ، والاشراف على تنفيذها ، والتنسيق بين الجهات المختلفة المشاركة في التنفيذ ضمانا للفعالية والكفاءة .

بقلم : د.س. ويتسكاى
ترجمة : فاروق مصطفى هاجل

الموارد العالمية وعلاقتها بالسكان *

ليست علاقة الموارد الطبيعية بالسكان ، أو علاقة السكان بالموارد الطبيعية بالمشكلة الحديثة العهد ، بل هي ترجع إلى الفترة التي كان الإنسان فيها يتأهب الخوف من أن يصبح من الكثرة بحيث لا تفي موارده الغذائية باحتياجاته ، أو الخوف من أن يصبح من القلة بحيث يعجز عن أن يحمي نفسه وموارده من أعدائه ، ولطالما كانت إحدى مشاكل الإنسان الرئيسية هي أن يحقق نوعاً من التكيف والملاءمة بين موارده البيئية وعدد السكان حتى يستطيع أن يحيا الحياة التي ينشدها .

World Resources in Relation to Population

* العنوان الأصلي لهذا الموضوع هو

وفقد نشر في كتاب Population and World Politics صفحات من ٧٥-٢٦٠ . ومؤلف المقال هو الاستاذ د.س.

ويتسكاى المستشار الاقتصادى بمكتب العمل الدولى سابقا والمستشار الاقتصادى الرئيسى بهيئة الامن الاجتماعى

Twentieth Century Fund

ومدير البحوث بمنظمة القرن العشرين

Social Security Board

واستاذ البحوث بجامعة هوبكنز Johns Hopkins Un.

ولقد ترتب على ذلك البحث عن مثل هذا التكيف الذى نسميه الآن « سياسة الموارد والسكان » ان ظهر الكثير من التنظيمات المتناقضة المتعلقة بالحقوق والواجبات الزوجية والابوية لدى الجنس البشرى من ناحية ، وكثير من اساليب وطرائق الزراعة والرعى البدائي وبناء السدود والقنوات من ناحية اخرى . ولقد كان انشغال الانسان بمثل هذه المشكلات فى الماضى محدودا للغاية ومحصورا فى نطاق القبيلة والمدينة، ولكن الذى يميز النظرة الحديثة هو التفكير فى هذه المشكلات فى ضوء الموارد « العالمية » وعلاقتها بسكان « العالم » .

وقد نجم عن هذا الاتجاه الجديد الى حد ما من الشعور بأن العالم قد تضاعف واتكثف بفضل وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، وذلك بالإضافة الى بعض الاسباب الملحة الاخرى التي تجعل من الضروري معالجة مشاكل السكان والموارد على انها مشكلات عالمية .

فقبل الحرب العالمية الثانية انتبه عدد من علماء الديموجرافيا فى أوروبا وأمريكا الى ظاهرة انخفاض معدل المواليد Birth Rate فى نطاق الحضارة الغربية فى مقابل النمو السريع للسكان فى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وآسيا وأفريقيا . ولقد ازداد الوعي فى السنوات الحديثة بخطر الاضطرابات السياسية والاجتماعية فى المناطق المتخلفة Under Developed Areas التي لا تستطيع ان تفي باحتياجات سكانها المتزايدة باستمرار ، وذلك وفقا لمستوياتهم الحالية والتي تميل الى الارتفاع باضطراد .

وتواجه دول الحضارة الغربية فترة من النمو السكاني المتواصل البطيء نسبيا . وليس من الواضح اذا ما كان سكان أمريكا الشمالية وأوروبا (فيما عدا سكان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية) سوف تحقق زيادة سكانية تصل الى ٥٥ ٪ فى الفترة ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م حسب تقدير فرانك نوشستين Frank Notestein فى عام ١٩٤٥ ، او بنسبة ١٧ ٪ حسب التقدير المبدي الذى ذكرناه فى كتابنا « سكان العالم والانتاج World Population and Production » . وبالمثل فان تنبؤات خبراء الأمم المتحدة التى تتوقع إمكانية تزايد النمو السكاني بسرعة اكبر لا تتوقع ان يصل ذلك التزايد الى حد الخطر الجسيم فى منطقة الحضارة الصناعية الحديثة ، ويذهب هؤلاء الخبراء الى ان سكان تلك المنطقة التي تشمل أمريكا الشمالية وأوروبا الشمالية الغربية والوسطى والجنوبية وأستراليا سوف يصل عددهم الى ما بين ٥٤٨ مليون و ٦٥٥ مليون نسمة فى عام ١٩٨٠ فى مقابل ٤٨٦ مليون فى عام ١٩٥٠ ، وهذه تمثل زيادة تتراوح بين ٦٥ ٪ الى ٩٧ ٪ سنويا خلال ثلاثين عاما .

وليس من شك ان استخدام التربة المتاحة والغابات والناجم بطريقة افضل ، بالإضافة الى نمو الموارد الجديدة والاستيراد من اجزاء اخرى من العالم ، سوف يزود السكان الذين يتزايدون بهذه المعدلات بكل ما يحتاجون اليه من الطعام والملابس والماوى والضروريات الاخرى . والواقع ان الدول الصناعية الحديثة لن تواجه اية مشكلة تتعلق بالموارد السكان اذا نحن افترضنا ان الناس فى هذه المنطقة قد وصلوا الى مستوى معيشى مرتفع بدرجة معقولة ، لانهم لا يتطلعون الى تحقيق مستوى افضل يتميز بازدياد مطالب الفرد من جميع انواع المواد الخام بطريقة مطردة .

ولكن المشكلة تصبح أكثر خطورة حين نفكر في سكان العالم ككل ، آخذين في الاعتبار إمكانية النمو السريع للسكان في المناطق النامية ، وإمكانية وضع افتراضات أكثر دينامية وواقعية بدلا من مجرد الحفاظ على مستوى المعيشة الحالي .

بالإضافة الى ذلك فانه من غير المجدي ان تقدر الموارد العالمية بالإشارة الى مطالب السكان في المستقبل طبقا لانماط الاستهلاك السائدة في الوقت الحالي ، فمن المؤكد ان مطالب الفرد من كل انواع المواد الخام سوف تزداد سواء في الدول الصناعية المزدهرة او في المناطق النامية ، والسؤال المهم هنا هو ما اذا كانت الموارد المتاحة سوف تكفي لسد المطالب المتوقعة . ولقد واجهت لجنة الرئاسة لسياسة الموارد (لجنة بيلي) The President's Materials Policy Commission هذه المشكلة حين ارادت تقرير الموارد في الولايات المتحدة والدول الاخرى المتقدمة للفترة من عام ١٩٧٠ - ١٩٨٠ وقد افترضت ان النمو السكاني سوف يحدث بمعدلات معقولة ، بينما الطلب على المواد الخام سوف يرتفع بمعدلات غير مناسبة . وسوف احاول هنا ان اضع مخططا تمهيدا لمجموعة من الافتراضات التي يمكن ان نستخدمها في تقرير كفاية الموارد العالمية مع نهاية هذا القرن .

افتراضات عن النمو السكاني :

ليس هناك تنبؤ للنمو السكاني في المستقبل القريب يمكن الزعم بأنه أكثر من مجرد تخمين يقوم على « معلومات أكيدة » . فبعد ان فشلت التجارب الخاصة بالتنبؤات من السكان في المستقبل يتفق علماء الديموجرافيا الآن على انهم لا يملكون الوسائل التي تمكنهم من وضع تنبؤات لفترات أطول من ٢٥ - ٥٠ سنة تقريبا ، لأن كثيرا من العوامل الوفيقة الصلة قد تتغير خلال هذه الفترة .

ومن ناحية أخرى فمن الصعب دراسة مشكلة الموارد العالمية في علاقتها بالسكان دون ان يكون لدينا فرص عمل حول حجم سكان العالم في المستقبل ، والحل المعقول للمشكلة هو ان نعتزف بعدم جدوى كل المحاولات التي استهدفت تقدير سكان العالم في المستقبل ، وان نحاول في ضوء هذه الحقيقة ان نصل الى تقدير جديد ، او ان نستخدم بعض التقديرات الموجودة بالفعل .

ولقد انتقد الكثيرون تقديرنا لسكان العالم عام ٢٠٠٠ م على أساس انها تقديرات منخفضة جدا ، وربما كان لهذا النقد ما يبرره ، فلقد افترضنا ان الزيادة في سكان العالم ككل ، وفي كل قارة في الفترة من عام ١٩٥٠ الى عام ٢٠٠٠ م سوف تكون (في المليون) كما يلي :

الزيادة المئوية	عام ٢٠٠٠	عام ١٩٥٠	
%٥٥	٣٢٥٠	٢٤٠٠	سكان العالم
%٢٣	٢٢٠	١٦٦	امريكا الشمالية
%٧٣	٢٨٠	١٦٢	امريكا الوسطى والجنوبية
%١١	٤٤٠	٣٩٦	اوروپا (باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية)

اتحاد الجمهوريات السوفياتية	١٩٣	٢٦٠	٪٣٥
آسيا (باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية)	١٧٢٢	١٧٥٠	٪٣٨
افريقيا	١٩٨	٢٨٠	٪٤١
استراليا	١٣	٢٠	٪٥٤

ففي عام ١٩٥١ قام خبراء الأمم المتحدة بوضع نسق من التنبؤات يقوم على أساس تصنيف الدول في مجموعات ، وفقاً لاتجاهاتها الديموجرافية السائدة فيها وليس بحسب القارة التي تنتمي إليها ، وكانت تقديراتهم تغطي حياة جيل واحد - أى ثلاثين عاماً - وتردها الى عام ١٩٨٠ . ولكن نجعلها قابلة للمقارنة بتقديراتنا لعام ٢٠٠٠ م . فقد حاولت ان ادفعها للامام مقترضا حدوث انخفاض طفيف في معدلات النمو السكاني ، مع تخصيص للعقدين الآخرين ٦٠٪ من الزيادة المتوقعة سلفا للعقود الثلاثة السابقة من ١٩٥٠ الى ١٩٨٠ . وعلى أساس هذا التقدير الاستقرائي فان التنبؤات الثلاث التي تقدمها لنادارسة الأمم المتحدة تعطينا التقديرات التالية لسكان العالم في عام ٢٠٠٠ م .

٣٣٢٠ مليون	التقديرات الأدنى
٣٨٠٠ مليون	التقديرات المتوسطة
٤٣٧٥ مليون	التقديرات الأعلى

وتتفق تقديرات نوتستين Notestein وتنبؤاتنا مع تقديرات الأمم المتحدة الأدنى ، بينما تزيد تقديرات الأمم المتحدة الأعلى بمقدار الثلث .

في عام ١٩٥٤ راجع خبراء هيئة الأمم تقديراتهم ورفعوها وقدموا تلك التقديرات الجديدة الى المؤتمر الدولي للسكان في روما International Population Congress وفيها ابرزوا بشكل واضح معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات في السنوات الأخيرة ، وقد اهتموا بدراسة خمسة اوضاع ديموجرافية رئيسية هي :

- ١ - ارتفاع معدلات المواليد ومعدلات الوفيات على السواء .
- ٢ - ارتفاع معدلات المواليد مع ميل معدلات الوفيات للانخفاض (وان كانت لا تزال مرتفعة الى حد ما) .
- ٣ - ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات نسبيا .
- ٤ - انخفاض معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات نسبيا .
- ٥ - انخفاض او تدلبدب معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات .

او قد صنفت جميع دول العالم وفقا لهذه الانماط او المناطق الخمسة ، ثم حدد المعدل النموذجي للنمو السكاني لكل دولة في كل قارة (او لكل مجموعة من المناطق في القارة الواحدة) .

وتطبيق هذه المعدلات للنمو على السكان الذين سبق تقديرهم سلفا في كل منطقة عام ١٩٥٠ استنتاج خبراء الأمم المتحدة الوصول إلى التقديرات التالية عن سكان العالم في عام ١٩٨٠.

٣٢٩٥ مليوناً	التقديرات الأدنى
٣٦٢٨ مليوناً	التقديرات المتوسطة
٣٩٩٠ مليوناً	التقديرات المرتفعة

وواضح ان هذه التقديرات الجديدة لعام ١٩٨٠ تكاد تقترب من تنبؤاتنا المرتفعة بالنسبة لعام ٢٠٠٠ م ، وهي التنبؤات التي تركز على تقديرات الأمم المتحدة السابقة ، ولو حملنا تنبؤات الأمم المتحدة إلى الأمام فإن سكان العالم في عام ٢٠٠٠ م سيصبحون كما يلي :

٣٨٠٠ مليوناً	التقديرات الأدنى
٤٣٣٣ مليوناً	التقديرات المتوسطة
٤٩١٢ مليوناً	التقديرات المرتفعة

وتسجل هذه الأعداد زيادة ملحوظة تصل إلى نحو نصف بليون نسمة تقريبا عن التقديرات الاستقرائية المستمدة من دراسة الأمم المتحدة السابقة ، ولكن التعارض بين التقديرات التي أعدها فريق الخبراء ذاته في عام ١٩٥١ ثم في عام ١٩٥٤ يلفت النظر ، وهناك أسباب قوية تجعلنا نعتقد ان التقديرات الأخيرة تمثل تحسنا ملموسا إذا ما قورنت بالدراسة السابقة ، فالدراسة التي أجريت أخيرا تتصف بدرجة غير عادية من الدقة .

ومن ناحية أخرى فهناك ما يدعو للشك فيما إذا كان الانخفاض السريع الذي حدث أخيرا في معدلات الوفيات والزيادة في معدلات النمو السكاني تبرر مثل هذا التنقيح المتطرف لتقديرات السكان في المستقبل ، والواقع أننا نشك في أن تكون التغييرات المؤقتة في الاتجاهات الديموجرافية كما تبدو في تنبؤات الأمم المتحدة الحالية قد وجدت كثيرا من المبالغة والمغالاة .

وبناء على ذلك فاني أميل للاعتقاد بأن التقديرات الحالية لا تبطل تنبؤات عام ١٩٥١ ، ولكنها تبعث على مزيد من الشك فيها . فالحد الأدنى يظل كما في التنبؤ القديم الذي استقرىء لعام ٢٠٠٠ م (٣٣٢٠ مليوناً) أما الحد الأعلى فإن التنبؤ الجديد يشير إلى أنه سيكون ٤٩١٢ مليوناً ، وعلى أي حال فإن الاتجاه الأكثر احتمالا هو مجرد رأي أو وجهة نظر .

وتختلف التقديرات التي أعدها مختلف الباحثين اختلافا كبيرا فيما بينها ، فمن ناحية نجد ان **والتر جرينلج** Walter Greiling يتنبأ بمتوسط غير بعيد بما سيكون عليه سكان العالم ، ويبني تقديراته على أساس افتراض أن النمو السكاني في مناطق مختلفة ينمو بمعدلات سنوية ثابتة ، ويربط ذلك بافتراض ان هذا النمو سوف يستمر إلى منتصف القرن الحادي والعشرين ، ثم يتبع ذلك فترة من التوازن الديموجرافي Demographic Equilibrium عندما يصل سكان العالم إلى نحو تسعة بلايين نسمة ، وقد ذهب في تقديراته إلى أن هؤلاء السكان سوف يصلون إلى ٦٤ بليون في عام ٢٠٠٠ م ، وهو رقم يقترب من التقديرات المرتفعة للأمم المتحدة . أما التنبؤ بما

سيكون عليه الحال في منتصف القرن التالي فانه غير مؤكد الى حد كبير ، ومع ذلك فان ثمة اسئلة تثار ولا يمكن الاجابة عليها دون افتراض عدد من الافتراضات التعسفية من التغيرات التي ستطرأ في المستقبل في طرق الحياة على هذا الكوكب (الارض) وعلى العكس فان معظم التنبؤات لعامي ١٩٨٠ ، ٢٠٠٠ تتم في نطاق ضيق نسبيا .

ويمكن لنا من اجل التحليل ان نفترض ان سكان العالم سوف يزدادون بليوناً او بليونين بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، وهذا يعني زيادة عدد السكان من ٢٤ بليون الى ٣٤ بليون او ٤٤ بليون تقريبا اى بنسبة تتراوح بين ٤٠٪ و ٨٠٪ .

افتراضات عن مطالب المستقبل :

يعتمد تقدم المجتمع الانساني على عوامل كثيرة لا تحصى يصعب التنبؤ بها ، فمصر الاحداث السياسية والاجتماعية في عام ٢٠٠٠ سوف يختلف عما نشاهده اليوم تماما مثلما تختلف اوضاعنا الراهنة عما كانت عليه عام ١٩٠٠ ، وسوف يكون الاختلاف في اسلوب الحياة على مستوى الكم والكيف معا . وان كثيراً من أدوات الانتاج على نطاق واسع وانماط الاستهلاك الحالي سوف تصبح مجرد اثر يحتفظ به في المتاحف . ومن المحتمل ان تخفّض بعض المواد الخام المعروفة الآن والتي تستخدم على نطاق واسع لتحل محلها مواد اخرى جديدة ، كما كان بعض هذه المواد التي نعرفها اليوم غير معروفة من قبل ، والمعروف ان الولايات المتحدة استخدمت في عام ١٩٤٩ من البلاستيك مثلاً اكثر ما استخدمت من الرصاص والزنك والقصدير والنحاس والنيكل والالومنيوم والمغنيسيوم معا . بينما كانت مطالبها من هذه المواد في عام ١٩٢١ تزيد بأكثر من عشرين ضعفاً عن حاجتها الى البلاستيك ، ويمكننا ان نتوقع مثل هذه التغيرات في المستقبل ، فالسيارة الحديثة سوف تعتبر من مخلفات الماضي بعد نحو نصف قرن من الزمان ، ولن تختلف النظرة اليها عن نظرنا نحن الآن الى المركبات التي تجرها الخيول . من العيب ان نحاول معرفة ما اذا كان الفهم سوف يستخدم في المستقبل بنفس الطريقة التي نستخدمها الآن ، او سوف يستعمل اساسا كمصدر للوقود السائل وللحصول على المواد الكيميائية ، وعندما نحاول النظر الى المطالب المستقبلية فلا بد وان نفترض - صراحة او ضمناً - ان اى مادة خام تستخدم اليوم قد تستبدل بمنتجات اخرى لتحل محلها .

والواقع ان معدلات النمو التي اقترحها تأخذ في الاعتبار التغيرات الكيفية والتغيرات الكمية التي تطرأ على الطلب .

الحاجة الى الطعام :

الواقع ان الحاجة الى التقدم الاقتصادي لا تبدو اكثر وضوحاً في اى مجال من المجالات اكثر من وضوحها في مجال التغذية ، فالاختلافات في استهلاك الطعام بالنسبة للفرد سواء في الدول الغنية المزددهرة او في المناطق التي ينتشر فيها الفقر ليس كبيراً بلغة السرعات الحرارية . Calories فمتوسط السرعات الحرارية بالنسبة للشخص في جنوب وجنوب شرق آسيا هي ٢٢٢٠ وحدة حرارية يومياً ، بينما هي ٣٢٤٠ سعراً حرارياً في امريكا الشمالية ، لكن الاختلاف الاكثر اهمية

ودلالة انما يكمن في الانماط الغذائية ، حيث نجد الخبز والارز والبطاطس في الدول الفقيرة في مقابل غذاء هو مزيج من الاطعمة النشوية بالإضافة الى الاغذية الوقائية (Protective Foods) كاللحم واللبن والزبد والبيض والفاكهة والنباتات الخضراء) في الدول الغنية . ومع ذلك فان الاختلافات الكيفية في الانماط الغذائية يمكن ان تتحول الى مقياس كمي حين تترجم تلك الاطعمة المختلفة الى السعرات الحرارية الاساسية ، كان نبين مثلا قيمة السعرات الحرارية في (العلف) الذي يؤدي الى انتاج كل رطل من اللحم او الزبادو كل « كوارت » من اللبن * او كل ١٢ بيضة من غير ان نحدد تغيرات جوهرية في قيمة السعرات الحرارية لاستهلاك الغذاء اليومي للفرد ، لان الحاجة الى السعرات الاساسية تزداد بتحسين الغذاء .

ان الغذاء الرخيص في المناطق النامية انما هو نتيجة للتكيف طويل المدى للاستهلاك ونُدرة الموارد ، ولكن بعد ان يتدوَّق الناس في هذه المناطق طعاما افضل فسوف يحرسون على توفيره لانفسهم ولاولادهم ، ولكن من الصعب على المرء ان يحدد معدل السرعة التي يمكن ان تتغير بها عادات الناس الغذائية . وبصورة عامة يمكن القول ان معدل الغذاء اليومي في الولايات المتحدة يشتمل على ثلاثة او اربعة اضعاف السعرات الحرارية الاساسية لمعدل الغذاء اليومي في آسيا وافريقيا . وقد لا تكفي خمسون ماما من الان للدول النامية لتصل الى هذا المعدل ، مع التسليم بان ثمة زيادة معتدلة في كمية الغذاء ، وتحسينات محدودة في مكوناته . وقد يستطيع المرء ان يقدر ان مطالب الفرد للغذاء سوف تضاعف مرة على الاقل في العالم ككل فيما بين عام ١٩٥٠ ونهاية القرن الحالي .

وهذا التقدير تقريبي جدا بالطبع ، ويستطيع خبراء التغذية دون شك تحسينه ، وربما يرون ان متوسط حاجة الفرد من السعرات الحرارية الاساسية يمكن ان يرتفع مع نهاية هذا القرن بنسبة ٧٥٪ او ١٢٥٪ بدلا من ١٠٠٪ وقد يختلفون فيما بينهم عند هذه النقطة مثلما فعل الديموجرافيون . واما كان الاتجاه المحتمل في العادات الغذائية في العالم فان مطالب العالم المستقبلية من الغذاء يجب تقديرها عن طريق الربط بين النمو السكاني المحتمل والتحسينات المتوقعة في التغذية . واذا نحن افترضنا ان سكان العالم سوف يزداد بنسبة من ٤٠٪ الى ٨٠٪ ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، فان المطالب الكلية للعالم من الغذاء في نهاية هذا القرن سوف تصل بكل تأكيد الى اكثر من ضعفين ، بل وربما الى اكثر من ثلاثة اضعاف ما هي عليه الآن ، وهذا يفترض حدوث نمو ثابت بمعدل يتراوح بين ١٫٤٪ الى ٢٫٢٪ سنويا .

هذا النوع من الاستدلال يقودنا الى النتيجة التالية وهي ان النمو السكاني ليس هو العامل الحاسم في المطالب المتزايدة للجنس البشري من الانتاج الزراعي وانما الاكثر اهمية من ذلك هو ارتفاع الاستهلاك بالنسبة للفرد .

وهنا ايضا يكمن المصدر الاساس للشك في تقدير كفاية الموارد العالمية . ان الهوة بين التقديرات الدنيا والتقديرات العليا للامم المتحدة تبدو اقل اهمية من عدم قدرتنا على معرفة ما سوف يحتاج اليه الناس في جميع انحاء العالم لوجباتهم الغذائية في الخمسين سنة القادمة .

التحاجة الى المواد الخام اللازمة للصناعة :

ان مطالب العالم واحتياجاته المستقبلية من الالياف والاخشاب والحديد والصلب والمعادن الاخرى ، والمواد الكيميائية والطاقة انما تعتمد جزئيا على النمو السكاني . ولكن بصفة خاصة على ارتفاع مستوى المعيشة . وعلى ذلك فان دراسة مشكلة كفاية الموارد العالمية يجب ان تتم في ضوء الافتراضات المحددة المتعلقة بنمو الانتاج الصناعي في العالم .

ومما له اهمية بالنسبة لهذه التنبؤات معرفة التغير في بناء الاقتصاد العالمي . فالحضارة الآلية التي بدأت في الجانب الشمالي الغربي من اوراسيا وتطورت على سواحل المحيط الاطلنطي الشمالي من كلا الناحيتين تنتشر الآن في كل مكان من العالم لكي تصبح هي الحضارة الاقتصادية العالمية . وقد بدأت الشعوب المختلفة في الاطراف البعيدة في امريكا الجنوبية وفي آسيا وافريقيا تتعلم استخدام الوسائل الحديثة للانتاج والمواصلات والاتصال ، وتكيف مؤسساتها ونظمها وطرقها في الحياة طبقا للأنماط الغربية .

ان الاتجاه نحو التماثل في الاساليب التكنولوجية والنظم انعكس في نهاية عصر الاستعمار اذ بدأ التنظيم الرأسي Vertical Organization للاقتصاد العالمي (حيث تسيطر جماعة صغيرة من الدول المتقدمة على مناطق شاسعة من قارات اخرى لتمدها بحاجتها من المواد الخام) في الاختفاء ليظهر محله بالتدرج نظام آخر نشأ نتيجة للارتباك الذي يعيز الوضع الحالي للشئون العالمية . وبدون الادعاء باننا نعرف الكيفية التي سيعمل بها هذا النظام بعد خمسين عاما من الآن فاننا نستطيع ان نفترض ان :

الاتجاه سوف يكون نحو تقليل الفجوة بين « يملكون » ومن « لا يملكون » . فالمناطق المتخلفة سوف تحاول اللحاق بالدول المتقدمة والمتفوقة في التكنولوجيا ونتاجية العمل ومستوى المعيشة ، ومع انها سوف تصل بالكاد الى المستويات الغربية الحالية مع نهاية هذا القرن ، فالأغلب ان التناقض سوف يقل ويتضاءل .

ولو عبرنا عن ذلك احصائيا فان ذلك يعني انه مهما تكن الافتراضات التي تستخدم لوصف النمو الاقتصادي المتوقع للولايات المتحدة فانه يجب افتراض معدلات سنوية اعلى الى حد ما للتقدم الاقتصادي في المناطق الأقل نموا وتطورا ، وبالتالي بالنسبة للعالم ككل . مثال ذلك اننا اذا افترضنا ان الانتاج الصناعي للفرد في الولايات المتحدة سوف يزداد بنسبة ٢٥ ٪ سنويا في المتوسط ، فانه يجب ان نفترض في ثقة ان معدل الزيادة في بقية انحاء العالم سوف يتراوح بين ٣ ٪ الى ٣٥ ٪ وبدون مثل هذا الاختلاف في معدلات النمو السنوي سوف يستحيل تضيق الفجوة بين المستوى الاقتصادي في الولايات المتحدة والدول الأقل ازدهارا . وهناك كثير من المؤشرات النسبية التي توضح ان الدول المتخلفة انما تحاول اللحاق بالدول الصناعية الرائدة . إن الأمم المتحدة على سبيل المثال قد سجلت النسب المئوية التالية للزيادة التي وصل اليها الانتاج الصناعي في المناطق المتخلفة من عام ١٩٤٨ الى منتصف عام ١٩٥٤ .

الانتاج العالمي	٣٦٪
الولايات المتحدة	١٨٪
العالم باستثناء الولايات المتحدة	٥٨٪
أوروبا	٦٢٪
أمريكا اللاتينية (التعدين)	٢٥٪

أما الدول الصناعية فيمكن ترتيبها كما يلي فيما يتعلق بالانتاج الصناعي الذي حققته في خمس سنوات في الفترة بين ١٩٤٨ - ١٩٥٢ .

المكسيك	٣٣٪	السويد	١١٪
أيرلندا	٣٧٪	بلجيكا	١٤٪
الجزائر	٣٨٪	الدانمارك	١٩٪
النرويج	٤٠٪	المملكة المتحدة	٢١٪
شيلي	٤٣٪	الهند	٢٤٪
هولندا	٤٤٪	كندا	٢٧٪
إسبانيا	٤٨٪	فرنسا	٢٧٪
إيطاليا	٦١٪	فنلندا	٢٧٪
اليونان	٩٣٪	الولايات المتحدة	٢٩٪

وطبيعي أن الدولة ذات الانتاج الصناعي المحدود لا تستطيع أن ترفع من قدراتها الانتاجية بنسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ إلى ٦٠٪ بسهولة أكثر من الدول الصناعية كالولايات المتحدة أو المملكة المتحدة وبلجيكا . لكن هذه المسألة بالذات تعتبر هي النقطة الحاسمة في تنبؤنا ، وهي أن الدول النامية لديها الفرصة لزيادة انتاجها الصناعي ، ومن ثم فإن مطالبها للمواد الخام سوف تزداد بنسبة أسرع من مطالب الولايات المتحدة .

إن افتراض التقدم الاقتصادي المستمر في المناطق النامية يتطلب التغير في توزيع مواردها بين مجموعات مختلفة من الاحتياجات ، فكلما كانت الدولة فقيرة كان الجزء المخصص من الدخل للطعام كبيراً أيضاً ، ففي أكثر المناطق فقرارحيث يسود اقتصاد الكفاف Subsistence Economy فإن ميزانية الغذاء تصل إلى نحو ٨٠٪ من جملة الإنفاق الكلي ، ومن المحتمل أن هذه النسبة سوف تصل إلى ٧٠٪ في كل من الصين والهند والعراق وإيران و٦٠٪ في كل من أفغانستان والبرازيل والاتحاد السوفياتي واليابان ، أكثر من ٥٠٪ في الدول الزراعية في جنوب وجنوب شرق أوروبا . وربما تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ في الدول المؤدرة الصناعية المتقدمة . أن افتراض التقدم الصناعي يوحى بأن الإنفاق على السلع الصناعية يزداد بسرعة أكثر من الإنفاق على الطعام . فإذا كانت مطالب الفرد للطعام (عدد السعرات الحرارية الأساسية) تتضاعف فإن عطاءات السلع الأخرى تقل بمرتين إلى أكثر من الضعف .

فإذا حاولنا أن نخضع انماط الاستهلاك في مختلف مستويات الازدهار والرخاء لقانون **انجل** Engel فسوف نجد أن اتفاق الفرد للغذاء يتضاعف حين يرتفع دخله بنسبة ثلاث مرات تقريبا ، فلو فرضنا أن الإنسان في المستوى الحالي للتنمية الاقتصادية في العالم كله ينفق نحو ٤٥٪ من دخله أو موارده في الطعام بينما يخصص نحو ٥٥٪ لاحتياجاته الأخرى . فإن مضاعفة موارده المالية ثلاث مرات سوف يؤدي إلى مضاعفة انفاقه على الغذاء ، بينما يرتفع إجمالي ما ينفق على أوجه الاتفاق الأخرى نحو أربع مرات ، وهذا معناه أن ازدياد مطالب الفرد واحتياجاته للمواد الخام الصناعية في عام ٢٠٠٠ بمقدار أربع مرات سوف يعني مضاعفة استهلاكه للغذاء مرتين (بالنسبة للسعرات الحرارية الأساسية) .

وإذا ربطنا ذلك بالتنبؤات البديلة للنمو السكاني فإن هذه الافتراضات سوف تمكننا من تصور المطالب المحتملة لمواد الصناعة الخام في نهاية القرن الحالي كما يلي : (١٩٥٠ = ١٠٠)

السكان	١٤٠ - ١٨٠
مطالب الفرد للمواد الصناعية	٤٠٠
اجمالي تلك المطالب	٥٦٠ - ٧٢٠

إن معدلات النمو هذه تفترض تقدما يبلغ في المتوسط نسبة تتراوح بين ٣٥٪ إلى ٤٪ سنويا .

وبالمثل فإن العامل الرئيسي يكمن في نمو الاستهلاك بالنسبة للفرد أكثر مما يكمن في الزيادة السكانية ، والواقع أننا إذا افترضنا أن المطالب بالنسبة للفرد من المواد الصناعية في العالم ككل تزيد بنسبة ٢٨٪ سنويا ، وأنها تتضاعف أربع مرات في خمسين عاما ، فسوف نكتشف كيف أن مطالب العالم من هذه المواد سوف تزايد بسرعة لتصل إلى ستة أضعاف نتيجة لبعض الأوضاع المختلفة المتعلقة بالنمو السكاني . ويبدو أن هذا المستوى من المطالب سوف يمكن الوصول إليه في مدى ٥٢ عاما (إذا نحن قبلنا التقديرات المنخفضة) ، وفي نحو ٤٥ عاما إذا نحن أخذنا بالتقديرات الأعلى ، وإن نفس المستوى من المطالب سوف يمكن تحقيقه في مدى ستين عاما ، إذا لم تحدث زيادة سكانية على الإطلاق ، بينما كانت مطالب الفرد من المواد الخام الصناعية تزداد بنسبة ٣٪ سنويا .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالمطالب المستقبلية للمواد الخام ، فإن التقديرات السكانية المشكوك في دقتها تقل أهميتها إذا ما قورنت بالافتراضات الخاصة بسرعة التقدم الاقتصادي .

وتؤيد التجارب والخبرات الحديثة هذا الزعم ، فوفقا لمؤشرات الأمم المتحدة للإنتاج الصناعي فإن الانفاق تضاعف في ١٥ عاما من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٣ ، بينما زاد سكان العالم بنسبة ١٦٪ تقريبا ، وهذا يعني أن المعدل السنوي للزيادة في المتوسط كان ١٪ للسكان و ٣٫٧٪ للإنتاج الصناعي للفرد .

وسوف يتبين لنا العلاقة بين هذين الاتجاهين في المستقبلات الأخيرة . فمن الغيرة

من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٣ زاد سكان العالم بنسبة ٦ ٪ بينما ارتفع الانتاج الصناعي العالمي بنسبة ٣٧ ٪ اي ان متوسط الزيادة السنوية كان ٦.٥ ٪ للانتاج ومتوسط الزيادة في الواد الخام ١.٢ ٪ تقريبا بالنسبة لسكان العالم . وقد بلغ معدل النمو في المطالب بالنسبة للفرد نحو ٢.٥ ٪ وهو اعلى بكثير من تقديراتنا . مما يتيح الفرصة لما قد يثور من عقبات ، او يصيبه التقدم الاقتصادي العالمي من تكسات .

وفي ضوء هذه التجربة فاني اعتقد ان تقديري لحاجة العالم للمواد الخام الصناعية قد يزداد الى ست مرات في الفترة من ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠ ، هو تقدير اقرب الى التحفظ سواء اخذنا افتراض النمو الاعلى او الادنى للسكان ، وسوف يظل هذا التقدير متحفظا حتى ولو انتبه الجنس البشرى الى صوت الديموجرافيين وكف عن التناسل والتكاثر بمثل هذه السرعة .

الدراسات المسحية للموارد :

السؤا الذي يثار حول كفاية الموارد العالمية في علاقتها بالسكان عام ٢٠٠٠ م يتلخص فيما اذا كان في استطاعة الانسان خلال خمسة عقود (٥٠ سنة) ان يزيد مؤونه من السلع المصنعة الى اكثر من خمس او ست مرات ، ويقول آخر هل سيتاح للانسان في خلال النصف الثاني من هذا القرن ان يزيد من انتاجه العالمي من الغذاء بمعدل سنوى يبلغ في المتوسط ٢.٥ ٪ وان يزيد من انتاج المواد الصناعية والسلع المصنعة بمعدل يتراوح بين ٣.٥ ٪ و ٣.٩ ٪ ؟

لكى نستطيع تقييم الموارد الطبيعية للعالم يمكن الانتاج الى المسوح التي نشرتها حديثا هيئة الامم المتحدة كالاجراء الستة الخاصة باعمال المؤتمر العلمى للامم المتحدة لحفظ واستخدام الموارد (١٧ اغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٩) .

Proceedings of the UN Scientific Conference on the Conservation and Utilization of Resources (August 17—September 6, 1949).

وكذلك « محدثات ونتائج الاتجاهات السكانية » (١٩٥٣)

The Determinants and Consequences of Population Trends (1953)

وقمة كثير من المعلومات القيمة عن الموارد في الاجزاء الخمسة التي يتألف منها تقرير لجنة بيلي Paley Commission ، وكذلك في أعمال المؤتمر الاكاديمي الثاني لجامعة نوروسترن

Proceedings of the Second Academic Conference of Northwestern University

وهو عبارة عن كتيب لطيف يحمل عنوانا يشبه عنوان هذا المقال « سكان العالم وموارد المستقبل »
World Population and Future Resources

الطاقة الانتاجية للتربة :

يشتمل كتاب « محدثات ونتائج الاتجاهات السكانية » على مجموعة طريفة من التقديرات المتعلقة بالطاقة الانتاجية للتربة او (حمولة الارض) ومعظم هذه المعلومات تبدأ بالانماط الحالية للاستهلاك ، وتقيس الطاقة الانتاجية للكوكب الذى نعيش عليه ، وذلك بالاشارة الى عدد السكان الذين يمكن تزويدهم بالغذاء اليومى الذى تتوفر فيه المواصفات الحالية من حيث الكم والكيف .

ولقد ذهب **اي . م .** **ايسٲ E. M. East** منذ أكثر من ثلاثين عاما الى أن الأرض يمكن أن تزود بالطعام ٢ره بليون نسمة علي أقصى تقدير. لقد توصل الى هذا التقدير بافتراض أن هناك ١٣ بليون فدان * متاحة لإنتاج الغذاء العالمى ، وأن الفرد يحتاج الى نحو ٢ره فدان لسد احتياجاته ، وقد اعتبر هذا العدد (٢ره بليون نسمة) هو الحد الأقصى الذى لا يمكن تجاوزه، وافترض أن الناس سوف يكتفون بالفسءاء المحدود والضروريات المادية القليلة التي تمثل المستويات الحالية لدى القرويين في أوروبا ، والواقع أن ايسٲ اسقط من الاعتبار امكانية استخراج كميات كبيرة من الغذاء من مصادر غير زراعية كالمحيط مثلا .

وبعد عشرين سنة قدرف . **ايرسون** ، وف . **اهاير F. A. Harper** الطاقة الانتاجية للتربة على أساس أن موارد العالم من الفءاءلا يمكن زيادتها زيادة محسوسة خلال جيل واحد، وأن أنجنس البشرى يجب أن يوزع موارد الفءاء المتاحة علي مستويات مختلفة حتى يمكنه البقاء . وقد استخدما القاييس التي كانت سائدة في عام ١٩٤٠ وكمية الطعام التي تكفى سكان العالم حينذاك (٢١٧٠ مليون نسمة) ، واستنتجا أن الأرض يمكنها أن تمد بالطعام نحو ٨د٨ بليون نسمة وفقا لمستوى الفءاء الاسيوى ، و٢د١ بليون وفقا للمستوى الاوروبى ونحو ٩٠٠ مليون فقط وفقا لمستويات امريكا الشمالية . وعلى النقيض من ذلك يأتي **بورمان Boerman** نيقدم لنا تقديرات تتراوح بين ٢ره ١٣٣ بليون نسمة وزعها على القارات (باللايين) على النحو التالى :

١٢٥١	امريكا الشمالية والوسطى
٤٠٦٠	امريكا الجنوبية
٧٧٨	أوروبا
٢٨٥٢	آسيا
٣٨٠٣	أفريقيا
٤٥٠	استراليا

اما **ا . ا . بنك A. Penck** فانه يعطينا تقديرات تتراوح بين ٧ بلايين و ١٦ بليون نسمة ، في حين يعتقد **ا . ف ويجمان Wagemann** أنه من طريق ادخال التحسينات الكافية في المجال الزراعى فان الأرض يمكنها أن تقيم اود نحو ٣٠ بليون من السكان بكل سهولة . وهذه التقديرات تقوم على افتراض امكانية تكييف هواء المساكن في المناطق المدارية ، وتشجير السهول الروسية والتحكم في تيار الخليج الدافئ Gulf Stream وري أراضي الصحراء الكبرى . والظاهر أن ويجمان نفسه لا يأخذ تقديراته بصورة جادة وإنما يقدمها كنوع من التصور لما يمكن حدوثه في المستقبل البعيد . كذلك قدرت وزارة الزراعة فى الولايات المتحدة القدرة المحتملة للزراعة وفرض التقدم الزراعى خلال العشر سنوات من ١٩٤٤ الى ١٩٥٤ مع عدم استبعاد حدوث اى

* في الاصل acre وهى وحدة قياس مساحة تعادل ٤٨٤٠ ياردة مربعة وهو اقل قليلا من الفدان .

تغيير جذري في التكنولوجيا الزراعية . فقد وجدت الوزارة ان الولايات المتحدة يمكنها توفير الطعام لنحو ٣٨٠ مليون نسمة تحت ظروف الحرب .

ويرى ر . م . سولتر R. M. Salter ان زيادة المساحة المزروعة مع استعمال التربة بطريقة افضل سوف يعطي ما يزيد على ضعف الانتاج العالمي من الحبوب واللبن ، واكثر من ثلاثة اضعاف محصول البطاطس والدرنة والفواكه والخضر ، بلاضافة الى انتاج كميات اكبر من المواد الغذائية الاخرى .

ولم يأخذ سولتر في الاعتبار امكانيات التطورات الجديدة في اساليب استخدام التربة، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على امكانية التوسع في زراعة التربة المدارية الحمراء في امريكا الجنوبية وافريقيا واندونيسيا والاراضي الواقعة في الجزء الشمالي من المنطقة المعتدلة الشمالية ، وقد طبق تجربة الفلبين على الاراضي المدارية غير المستغلة ، كما طبق تجارب الدول الاسكندنافية وفنلندا على الاراضي الهامشية في المنطقة المعتدلة .

اما ل . د . د . سستامب L. D. Stamp فقد قدم لنا تحليلا رائعا للقدرة الانتاجية للتربة ونورد هنا السطور الختامية لكتابه الممتاز :

Land for Tomorrow : The Underdeveloped World

« ان المناطق الزراعية في العالم في وقتنا الحالي تستطيع اذا مكن زراعتها زراعة مكثفة باستخدام احدث الاساليب المعروفة ان تزود نحو ثلاثة بلايين من السكان بما يحتاجون اليه من الطعام في مستوى غذائي مناسب . فاذما ما امكن استخدام نفس الاساليب في زراعة الارض التي لم تزرع بعد حتى الان او لم تستغل بعد بطريقة ملائمة، فان الزيادة السكانية التي يمكن مواجهتها ترتفع الى عشرة بلايين نسمة » . . « وفي نفس الوقت فان العلم يضيف باستمرار الى المعرفة الانسانية اشياء جديدة ، ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نتوقع ان يساعد التقدم العلمى على تنشيط مشكلة الغذاء التي يحتاج اليها الجنس البشرى وذلك اذا ما استطاع الانسان ان يتغلب على الحواجز التي يقيمها هو نفسه بين الامم » .

ولا شك ان غموض المفاهيم المتعلقة « بالارض » و « الارض المزروعة » من ناحية ، والاختلافات في تقدير الحدود التي يمكن ان يحققها التقدم العلمى والفنى في مجال الزراعة من ناحية اخرى هي مصدر الاختلاف في التقديرات الخاصة بامكانية الارض على تحمل السكان والتي تتراوح بين ٣ بليون نسمة وفقا لما ذهب اليه بيرسون وهاربر و ٣٠ بليون يمكن ان يعيشوا بكل سهولة حسب ما يقول ويجمان .

مصدر التقديرات المثيرة للجدل :

لقد أوضح اريك زيمرمان Erich W. Zimmerman المعنى المزدوج لكلمة « الارض » اذ يقول : « ان الارض بمعنى السطح هي شيء ثابت، بينما الارض بمعنى المجموع الكلي للمساهمة الطبيعية ليست شيئا ثابتا وانما ديناميا الى حد كبير ، انها لا تثبت عند شيء ابدا وانما تنغير باستمرار استجابة لتاثير الاتجاهات والافعال الانسانية المتغيرة وفوق كل شيء

استجابة للثقافة المتغيرة . . فليس ثمة علاقة بين مجموع سطح الأرض ودراسة المصادر المتاحة تماماً ، كما أن ليس ثمة علاقة بين مجموع المادة والطاقة في الكون ، وذلك أن الذي يهم هو وظيفة Function ومعنى Meaning الأرض ومظاهر الطبيعة الأخرى بالنسبة للإنسان .

وليس هناك من بين المشتغلين بدراسة الموارد العالية في الوقت الحالي من ينكر التفسير الدينامي الذي قدمه زيمرمان لمفهوم « الأرض » كعامل متحكم في تقييم « حمولة » الأرض ، ولكن الآراء تختلف في مدى ما يمكن أن تحققه « مرونة الأرض » في التنبؤات الاقتصادية الطويلة المدى .

فالدراسة التي قدمتها الأمم المتحدة إلى « الجمعية الأمريكية للمحافظة على التربة » Soil Conservation Society of America عام ١٩٥١ افترضت إمكانية الولايات المتحدة تزويد بليون من الناس بحاجتهم الغذائية إذا ما طبقت أحدث الأساليب التكنولوجية واستخدمت أقصى ما تستطيع من الطرق الوقائية للتربة وتسميدها ، وإذا أمكن عن طريق إقامة سلسلة من السدود زراعة مساحة كبيرة من خليج المكسيك .

ومن الصعب علينا أن ننقل الرأي القائل بأن « الأرض » سوف تنتج عام ٢٠٠٠ م نفس ما تنتجه الآن ، لقد سألت دكتور فتنسون M. Nuttens مدير المعهد الأمريكي لتكنولوجيا المحاصيل American Institute of Crop Ecology عن إمكانية التوسع في الإنتاج الزراعي ، وسوف اقتبس هنا بعض مقتطفات أذن لي بشرها من رسالته لي :

١ - على أساس الممارسات الحالية والأدوات الزراعية المستخدمة في الدول ذات الكثافة السكانية العالية والتي تستخدم فيها الأساليب العلمية مثل اليابان فإن إنتاج الطعام في الولايات المتحدة يمكن زيادته عدة مرات كلما جعلت الضغوط السكانية في هذه الدولة ذلك أمراً ملأماً من الناحية الاقتصادية . وكذلك فإن الممارسات وأنواع النباتات المحسنة في اليابان يمكن أن تزيد إنتاج الطعام إلى حد كبير في كثير من البلاد .

٢ - أن محطات التجارب الزراعية لديها كمية ضخمة من المادة العلمية المؤكدة المتعلقة بكيفية زيادة إنتاج المحاصيل ، ولكن نتائجها التجريبية لم تستخدم بعد لأسباب اقتصادية (أعتى بها الإنتاج الزائد Over Production في السوق المحلية والافتقار إلى القوة الشرائية في الأسواق الخارجية ، والمنافسة بين مناطق الإنتاج في الولايات المتحدة والتي تتفاوت فيما بينها في إمكانية زيادة الإنتاج وفقاً للظروف البيئية . فعلى سبيل المثال نجد أنه على الرغم من أن نبراسكا Nebraska يمكنها أن تضاعف إنتاجها لكل وحدة من الأرض فإنها لم تفعل ذلك نظراً لأن تكاليف الري الإضافي والمخصبات الإضافية سوف تتجاوز تكاليف إنتاج نفس القدر من المحصول في ولاية آيوا Iowa مثلاً حيث الأمطار الوفيرة والخصوبة العالية للتربة ، والتي تسمح بمائد مرتفع من المحاصيل ، دون حاجة إلى ري أو مخصبات باهظة التكاليف) .

٣ - أن الحد الأقصى من المحصولات يمكن الحصول عليه في حالة الضرورة من مساحة محدودة من الأرض عن طريق « الزراعة بدون تربة » أي « الزراعة بالماء » الذي أضيف إليه بعض المواد الغذائية Hydroponics . أن المسألة حتى الآن مسألة اقتصادية بحتة إلى حد كبير .

وان مرور الوقت وحده كفيلا بأن يبين لنا الى أى حد يمكن استخدام هذه الوسائل ، ولكنها بكل تأكيد سوف تسمح بالتوسع في انتاج الغذاء دون الاكتراث أو القلق فيما يتعلق بمساحة التربة المتاحة ، فانتاج الطعام النباتي يتطلب استخدام المحاليل الغذائية والحصى والرمل والمياه كوسائط للنمو ، ويعتبر الحصى الوسيط الأكثر انتشارا دون ان يكون لها غرض آخر سوى دعم النبات . ومن ثم فانه يمكن الحصول كل سنتي محصول واحد جدا دون ان نخشى من استنزاف التربة ، أو نضوبها أو انهيار بنائها أو التعرية أو الفيضان أو الجفاف ، أو ما الى ذلك من مشاكل أخرى مشابهة كتلك التي نعرفها في الزراعة التقليدية ، ولقد استخدمت هذه الطريقة وما زالت في جيش الولايات المتحدة وقد حققت نتائج ممتازة . وقد تعجز هذه الطريقة من منافسة الزراعة التقليدية اليوم ، ولكنها بكل تأكيد تفتح افاقا جديدة لانتاج الغذاء كلها وأينما كانت ندرة الأرض تحول دون حاجة السكان ومتطلباتهم الاقتصادية .

٤ - ولا شك أن التركيب الضوئي الصناعي Industrial Photosynthesis لانتاج البروتين والدهنيات والكربوهيدرات Carbohydrates عن طريق استخدام كائنات نباتية ذات خلية واحدة Unicellular مثل الطحالب Chlorella يمكن أن تزودنا بمصدر جديد للغذاء من المحتمل أن تصبح له نتائج كبيرة في الصورة الصامدة لاحتمالية انتاج المواد الغذائية للإنسان والحيوان على السواء . ولاشك أن انتاج الغذاء بواسطة التصنيع البيولوجي ما زال في مرحلة البداية ، وأن انتاج الطحالب طبقا لما ذهبت اليه مؤسسة كارنيجي Carnegie Institution في واشنطن يمكن معالجته ببراعة من خلال السيطرة على المواد الغذائية بطريقة تختلف الى حد كبير من حيث طبيعة الانتاج الجديدة لهذه العناصر النباتية الدقيقة للنباتات ذات الخلية الواحدة - من ٥٦ ٪ بروتين الى ٨٠ ٪ دهنيات في حالة الوزن الجاف. ومهما تكن نتائج الدراسة الحالية فمن الواضح أن ثمة عملية تعتمد على استخدام بعض الكائنات الحية لتزويد الإنسان عن طريق بعض العمليات الصناعية ، وليس عن طريق زراعة الحقول بمصدر غذائي يقدم للإنسان كميات هائلة من الطعام من مساحات محدودة من الأرض وسوف يؤدي ذلك فيما يبدو الى تغيير وضع السكان تغييرا تاما .

٥ - هذا الانتاج التركيبي للمواد الجديدة والمتمثل في احلال الالياف والدلائن الجديدة يوصى بأن الأرض المزروعة بالالياف أو المحاصيل الأخرى يمكن أن تزود بمحاصيل غذائية اذا استمدت الضرورة الاقتصادية ذلك ، وأن انتاج الغذاء بطريقة تركيبية أو شبه تركيبية ليس بعيدا كما يتبادر للذهن ، وقد يؤدي الى تغيير أفكارنا التقليدية بطريقة جلية فيما يتعلق باحتمال انتاج الغذاء في العالم .

٦ - هذه الانجازات الحالية منها أو المستقبلية في مجال العلوم الطبيعية قد تفترض حدوث تغييرات ثورية وتحسينات في إمكانيات انتاج المحاصيل ، وهي إمكانيات يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تقدير السكان وموارد الغذاء المستقبل . ومنذ عشر سنوات فقط لم يكن لدينا تسجيلات أو تحليلات احصائية عن الحبوب يمكن أن تكشف لنا عن إمكانيات انتاج عملية التهجين أو عن الثورة التي أحدثتها هذه الظاهرة في المحاصيل وبخاصة بالنسبة للحبوب . وإلى

أى مدى يمكن أن تمتد هذه الثورة الى المحاصيل الرئيسية الأخرى ، بل أن السجلات الاحصائية للانتاج في الماضي لم تكشف عن المكتنفيات المروعة لأمراض النباتات وأساليب مقاومة الآفات واستخدام الهرمونات النباتية ، وكذلك التطورات الوراثية المرتقبة كنتيجة لاستخدام الطاقة النووية Nuclear Energy في مجالات زراعية عديدة ، والتي يمكن أن تجعل من الملام اقتصاديا استخدام مياه البحر في الاقاليم المجربة وشبه المجربة من العالم ، وتساهم في اضافة مصدر من مصادر انتاج الغذاء لموارد الانسان الحالية .

٧ - أن استخدام الطاقة الشمسية Solar Energy الرخيصة لأغراض الري أصبح امرا وشيك الحدوث في المستقبل القريب

٨ - أن اساليب مقاومة الآفات سوف تصبح قريبا أكثر فعالية، كما أن احتمال السيطرة على الأمراض في تربية الحيوان (كما هو الحال فيما يتعلق بالسيطرة على ذبابة التسيثى Tsetse التى تصيب الماشية في افريقيا) أصبحت عالية ، وكذلك فإن العلاج والادوية الوقائية أصبحت متوفرة بالنسبة لبعض أمراض الحيوانات والدواجن الشائعة ، كما أن سلالة البراهما Brahma * تنبئ بتعديل أساليب تربية الدواجن والماشية في الاقاليم الحارة من العالم .

٩ - أن الزراعة وكذلك بعض المظاهر البيولوجية الأخرى تخضع لتحسينات ضخمة، وأن معلوماتنا الأساسية تزداد بالتدريج ، وسوف تكون في متناول الانسان في وقت غير بعيد الذى سوف يأخذها في الاعتبار دون شك ويستفاد منها كأداة مشروعة لدراسة المشكلات السكانية فيما يتعلق بالحاجة الى الغذاء والتنمية الاقتصادية .

ثم هناك المحاولات المبذولة لحراثة البحريلا من الاكتفاء بجنى ثمار البحر . ففي اسكتلندا تم تسميد الفيوردات Fiords بنجاح وقد ترتب على ذلك زيادة محصول السمك الى حد كبير ، وقد تم ذلك عن طريق تحصين وتقوية مناطق مغلقة من المياه ، ترتب عليها نمو العوالق المائية Plankton والتي كانت تصطاد بواسطة سمك « المنوه » Minnows * ثم بعد ذلك استخدمت اسماك أخرى . وقد امتدت التجربة لتشمل مناطق أخرى من المياه المفتوحة غير المحصنة كما كان الحال في التجارب السابقة . ولقد تعلمنا أن نزيد المحار « الرخويات البحرية » Oysters بسرعة وذلك بالسيطرة على الكائنات الحية المتنافسة في الصفر .

أن وزارة الزراعة قدمت العديد من الخطط التى يستخدمها الفلاحون الآن في أغراض مماثلة لاكتثار مخزونهم من سمك القاروس Bass الذى يتواجد في البرك ويقل في أفضل الظروف نحو ٣٠٠ رطل سنويا في الفدان الواحد ، وفي أقصى الطرف الجنوبي لخليج سان فرانسيسكو حيث يتم تبخير مياه البحر للحصول على الملح ، وحيث تنمو الطحالب ثم تجمع هذه القشريات للحصول

* سلالة من الطيور ذات الأصل الآسيوى أدخلت الى الولايات المتحدة في سبتمبر ١٨٤٦ وقد انتشرت على نطاق واسع في النصف الثانى من القرن ١٩ .

* سمك أوريبي صغير الحجم .

على البروتينات منها ، وكان من الممكن أن تتم هذه العملية باستخدام سمك « المنوه » لولا وجود « النورس » الذى يعيش على هذه الأسماك والذى يصعب جمعه مثلما تجمع القشريات .

يجب أن نتذكر دائما أن ضغط المطالب المتزايدة سوف يجعل بنمو واستغلال أنواع جديدة من المحاصيل التى لا تحتاج إلا إلى قدر محدود من أشعة الشمس والرطوبة ، والتى يمكن زراعتها فى الأراضى الحدية وبخاصة فى المنطقة الممتدة على طول الحدود الشمالية للمنطقة المعتدلة الشمالية وكذلك فى الأراضى المرتفعة والمدارية .

وسوف تزداد موارد الطعام فى الدول النامية زيادة ملحوظة عن طريق التحكم فى التلف الذى تلحقه الحشرات والحيوانات القارضة وأمراض النباتات ، وكذلك عن طريق الاهتمام بتحسين امكانيات التخزين والنقل والتسويق .

كذلك فإن صيانة التربة والمحافظة عليها يمكن أن يقضى على استنزاف الأرض ، كما أن استصلاح التربة وخاصة الرى يمكن أن يحدد خصوبة المناطق المتآكلة والمستنفدة ، ويؤثر تأثيرا فعالا فى التوسعات الهامة فى الأراضى القابلة للزراعة ، وخير ما يساعد على ذلك فى المدى الطويل هو حسن استغلال مصادر المياه .

فى المجال المحلى المحدود فإنه يمكن توجيه المياه الجارية نحو الأراضى الزراعية باستخدام الطرق والأساليب البدائية مثل السدود الصغيرة والقنوات ، أما على النطاق الأكثر اتساعا فإن عملية الرى تتطلب كثيرا من التكاليف والانفاق للأعمال الهندسية ، ولو أن مثل هذه النفقات تصبح عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية حين تتعرض الزراعة للإنتاج الزائد عن الحد Over Production بينما يكون استثمار هذه النفقات اقتصاديا حين يزداد الطلب ازديادا كبيرا . علاوة على ذلك فقد ظهرت امكانيات جديدة نتيجة للربط بين وسائل الرى والتحكم فى الفيضان وتحسين الملاحة فى الأنهار وإنتاج القوى الكهربائية . وهذا التداخل المتعدد الأغراض فى الدورة الهيدرولوجية Hydrological Cycle فكرة جديدة نسبيا وقد بدأت التجارب فى هذا المجال على نطاق واسع فى مشروع « وادى تنيسى » كما أن هذه الطريقة استخدمت بنجاح فى وادى كولومبيا (مشروع الكولمبى الكبير) Grand Coulee Project . كذلك فإن ثمة مشاريع أخرى طموحة بدأ تنفيذها فى الهند ومصر ، كما أن بعض الخبراء يعتقدون أن رى الصحراء الكبرى مسألة يمكن تحقيقها وتنفيذها باستخدام الوسائل الفنية الحالية إذا توفر المال اللازم .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالقدرة الانتاجية للأرض فى المناطق المزدحمة بالسكان والمناطق الجافة القسيحة ، فإن كل نقطة من ماء النهر تصب فى البحر تعتبر خسارة فادحة . فباستثناء تيار الماء اللازم لدفع السفن فى الأهوسة عند مصب الأنهار فإن كل نقطة من المياه يمكن توجيهها إلى الحقول وردها إلى الدورة الهيدرولوجية خلال عملية البحر . والواقع أنه يمكن تسخير التيارات الشديدة فى آسيا وأفريقيا لتحويل الصحارى إلى حقول خصبة وبساتين خضراء إذا ما توفرت الطاقة الرخيصة والتجهيزات الحديثة .

كذلك فان وجود مصادر جديدة للطاقة الرخيصة سوف يحل مشكلة تنقية مياه البحر وتوفيرها بكميات تكفى لرى الاراضى الممتدة على الساحل الباسفيكى لأمريكا الجنوبية والساحل الشمالى لأفريقيا وبعض اجزاء من استراليا .

ان القدرة الانتاجية للأرض تعتمد الى حد كبير على التقدم فى مجال القوة Power وعلى العلاقة بين تكاليف الطاقة Energy واسعار المحاصيل الزراعية ، واذا افلح ترابيد الطلب على الطعام الافضل فى تحرير الزراعة فى المناطق المتقدمة تكنولوجيا من المخاوف الترتبية على الانتاج الزائد ، فانه سوف يمكن تكريس ملايين الكيلووات من القوى الكهربائية لمشروعات استصلاح الاراضى الضخمة فى المناطق الاقل تقدما . ولقد أصبح التقدم فى استخدام الطاقة بمثابة العمود الفقري لتنمية الصناعات الحديثة والمواصلات، فالمصادر الحديثة للطاقة امتدت الى الزراعة فى شكل كهرباء ومحاربت آلية ، والاعظم أن الخطوة التالية فى استخدام الطاقة فى الزراعة سوف تكون فى مجال استصلاح التربة واعادة توجيهه للدورة الهيدرولوجية .

موارد الطعام غير الزراعية :

يشير الاستخدام المتزايد لمصادر الطعام غير الزراعية بزيادة اخرى فى قدرة الأرض الانتاجية ، فموارد المحيط التى تغطى نحو ثلثي الكرة الأرضية لم يكدا الإنسان يشترع فى استقلالها ولا يزال المحيط يمثل نوعا من التحدى للإنسان، ومع ذلك فان اهتمام العلماء بكنوزه الخبائية يزداد بسرعة ، بل ان بعض الخبراء يعتقدون انه سوف يحين الوقت الذى يعتمد الإنسان فى عيشه على المياه الى حد كبير ، وليس من المتوقع ان يصبح السمك مصدرا هاما للغذاء العالم، وذلك لان اسماك المحيط تخضع فى واقع الامر لقيود خطيرة ولكن الامل كبير فى الانتفاع بالاحياء الدقيقة الطافية فى المياه ، والخمائر والطحالب البحرية ومنتجات المحيط العضوية الاخرى المهمة .

وعلى أى حال فان المسألة ما زالت فى دور الاستكشاف التمهيدى ، ولكن جميع الخبراء يعترفون بأن المحيط يضم مخزوننا لا ينضب من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات التى يمكن فى نهاية الامر ان تتحول الى غذاء للبشر أو علف للحيوان .

وسوف يضطر النقص فى مصادر الغذاء الاخرى الإنسان الى ارتياد هذا المستودع ، وسوف يستخدم انتاج المحيط كملف للماشية قبل ان يصبح صالحا لتغذية البشر مما سوف يساعد على تخصيص بعض الاراضى التى تستخدم الان فى انتاج العلف الحيوانى لزراعة المحاصيل الغذائية ، كما سيتمكن فى الوقت نفسه التوسع فى انتاج الاطعمة الوفائية أى اللحم ومنتجات الالبان بتكاليف زهيدة .

المحاصيل الصناعية :

كذلك سوف تزداد قدرة الأرض الانتاجية نتيجة للتقدم فى انتاج الالياف الصناعية والمطاط وما إليها ، كما ان التقدم الذى سوف تحققه فروع علم الكيمياء الان سوف يحرق جزءا من الارض التى تشغلها الان المحاصيل الصناعية كالقطن . وبذرة الكتان .

ونحن الآن في المرحلة الاولى لهذه العملية ومن الصعب ان نتنبأ بكل مقتضياتها بالنسبة للاقاليم التخصصية في مثل هذه النباتات . فقد تنشبت فيها اضطرابات اقتصادية حادة وقد يصعب استكمال اعادة تكييف الزراعة المحلية للاتجاهات التكنولوجية الحديثة مع نهاية هذا القرن ، ومع ذلك نيجب ان نأخذ في الاعتبار دائما تأثيرها على قدرة الارض الانتاجية .

✻ بعض التحفظات :

بينما يعترف خبراء الأمم المتحدة بإمكانية زيادة الطعام من المصادر الزراعية وغير الزراعية زيادة بالغة ، فانهم يخفون من تنبؤاتهم المتفائلة بفائرتهم لنوعين من التحفظات ، أحدهما مرتبط بالصعوبات العملية والاقتصادية والاخر بالنظام السياسي للعالم . اما فيما يتعلق بالمعوقات العملية Practical obstacles المتعلقة بالتوسع في الأراضي الصالحة للزراعة ، واستخدامها بطريقة افضل ، فان دراسة الأمم المتحدة بينت ان الصعاب التي تواجه أى برنامج فعال من هذا النوع تصبح أكثر وضوحا عندما نحاول تعيين أى خطوات محددة بالدلات لزيادة انتاج الغذاء في مناطق معينة ، وفي هذه الحالة نجد ان الافتراضات أو العروض لا تجدى ليس فقط بسبب الصعاب الاقتصادية ، بل وأيضا بسبب مبالاة الناس وشكوكهم وجهلهم ، يضاف الى ذلك ان الدراسة تؤكد ان التنمية لا يمكن ان تتحقق اذا ما كانت مجزأة ، وانما لابد من ان تكون عملية متكاملة تقوم على الاعتماد المتبادل بين الموارد والناس ، ومثل هذه الصعوبات لن تختفى بطريقة آلية نتيجة لتقديم العلم والتكنولوجيا .

الا انه يمكن تحدى هذا النمط من التفكير فالالاقتصاد العالمى الحديث انما يقوم في الواقع على نظم منفصلة ومجزأة ، ولم يكن التقدم الاقتصادى في وقت ما عملية متكاملة منطقية ومخططة تخطيطا محكما ، وانما تحقق في شكل وفيات أو قفزات ، ونتيجة لسلسلة من التجارب المرتجلة تحت تأثير احلام الناس ، وتخميناتهم وطموحهم ، صحيح انها عملية فيها الكثير من الاسراف والضباغ فلقد اجتاز الجنس البشرى طريقا متعرجا شاقا بحيث يمكن للمرء ان يزعم انه كان في الامكان تحقيق نفس النتائج أو افضل منها في وقت اقصر لو ان التاريخ البشرى كان قد سار حسب خطة وضعتها سلفا لجنة من الخبراء ، ولكن لسوء الحظ فان الشكل الاقتصادى للعالم حدث بطريقة فجائية لم يمكن معها الدعوة لمقد مؤثر من الخبراء في مهسد الاقتصاد الحديث ، ومن المحتمل ان تتخذ التنمية في النصف الثاني من هذا القرن نفس الشكل « الفيسفسيائى » المجزأ الذى اتخذته من قبل ، ولكن مع اختصار الجهود والتجارب الضائعة التى لن يستفاد منها في المناطق التي تحاول اللحاق بالامم الزودهرة الحديثة .

انهم يستطيعون بلا شك الاستفادة من المنجزات العلمية والفنية التى تستخدمها هذه الامم ، وبالطبع فان « الامم المبالاة الانسانية والجهل » تمنع امكانية التقدم الاقتصادى السريع في المناطق المتخلفة ، ولكن في ايماننا هذه ليس ثمة مكان للا مبالاة وانما الذى يميز هذه المناطق في المرحلة الحالية هو الحركة النعالة والمطالب الملحة من اجل التحسين والتقدم ، والرغبة الصارمة للمعرفة .

وهذا الحكم الاخير تؤيده نسبة التوزيع المئوي للاتفاق العام، وخطط التنمية ومشروعات المساعدات الفنية في هذه المناطق ، فالميزانية المخصصة للتعليم العام بعضها اكبر من مثيلاتها في الدول المتقدمة الحديثة ، والجدول التالي يبين النسبة المئوية لميزانية التعليم من اجمالي الميزانية القومية لعام ١٩٥١ في بعض الدول المتقدمة والنامية .

بنما	١٩٥٩	الارجنتين	١٠٠٤
شيلي	١٦١	السويد	١٠
سوريا	١٦	تركيا	٩٠٨
بيرو	١٥	ايرلندا	٩٠٢
جواتيمالا	١٤٩	ايران	٨٥٩
كوستاريكا	١٤٧	نيوزيلندا	٨٥٧
سيلان	١٤٦	فنزويلا	٧٠٥
مصر	١١٦	المملكة المتحدة	٧
جزر هايتي	١١	العراق	٦٠٨
المكسيك	١٠٨	البرتغال	٦٠٥
هندوراس	١٠٨	النرويج	٦٠٣
لبنان	١٠٥	النمسا	٥٠٨

والجدير بالذكر هنا هو ان الدول المتقدمة الحديثة تقع في أسفل القائمة ، ولا شك ان ترتيب هذه الدول قد يتفسر عندما نعرض للميزانيات المحلية اوميزانيات المقاطعات والاقاليم ولكن الحقيقة تظل ان الدول النامية غالبا ما تنفق على مدارسها البدائية من ميزانيتها العامة جزءا اكبر مما تدفعه الدول المتقدمة على نظام تعليمها المتطور الراقي .

ومن ناحية اخرى فان الاموال المخصصة للتعليم العام تحتل ايضا مرتبة عالية في خطط التنمية الاقتصادية في امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا ، فبناء المدارس يعتبر بمثابة حجر الزاوية لتنمية المجتمع المحلي في الهند مثلا ، كما ان المعلمين والتربويين باتون في قمة قائمة الموظفين الذين تطلبتهم الدول المنيعة ، سواء من صندوق الخدمات الفنية للامم المتحدة او هيئة المعونة الخارجية بالولايات المتحدة .

وعلى ذلك فانه يبدو ان الدينامية وليس الاملالة والجهل ستكون هي الاساس للتنبؤات الاقتصادية البعيدة المدى .

اما التحفظ الثاني الذي يثيره خبراء الامم المتحدة فلا يمكن دحضه ، فمعظم التقديرات الخاصة بالتأجيرة الارض تقوم على افتراض ان موارد الغذاء العالمية هي بمثابة مخزن واحد يمكن للجميع ان يسحبوا منه ، لكن الواقع ان هذا المخزن او المستودع مقسم الى حد كبير . ونظرا

لان الكثير من شعوب العالم لا يمكنهم الاستفادة من بعض اجزاء العالم الهامة فان القدرة الانتاجية الفعلية للارض اقل بكثير جدامن قدرتها النظرية.

ان القول بان موارد الغذاء العالمية يمكن ان تتضاعف ثلاث مرات مع نهاية هذا القرن لا يعني باى حال انه في الخمسين سنة القادمة سوف تتمكن كل قارة من ان توفر لسكانها الغذاء المناسب كما وكيفا ، بل الاكثر من ذلك ان هذا القول لا يعني ان كل بلد سوف ينتج من الغذاء ما يكفي سكانه ، او سوف يكون لديه الوسائل المناسبة لاشباع احتياجاته من الطعام عن طريق الاستيراد من الخارج .

وحتى اذا اخذنا باكثر التنبؤات تفاؤلا عن القدرة الانتاجية للارض سوف تكون هناك في اغلب مناطق شاسعة تعاني من النقص في الطعام . ان تراكم الفائض في مناطق معينة قد يبطىء من التقدم الزراعي في تلك المناطق ويجعل المحصول الفعلي اقل بكثير من القدرة الانتاجية النظرية للتربة ، بينما يؤدى الغذاء في مناطق اخرى الى تعطيل التقدم الاقتصادي ، والى عدم الاستقرار الاجتماعي .

ان القدرة الانتاجية للتربة تفتح المجال لامكانية تحقيق التحسينات الهائلة في تغذية السكان المتزايدين في العالم ، ولكن هذا في ذاته يخل مشكلة الجوع في العالم . ان اسباب استمرار الفقر لا تكمن في نسبة حجم هذا الكوكب الى السكان الذين يعيشون عليه اوى نسبة الزيادة الهائلة في عدد الافواه الجائعة الى حجم الكسرة الارضية ، وانما يكمن في النظم السياسية التي لا تسمح لكل الناس بان يستفيدوا من تكنولوجيا الدول الاكثر تقدما .

الحاجة للمواد الصناعية الخام :

لقد افترضنا ان حاجة العالم للسلع المصنعة قد تصل في عام ٢٠٠٠م الى اكثر من خمسة او ستة اضعاف ما هي عليه الان . وهذا الفرض الذى يتعلق بالطلب على المواد الخام يأخذ في الاعتبار الزيادة في حجم الانتاج الصناعي بنسبة مماثلة ، وبالطبع فان جميع فروع الانتاج لاتنمو بنفس المعدل ، وبالتالي فان الطلب على المواد الخام المختلفة سوف يرتفع بطريقة غير متوازنة ، وعلى ذلك فالسؤال اذن ليست ما اذا كان العرض السنوى لكل مادة من المواد الخام يمكن ان تزداد بنسبة اكثر من خمس مرات ، ولكن ما اذا كان العرض بنسبة لجميع المواد (المعروفة والتي لم تزل غير معروفة) سوف تكفى لاشباع ومقابلة النمو المتزايد في مجال الانتاج الصناعى .

منتجات الغابة :

تعتبر الغابات الصنوبرية Coniferous Forests المصدر الرئيسى للاخشاب والمنتجات المرتبطة بها ، والمقدر ان محصولها السنوى يمكن ان يصل الى اكثر من الضعف عن طريق استغلالها بطريقة افضل ومع الاهتمام بتطوير الطرق . كما ان استغلال الغابات ذات الاوراق العريضة يساعد على زيادة المحصول الكلى الى ثلاثة اضعاف المطلب السنوية الحالية ، او حتى الى اكثر من ذلك بتخفيض الفاقد من الانتاج ، وتعتمد الزيادة الاضافية على التقدم الذى تحققة زراعة الغابات والعناية بها ، وخاصة تنمية وتهجين الاشجار السريعة النمو . ووفقا لراى الخبراء

فان تهجين الاشجار ربما يصبح امرا مألوفاً في نحو عشرين عاماً . كما هو الحال الان بالنسبة لتهجين الحبوب ، كذلك فان المزارع التجارية يمكن ان يتضاعف انتاجها مرتين او ثلاث مرات ما تنتجه الان من الاخشاب عن طريق النمو الطبيعي . وعلى ذلك فان امكانية مضاعفة انتاج الاخشاب خمس او ست مرات بالنسبة للحجم الاستهلاك السنوي الحالي مسألة ميسورة من الناحية الفنية ، ومع ذلك فان كثيراً من الخبراء يعتقدون انه قبل الوصول الى هذا المستوى من الانتاج فان الحاجة الى الاخشاب سوف تنخفض نتيجة استعمال الواسع النطاق للمواد الاخرى كالصلب ولدائن البلاستيك وما اليها .

الوقود المعدني Mineral Fuels

ان الاحتياطي المعروف من الفحم الحجري يمكن ان يفي بمطالب العالم واحتياجاته بالمعدلات الحالية للاستهلاك لنحو ألفي عام قادمة ، وحتى في حالة ارتفاع معدل الاستهلاك السنوي الى نحو خمسة اضعاف او ستة اضعاف وفقاً للتقديرات عام ١٩٥٠ فانه يمكن ان يفي بالحاجة لعدة قرون .

اما الاحتياطي المعروف من البترول والغاز الطبيعي فمن المحتمل ان يستنفذ قبل نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فان الخبراء يعتقدون ان الإيثانول الجيد للابستكشاف والانتاج تشير الى امكان اكتشاف حقول جديدة للنفط ، ويساعد على ذلك استخدام الاحتياطي الناتج بطريق افضل واستغلال بترول الابار المهجورة ، وحتى في حالة الاستنزاف الكامل للابار الحالية ، فان العالم لن يتترك بدون وقود سائل كما عبر ذلك روبرت أ. ويلسون Robert Wilson بشركة ستاندرد اويل في انديانا حين قال : « سوف يكون لدينا موارد اخرى كالصخور البترولية والفحم والقطران والفضلات الزراعية بالإضافة الى الموارد الاساسية التي لا تنضب كالماء والهواء وضوء الشمس . ولعل الوسيلة النهائية للحصول على وقود سائل سوف تتوفر حين نبدأ بمحرك شمس Solar Engine لتوليد الطاقة ، ويمكن استخدام القوة في التحليل الكهربائي للماء الى عنصريه الرئيسيين الهيدروجين والاكسجين ، اما الهيدروجين فيستخدم لتحويل ثاني اكسيد الكربون Carbon Dioxide في الهواء الى اول اكسيد الكربون Carbon Monoxide وبإضافة الهيدروجين الى اول اكسيد الكربون يمكن الحصول على الوقود السائل » .

المعادن :

في الواقع ان الجنس البشري لديه احتياطي لا ينضب من خام الحديد والمنجنيز واليوكسيت والمغنسيوم بالإضافة الى البوتاس والفوسفات . اما الاحتياطي المعروف من المعادن الاخرى المألوفة كالتحاس والرصاص والزنك والتصدير والكروم فهو محدود ، وعلى افتراض ان ثمة مطالب سنوية متزايدة ومطرودة فان الترسبات التي اكتشفت سوف تنضب قبل نهاية هذا القرن .

ان التهديدات بالاستنزاف الذي يوشك على الحدوث انما هو بمثابة تحدٍ خطير لبراعة الانسان ومهارته ، وان الاستجابة لهذا التحدي تكمن في الاستخدام الافضل للموارد المتاحة والتنمية المكثفة لها خاصة في الاماكن المتطرفة من العالم ، والاستفادة من المخلفات والبقايا ، والبحث عن المستودعات الجديدة وحل المنتجات الكيميائية المستحقة محل المواد النادرة .

فمنذ سنوات كان يبدو من المؤكد أنه لم يعد ثمة مجال على سطح الأرض لاكتشاف ترسبات معدنية ضخمة كذلك التي عثر عليها في الخمسين سنة الأخيرة أويرويد ، ومع ذلك فقد أمكن الكشف عن مستودعات هائلة من البترول وخام الحديد ومعادن أخرى، مثل الترسبات الحديدية الجيدة في فنزويلا وكندا وجنوب روديسيا ، وحقول النفط في كندا ، ومناجم الذهب الجديدة في مقارنتها بمناجم منطقة « الراند » الشهيرة في جنوب أفريقيا ، واليوتاس واليورانيوم في الولايات المتحدة ودول أخرى كثيرة . ولا يزال البحث عن المعادن مستمرا بطريقة محسومة في كل انحاء العالم ، وقد ترتب على ذلك أن تغيرت خريطة المعادن لكوكبنا واشتملت على اقاليم نائية كان خبراء التعدين يجهلون حتى مجرد اسمائها منذ سنوات قليلة مضت .

اما اليورانيوم فهو عنصر جديد في اسسرة المعادن ولقد كان وجوده منذ البداية امرا مشكوكا فيه في حوالي ستة انواع من المعادن ، اما الان فان ما يزيد على مائة معدن معروفة تحوي في تركيبها على اليورانيوم ، عدا اربعة وعشرين معدنا آخر تشتمل على اليورانيوم بكميات تجارية .

وفي ضوء هذه التطورات الحديثة فان نضوب الموارد المعدنية في الأرض في وقت قريب يبدو بعيد الاحتمال الى حد كبير ، ومن المؤكد ان الاحتياطي « المعروف » للمعادن التي تبسبم اكتشافها قد ينضب ، ولكننا ما زلنا عند مدخل مخزن الكرة الأرضية وما نعرفه عن كنوزها هو بغير شك جزء يسير مما لا نعرفه ، فنحن على سبيل المثال نعرف القليل جدا عن الموارد المعدنية التي تحويها مياه البحر او قاع المحيط .

الطاقة :

قد يفترض المرء ان استهلاك الطاقة سوف يزداد بنسبة تتفق مع حجم الانتاج الصناعي ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا ان زيادة الطلب على الطاقة سوف يصاحبها تقدم في وسائل او طرق استغلال مصادرها ، وفي ضوء انخفاض معامل كفاءة الطاقة في الاقتصاد الحديث انخفاضا كبيرا جدا فلن يكون من المبالغ فيه ان نزم ان الانسان سوف يعرف كيف يحصل من نصف طن من الفحم او البترول على كمية من الطاقة تعادل على الاقل تلك التي يحصل عليها من طن كامل من احدهما .

وهذا الافتراض يوحي بان العالم في عام ٢٠٠٠ سوف يستهلك من المعادن ما يعادل ضعفين الى ثلاثة اضعاف ما يستهلكه الان .

ولا شك ان توزيع الطاقة المستخدمة بين المصادر المختلفة سوف يعتمد على التقدم في استخدام المصادر الجديدة - اي الاشعاع الشمسي Solar radiation والذرة Atom والسباقي بينهما . فمنذ عامين او ثلاثة كان يبدو ان الطاقة الشمسية Solar energy تقدم غيرها في هذا المجال وكان خبراء الفيزياء النووية Nuclear physics يتوخون الحرص والحذر في تقديرهم لمدى القدرة على استخدام الطاقة الذرية اقتصاديا ، ولكنهم ما لبثوا ان اصبحو اكثر تفاؤلا نتيجة لظهور المفاعل الذري المتعددا لأغراض Multiple Purpose Reactor والذي كان ظهوره بمثابة نقطة تحول في تفكيرهم ، كما ان غزو الذرة ودخولها الى مختلف نواحي النشاط

الاقتصادى فى العالم ، على اعتبار انها ارخص وافنى مصدر للطاقة ، مسألة سوف تتحقق فى وقت اقرب مما كنا نظن .

وحتى فى الوقت الحالى فاننا نستطيع ان نرى صورة اقتصاديات الطاقة فى نهاية هذا القرن سوف تكون مختلفة تماما عن الشكل السائد الان ، ومن المحتمل ان يظل القرن التاسع عشر متحفلا بلقبه « قرن الفحم » . اما القرن العشرون فسوف يكون من الصعب ان نسميه « قرن البترول » لان من المحتمل ان يكون الوقود المستخلص من القشرة الارضية فى شكل سائل حدث قصر الاجل فى تاريخ الاقتصاد العالمى ، وسوف يمكن الحصول على كميات متزايدة من الوقود السائل من الفحم او حتى من العوالىق المائية (البلاكتون) ، واذا افلحت حضارتنا الالية فى البقاء والاستمرار فمن المحتمل ان يتمكن الانسان من ان ينتقل من مرحلة استخدام المقادير الضئيلة من الطاقة التى يلتقطها من هنا وهناك من سطح الارض الى مرحلة السيطرة الكاملة المحسوبة على الطاقة الموجودة فى بيئته ، اى فى الاشعاع الشمسى - وفى الرياح المتصلة به - وفى اللدرة .

طريق التقدم :

لقد عبرنا عن الزيادة المتوقعة فى الطلب على الغذاء والمواد الخام فى حدود متوسط المعدلات السنوية للزيادة التى تتراوح بين ١.٤ ٪ الى ٢.٢ ٪ للغذاء ، ومن ٢.٥ ٪ الى ٤ ٪ بالنسبة للمواد الخام .

على اى حال فمن المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى العالم سوف يتبع طريقا لا يشبه - الا فى النادر - ومن طريق المصادفة البحتة - خطا بباينا مئويا ذا ميل تدرجى .

ولا شك فى ان الانجاء السائد فى المطالب من اجل المواد الخام الصناعية ينعكس فى مؤشرات حجم الانتاج الصناعى .

فحجم الانتاج الصناعى الاوروبى زاد بنسبة اربعة اضعاف تقريبا ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٥٣ وقد كان متوسط معدل النمو خلال هذه الفترة كلها هو ٢.٥ ٪ ، ولكن معدل الزيادة السنوية لم يصل الى هذا المتوسط اذ توقف هذا التقدم الصناعى ثلاث مرات نتيجة لقيام الحربين العالميتين والكساد الاقتصادى الذى وقع بينهما ، بينما حدث التوسع فى اربع موجات هي : من بداية القرن وحتى عام ١٩١٤ ، ومن عام ١٩١٨ الى ١٩٢٩ ، ومن عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٨ ، ثم من عام ١٩٤٤ الى وقتنا الحالى .

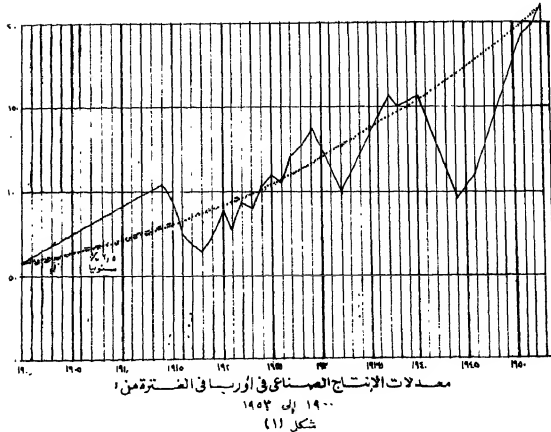
انظر شكل (١) ، وقد بلغ متوسط الزيادة السنوية فى فترات النمو ٤.٤ ٪

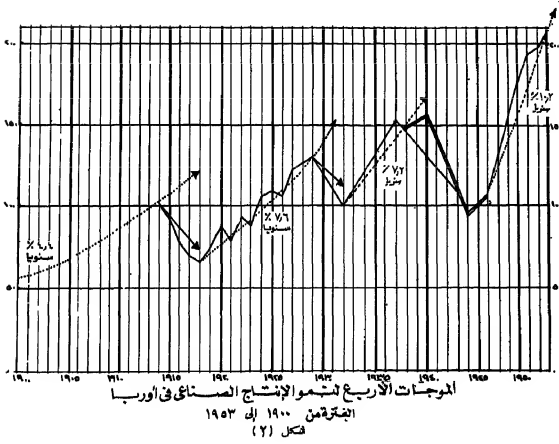
قبل الحرب العالمية الاولى و ٦.٦ ٪ فى العشرينات من هذا القرن و ٧.٢ ٪ قبل الحرب العالمية الثانية و ١.٠ ٪ من عام ١٩٤٦ الى عام ١٩٥٣ . وتقدر الفترة التى ازدهر فيها الانتاج الصناعى خلال هذه السنوات الثلاثة والخمسين بثمانية وثلاثين سنة بلغ معدل التقدم السنوى والنمو اثناعشر و ٥.٦ ٪ فى المتوسط (انظر شكل ٢) ولولا تلك المواقف التى تعرض لها ذلك النمو لراد

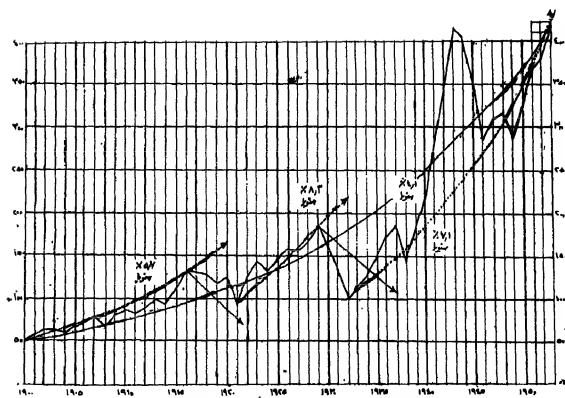
الانتاج أكثر من عشرة أضعاف ما وصلت إليه هذه السنوات الثمانية والثلاثين . ومع ذلك فإنه يمكن القول ان النمو السريع خلال فترات التوسع يرجع جزئيا الى ان كل زيادة ملحوظة كانت تبدأ من نقطة منخفضة جدا .

ولقد سار التقدم الصناعي في الولايات المتحدة في طريق معاكس ، ففي الفترة من ١٠٠٠ الى ١٩٥٣ تضاعف انتاج السلع الصناعية أكثر من ثماني مرات (انظر شكل ٣) وكان معدل النمو السنوي ٤,٢٪ في المتوسط .

ولكن التقدم الفعلي لم يكن مطردا تماما كما كان الحال في أوروبا وإنما تعرض لنكسات خلال وبعد الحرب العالمية الأولى مباشرة ، بالإضافة الى فترة الكساد في الثلاثينات ، كذلك تعرض تقدمه ونموه المزدهر خلال الحرب العالمية الثانية الى نكسة أخرى في عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٦ أعقبها ارتفاع مفاجيء آخر .







معدلات الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة

في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣

شكل (٣)

وباستثناء بعض التقلبات الطفيفة فإن الانتاج الصناعى فى الولايات المتحدة ارتفع من ١٩٠٠ الى ١٩١٦ - ١٩١٨ بمعدل سنوى بلغ فى المتوسط ٥٪ ، وخلال العشرينات ٨.٣٪ ، اما الفترة من ١٩٣٢ الى ١٩٤٣ فقد ارتفع بنسبة ٨.٤٪ وفى الفترة من ١٩٤٦ الى ١٩٥٣ ارتفع بمعدل ٥.٧٪ . وقد شهدت الصناعة الامريكية خلال السنوات الثلاث والخمسين الاولى من هذا القرن ٤٣ سنة من التوسع والنمو وعشر سنوات من الانكماش والتقلص ، وقد بلغ معدل النمو فى سنوات الاتساع والتقدم نحو ٧.١٪ سنوياً واذا استبعدنا التقلبات بسبب الحرب العالمية الثانية واعتبرنا الفترة (٣٢ ، ١٩٣٣) فترة واحدة كما هو موضح فى شكل (٣) فإن معدل النمو فى هذه الفترة يبلغ ٧.١٪ تماماً وهو نفس معدل النمو لجميع سنوات التوسع الثلاثة والاربعين .

وهكذا كانت انماط النمو الصناعى ، والحاجة الى المواد الخام الصناعية على جانبى شمال المحيط الاطلسى بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٥٣ . وانه من الصعب ان نجد مثالا واحداً فى أى من المنطقتين كان النمو الصناعى فى زمن السلم يتوقف او يتراجع نتيجة لنقص المواد الخام ، فلم يكن يحدث ذلك الا فى وقت الحرب حين كان الاقتصاد العالمى يتحطم تماماً وكان نقص المواد الاستراتيجية *Strategic Materials* يتحكم فى نمو الانتاج الصناعى وتوسعه فى بعض الدول .

من المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى النصف الثانى من هذا القرن سوف يتم بطريقة اكثر مرونة ، ولكن ليس ثمة ما يشير الى ان نمطه العام سوف يختلف عما كان عليه .

ان افتراضنا لنمو حاجة العالم من المواد الخام يفترض بالتالى نمو الانتاج بمعدل يقل فى متوسطه عن معدل نمو الانتاج فى الولايات المتحدة ، ولكنه يفوق بقليل معدل نمو الانتاج فى اوربىا خلال النصف الاخير المضطرب من هذا القرن . ان ندرة الموارد الطبيعية لن تكون عقبة يستحيل تدليلها بالنسبة لمثل هذا النمط من التنمية الاقتصادية .

خاتمة :

فى ضوء تجربة الماضى وتنبؤات المستقبل يمكن فيما يبدو ان نستخلص النتائج التالية :

١ - اننا لا نستطيع ان نعرف ما سيكون عليه حجم سكان العالم بعد نصف قرن من الآن ، او حجم احتياجهم من الطعام والانتاج الصناعى ، او الوسائل التى سوف يستطيعون بها اشباع تلك الحاجات .

٢ - ان كل ما نستطيع ان نتنبأ به هو ان مطالب العالم من الغذاء والمواد الخام الاخرى سوف تفوق بكثير النمو السكانى ، فاذا اخذنا العالم ككل فسوف نجد انه باستثناء اقاليم معينة ، فان التناقض لن يكون بين النمو السريع للسكان وندرة الموارد ، ولكنه بين زيادة الطلب وزيادة معطرد من ناحية والتوسع غير الثابت وغير المبرر للانتاج من ناحية اخرى ، فالوسائل الفنية التى فى متناول الجنس البشرى لها قدرة وفعالية عالية ، كما ان منظور النمو فى المستقبل يتجاوز حدود كوكبنا . وعلى حد قول م . ل . ه . بينيت M. K. Bennett فان الحروب والقومية الاقتصادية التى تهدف الى تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وليست التكنولوجيا وتضخم السكان او الموارد الطبيعية المحدودة هى العقبات التى يحتمل ان تقف فى وجه التقدم الاقتصادى . ويقول آخر اهم فان التناقض يقوم بين معقريه الانسان فى الامور الفنية وعجزه عن تنظيم حياته السياسية بطريقة تمكنه من ان يستمتع بثمار انجازاته التكنولوجية . ان السياق ليس بين النمو السكانى والموارد الطبيعية ، ولكنه بين التكنولوجيا والسياسة بالمعنى الارسطوطالى لهذا الاصطلاح .

طبيعة الإنسان

زكريا نفيسي

طبيعة الإنسان الكروية :

ان انتماء الانسان الى المملكة الحيوانية يجعله مرتبطا ، من ناحية سلالاته التطورية ، ارتباطا مباشرا بالكائنات الحية الأخرى ، وغير مباشر بالمادة الألاحية . ولكن حياة الانسان كما نعرفها اليوم بعيدة من أصولها المنبثقة من عالمي الأحياء وغير الأحياء ، الى درجة أنها تثير مشكلات لا توجد في بقية الخليقة . فعلى حين ان الانسان حيوان ، فمن الواضح انه حيوان غير عادى تنفرد حياته بميزات لا نظير لها . وعلينا في هذا المقال ان نضع نصب أعيننا دائما هذين الجانبين المتناقضين من طبيعة الانسان ، أولاها :

صفات الحيوانية ، و إنسانية حياته .

ان تعرفنا على الانسان عندما نصادفه ، سواء في الوثائق القديمة او الأماكن النائية ، ليس مشكلة . ومع ذلك فان كل معرفتنا الحالية لا تمكننا من ان نحدد على وجه الدقة تلك الخصائص التي ادت بالإنسان الى أن يكون مخلوقا فريدا لا نظير له . فكل ما لديه من صفات وراثية او تطورية توجد لها نظائر ، ولو بصورة مبسطة ، في الصور الأدنى من الأحياء . صحيح أن قدرة الإنسان على بشي متصفا ، وتحرر طرفيه الإماميين من أجل استخدام اليدين ، وتقاطع مجالى بصره ،

التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي اتاحت للإنسان ان يكون له تاريخ .

ان حياة الانسان هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية التي صنعت التاريخ . فضلا عن ذلك فان تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطوري وتجاربه البيولوجية الخاصة . كما ان العوامل البيئية التي تؤثر في الصفات البيولوجية للأفراد الذين يعيشون في ظلها تؤثر تأثيرا عميقا في تاريخ كل جماعة اجتماعية . فالإنسان ، من ناحية ، يبدو مجموعة شديدة التعقيد من المواد العضوية التي تتشابه في تركيبها وخواصها الاساسية مع المواد الموجودة في جميع الكائنات الحية الأخرى ، بل في المادة غير الحية . ولهذا السبب ، يمكن دراسة جسم الانسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها وآلياتها لقوانين الفيزياء والكيمياء . ولكن الإنسان ، من ناحية أخرى ، يتمثل على صورة كائن عضوي معقد ، يتجارب مع بيئته على نحو فريد لا يمكن تفسيره بسهولة بواسطة الظواهر الملاحظة في المادة اللاحية ، او في بقية الانواع المنتمية الى عالم الاحياء . ذلك لان ما يتحكم في استجابات الانسان ليس هو التأثيرات المباشرة للمثيرات او المنبهات الخارجية على بنيانه الجسدي ، بقدر ما هو التفسير الرمزي الخاص الذي يفسر به كل شخص هذه المثيرات او المنبهات . صحيح ان التمازج والرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشري مستمدة من العالم الخارجي ، ولكنها تكتسب في النهاية حياة ذاتية مستقلة الى حد كبير عن اصلها الفعلي .

وهكذا فان طبيعة الانسان تشتمل على جانبين مختلفين الى حد كبير ، ولكن كلا منهما مكمل للآخر . فمعظم خصائص آلة الجسم مشاع بين جميع الافراد المنتمين الى نوع

وقدوته على الابصار بالعينين معا ، وكبر قشرة مخه ، وطول فترة طفولته ، كل هذه صفات بيولوجية هامة تميز الإنسان . ولكن هذه الصفات ليست تجديدات بيولوجية خاصة بالنوع البشري وحده ، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كل الفرد .

ومن جهة أخرى ، فان صنع الادوات ، والتنظيم الاجتماعي ، والاتصال بالافراد الآخرين المنتمين الى الجماعة ، واكتساب السلوك المكتسب بالتعلم ونقله الى الآخرين - كل هذه مهارات لم يكن من الممكن بدونها ان يظل النوع الانساني باقيا ، ومع ذلك فهي توجد ايضا ، بقدر معين ، في انواع مختلفة من الحيوانات الأدنى . بل ان صفات عقلية معقدة مثل القدرة على تكوين تصورات ، والفيرة ، تظهر في صورة بدائية بين الحيوانات العليا . وصحيح ان الانسان لا يمكن ان يصل الى التطور الكامل الا عن طريق الارتباط باناس آخرين ، ولكن الحاجة الى الاتصال الفعال والانضمام الى الجماعة توجد ايضا في صورة غريزية بين الحيوانات العليا ، وهي ، في هذه الحيوانات ، تكاد تكون اولية بنفس القدر الذي يكون عليه الدوافع البيولوجية الأخرى .

ومجمل القول ان ما يتميز به الإنسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات . فهو يختلف اساساً عن جميع انواع الحيوانات الأخرى بفصل منجزاته التراكمية عبر الالف الاجيال . ومن هذه الزاوية نجد ان الفيلسوف الاسباني اورتيجا اى جاسيه Ortega y Gasset كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ليس للإنسان طبيعة .. بل تاريخ فقط » ، ولكن هذا القول لا يعدو ، لسوء الحظ ، ان يكون ترديدا لنفس المشكلة بالفاظ أخرى ، اذ اننا سنظل بعد ذلك نود معرفة تلك الخصائص

واحد اثناء المصور البيولوجية عن طريق سلسلة طويلة ومعقدة من عمليات تبادل التأثير (التغذية المرتدة) Feedback . وبالمثل فان بل كائن بشري يكتسب في الوقت الحاضر جزءا كبيرا من شخصيته عن طريق استجاباته للبيئة الكلية ، وخاصة اثناء السنوات الاولى التي تتشكل فيها حياته . ومن هنا ، فان طبيعة الانسان لا يمكن وصفها وصفا كاملا من خلال صفات سكونية ثابتة ، بل يمكن فهمها على احسن وجه بوصفها مظهرا لردود افعال على مؤثرات تعرض لها الانسان اثناء ماضيه التطوري ، وخلال تجاربه السابقة .

وعندما تستخدم كلمة التطور بالنسبة الى الانماط الحية فانها يمكن ان تشير الى ظواهر شديدة الاختلاف ، مثل : النمو الجسدي والعقلي لكل شخص على حدة ، والتحول الدارويني للأنواع البيولوجية ، والتغيرات المفردة للبناات الاجتماعية والاقتصادية . في جميع هذه الحالات يدل التطور على دور العوامل البيئية في تشكيل النظام البيولوجي او الاجتماعي على المدى البعيد ، نتيجة لتعلم المكتسب من التجربة عادة . على ان عملية التغير هذه لا تحدث الا عن طريق مجموعة مختلفة من الليات التي لا يجمع بينها الا انقيل من السمات المشتركة .

وحتى لو بحثنا المشكلة من وجهة نظر بيولوجية صرفة ، فان الاختلافات التي تظهر في الكائنات المضيوية الحية تندرج تحت فئتين متميزتين : الطفرات الوراثية ، التي تؤثر في جوهر المادة الوراثية الموجودة في الكروموسومات ، والتغيرات الظاهرية ، التي لا تغير التركيب الوراثي بل تنشأ من استجابات الكائن المضيوي كله للعوامل البيئية . وبمقتضى الصياغة التقليدية للنظرية الداروينية الجديدة ، فان الطفرات الوراثية وانتخاب او انتقاء البيئة

(« الانسان العاقل ») Homo Sapiens وتكاد تطابق خصائص القردة العليا ، اى انه يمكن دراستها بنجاح بواسطة المناهج التقليدية الخاصة بالعلوم الطبيعية . ولكن كل شخص يتميز ، في نفس الوقت ، بخصائص مستمدة من تجاربه ونشاطاته الخاصة ، وهي سمات ينفرد بها عن جميع الاشخاص الاخرين . هذه الخصائص لا تخضع بسهولة للتحليل العلمي ، لان العلم لا يتعامل على نحو فعال مع الحوادث المفردة . صحيح انه يمكن صياغة قوانين علمية عامة خاصة بنوع الانسان العاقل ، ولكن هذه القوانين لا تكون كافية على الاطلاق لتفسير تفرد كل فرد من افراد البشر ، او لتفسير منجزاته المنقطعة النظير .

وكما سنؤكد مرارا وتكرارا ، فان من المستحيل تماما تحديد او وصف الصفات البيولوجية التي تميل الانسان العاقل عن الحيوانات الاخرى ، وتميز كل شخص عن جميع الاشخاص الاخرين . ذلك لان الاختلافات الفردية والاجماعية دقيقة للغاية ، وتضمن انماطا معقدة لا تركيبات او وظائف موحدة . وبغلا من ذلك ، فان ايراد قائمة بهذه الاختلافات لا يمكن ان يعطي صورة كاملة للحقيقة . ذلك لان الجنس البشري يخفي باطراد في عملية التحليل ولا يمكن فهمه الا ككل . وهذا ينطبق على الفرد مثلما ينطبق على الجنس البشري سواء بسواء .

ولقد حقق العلماء تقدما مؤكدا نحو تحديد العوامل البيئية التي ادت في الماضي الى تمييز الجنس البشري ، على نحو مطرد ، عن عالم الحيوان ، والتي تسهم اليوم في تفرد كل كائن بشري على حدة . ولتوضيح قوة هذه العوامل، سنبحث في الصفحات التالية كيف تشكلت طبيعة الانسان بفعل البيئة الطبيعية والاجتماعية . ان الادلة الانثروبولوجية تجعل من المرجح ان اسلاف نوع « الانسان العاقل » وكذلك طرائقهم في الحياة ، قد تطورا في ان

نقطة التي ينبغي أن نؤكد هنا هي أن جميع الظواهر التطورية تتضمن عمليات تأثير متبادل (تغذية مرتدة) Feedback بين الكائن العضوى ، وبيئته ، وأساليبه في الحياة .
ولعله من المفيد أن نوضح هذا المفهوم بمثلين مأخوذين من عالم الأحياء غير البشرية .

١ - أن شكل بعض الزهور ملائم تماما للحشرات التي تتغذى عليها والتي تكون ، تبعاً لذلك ، بمثابة ملقحات لها . هذه الدرجة العالية من التلاؤم بين الزهرة والحشرة الملقحة اقتضت بالتأكيد فترات طويلة من التطور استجاب خلالها النبات للمثير الذى أثاره أعضاء التغذية الخاصة بالحشرة . فزهرة البرسيم مثلاً ، « يبدو » أنها طورت صفاتها الترشحية عن طريق « استجابتها » للنحلة اللبنة ، وبالمثل فإن زهرة الكرم يبدو أنها تطورت نتيجة استجابتها للطائر الطنان . على أن دراسة حفريات النبات والحيوان تشير إلى أن التلاؤمات المتبادلة بين الزهور والحشرات أو الطيور تنبع من أصول أبعد وأشد تعقيداً من ذلك . فالرأى الحديث هو أن الزهور ، وزوارها من الحشرات أو الطيور ، قد تطورت في آن واحد من صور بدائية . وفى المراحل الأولى من تطورها ، كانت قد أصبحت مترابطة بصلات غير قوية قبل أن تصل إلى حالتها الراهنة من التطور بوقت طويل . وهكذا فإن الحشرات والطيور ربما تكون قد قامت ، أثناء عملية تطوير أنماطها السلوكية ، وعاداتها الغذائية وأعضاء التغذية الخاصة بها ، بتحديد صفات الزهور التي تتغذى عليها وتلقحها .

أى أن التلاؤمات ربما تكون قد تطورت عن طريق سلسلة من عمليات التأثير المتبادل (التغذية المرتدة) بين النباتات والحشرات أو الطيور الملقحة ، على نحو أشبه بالأرجوحة المتوازنة عند منتصفها .

لها تفسر التغيرات المطردة التي تتعرض لها الأنواع البيولوجية ، كما تفسر ظهور أنسواع جديدة ، أما التغيرات الظاهرية فإنها لا تؤثر إلا في الكائن العضوى الفرد . على أنه اخذ يتضح أن التفاعل بين الكائن العضوى والبيئة أشد تعقيداً بكثير مما تدل عليه هذه الصياغة . وقد أشار إلى ذلك عالم الوراثة **واديغتون** C. H. Waddington بقوله : « أن انماط السلوك تتحد بالظروف الخارجية من أجل تحديد طبيعة البيئة المؤثرة » .

ومن الحقائق الثابتة أن البيئة لا يمكن أن تقوم بدور العامل الانتخابي (الانتقائي) ، وبالتالي لا تتحكم في التغيرات التطورية ، إلا إذا اختار الحيوان أن يبقى فيها ويؤدي وظائفه لفترة تكفي لتكاثره . وبصفة عامة ، فإن الحيوان يختار بيئة ما لأنه يمكنه أن يتجاوب معها عن طريق تكيفات ظاهرية ناجحة . هذا العرض المبالغ في تبسيطه لمشكلة على جانب كبير من التعقيد يكفي للإشارة إلى أن النظام التطورى يضم مفهومين : فهو لا يشتمل فقط على الطفرات والاضغوط الانتقائية التي تتضمنها الداروينية الجديدة ، بل يشتمل أيضاً على العمليات التي تقوم عن طريقها الحيوانات ، وخاصة الإنسان ، باختيار وتغيير بيئة يعينها من جميع الامكانات البيئية المتاحة لها .

هذا الرأى الحديث الخاص بالتطور البيولوجي يبدو من بعض الجوانب أنه قائم على فرض «لامارك» الذى لم يعد مقبولا ، والناقل بأن أى شكل مستمر من أشكال النشاط يحدث في النهاية تغييراً جسيماً أو عقلياً مقابلاً ، يمكن أن ينتقل من الوالد إلى ذريته . ومما لا شك فيه أن هذا التفسير غير صحيح ، وأن التطور البيولوجي يحدث دائماً بواسطة عوامل وراثية وانتخابية . ولكن

اجتماعي مستقر . وفي النهاية اصبحت
أساطير السلوكية المميزة لقرودة الشمبانزي
والغوريلا ، والعوامل المحددة لنظامها
الاجتماعي ، جزءا لا يتجزأ من التكوين الوراثي
الخاص بكل نوع من هذين النوعين .

لقد كان لامارك يعتقد ان سلوك الكائن
العضوي يحدد الى حد كبير الحالة البيئية
التي يتطور فيها والتي تكيف معها ذريته .
ومن هنا ، فان النظرية القائلة بان المعدادات
والاذواق الفدائية كان لها اثر فعال في تحديد
النظام الاجتماعي لقرودة الشمبانزي والغوريلا ،
هذه النظرية تذكرنا بافتراضات لامارك . وكما
اوضح وادينجتون فان هذا التفسير شبه
« اللاماركي » لوراثيات الجماعة ليس الا
امتدادا لسيبرنطيقيا للمذهب الدارويني الجديد
القائل بان التغيرات التطورية تحدث بواسطة
الطفرات والانتخاب . هذا المفهوم السيبرنطيقى
يبدو متمشيا مع كثير من الحقائق الخاصة
بتطور الانسان . وكما سنرى الآن ، فان من
المرجح ان البيئات التي عاش فيها اسلاف
الانسان اثناء العصر الحجري القديم حددت
اوجه النشاط التي مارسها هؤلاء الاسلاف ،
وهذا بدوره ، حدد في النهاية الجيلة الوراثية
التي تميز الجنس البشرى في الوقت الحاضر .

• • •

ماضي الانسان التطوري :

ان اى ملاحظ ، مهما بلغت سطحه ،
يمكنه ان يدرك ان الانسان يمت بصلة الى
الحوانات الاخرى ، وخاصة القرود العليا ،
ولكن العلماء يختلفون في تحديدهم الدقيق
لطبيعة هذه العلاقة . فمعظم البيولوجيين
يؤثر فيهم ، بطبيعة الحال ، الاستمرار
والتسلسل الواضح في عالم الاحياء باسره ،
ويركزون اهتمامهم على جوانب الانسان التي

ب - ويقيم السلوك الاجتماعي للقرود
الشمبانزي والغوريلا دليلا آخر على تأثير
البيئات السيبرنطيقية في التطور . ففي البيئة
الطبيعية ، بيئة الغابات المستقرة ، التي تعيش
فيها قرود الشمبانزي ، لا تنتظم هذه القرود
في أسر ، او مجموعات من الزوجات لقرد
واحد ، او غيرها من انماط الانظمة الاجتماعية
المستقرة . بل تتحرك فرادى عبر مساحات
شاسعة ، في جماعات كثيرة العدد ولكن دون
ان يقودها قادة ، او تربطها بعضها ببعض
صلات دائمة . وعلى النقيض من ذلك ، فان
الغوريلا تعيش في جماعات صغيرة دائمة يبقى
انفراد كل جماعة منها دائما على اتصال بعضها
ببعض ، ويقودها عادة ذكر كبير فسي الظهر .
ويتقصد الانثروبولوجي « فيرنون رينولدز »
Vernon Reynolds الذى قام بملاحظة
قرود الشمبانزي والغوريلا في الغابات
الافريقية ، بان اختلافات النظام الاجتماعي
بين هذين النوعين يمكن ارجاعها الى عاداتها
الفدائية . وعلى حد تفسيره فان قرود
الشمبانزي تكون « اسعد ما تكون عندما تلتهن
الفواكه لمدة ساعات في كل مرة وهي على
ارتفاع عال فوق فمهم الاشجار » . ونظرا الى
انها تعيش اساسا على الفواكه الكبيرة ، فانها
لا بد ان تفرق فوق مساحات كبيرة حتى تجد
ما يكفي لتأكله ، ومن هنا كان نظامها الاجتماعي
المشتت غير المتناسك . اما قرود الغوريلا فهي ،
على النقيض من قرود الشمبانزي ، آكلة
للغذاء . اما الفواكه غالبا بالنسبة اليها
ليست اكثر من اغذية اضافية . ونظرا الى
انها محاطة دائما بغذاء وفير في بيئتها المدارية
الخشبية ، فانها يمكن ان تغدق انما ذهبت
دون ان تتحرك بعيدا ، ويمكن ان تحتفظ بنظام

الأمريكي « ألفرد كروبر Alfred Kroeber » يعرف أن الإنسان والقرود العليا قد تطورا من سلف مشترك في الماضي البعيد ، ولذلك فإنهم يبدون اهتماما باوجه الشبه في التركيب التشريحي ، والخصائص الفسيولوجية ، وأنماط السلوك الناتجة عن هذا النسب المشترك . وعلى النقيض من ذلك ، فإن علماء الاجتماع وعلماء الأنساب يركزون اهتمامهم على الجوانب الاجتماعية الثقافية من حياة الإنسان ، وهي الجوانب التي فصلت الإنسان عن بقية المخلوقات بل عن القرود العليا ذاتها .

وهناك عدة أدلة تشير إلى أن نظرية النقطة الفاصلة غير صحيحة أو ناقصة إلى حد كبير . على الأقل . فقد أسفر البحث عن بقايا الإنسان الحفري عن دليل من أقوى الأدلة الداحضة لهذه النظرية . ذلك لأن اكتشاف عدد من الأشكال الحفري التي تؤلف سلسلة متصلة يجعل من المستحيل وضع حد فاصل بين الإنسان والإنسان على أساس تشريحي . ولما كانت أجسام البشر قد تطورت تدريجيا من شكل لا إنساني شبيه بالقرود إلى شكل الإنسان الحديث ، فإن من الأرجح أن عقل الإنسان قد تطور بالتدريج أيضا ، لا عن طريق طفرة مفاجئة . وفلا عن ذلك ، فإن نظرية النقطة الفاصلة الخاصة بظهور الثقافة كانت تقوم على افتراض يبدو معقولا للوهلة الأولى ولكنه مناقض للحقائق المعروفة . فالواقع أن الافتراض القائل بأن الجوانب الاجتماعية لحياة الإنسان بدأت « بالإنسان العاقل » ، وهو النوع الذي ننتمي إليه ، يناقض كل الأدلة الحديثة التي تشير إلى أن هذه الجوانب كانت موجودة في صورة بدائية في الأسلاف الذين مهدوا لظهور الإنسان .

تكشف أنه نتاج اتجاه تطوري متصل . وهم يعتقدون أن الإنسان والقرود العليا قد تطورا من سلف مشترك في الماضي البعيد ، ولذلك فإنهم يبدون اهتماما باوجه الشبه في التركيب التشريحي ، والخصائص الفسيولوجية ، وأنماط السلوك الناتجة عن هذا النسب المشترك . وعلى النقيض من ذلك ، فإن علماء الاجتماع وعلماء الأنساب يركزون اهتمامهم على الجوانب الاجتماعية الثقافية من حياة الإنسان ، وهي الجوانب التي فصلت الإنسان عن بقية المخلوقات بل عن القرود العليا ذاتها .

فميزات الإنسان الهامة ، في نظر هؤلاء العلماء هي تلك الصفات والنشاطات التي تجعله مختلفا عن الحيوانات ، لا من حيث الدرجة فقط ، بل من حيث النوع أساسا .

وعندما يقول البيولوجيون أن التطور قد تجاوز ذاته في عملية إنتاج الإنسان ، فإنهم يعترفون بصعوبة المفاهيم التي يستخدمونها في هذا الصدد . ذلك لأن أية محاولة لاتباع الطريقة التي يمكن أن تكون الصفات المميزة للإنسان ، كاستخدام الرموز واللغة أو امتلاك شعور وأخلاق ، قد نشأت بها من تحول تطوري لصفات بيولوجية صرفة ، تقابل دائما بالرفض القاطع . وهكذا اضطر الأنثروبولوجيون لكي يفسروا الانقطاع الواضح بين الإنسان والحيوانات ، أن يرضوا ، في العشرينات من هذا القرن « نظرية النقطة الفاصلة » . وبمقتضى هذه النظرية - التي أصبحت الآن لا تحظى بتأييد - فإن حادثة مفاجئة في النشوء النوعي للرئيسيات (١) هي التي أعطت البشر الأوائل القدرات اللازمة لتكوين ثقافة . وقد كان الأنثروبولوجي

(١) الرئيسيات Primates هي أعلى رتبة من بينها الثدييات ، وتضم الليمورات lemurs والبائيس monkey والقرود العليا apes والإنسان .

العصر الميوسيني (الوسط) . ولسوء الحظ ، فقد اعتبرت ذلك العصر فترة طويلة خالية تماما من الحفريات التي يمكن تحديد زمانها بدقة . ونظرا الى انه لا يوجد حتى الان تعريف بيولوجي محدد للانسان ، فان من المستحيل على أساس المعايير البيولوجية وحدها ، تحديد تاريخ لظهوره ، حتى لو كان هذا التحديد تقريبا . والواقع ان اللجا الوحيد المتاح امامنا هو التعرف على الصفات الشبيهة بصفات الانسان في بقايا ما قبل التاريخ .

لقد كان يعيش في شرق افريقيا الوسطى وجنوب افريقيا ، منذ نحو مليوني عام اثناء العصر البليستوسيني (الاجد) ، نوع من الرئيسيات العليا ، انقرض الان ، يطلق عليه اسم «القرود الجنوبي» *Australopithecus* هذا الحيوان الرئيسي كان يمتلك غندا من السمات توحى بالطابع البشري . ويرى علماء الانثروبولوجيا ان «القرود الجنوبي» كان شبيها بالانسان الى درجة تكفي لتصنيفه بوصفه فرعا قديما من فصيلة البشر *Hominidae* لا بوصفه عضوا في فصيلة

القرود *Pongidae* . ويبدو انه كانت توجد في نفس الوقت عدة انواع من انواع القرود الجنوبي ، كانت تختلف من ناحية الحجم وبعض السمات القليلة الاهمية ، ولكنها كانت تشترك كلها في عدد من الصفات المميزة . فتركيب عظامها الحوضية يدل على انه كان يمكنها جميعا ان تمشي منتصبة القامة . كما ان انبائها يظهر بها ذلك الاختزال المميز لانياب الانسان ، الامر الذي يشير الى ان هذه الانياب لم تكن تستخدم في التقطيع والتخزيق على نفس النطاق الواسع الذي كانت تستخدم به في الصور التطورية للقرود الاقدم عهدا . وربما كان التغير في تركيب الاسنان مصحوبا بتغير في العادات المعيشية ، وخاصة استخدام

وقد كان الانثروبولوجيون يعتقدون ، حتى وقت قريب ، ان الانسان البدائي جسميا وثقافيا هو الذي اخترع الاسلحة والادوات الاولى ، وارسى قواعد الاشكال الاولى البسيطة للتنظيم الاسرى والاجتماعي . هذا الانسان السابق للانسان الحديث كان يفترض انه يشبهنا اساسا من الناحيتين التشريحية والعقلية . ولكن الأدلة الانثروبولوجية الحديثة تشير بقوة الى ان كثيرا من الصفات التي كان ينظر اليها على انها مميزة للانسان انما ترجع الى تاريخ سابق لتاريخ «الانسان العاقل» ، بعدة مئات الألوف من السنين . ويبدو ان السلوك البشري ظهر تدريجيا من طرق حياة الاسلاف الذين مهدوا لظهور الانسان . والواقع ان هذه المخلوقات المبكرة تختلف عنا ليس فقط في العقل ، والسلوك ، والنظام الاجتماعي ، بل ايضا في التركيب ، وهذا الاختلاف كبير الى درجة اننا ما كنا لنجرؤ على ادعاء انهم بشر مثلنا لو انهم كانوا موجودين اليوم . وقد كان من اسلاف الانسان هذا بصفة خاصة اصغر كثيرا من مخنا .

وينبغي ان نتصرف بل ان نقول يتعلق بظهور الانسان انما هو قول تخميني على احسن الاحوال . ذلك لان البقايا الحفرية الخاصة بطلائع الانسان العاقل نادرة وغير كاملة الى درجة لا بد معها ، اذا كنا نتوقع ربط هذه البقايا في سلسلة نسب متصلة ، من احلال الخيال في كثير من الاحيان محل المعرفة الفعلية . على ان هناك حقيقة واحدة مؤكدة على الاقل . تلك هي ان الانسان لم ينشأ من احد القرود العليا الموجودة اليوم ، بل هو ، على احسن الفروض ، اخذ انشاء عمومها من الابدان . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان خط التطور الذي نشأ منه الانسان انشق من خط القرود الاول منذ وقت بعيد يرجع الى

وهناك هوة سحيقة بين البقايا الحفرية التي وجدت في موقع « أولدواي » بشرق أفريقيا (الانواع المختلفة من « القرد الجنوبي » و « الإنسان البارع ») ، وبين حفريات الانواع المختلفة التي يطلق عليها اجمالا اسم « الإنسان المنتصب » ، والتي ينظر اليها بصفة عامة على انها اسلاف مباشرة للإنسان ، وان لم يكن ذلك رأيا يتفق عليه الجميع . ويبدو الاختلاف بينها واضحا بصورة خاصة فيما يتعلق بالمخ . نسعة تجويف مخ القردة الجنوبية كانت لا تزال في الحدود الخاصة بالقردة العادية ، ويبدو ، فضلا عن ذلك ، أن المناطق الجدارية والجدارية الصدفية لامخاها كانت ضعيفة النمو . ولهذا الاكتشاف اهمية خاصة اذا عرفنا ان هذه المناطق هي التي تضطلع بعملية ابتداء الرموز . والواقع ان القدرة على وضع الرموز هي اكثر الصفات تميزا للإنسان ، لانها قامت بالدور الأكبر في تطوير ثقافته .

وقد كانت عدة سلالات من « الانسنان المنتصب » تعيش اثناء العصر البليستوسيني الاوسط ، منذ مليون عام تقريبا . وقد اطلق على بقاياها الحفرية ، التي وجدت في اجزاء مختلفة من آسيا وريما في اوروبا ايضا ، اسماء مختلفة مثل : « الإنسان القرد » (انسان جواهر القرد) *Pithecanthropus* و « انسان الصين » (انسان بكين) *Sinanthropus* و « انسان الأطلسي » *Atlantropus* . وكانت امخاها أكبر ، وأسنانها اصغر باستمرار من امخاخ واسنان « القرد الجنوبي » . بل الأهم من ذلك ان اقدم دليل على استخدام النار والسيطرة عليها ، وهو على الأرجح اول عمل تكنولوجي رائع اتجزه الإنسان ، وجد مصاحبا لبقايا « الإنسان المنتصب » في الصين (انسان بكين)

الادوات . فقد وجدت في احدى طبقات « أولدواي » *Olduvai* الشهيرة في شرق أفريقيا بالقرب من بقايا حفرية للقرد الجنوبي أدوات ركيكة الصنع يقدر عمرها بمليون وثلاثة ارباع المليون من السنين . على ان احتواء هذه الطبقة ايضا على بقايا شكل آخر معاصر للقرد الجنوبي ، انما يلقي الى حد ما ظللا من الغموض على مغزى هذا الكشف . ولما كان هذا الشكل الآخر اشبه الى حد ما من الناحية الجسدية بالإنسان الحديث ، فانه يعرف باسم « الإنسان البارع » *Homo habilis* ، والواقع ان عددا كبيرا من الانثروبولوجيين يشكون في ان القرد الجنوبي كان حقا سلفا مباشرا للإنسان ، وينظرون اليه على انه خط جانبي للتطور اختفى في نهاية الامر . وربما كان « الإنسان البارع » قد تطور تدريجيا الى « الإنسان المنتصب » *Homo erectus* ثم الى « الإنسان العاقل » . ولكن هذا ، ايضا ، موضع شك .

والواقع ان عبارات : « القرد الجنوبي » او « الإنسان البارع » او « الإنسان المنتصب » مفضلة الى حد ما ، لانهما تدل ضمنا على انواع محددة انحدر منها « الإنسان العاقل » في خط مباشر . على ان الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي انه كان يوجد اثناء العصر البليستوسيني عدد كبير من الرئيسيات العليا ، كل منها شبيه بالإنسان الى درجة تكفي لان يكون سلفا ممكنا « للإنسان العاقل » . فهذه الرئيسيات جميعا كان لديها ، على ما يبدو ، بعض الصفات المميزة للإنسان : كالوقفة المنتصبة ، والمشي على قدمين ، وامكانية استخدام اليدين في معالجة الاشياء . والنقطة التي ينبغي تأكيدها هنا هي ان انواع الإنسان القرد كانت لديها ، على الأرجح ، القدرة على صنع واستخدام أدوات حجرية بدائية منذ وقت بعيد يرجع الى مليوني عام .

ومن ذلك الوقت فصاعدا يمكن التحدث عن الثقافات البشرية الحقيقية . ولقد وجدت في اجزاء مختلفة من اماكن العالم التي جرت عليها عملية التطور التي بلغت اوجها بظهور «الانسان العاقل» انواع مختلفة من الادوات وكثير من المقابر، والتحف والمصنوعات الفنية.

وعلى حين انه لا يزال امامنا ان نتعلم الكثير فيما يتعلق بالمرحلة النهائية لعملية التطور التي بلغت اقصى مداها بظهور الانسان العاقل، فقد اصبح في وسعنا ، خلال العقود الزمنية القليلة الماضية ، ان نصدر حكما عاما على جانب كبير من الاهمية . ذلك الحكم العام هو ان فصيلة البشر اخذت تتخلص من حيوانيتها، وتتخذ الطابع الانساني ابتداء من القرد الجنوبي على وجه الاحتمال ، ومن الانسان المنتصب على وجه اليقين تقريبا . ومن هنا فان هذا التحول بدأ قبل وقت طويل من وصول الانسان العاقل الى المظهر المورفولوجي المميز للانسان الحالي ، وخاصة فيما يتعلق بحجم المخ . ومما لا شك فيه ان الانسان سـل يتطور جسديا اثناء نفس الفترة التي كان يطور فيها اساليب الحياة ، التي يمكن ان تؤدي الى ظهور ثقافات انسانية . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان تطوره الجسدي كان قد تم بحلول الوقت الذي كانت فيه جماعات الانسان العاقل ، التي عاشت في اواخر العصر الحجري القديم قد وطدت الثقافة الكرومانيونية في اوروبا منذ نحو ٣٥٠٠٠ عام .

وتقول الاساطير ان الانسان الكرومانيوني كان في صورة « سوبرمان » ، اطول واجمل بنيانا ، واكرم محتدا من اى انسان يعيش في الوقت الحاضر . والواقع ان من الصحيح ان عددا كبيرا من الهياكل العظمية التي اخرجت من المقابر ، والتي تخص الانسان الكرومانيوني

وعلى الرغم من انه لا يوجد دليل حفرى يوضح الانتقال بين « الانسان المنتصب » و « الانسان العاقل » ، فان معظم دارسي الانسان القديم يعتقدون ان سلسلة النسب كانت مباشرة ، حتى دون معرفة الخطوات التي أدت من الانسان المنتصب الى الانسان الحقيقي .

وقد امكن التعرف ، لأول مرة ، على الانسان العاقل في العصر الحجري القديم في صورة السلالات « النياندرتالية » Neanderthal المختلفة . فمند مائة الف عام ، كان بشر نياندرتال موزعين على جزء كبير من اوروبا الغربية ، وانتشروا قطعا حتى فلسطين وتركستان . وكانوا ، في المتوسط ، اصغر الى حد ما من الانسان الحديث ، كما كانوا يختلفون عنه في عدد قليل آخر من الصفات غير الهامة . فقد كانت جباههم منخفضة ، وعظامهم الجبهية متراجعة ، وحواجبهم كثيفة وبارزة . وعلى الرغم من شكل جماعهم ، فقد كانت سعة هذه الجماع كبيرة جدا بالنسبة الى حجم اجسامهم ، اذ كانت تتراوح بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ سم مكعب . ولا يعرف الا القليل عن طريقة حياتهم ، اللهم الا انهم كانوا يدفنون موتاهم ، وهذا دليل على صورة ما من صور الاهتمام بالامور القصوى ، الذي هو بلا شك اصدق صفة بشرية واكثرها غموضا على الإطلاق .

والواقع ان سلالة الانسان العاقل المعروفة باسم « الكرومانيونية » Cro-Magnon وهي معادلة بيولوجيا للانسان الحديث ، عاشت في نفس الوقت الذي عاشت فيه السلالات النياندرتالية . ولاسباب غير معروفة تماما ، قامت هذه السلالة اما بالتخلص من تلك السلالات ، واما باحتوائها عن طريق التزاوج المختلط . وهكذا فان الانسان ، بصفاته التشريحية وملكاته العقلية الحالية ، اصبح وطيد الاركان منذ نحو مائة الف عام ،

المنطقة الجدارية والجدارية الصدغية للمخ ، وهي تفرقات حدثت في وقت واحد مع استخدام الأسلحة وغيرها من الأدوات على نطاق أوسع . ومن المرجح الى حد كبير أنه حدثت في نفس الوقت زيادة في تعقيد طرق الحياة ، والنظام الاجتماعي ووسائل الاتصال ، ولكن ليس من الممكن اثبات ذلك على نحو قاطع . **ومجعل القول ان في وسعنا افتراض ان تطور اليد ، وزيادة حجم المخ وتعقيده ، وتنوع استخدام الأدوات ، وظهور اللغة وانتشار الثقافة البدائية ، كلها حدثت في نفس الوقت وأثرت بعضها في بعض .**

ولما كان عدد كبير من التفرقات في طبيعة الانسان وطرق حياته قد حدثت في وقت واحد ، وكان مرتبطا بعلاقات متبادلة ، فان من الجدير بالاهتمام ان نضع الفكر في العمليات الآلية التي أدت الى هذه العلاقات المتبادلة .

ان عملية الولادة ، ربما تكون قد قامت بدور على أكبر جانب من الاهمية في التفاعل المعقد بين التطور الجسدي والثقافي . فقد أدى وضع الانسان القائم الذي اكتسبه بحكم المادة الى زيادة صعوبة عملية الولادة عن طريق تغيير تركيب الحوض . وفضلا عن ذلك فان اللغة والثقافة اوجدتا ضغطا انتقائيا ساعد على زيادة تعقيد المخ وزيادة حجم الرأس بما لذلك ، مما جعل الولادة اصعب . واغلب الظن انه نتج عن ذلك اتجاه نحو طرد الجنين قبل اكتمال نموه الى حد ما ، وهذا بدوره أدى الى فترة أطول من الطفولة التي لا حول لها ولا قوة . والواقع ان الولادة في مرحلة مبكرة من النمو ليست وفقا الى الانسان . فالكيسيات Marsupials تولد اقل نضجا من جميع الثدييات التي تحمل صغارها احياء . كذلك فان فترة الحمل في الانسان أطول منها في الرئيسيات الاخرى . ومع ذلك فان الولادة المبكرة نسبيا كانت ذات أهمية خاصة فيما يتعلق بالتطور

تشير الى أن طول هذا الانسان في الحالة الحية كان أكثر من ستة اقدم ، ولكن هذه القامة الفارغة لم تكن القاعدة ، وربما لم يكن الرجال الطوال أكثر شيوعا بينهم منهم بيننا . والامر المؤكد هو ان الثقافة الكرومانيونية كانت على درجة عالية من التطور . فقد كان الناس في ذلك العهد يدفنون موتاهم ، في وضع جائم احيانا ، ويزينونهم بالاحضبة والحلى المختلفة . وتضم بعض مدافنهم اَشياء مستوردة من أماكن بعيدة ، مما يدل على انه كانت توجد تجارة وطيدة حتى في ذلك العهد القديم .

وفد اعلن تقرير روسي في عام ١٩٦٥ عن اكتشاف هيكل عظمي بالقرب من موسكو عمره ٣٥.٠٠٠ عام ، وكان هذا الهيكل مرتديا سروالا وقميصا من الفرو ، ومزينا بخرز وسوار من عاج الماموت (فيل قديم بائد) ، وكأنت اليدان مستقرتين مع عائد الخصر ، كما كانت القبرية مكنطة بأنواع مختلفة من الأدوات . فمما لا شك فيه ، إذن ، ان الانسان الكرومانيوني كان منشغلا بالمستقبل ، وأنه اكتسب إحدى الصفات المميزة للانسان الحديث والضرورية لنمو الحضارة . والواقع ان كثيرا من الصور الملونة والرسومات والنقوش ، والتماثيل المنحوتة الموجودة في اجزاء كثيرة من اوروبا الجنوبية والمعروفة عامة باسم فن الكهوف تنسب عادة الى الانسان الكرومانيوني . واذا كانت هذه النسبة صحيحة ، فان هذه الاعمال الفنية تثبت ان قدرات هذا الانسان الفنية بلغت مستوى رفيعا ، كما تشير بقوة الى انه شارك في طقوس دينية معقدة ، وهذا دليل آخر على قلقه على المستقبل وانشغاله به .

وتبين الحفريات انه حدثت اثناء المراحل الاخيرة للتطور الذي اوجد الانسان العاقل ، تفرقات على جانب كبير من السرعة في حجم

التي كانت تمارسها الجماعة في التخطيط للصيد وممارسته صفات جديدة خاصة بالقيادة ، ومهارات جديدة خاصة بالاتصال . وهكذا اوجدت هذه الاحتياجات الاجتماعية ضغطا انتقائيا لتطوير قدرات عقلية جديدة . كذلك قامت ، ربما بعد ذلك بوقت قصير ، صور بدائية من الفن والدين ، وحدث تراكم منظم للتجربة والمعرفة ، وهو طليمة العلم ، وكان لهذا كله دوره في تطوير العمليات العصبية وتكاملها . وبالتدرج ، انتخبت انفع الصفات وادسجت في الجبلية الوراثية . وبازدياد حجم المخ ظهرت انماط جديدة من ردود الفعل تشكلت بحيث تلائم طرق الحياة ، ومن الناحية المقابلة تطورت طرق الحياة بدورها عندما اصبح المخ ووظائفه اكثر تلاؤما معها وعندما ازداد تعقيده . وفي مرحلة متأخرة من تطور الانسان ، بدأت الآليات الاجتماعية تلحق بالآليات الوراثية في تحويل حياة الانسان وتغييرها . وكما سنرى فيما بعد ، فان هذا النمط اللاماركي للتطور ربما كان أهم الآن من التطور الوراثي الدارويني في تطوير المجتمعات البشرية .

ومن هنا ، فان الوظائف « العليا » للمخ البشري ربما تكون قد نشأت من تحولات تركيبية ووظائفية مطردة اسفرت عن نظام سمح بتكيف الانسان الفسيولوجي والسلوكي مع ثقافته . وهذا التكيف لا يمكن ، بالضرورة ، ان يكون كاملا ، لأن الثقافة تتغير باستمرار . على ان الامر الذي يكاد يكون مؤكدا هو ان العناصر المختلفة لثقافة الانسان ضرورية الآن ليس فقط لبقائه ، بل ايضا لظهور قدراته الكامنة . والواقع ان البشرية ظهرت في عملية خلق الثقافة ذاتها ، واصبحت معتمدة على العالم الجديد الذي اوجدته هذه العملية ، ومنذ ذلك الوقت ، اصبح عالم الثقافة يؤلف البيئة الطبيعية لحياة الانسان .

الاجتماعي للجنس البشري ، لانها ادت الى تعرض الطفل للتأثير الاجتماعي الذي تمارسه عليه امه وحشيره أثناء الفترة التي يكون فيها ، على وجه التحديد ، قابلا للتشكل الى اقصى حد . وفي هذه الظروف الملائمة ، نتاج للأطفال فرصة مثلى لمعرفة انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، ويكون بوسعهم استيعاب التراث الثقافي غير الموروث الخاص بمجتمعهم ، ثم نقله فيما بعد . كذلك فان الحاجة الى فترة اطول لرعاية الاطفال ربما تكون قد ادت الى ارتباط اطول بين الاب والام ، وبذلك تكون قد اسهمت بطريقة غير مباشرة في نمو البناء الاسرى والاجتماعي وتطوره .

كذلك يمكننا ان نورد مثلا آخر لسمات ثقافية كانت لها نتائج تشريحية ، هي استخدام الأدوات . فمن المقول ان تصور ان اول مخلوق من اسلاف الانسان التقط حجرا واستخدمه كسلاح او اداة ربما يكون قد بدأ عهدا جديدا في التطور ، اذ ربما تكون قد نشأت من هذه البداية الاولى القدرة المتزايدة على استخدام الاسلحة والادوات وصنعها في نهاية الامر ، مما اكسب الانسان ميزة انتقائية . وعلى هذا الاساس يجوز ان يكون المخ واللغة قد تطورا كرد فعل لاخترع واستخدام الاسلحة والادوات ، اى ان هذه الانواع الاخيرة من النشاط ربما كانت قد تحكمت في تشكيل المخ واللغة معا . كذلك ادنى الضغط الانتقائي الى نهضة الطريقة المناسبة لتوجيه عملية ادماج المهارات الجسدية والعقلية في الجبلية الوراثية .

كذلك ربما تكون عمليات رد فعل (تغذية مرتدة) تطورية مشابهة قد ادت الى تطور البناء الاسرى واساليب ممارسة الصيد الجماعي قبل حدوث تغيرات جسدية وتنظيم انماط رد الفعل . فعندما بدأ الانسان القديم في اضافة صيد الحيوانات الكبيرة الى صيد الحيوانات الصغيرة ، اقتضت زيادة حجم وتعقيد الأنشطة

يمكن ان تشغل صورتان مختلفتان من صور الحياة نفس المكان في السلسلة . ولما كان البشر يمكن تقسيمهم الى عدة سلالات على اساس صفات خارجية واضحة ، فانه يبدو من الضروري ان نخصص لهذه السلالات اماكن مختلفة في السلسلة ، ومن ثم نضعها في مراتب تتدرج من الأدنى الى الأعلى ، كما حدث بالنسبة الى الحيوانات . هذا التصنيف للسلالات البشرية سلم به مقدما معظم بيولوجي القرن الثامن عشر ، بما فيهم « لينايوس Linnaeus » المصنف العظيم ، وما زال عدد كبير من الناس يسلمون به على نطاق الحوادث المفجعة المرتبطة بمشكلة التفرقة العنصرية في جميع أرجاء العالم . ولكن المفهوم الانثروبولوجي للسلالات العنصرية ، وهو مفهوم قائم على تمييزات وراثية وبيوكيميائية ، يكون اساسا مشروعا للبحث الانثروبولوجي .

• • •

العوامل البيولوجية والنفسية الاجتماعية الأثرية في تطور الإنسان :

كلما ازداد الحيوان تطوراً ، قلت امكانيته التنبؤ بانماط سلوكه واستجاباته لثبات البيئة . ومن السهل نسبياً تفسير الصعوبة المتزايدة في قابلية التنبؤ في النواع تصل حتى مرتبة الثدييات الدنيا ، لأن ظهور آليات عصبية جديدة تصعب عادة حرية أكبر . ولكن من الصعب ان نهتدي في تشرح المخ الى سبب نسر الحرية الكبيرة التي تتجلى في الثدييات العليا ، وبخاصة في الإنسان . ومن هنا فان بحث الآليات التي حقق عن طريقها اسلاف الإنسان في التطور مزيداً من الاستقلال عن القوى الخارجية باطراد قد يكون اتجاهاً نافعا في بحث التعريف البيولوجي لنوع « الإنسان العاقل » .

لقد كان نوع « الإنسان العاقل » ، منذ خمسين ألف سنة ، منتشراً في معظم أرجاء المناطق دون المدارية للقارتين الأوروبية والاسيوية ، بل لقد توغل شمالاً في الاجزاء المعتدلة من أوروبا وشرقي آسيا . وقد اذنت التكيفات التشريحية والفسيولوجية والثقافية بصفة خاصة ، الى تمكين الإنسان ، لأول مرة ، من الوجود في مناطق ذات شتاء قارس . . والارجح ان سلالات الإنسان الحديث كما نعرفها اليوم بنيناتها والوانها وسنحتها الميزة ، انما تمثل تكيفات متأخرة وثانوية لنوع « الإنسان العاقل » عندما استعمر العالم في نهاية العصر الجليدي .

ومن المؤكد ان مع الإنسان الحديث وعملياته الذهنية الأساسية شكلاً في وقت مبكر اثناء العصر الجليدي ، بحيث استمدت المؤثرات التي شكلتها من التفاعل بين المراحل الأخيرة لتطوره البيولوجي ، والمراحل الأولى لتطوره الثقافي . هذه المؤثرات تكون اذن الأساس العام الذي ظهر منه التركيب الوراثي الأساسي للجنس البشري وتقاليدته الثقافية . اما التكيفات الثانوية التي اوجدت السلالات البشرية المختلفة فانها لم تحدث الا بعد اتمام عمليات التشكيل الأساسية الخاصة بالتطور التشريحي ، والعصبي والثقافي .

واذا كان هذا الفرض صحيحاً ، فانه يقصر ذلك التجانس البيولوجي والنفساني العجيب السائد بين البشر بالرغم من الفحوات البيئية والاجتماعية التي فصلت سلالات الإنسان منذ العصور الحجرية القديمة . كما انه يفسر السبب في ان الطفل المنتمي الى جماعة متخلفة ثقافياً لا يلبث ، اذا ما احتضنته في بداية حياته جماعة اكثر تقدماً من الناحية الثقافية ، ان يتطبع بالصفات السلوكية الميزة للمجتمع الذي احتضنه .

ولعلنا نذكر ان من المبادئ التي كانت تقوم عليها فكرة سلسلة الوجود الكبرى انه لا

اصبحوا قواد جماعات الصيد . هؤلاء الرجال حققوا سيادتهم على الجماعة بفضل قدرتهم على اتخاذ مواقف عدوانية حاسمة ، وقد ترتب على ذلك انه اصبح في امكانهم الاتصال بالنساء بسهولة اكبر ، وهذا نمط ملاحظ بين الرئيسيات التي تعيش في ظروف طبيعية وكذلك بين بعض الجماعات البشرية البدائية .

ومن المهم ان نلاحظ في هذا الصدد انه على حين ان الافراد الذين يقودون مجموعات الرئيسيات التي تعيش في بيئاتها الطبيعية يتميزون عادة بأنواع معينة من الصفات « العقلية » ، فانه ليس من الضروري ان يكونوا اضخم الافراد او اقوامهم من الناحية الجسدية . ونظرا الى ان ما ينطبق اليوم على الرئيسيات كان ينطبق على الاربع على الانسان القديم ، فانه يمكن الافتراض بان الصفات العقلية المرتبطة بالزعامة اكتسبت اهمية متزايدة بمرور الوقت ومنحت اصحابها ميزة التفائية في عملية المنافسة التناسلية . وربما تكون ممارسة الزواج بعدد من الزوجات قد ادت الى تسهيل عملية الادمج الوراثي لهذه الصفات في القبيلة ، وربما يكون هذا قد ادى بدوره الى زيادة سرعة تطور المخ بدرجة اكبر .

وتواصل النظرية تقديم حججها ، فنقول : ان زيادة القدرات العقلية في الجماعة ادت في النهاية الى زيادة تعقيد البناء الاجتماعي ، والى نتيجة ثانوية هي حلول الزواج بزوج واحدة ، تدريجيا محل الزواج بعدد من الزوجات . وقد ادى حدوث هذا التغير الاجتماعي بطبيعة الحال ، الى خفض معدل التطور الوراثي . كما ان المؤسسات الاجتماعية نفسها أصبحت تقوم بدور في آليات النشاط القبلي اهم من الدور الذي تقوم به صفات كل زعيم على حدة . ونتيجة لذلك ، أصبحت زعامة اصحاب المواهب العقلية اقل وضوحا وقل ، بما لذلك ، تأثيرهم في التكاثر الانتقائي .

ولو امكن الاعتماد على التفسير الحالي للاكتشافات الانثروبولوجية (وهو امر ما زال غير مضمون على الاطلاق) ، فان الانسان يكون قد اتم تطوره التشريحي منذ نحو خمسين الف سنة ، اى ان جسم الانسان ومخه ظلا اساسا من ناحية التركيب والحجم ، على ما كانا عليه منذ ذلك الحين . وعلى النقيض من ذلك ، فان ظروف حياة الانسان قد تفرقت تفرقا عميقا خلال تلك الفترة ، وتواصل تغيرها بمعدل متزايد السرعة . ومن هنا فانه لا بد ، لتفسير التاريخ البيولوجي للجنس البشرى ، من التوفيق بين ظاهريين متباينتين بدوان متناقضتين لاول وهلة . فمن ناحية ، نجد ان التطور العضوي لنوع « الانسان العاقل » وهو تطور يتم عن طريق عمليات وراثية ، قد وصل الى حالة توقف تقريبا . ومن ناحية اخرى نجد ان التطور الاجتماعي مستمر ، على نحو يكاد يكون مستقلا عن التغيرات التي تحدث في الجيلة الوراثية .

والواقع ان استقرار التكوين الوراثي لنوع « الانسان العاقل » ظاهرة لها من الاهمية ما جعل الانثروبولوجيين يلجأون الى عدد هائل من التخمينات لتفسيرها . ولكنهم يتفقون جميعا على ان الآليات الاجتماعية قد حلت الآن ، نتيجة تطور المخ ، محل الآليات الوراثية بوصفها اهم مفاهيم حياة الانسان . كما انهم يعتبرون جميعا بمدى ضالة الفرصة المتاحة حاليا لزيد من التطور العضوى .

وتترجع نظرية من اوسع النظريات انتشارا توقف التغيرات العضوية الى وقت متأخر في العصر الحجري القديم ، وهو الوقت الذى اصبح فيه الانسان صيادا ، وتقوم هذه النظرية على افتراض معقول ، هو ان الرجال الذين كانوا يتصفون بأكبر قدر من البساطة والتنبه

على الانسان نفسه . وذلك لان التغيرات في ظروف الحياة يمكن ان تؤدي بسرعة ، بل انها تؤدي بالفعل ، الى حدوث تغيرات تشريحية وفسولوجية ، بل يمكن ان تغير التركيب الوراثي لجماعة ما في مدى اجيال قليلة، ويشهد على ذلك الاختفاء المطرد لجينة الخلايا المنجلية (٢) بين الزوج الذين يعيشون في امريكا الشمالية ، وانتشار جينة البورفيريا (٣) Porphyria بين البيض في جنوب افريقيا .

والنقطة التي نضعها تحت البحث هنا هي ان العوامل الاجتماعية الثقافية اهم الان بكثير من العوامل الوراثية في التأثير على المجتمعات البشرية . ولقد كانت هذه العوامل الثقافية في ذهن « هيرت سبنسر » عندما استخدم عبارة « **التطور فوق العضوى** » Superorganic evolution للاشارة الى التغيرات المطردة في الحكومات او البنوك وفي جميع المؤسسات الاجتماعية بصفة ام .

وقد أجرى سير جوليان هكسلي احد احفاد « توماس ه . هكسلي ، داعية الداروينية في القرن التاسع عشر ، مقارنات عديدة بين دور كل من العوامل البيولوجية والعوامل النفسية الاجتماعية في حياة الانسان ، وفيما يلي فقرات تتعلق بهذا الموضوع مقتبسة من محاضرة القاها سير جوليان عام ١٩٦٠ في هيئة الاذاعة البريطانية ، تناقش ظهور الحياة والعقل بوصفهما مظهرين خاصين لعملية تطور كونية ام :

« اننا نعتقد الآن عن ثقة ان عالم الواقع

ويزعم بعض الانثروبولوجيين ان عملية تعدد الزوجات ، وانتخاب الامساخ الاكبر حجما اخلت تفرز منذ وقت مبكر يرجع الى المرحلة النياندرتالية . ويقولون ان الرجال ذوى الامساخ الكبيرة لم يعودوا ، منذ ذلك الوقت ، يتفوقون تناسليا على اقربانهم ذوى الامساخ الاصغر . ولكن هناك انثروبولوجيين آخرين يخالفون هذا الراى ، ويشيرون الى استمرار انتشار تعدد الزوجات وارتفاع خصوبة الزعماء في بعض المجتمعات البشرية المعاصرة . وقد ذكر تقرير نشر منذ وقت قريب ان زعميا واحدا لقبيلة هندية تعيش في احراض البرازيل كان ابا اربع الاطفال المائة في الجيل التالي . والواقع ان اختلاف الراى بين المتخصصين في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات المتعلقة به يوضح مدى التخطب الذى لا يزال يلازمنا في بحثنا عن تلك العوامل الانتخابية التي ملئت في الماضي على اتصال حجم مخ الانسان الحديث وذكائه الى مستواهما الحالي .

وعلى الرغم من ان التخمينات الخاصة بمنشأ الانسان ومنشأ طرق حياته لا يمكن دعمها بأدلة قاطعة فانه ليس امام الانثروبولوجيين من خيار الا التخمين في محاولة تفسير كيفية حلول الآليات الاجتماعية تدريجيا محل الآليات البيولوجية بوصفها العامل الرئيسى للتغير في حياة الانسان . ولعلنا نلاحظ ان اهتمامنا هنا منصب على حياة الانسان لا

(٢) تتميز خلايا الدم الحمراء في بعض جماعات الزوج بصفات خاصة تجعلها تبدو في صورة منجلج او اكلة هند معالجتها بطرق خاصة وراثية تحت الجهر . ولذلك يعرف باسم « الخلايا المنجلية » Sickle cells ويؤدى وجود هذه الخلايا الى اصابة حاملها بنوع من الانيميا يطلق عليه اسم الانيميا الخلايا المنجلية ، ولكنها تقويم الاصابة بالانيميا .

(٣) مرض وراثي يتجلى في الظروف العادية في صورة اعراض معيية خفيفة وانسكابات دموية بسيطة تحدث بلما ارجوائية تحت الجلد . ولكن المصاب بهذا المرض يمكن ان يتعرض لرودود فعل عنيفة قد تقضى الى الموت وذلك اذا تعاطى بعض العقاقير الحديثة : كالسلفا والباربيتورات .

وصولا الى الله ، وهي فكرة صاغها الأب اليسوعي « تيار شاردين Teillard de Chardin منذ عشرين عاما ، وشرحا في كتابه « ظاهرة الانسان The Phenomenon of the Man فلا عربة اذن ان تكون المقدمة التي كتبها سير جوليان هكسلي لكتاب « تيار » مقدمة مفعمة بالحرارة والحماس . وقد أكد في هذه المقدمة قدرة الانسان الاجتماعي على التخلص ، في حدود ، من قبضة قوى الانتخاب الطبيعي ، ومن ثم اكتساب القدرة على التحكم في تطوره الخاص . وقد عبر هكسلي عن آراء مثابهاة أثناء الاحتفالات التي اقيمت في عام ١٩٥٩ احياء للذكرى المثوية لنشر كتاب داروين « أصل الأنواع » : -

« ان اكتساب الانسان آلية ثانية ، أسمى وأعلى من آلية الكروموسومات والحيوانات ، من أجل ضمان الاستمرار والتغير التطوري معا ، وهي آلة تقوم على قدرته على التفكير التصوري والتكلم بلغة رمزية ، مكنته من اجتياز الحاجز الذي وضعته القيود البيولوجية ، ودخول ميادين الوجود النفسي الاجتماعي ، وهي ميادين بكر لم تطرق من قبل .. والواقع ان التطور في الرحلة النفسية الاجتماعية ثقافة في المحل الاول : اعني انه يتجلى غالبا في صورة تغيرات في الثقافات الإنسانية ، لا في الاجسام البشرية او المركبات الوراثية البشرية المعقدة . (لا يخفى بالطبع انني استخدم الثقافة بمعناها الانثروبولوجي والاجتماعي الواسع لتشمل الفن واللغة ، والدين والنظام الاجتماعي ، وكذلك الثقافة المادية) » .

وعلى حين ان معظم البيولوجيين يوافقون على الاتجاه العام لآراء سير جوليان هكسلي ، فان بعضهم يتساءل عن الحكمة في استخدام نفس الكلمة ، وهي التطور ، للدلالة على نوعي التفسيرات : تلك التي تحدثها العمليات الوراثية ، وتلك التي تحدثها العمليات الاجتماعية . ذلك لأن المادة المتكاثرة ذاتيا

برمته عملية تطور هائلة واحدة . هذه العملية تحدث جدة وتنوعا متزايدين ، وانماطا من التكون المصنوي ارقى باستمرار ، وفي اماكن قليلة اوجدت الحياة ، وفي عدد قليل من اماكن الحياة هذه ، اوجدت العقل والوعي .

« هذه العملية التي تحدث على نطاق الكون بأسره تنقسم الى ثلاث مراحل او اقسام ، كل منها له طريقته الخاصة في العمل ، ومعنله الخاص في التغير ونوعه الخاص من النتائج . وفي معظم أرجاء الكون ، تكون هذه العملية في المرحلة اللاحية او اللاعضوية . اما في الأرض (وفي بعض كواكب الشموس الأخرى بلا شك) فانها في المرحلة العضوية او البيولوجية . هذه المرحلة تعمل عن طريق الانتخاب الطبيعي وادت الى ايجاد مجموعة شديدة التنوع من الحيوانات والنباتات ، بعضها بلغ درجة مذهلة من التنظيم المصنوي (مثل أجسامنا او مستمرة النمل) كما ادت الى ظهور العقل .

« وأخيرا دخل الانسان (وربما عدد قليل من الكائنات المصنوية الأخرى في أماكن أخرى) المرحلة الإنسانية ، او ما يمكن ان نسميه بالمرحلة النفسية الاجتماعية ، وهي مرحلة تقوم على تراكم المعرفة وتنظيم التجربة . هذه المرحلة تعمل اساسا عن طريق اختيار واع للأفكار والاهداف وتحدث تغييرا سريعا للغاية . ويكون التطور في هذه المرحلة ثقافيا اساسا ، لا وراثيا ، أي انه لا يعود بتركز فقط على البقاء ، بل يوجه بصورة متزايدة نحو تحقيق الذات ورفع مستوى الإنتاج » .

والواقع ان عبارة « ان عالم الواقع برمته عملية تطور هائلة واحدة » كما جاءت على لسان هكسلي ، تتفق الى حد كبير مع فكرة الخلق التطوري المتدرج من المادة الى الانسان

الاجتماع يميلون الى الاعتقاد بأن الانسان قد افلت من قبضة القوى البيولوجية .. ولكن الحقيقة ، كما سوف نرى فيما بعد ، هي ان القوى البيولوجية لا تزال تؤثر بعمق في معظم جوانب حياة الانسان الفردية والاجتماعية . وفلا عن ذلك ، فان بعض الاختلافات بين الاشخاص الموهوبين والاشخاص العاديين تقوم ، قطعاً ، على أساس وراثي . وينبغي ان نتذكر ان افكار وافعال عدد قليل من الاشخاص غير العاديين هي التي حققت أعظم التقدم في تاريخ البشرية ، امنى ان طاقاتهم الهائلة هي التي وجهت جمهرة الناس . والنوع ان التاريخ هو ، جزئياً على الأقل ، حصيلة قوى حركتها الجيلة الوراثية المتميزة الخاصة بعدد قليل من المجددين المتبعين .

ان الاختلافات النظرية بين القوى البيولوجية والقوى النفسية الاجتماعية المحددة للتغيرات في حياة الانسان تؤدي الى نتائج عملية كبيرة . فالتغيرات التي تحدثها الآليات الوراثية تتكشف عادة ببطء ، ولكنها تكون دائمة ، وتكاد تبدو في كثير من الاحيان غير قابلة للارتداد . وعلى النقيض من ذلك ، فان التغيرات التي تحدثها الآليات النفسية الاجتماعية تطابق نمط التطور اللاماركي : امنى ان المعرفة والمهارات التي يكتسبها جيل ما تنتقل مباشرة الى الجيل التالي ، ولكنها لا تدمم الا طالما ظلت الظروف ملائمة لنقلها المباشر ، أى ان ما يكتسب من طريقها في جيل يمكن ان يفقد تماماً في الجيل التالي . والواقع ان التاريخ والتجربة اليومية يوضحان ، على نحو مرير ، ان الدوافع البدائية التي كانت تحرك انسان العصر الحجري القديم يمكن ، في كثير من ظروف الشدة ، ان تخترق بسهولة قشرة الحضارة ، ويرجع ذلك ، على وجه التحديد ، الى ان الحياة المتحضرة نشأت اساساً من تغيرات نفسية اجتماعية ، لا من تطور عضوى .

(التطور البيولوجي) والعقل المتكاسر ذاتياً (التطور الثقافي) يتطوران عن طريق عمليات تبلغ من الاختلاف حداً يبدو معه أن كلا منهما يستحق تسمية خاصة به . وعندما يستخدم البيولوجيون كلمة التطور دون تمييزها بصفة أخرى فانها لا تشير ، بمقتضى الاستخدام العلمي الحالي ، الا الى عملية وراثية داروينية تنطوي على تغيرات متطردة للجيلة الوراثية التي تتضمنها الجينات . وعلى النقيض من ذلك ، فان التطور الثقافي يدل على كل الحقائق والادغام ، والقواعد والطبوس ، والمعرفة والفهم الذى يحكم الحياة الاجتماعية . ويتم تراكم جميع جوانب تجربة الانسان الشاملة هذه وكذلك تعديلها ونقلها ، بتوسط آليات اجتماعية تزداد استقلالاً باطراد من جيلته الوراثية .

ولكن على الرغم من كل ما يمكن ان يقوله المتزعمون بحرفية اللفظ ، فان عبارتي **التطور النفسي الاجتماعي** « **والتطور الثقافي** » اصبحتا الآن جزءاً من اللغة العلمية وان كانتا تشيران الى آليات متميزة عن الآليات الفاعلة في التطور العضوى . ومما يزيد المشكلة تعقيداً ، ان هناك قدراً من الاعتماد المتبادل بين التطور البيولوجي والتطور النفسي الاجتماعي ، اذ ان هاتين الآليتين المنفصلتين المحدثتين للتغير تربطان بواسطة عمليات تأثير متبادل (فغذية مرتدة) . فعندما تقوم المجتمعات البشرية بتغيير بيئتها وطرق حياتها عن طريق آليات ثقافية ، فانها تخلق في نفس الوقت ظروفاً جديدة تهبط بميزة انتخائية لبعض الصفات البيولوجية الميزة للبشر . ذلك لانه على الرغم من ان التطور النفسي الاجتماعي يحدث الى حد كبير من خلال آليات لا ماركية غير وراثية ، فانه يكاد يسفر حتماً عن شيء من التطور الدارويني الوراثي .

والواقع ان تأثير القوى الثقافية في اوجه نشاط الانسان من الواضح بحيث جعل علماء

المراحل الأولى بعد الولادة يمكن أن تؤثر في كل صفة تقريبا ، ابتداء من الاحتياجات الغذائية والمظهر المورفولوجي حتى القدرة على التعلم والاتجاهات العاطفية . فضلا عن ذلك فإن نتائج المؤثرات المبكرة تصبح متصلة في التركيب البيولوجي الى درجة أنها تستمر في كثير من الاحيان ، وربما دائما ، طوال فترة الحياة كلها .

وقد كان للدراسات التشريحية المقارنة التي اجريت على اعضاء مختلفة في اوقات مختلفة بعد الحمل وبعد الولادة فضل كبير في تفسير التأثيرات العميقة، الدائمة والغريبة في كثير من الاحيان ، التي تمارسها العوامل البيئية في الكائن العضوي المتطور . فائشاء الشورين الاولين من الحياة الجنينية ، تتعرض البيضة المخصبة لآثار تغيراتها حاسما ، اذ تمايز خلاياها في انسجة متخصصة كالعضل او الاعصاب (التئسج Histogenesis) وتمايز الكل التجانس اصلا في مناطق متخصصة كالرأس او الذراعين (التمنطق regionalization) وفي نفس الوقت تتشكل كل منطقة في شكل محدد (التئسك Morphogenesis) وعلى الرغم من ان عملية التئسك تستمر حتى البلوغ فإن التغيرات الرئيسية تتم خلال الشهور الثلاثة الاولى من الحياة داخل الرحم . وفي ذلك الوقت ، يكون الجنين قد اتخذ مظهرا طفوليا يمكن التعرف عليه .

هذا العرض المبسط للتأثيرات اثناء التطور الجنيني يساعد في معرفة السبب الذي من اجله يؤدي نقص التغذية ، والتعرض للمواد السامة ، وغيرها من الصعوبات الاخرى التي تتعرض لها الام اثناء المراحل الاولى من الحمل ، الى عيوب ولادية وصور اخرى من صور الخروج من الحالة السوية ، لا تظهر الا في وقت لاحق من الحياة . والواقع ان التشوهات المبكرة التي تصيب الجنين نادرا

الماضي التجريبي والاجتماعي :

جميع البشر لهم ، اساسا ، نفس التركيب التشريحي ، ويؤدون وظائفهم من خلال نفس الانشطة الكيميائية ، وتتجلى فيهم نفس المظاهر الفسيولوجية ، وتدفعهم نفس الدوافع البيولوجية . ومع ذلك فإنه لا يوجد كائنان بشريان متشابهان . ومن هنا فإن معرفة الصفات التي يشترك فيها البشر جميعا لا تكفي لتفسير الطريقة التي تظهر بها لكل شخص خصائصه المميزة ، وتؤدي الى سلوكه على النحو الذي يسلكه .

وفيما عدا الحالة الاستثنائية الخاصة بالتوائم المتماثلين التي يتم فيها انجاب اكثر من طفل واحد ، فإن الافراد يختلفون في تركيبهم الوراثي . ولا يقل عن ذلك في الاهمية ان الصفات المميزة لكل كائن بشري على حدة تشكل باستمرار ، وتتغير بواسطة العوامل البيئية . هذه العوامل تختلف دائما باختلاف الزمن ، وتختلف من مكان الى آخر ، ولا تكون ابدا واحدة ، بالنسبة الى اى شخصين مختلفين . بل ان التوائم المتماثلين انفسهم لا يجمع بينهم شبه كبير عند البلوغ اذا ما نشئوا كل منهم في بيئة مختلفة .

وقد دعمت دراسات حديثة الفكرة التي توصل اليها القدماء ، والقائلة بان عددا كبيرا من صفات الشخص البالغ ينتج بفعل « مؤثرات مبكرة » اى بفعل العوامل البيئية التي تؤثر في الشخص وهو لم يزل بعد في حالة تطور ونمو . بل ان هذه المؤثرات التي تشكل الانسان يمكن ان تحدث داخل الرحم ذاته . فعلى الرغم من ان «توائم ديون Dionne» الخمسة كانوا متماثلين بصفة عامة ، وكانوا يعاملون نفس المعاملة بعد الولادة فإنه كان يمكن تمييزهم كأفراد منذ البداية الاولى لحياتهم ، يرجع ذلك على الأرجح الى ان اوضاعهم اثناء حياتهم داخل الرحم أثرت في نموهم على نحو متميز . والواقع ان العوامل التي تؤثر قبل الولادة وفي

ما يمكن اصلاحها اثناء المراحل التالية من النمو .

ولما كانت الانسجة المختلفة ومناطق الجسم المختلفة تنمو بمعدلات مختلفة طوال مرحلة التشكيل ، سواء قبل الولادة او بعدها ، فان هذا يفسر التغيرات التي تحدث في شكل الجسم مع اطراد النمو ، كما انه يكشف عن سبب اختلاف تجاوب الاعضاء المختلفة مع المؤثرات البيئية باختلاف عمرها . ومن الطبيعي ان يكون لتطور المخ اهمية خاصة في هذا الصدد ، وذلك لما له من علاقة مباشرة بمشكلات التعلم والسلوك .

فالخ يكون ، في وقت مبكر من الحياة الجنينية ، اقرب الى حجمه البالغ ، على اساس الوزن الاجمالي ، من اى عضو آخر من أعضاء الجسم ، ربما باستثناء العين . فعند الولادة يكون المخ قد وصل الى حوالي ٢٥٪ من وزنه عند البلوغ ، وفي سن ستة شهور الى ٥٠٪ تقريبا ، وفي الخامسة الى ٩٠٪ وفي العاشرة الى ٩٥٪ وعلى هذا الاساس فان المخ ينمو في وقت اقصر واسرع من أعضاء الجسم الأخرى . وفضلا عن ذلك فان اجزاء المخ المختلفة لا تتطور في آن واحد ولا تنمو بنفس المعدل ، ومن الأمور التي لها قدر بالغ من الاهمية ، ان قشرة المخ لا تكون قد نمت ، بحلول وقت الولادة ، الا بمقدار ضئيل جدا . وعلى الرغم من ان انسجة القشرة المخية ووظائفها تنمو وتتطور باطراد ، فان مناطق كثيرة منها تظل غير مكتملة النمو الى حد كبير في سن الثانية ، بل ان بعضها يبقى غير مكتمل النمو حتى المراهقة . واثناء فترة النمو كلها ، يزداد عدد تفرعات الخلايا المخية كما يزداد احتمال تأثر هذه الخلايا بعضها في بعض عن طريق اتصالها ، وهذه ظاهرة تعرف باسم « التواصل Connectivity » . وعندما نعرف ان جزءا كبيرا من التعلم وتطور

الشخصية يحدث ، على وجه التحديد ، في الوقت الذي تتولد فيه هذه الاتصالات ، فاننا نستطيع ان ندرك ما للتواصل من اهمية خاصة .

واثناء نمو المخ من صورته الجنينية الأولى الى صورته ويُدركه في سن الثانية ، يكون تطور وظيفته مرتبطا ارتباطا وثيقا بعدى اكتمال تركيبه ، واغلب الظن ان هذا الارتباط يستمر طوال الحياة . وقد كشفت تجارب أجريت على الفئران عن انها لا تستطيع اكتساب بعض انماط السلوك الا عندما يبلغ تواصل خلايا قشرتها المخية مستوى معين ، بصرف النظر عن العمر الزمني لهذه الفئران . وهناك اسباب وجيهة تدعو الى الاعتقاد بان القدرات العقلية الأعلى تظهر ، في الانسان أيضا ، عندما يتم اكتمال نمو بعض الانسجة او التجمعات الخلوية في جميع ارجاء القشرة . ويرى بعض علماء الاعصاب ان التنبيه يمكن ان يؤثر في نضج المخ او زيادة تعقيده العضوى ، وان استخدام خلية ما يمكن فعلا ان يزيد قدرتها على التواصل . وهناك ملاحظة تدعم هذا الرأي وهي ان الاسابيع القليلة الأولى من حياة الكائن البشرى يقضى معظمها في تنظيم الادراكات الحسية ، وخاصة أحاسيس اللمس والبصر .

فاذا كانت آليات ادراك المنبهات والاستجابة لها تتولد جزئيا على الاقل ، من منبهات قديمة ، وهو أمر محتمل ، فان هذا الاحتمال يثير مشكلات محيرة فيما يتعلق بالتفاعلات الطبيعية الكيميائية المحددة التي تنطوي عليها هذه الآليات . وقد افترضت عدة تفاعلات من هذا النوع لتفسير تغيرات المخ التي تؤدي الى التعلم والذاكرة ، ولكن هذه الافتراضات ، على أحسن الاحتمالات ، تخمينية الى حد كبير ، وليس في متناول يدنا حتى الآن اسلوب فني يتيح معرفة مزاياها النسبية . ومع ذلك

ما الى تكوين صفات كثيرة مشتركة بين كل افراد الجماعة . ولهذا السبب فان «امرسون» كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ان الناس يشبهون معاصريهم اكثر حتى من والديهم » . كذلك تؤثر المؤثرات البيئية في كل شخص بطريقة خاصة حتى عندما تبدو طرق الحياة متجانسة في بيئة تخضع لمعايير موحدة . ذلك لان ما ينفرد به الشخص من تكوين وراثي منقطع النظير يعمل على ايجاد اختلافات في استجابته للمؤثرات البيئية ، ومن ثم على تفرد من حيث النمو العقلي والجسدي . والواقع ان كل شخص منا يعيش ، ان جاز هذا التعبير ، في عالمه الخاص الذي ينفرد به .

ويمكن القول ، بصفة عامة ، ان المؤثرات البيئية تشكل الشخصية من طريق آليتين مختلفتين . فهي تتحكم ، من ناحية ، في بعض انماط الاستجابة التي تؤثر في جميع مظاهر السلوك . وبالفعل نجد لدى الفسيولوجيين ، وعلماء النفس ، وعلماء الامراض العقلية ، والكتاب ، اوصافا شديدة التنوع ، صاغها كل منهم على طريقته الخاصة ، لاستجابات مكتسبة ، تندرج من سيلان لعاب الكلاب عند سماعها صوت الجرس الى التأثيرات الباثولوجية (المرضية) الخاصة بالمعقد الفرويدية ، او تذكر اشياء اثارها في الماضي غمس قطعة من الكمك في فنجان شاي .

اما النوع الثاني من الآليات ، ففيه تسهم المؤثرات البيئية في تشكيل الشخصية عن طريق اعاقه اكتساب خبرات جديدة . فالفروض ان استمرار نمو الشخص ذهنيا يقتضي ان يظل متقبلا لمنبهات جديدة ، وحوادث جديدة ، ومواقف جديدة ، غير ان القدرة على ادراك العالم الخارجي باحساس متجدد تقل ، في الواقع ، بصفة عامة ، مع تحكم التجارب والخبرات المتكررة في العقل والحواس .

فان من المعروف ان هناك تغيرات طبيعية كيميائية محددة ترتبط بالتعلم ، والتذكر وغيرها من العمليات العقلية ، وقد اقترب الوقت الذي سوف تصبح فيه آليات التفكير جزءا من البيولوجيا الآلية ، مثلها في ذلك مثل آليات التنفس او الانقباض العضلي ، وعندما تصل المعرفة الى هذه المرحلة فقد يترتب عليها خطر بالغ هو ان يترتب عليها ظهور تكنولوجيا طبية بيوكيميائية تسهل التحكم في الفكر من اجل اغراض سياسية وغيرها .

ويمكن ان يستفيد رجال التربية فائدة كبرى لو انهم عرفوا ما اذا كان نقص الحوافز المنبهة يؤخر او يعوق التنظيم العصبي ، وكذلك لو عرفوا كيف تتأثر تجمعات الخلايا العصبية بفعل المؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الانسان في فترات مختلفة من حياته والحالة المثلى بالطبع هي ان تتحكم معرفة خصائص النمو المميزة للجهاز العصبي في طريقة التعليم والاقوات التي يتم فيها تعلم الاشياء المختلفة . ولكن معرفة المخ لا تزال لسوء الحظ ، بعيدة كل البعد من ان تقدم الينا توجيها على نحو فعال في وضع البرامج التعليمية .

وهناك من ناحية اخرى ادلة قاطعة تثبت ان النمو العصبي يؤثر فيه الحالة الغذائية ، وعمليات العدوى ، وغيرها من العوامل البيئية المؤثرة في الصحة والمرض . ومن هنا فان بعضا من اكبر مشكلات تطور الانسان يدور حول الظروف الفسيولوجية الخاصة بالتنشئة وكذلك حول البيئة الاجتماعية ، بما فيها كل المؤثرات المبكرة والتجارب التعليمية ذلك لان التأثيرات التي تمارسها هذه الظروف والبيئة في تطور المخ في فترات الحياة المختلفة هي التي تحدد أهميتها بالنسبة الى نمو الانسان وسلوكه .

ومن الطبيعي ان تنزع المؤثرات البيئية السائدة في منطقة جغرافية او جماعة اجتماعية

حياته . والواقع ان من اضخم مشكلات البيولوجيا هو معرفة ما اذا كانت تأثيرات المؤثرات المبكرة غير قابلة للانعكاس حقاً ، كما يبدو ظاهراً في التجربة العادية ، او انه يمكن محوها جزئياً ، كما توحى بذلك بضعة تجارب .

فقد كشفت دراسات فسيولوجية كهربية عن أن نشاط العمليات العصبية في المخ مستمر ، أي أن تأثير المنبهات ليس اثاراً انسجة عصبية خاملة بقدر ما هو اعطاء شكل للنشاط المستمر بالفعل . ومن المعروف أيضاً ان العزلة الطويلة الامد وغيرها من صور الحرمان الحسي تؤدي ، في كثير من الاحيان ، الى انهيار الشخصية على نحو مؤقت يعتمد تأثيره بدرجات متفاوتة . هذان الاكتشافان معا يشيران الى انه قد يمكن الاهتمام الى طرق للحيلولة دون « تجمد الشخصية » أو لتأخير هذا « التجمد » بحيث لا يعيش جسم الانسان فترة اطول من مرونة مكانته العقلية . ومن المحزن ان الدليل العملي الوحيد على ان العقل يمكن تشكيله من جديد ، يأتي من حالات غسيل المخ أو حمل الناس على الاعتراف بالذنب السياسي ، وكذلك من بعض صور التحول في العقيدة الدينية - وهذه الصورة الاخيرة ادمى الى الامل بطبيعة الحال .

ان فقدان البراءة أثناء الطفولة أمر حتمي ، وهو بالفعل شرط ضروري للنمو العقلي والعاطفي . ومن هنا فإن المهم في الواقع هو نوع التجربة التي تفقد عن طريقها البراءة ، فهذا هو الذي يحدد ، بدرجة كبيرة ، خصائص الشخصية البالغة . وهذه الخصائص تنظم ، بدورها ، مدى النمو التالي واتجاهه .

وتزدنا العمليات البيولوجية والسيكولوجية التي يحركها التعامل بين البشر بأمثلة أخرى للتأثير البالغ العميق الذي يعاينه الماضي على

وهكذا ، فإن البشر يدركون العالم ، ويستجيبون له ، لا من خلال المجال الكامل لامكاناتهم الوراثية ، بل فقط من خلال مناطق هذا المجال التي لم تعفها عمليات محبطة والتي ظلت عاملة بفضل المؤثرات البيئية ، وخاصة المبكرة . ونشير كلمة « امكانات » هنا الى النطاق الكامل لجبهة الشخص الوراثية ، سواء كانت الصفات التي تتحكم فيها هذه الجبهة جسدية أم عقلية . لتجارب الحياة هي التي تقوم بتحديد أي اجزاء هذه الجبهة يتجلى في صورة صفات فعالة .

وفي مراحل الحياة التي يكتمل فيها النمو ، تؤدي الاتجاهات التقليدية التي جرى عليها العرف ، في كثير من الاحيان ، الى اعاقة القدرة على تقبل التجارب والخبرات الجديدة ، وهذه نتيجة حتمية للمؤثرات المبكرة . فالطفل بطبيعته ، محب للعب والتجربة . وهو متشوق لاختيار وتجربة ما حوله ، ولا يعوقه عرف او تقاليد او صراعات داخلية متضاربة . اما الشخص البالغ ، فانه على النقيض من ذلك ، يركز جهوده على اهداف واعية محدودة ، مضيقاً بذلك مجال قابليته لتلقي المؤثرات البيئية . فهو يتفاضل ، بطريقة انتقائية ، من المؤثرات التي يفترض انها ليست ذات فائدة عملية ، وينمي ، عن قصد ، ادراكاً يصل الى اهدافه مباشرة . وعلى الرغم من أن هذا المسلك جائز في توجيه دفء السير في طريق محدد فعلاً ، فانه لا يصلح لاستكشاف طرق جديدة ، اذ انه ينزع دائماً الى تضييق مجال الحياة .

والواقع ان اتجاه شخصية الانسان الى « التجمد » يتقدم العمر يوحي بشيء من التصلب الوطني للقدرة الكامنة على ادخال تغيرات مستمرة على الانطباعات المخزنة في المخ ، وكان هناك قيوداً شديدة مفروضة على ما يمكن طبعه في ذهن الشخص خلال فترة

من ذلك ، فقد ظل الانسان اعظم كائن غير متخصص في عالم الاحياء . فمواهب الطبيعة اقل ، في كثير من النواحي ، من مواهب الانواع الحيوانية الاخرى التي تعيش في الوقت الحاضر . نبصره لا يصل الى منطقة الضوء فوق البنفسجي كما يصل بصر النحل ، وسمعه على النقيض من سماع الكلاب والنقط وبعض الحشرات ، لا يمتد الى المجالات الصوتية العليا ، وحاسة الشم عنده ادنى بشكل واضح من حاسة الشم عند الكلاب وغيرها من الثدييات . وباختصار فان كثيرا من انواع الحيوان تفوق الانسان في صفات مثل السرعة ، والقوة البدنية ، ورهافة الاعضاء الحسية ، ودقة الاستجابات ، ومقاومة الضغوط . ولكنه ربما كان يسبقها جميعا في قابليته للتكيف ، وذلك على وجه التحديد ، لانه يبدى قدرا ضئيلا من التخصص البيولوجي . وتشير كل الاحتمالات الى ان قابلية التكيف هذه هي التي يرجع اليها الفضل في تمكن الانسان من الاستغلال بعدد لا حصر له من الاعمال المختلفة ، والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة .

وقد كان كبر حجم المخ الانساني ، وخاصة نمو قشرته المخية ، هو العامل الاساسي الذي مكّنه من استغلال امكاناته البيولوجية المتنوعة . والواقع ان مقارنة انواع الحيوانات وضمونها اللافاقاريات ، تشير الى ان الاداء السلوكي لهذه الحيوانات له صلة وثيقة بالحجم المطلق لامخاها . وعلى حين ان زيادة حجم المخ كانت سمة بارزة في تطور البشر ، فان العلاقة بين حجم المخ الفعلي ، وبين مستوى الاداء العقلي ليست واضحة بآية حال في الانسان الحديث . صحيح ان بعضا من اصغر احجام الامخاخ (اقل من ١٢٠٠ سم^٣) قد سجلت لسكان استراليا الاصليين وغيرهم من الشعوب

الانسان الحديث . فنظرا الى ان الانسان تطور كحيوان اجتماعي ، فانه لا يمكن ان ينمو جسديا ومقليا على نحو سليم ، بل لا يمكن ان يبقى سويا لفترة طويلة ، ما لم يرتبط ارتباطا وثيقا بغيره من البشر . وعلى العكس من ذلك ، فان ازدحام الاتصالات الاجتماعية والافراط فيها قد يؤديان الى اثاره بعض أنشطة الانسان الهورمونية ، على نحو مبالغ فيه ، الامر الذي يترتب عليه نتائج غير مستحبة . وبالرغم من ان طبيعة وشدة المثرات الاجتماعية التي يمكن ان يتعرض لها الشخص دون خطر عليه لها حدود معلومة ، فان هذه الحدود تختلف بما لتاريخ هذا الشخص وتاريخ جماعته . والواقع ان استجابات الانسان لبيئته الاجتماعية لا تحكمها ، من الناحيتين الكيفية والكمية ، جبلته الوراثية وتجارب المبكرة فقط ، بل تحكمها ايضا التقاليد والقيم التي جرى عليها العرف بين الجماعات التي نشأ وعمل فيها . ومن هنا ، فان ماضي الانسان الاجتماعي يتحكم ، حتما ، في طبيعته . فالانسان يسلم عادة بتقاليد جماعته على اساس انها تنطوي على الحقيقة والحق ، بل انه حتى عندما يتور على هذه التقاليد ، فان التقاليد الجديدة التي يحاول ابتداعها تظم دائما كثيرا من الاساليب القديمة وتجعله يظل معتمدا على ماضيه الاجتماعي .

• • •

تفرد الانسان :

لقد اكتسبت الانواع الحيوانية المختلفة ، اثناء تطورها ، درجة عالية من التخصص التشريحي ، والفسيولوجي ، والسلوكي ، واصبحت نتيجة لذلك مرتبطة ببيئات معينة ومتلزمة بطرق حياة خاصة . وعلى النقيض

ولقد رأينا من قبل ان الحيوانات تكشف عن وجود عدة مستويات من السلوك التكيفي الاولى : كالتلاؤم البسيط ، والتعلم عن طريق التجربة والخطأ ، والتعلم الوامى المسمى بالتعلم عن طريق الاستبصار ، والذى لا يقوم ، فيما يبدو ، على أساس التجربة والخطأ . كل هذه الصور المختلفة من التعلم تحدث طبيعيا في الانسان . ولكن الانسان يستطيع ، فضلا عن ذلك ان يستعين بعمليات تعلمية اخرى ، اما غير موجودة في الحيوانات واما ضئيلة النمو فيها الى درجة لا يمكن معها التعرف عليها . فهو يستطيع تحويل المعلومات الواقعية الى افكار وكلمات مجردة ، ثم يقوم بعد ذلك بتدبر هذه الافكار والكلمات ، عقليا ، لاستحداث انماط جديدة من السلوك . كما انه يستطيع وضع رموز مجردة واستخدامها عقليا في حالة وجود الموضوعات والادراكات الحسية الاصلية . وقد ساعدته هذه القدرة على التصور في اكتساب نوع المعرفة والسلوك التكيفي الذى احتاج اليه للسيطرة على بيئته .

وقد ادت قدرة الانسان على مد افكاره الى المستقبل البعيد ، وهي صفة من أهم صفاته ، الى اعطائه القوة النافعة اللازمة للبحث عن مزيد من المعرفة ولبلل جهود جديدة لاجتداد انماط للتعلم تؤدي الى تحقيق هدف بعيد . والواقع ان العقل البشرى لا يكاد يتقنع ابدا بالاحوال القائمة ، ويتطلع دائما الى انجاز اعمال اعظم ، او الوصول الى فهم وادراك اكبر . هذه القدرة على السعي والاجتهاد ، على الرغم من كونها قدرة غير واضحة المعالم ، تكون الحد الفاصل بين الانسان والحيوان .

ان بعض العوامل الاجتماعية التي تتحكم في القدرة التعليمية ، وهي عوامل معترف بها بين الرئيسيات العليا ، تبلغ ذروة تطورها في

البداية ، ولكن مدى تفاوت السعة الجمجمية واسع للغاية ، وليست له الا علاقة بسيطة بالقدرة العقلية ، ان كان له بها علاقة على الإطلاق . والارجح ان الاهم من حجم المخ الاجسامي في تفوق الانسان العقلي على الحيوانات هو الزيادة التي حدثت في مناطق مخه العليا التي تطورت منذ عهد قريب . ذلك لان هذه المناطق ترتبط ، على نحو اوثق ، بتطور الثقافة .

ان المخ ، في جميع الحيوانات العليا ، هو المفصو الرئيسي للوعي . وله قدرة مذهلة على احداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة ، والمختلفة في كثير من الاحيان ، في انماط منظمة ، وهي انماط وتجارب يظن الكائن المفصو الى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز . والواقع ان عملية ايجاد تكامل تدريجي مطرد بين مراكز « النشاط العقلي » من اروع سمات التطور ، وهي عملية يبدو انها وصلت الى ذروتها في الانسان . صحيح ان بعض مناطق قشرة مخ الانسان تخصص ، الى حد ما ، في تمثيل المعلومات الحسية المستمدة من اعضاء خاصة ، ومع ذلك ، وبالرغم من ان مسالك المعلومات ومناطق التمثيل المختلفة مستقلة نسبيا ، فان كل شخص يسلم بان له عقلا واحدا لعدة عقول ، وان هذا العقل هو ، في النهاية ، مقر جميع انواع التجربة والخبرة .

وايا ما كانت الآليات النهائية التي تتضمنها عمليات المخ ، فان اهم اختلاف عقلي بين الانسان والحيوانات هو ان قدرة الانسان على تكوين تصورات ، تصل الى مدى أبعد كثيرا . وربما كانت براعة الانسان القديمة في التصوير ذات اهمية في هذا الصدد ، فقد ادى التصوير الى الكتابة ، وهي انجاز مكثه من نقل وتخيل 'تطبيقات عالمه الداخلي' .

باسره ، أثناء مجرى التطور ، عن طريق عملية توافق رائعة بين تراكيب الكائن المفسوى وأنماط سلوكه الانكاسية وبين تفاصيل بيئته . بل ان الكائنات العضوية الدنيا لا بد أيضا ان تتعلم شيئا عن بيئتها وطرق حياتها - فالحشرة يجب ان تتعلم شيئا عن ورقتها ، والطائر عن تفريده - ولكن سلوك الحيوان ، على وجه العموم ، فطري وتلقائي الى حد كبير . على أن هذا الكمال يكتسب على حساب تضيق مجال الامكانيات التكيفية ، وفضلا عن ذلك فان الحيوانات تعرض لخطر شديد ، هو عدم التكيف ، اذا ما تغيرت البيئة .

كذلك احتفظ الانسان بعدد من التلقائيات السلوكية كبقايا موروثه ترجع الى ماضيه البعيد ، ولكنه يعتمد اساسا على السلوك المكتسب بالتعلم . وعلى حين ان مجال الامكانيات الناتجة من هذا السلوك اوسع في الانسان منه في اى حيوان آخر ، فان نوعية الرعاية التي يتلقاها أثناء المراحل المبكرة من حياته تؤثر تأثيرا عميقا في تحقق هذه الامكانيات . فاذا كانت رعاية الطفل هزيلة وضئيلة ، فانه قد لا يحقق ، عندما يصل الى مرحلة البلوغ الا صورة مشوهة لامكانياته ، سواء من حيث البنيان الجسدى او النمو العقلي .

وقد ظل الاعتقاد سائدا ، منذ زمن بعيد ، بأن اللغة تُولف اهم صفة تميز ، على نحو مطلق ، بين الانسان والحيوان ، كما ان التجارب ايدت هذا الرأى الشائع المقول . فقد ثبت ان من المستحيل تعليم التكم حتى لقردة الشمبانزى ذاتها ، على الرغم مما بلل في ذلك من جهود مضنية . على أنه ليس من

الانسان . ومن بين العوامل التي تزيد من دور التعلم فيما يحققه الانسان من منجزات اجتماعية ، الاتجاه البيولوجي الى حمل صغير واحد فقط ، او عدد قليل جدا من الصفار وطول فترة النمو التي يكون فيها الانسان معتمدا على غيره . ففترة نمو ما بعد الولادة تزداد من سنتين في اليمورات (٤) ، الى سبع سنوات في النسانيس ، الى احدى عشرة سنة في القردة الكبيرة ، الى عشرين سنة تقريبا في الانسان الحديث . هذا الاتجاه يكون مصحوبا باعتماد اكبر على انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، وهي انماط مخالفة للانماط التلقائية . واذا كان من يوجب انماط السلوك المكتسبة بالتعلم انها تتطلب عادة فترة طويلة من التدرب والتلمذة ، فانها تتصف بميزة هي انها اكثر مرونة واكثر قابلية للتكيف .

واغلب الظن ان عملية التنشئة تبلغ اقصى درجة من التعقيد في نوع « الانسان العاقل » . ويرجع ذلك الى ان الجزء الاكبر من نمو مخ الانسان يتم بعد الولادة . فعلى حين ان النسبة بين وزني مخ البالغ ومخ الوليد في الرئيسيات غير البشرية تبلغ حوالي ١ : ١ ، فانها تبلغ في الانسان حوالي ١ : ١ . بل ان الاعجب من ذلك هو ان نمو وتكاثر التفرعات والتشابكات العصبية يحدث باعداد لا حصر لها بعد الولادة ، عندما يكون الطفل معرضا لتقلبات البيئة . ومن هنا لا نكون قد جانبنا الصواب اذا افترضنا ان تركيب المخ البشرى تحدده الى درجة كبيرة تجاذب الحياة التي يتعرض لها الانسان بعد الولادة .

وقد تحقق التكيف ، في عالم الحيوان

(٤) اليمور او المصود او فرد منفشر Lemur ينتمي الى رتبة الرئيسيات ، ويتميز بظلم كظم الثعلب وعينين صغيرتين . ويتغذى على العشرات والفواكه والطيور الصغيرة والبيض والسحالي .

الماضي - من كبر منطقة من هذه المناطق كما ينعكس في شكل النجمية الداخلي . ومن هنا ، فان دراسة البقايا الحفرية لا تبشر بأمل كبير في اكتشافات مرحلة التطور التي اصبح فيها الكلام ، بصورة قاطعة ، جزءا من جيلة الانسان .

وعلى اية حال ، فان القدرة على الكلام اضيفت على الانسان ميزات لا شك فيها ، وعلى الرغم من ان المجتمعات يمكن ان توجد بلا كلام ، فان الكلام يجعل جميع الوظائف الاجتماعية اكثر فعالية وتنوعا بشكل كبير . ويعتقد كثير من الاثروبولوجيين ان عملية الانتخاب التي ادت الى الكلام فرضها في الواقع على اسلاف الانسان اعتمادهم المتزايد على الانشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم الى نقل المعلومات لصنع واستخدام الادوات الى الافراد الآخرين في جماعاتهم . فقد اعتمد التقدم في صنع الادوات واستخدامها على تطور اللغة اللازمة للاتصال ، واصبحت اللغة ، بدورها ، الاداة الحاسمة في تطور الحضارة .

وتزداد اهمية نظام الرموز المستخدم في لغة الانسان كلما بعد الموقف الذي يواجهه الانسان عن التجربة الحسية او الحركية المباشرة . فبعض انواع التفكير المتعلق بالنظام الاجتماعي ، كالاخلاق او المنطق ، مثلا ، لا يكاد من الممكن ممارسته دون لغة رمزية . وقد قيل ان الانسان لا يستطيع ان يفكر ، في معظم انواع المشكلات ، الا فيما يستطيع قوله ، وان مقولات لفته تزوده بمقولات ادراكه الحسي ، وذاكرته ، ومجازه ، وخياله . وعلى حين ان هذا القول مبالغ فيه على الارجح ، فان مما لا شك فيه ان القدرة على الكلام كانت احد العوامل الحاسمة في تشكيل سلوك الانسان الاجتماعي والثقافي . فضلا من ذلك ، فان استخدام

السهل تحديد مدلول كلمة اللغة على وجه الدقة . فالنحل يمكن ان يوصل بدقة متناهية الى غيره من النحل موقع مصادر الغذاء البعيدة . والرئيسيات يمكنها تحذير زملائها من الاخطار ، ويمكنها ، على ما يبدو ، حث هؤلاء الزملاء على انتهاز سبل معينة للعمل . وقد يكون الاختلاف الاساسي هو ان طريقة الاتصال بين الحيوانات لا تتضمن تعاملات مع الماضي السحيق او المستقبل البعيد ، اي انها لا تعتمد على الافكار المجردة . فهي لا تشير ، على قدر ما يمكننا ان نحكم ، الا الى الحاضر في الزمان والمكان ، والملموس .

ويتوقف امتلاك اللغة على القدرة على القيام بمجموعة مختلفة من الالعمال الرمزية (وهي الاصوات ، والاشارات ، والكتابات) . هذه القدرة تطورت في الانسان مع الريادة الهائلة التي حدثت في قدرته التصورية نتيجة لازدياد مخه حجما وتعقيدا . ولكن هذا التفسير لا يتجاوز كثيرا ، لسوء الحظ ، قولنا ان الانسان لديه قشرة مخيه اكثر تطورا من قشرة الحيوانات الاخرى ، ولديه ايضا القدرة على الكلام . وكفي هنا الاشارة الى ان لغة الانسان قد لا تكون فريدة في اية سمة خاصة . وربما كان تفردا يقوم على ترابط وتكامل عدة سمات توجد على حدة في انواع مختلفة من الحيوانات .

ويتطلب الكلام ، من الناحية الوظيفية ، نشاط عدة مناطق من المخ لاجداث توافق بين المعلومات الواردة والمعلومات المخزنة ، وتحقيق تحكم حركي في الانشطة العضلية اللازمة للكلام . ونظرا الى ان اكثر من منطقة من مناطق المخ تشترك في عملية الكلام ، فان القدرة على الكلام لا يمكن الاستدلال عليها - على النقيض من الاعتماد الذي كان سائدا في

اساسية لرفعة شأن الانسان : درجة اعلى من قابلية التغير ، وضع منصب ، يدان يمكن العمل بهما ، قشرة مخية معقدة ، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعلم ، مهارة في استخدام واختراع الادوات ، كلام رمزي ووسائل اتصال اخرى ، وقدرة على التفكير التصوري والابداع الفني .

وهناك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفا على الانسان وحده ، وتمثل حدا فاصلا بين الانسان والحيوانات العليا ، هذه السمات هي : مقاسمة الطعام مع افراد الاسرة ، والبناء الاسرى المستمر على درجة عالية من التنظيم ، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء . وعلى الرغم من ان كثيرا من الناس تنقصهم ، بدرجة كبيرة ، واحدة او اخرى من هذه السمات ، بل ان الجنس البشري يمكنه ان يذهب الى ابعد من هذا ويبيع ان من صفاته الخصوصية قبول القيم الاخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات ، ووعي يسو على الدهن المحض ، وضيق يقهر المخاوف ، واهتمام بالماضي السحيق ، وقلق على المستقبل البعيد .

وربما كان مفهوم الاخلاق اصعب في تحليله وتعريفه من القدرة على استخدام اللغة الرمزية . ولكن من المؤكد انه يتضمن علاقات مشاركة مع الآخرين ، وهي اتجاهات معقدة حاول مارتين بوبر Martin Buber وصفها في الكلمات التالية :

« ان اعرق نمو للنفس لا يتحقق ، كما يطيب للناس ان يفترضوا اليوم ، في علاقة الانسان بنفسه ، بل في العلاقات بين الواحد والآخر ، اي بين الناس ، اي ، في المقام الاول ، في تبادل الاعتراف بالوجود - اعني في الاعتراف بوجود نفس اخرى ، وفي معرفة ان الوجود يوجد

الانسان لنظام رموز مقنن افاح له المشاركة في قيم تعتمد على الذاكرة ، والفكر ، والشعور ، وهي قيم كان يمكن لولا هذا النظام ان تظل خصوصية ، ان الثقافة الانسانية لا يكاد يمكن تصورها ، في الواقع ، دون لغة .

لقد كان الانثروبولوجيون يميلون ، منذ جيل مضى ، الى تعريف الانسان بانه حيوان رئيسي يشي منتصبا وله طرفان اماميان ويدان طليقتان . وتدل كلمات بنجامين فرانكلين السديدة : « ان الانسان حيوان صانع للادوات » على ان علماء ذلك الوقت كانوا يعرفون ايضا ان صفات الانسان تتضمن تما هو اكثر من خصائصه الجسدية . على ان من المتعرف به في الوقت الحاضر ان صنع الادوات ليس صفة مميزة ، لان عدة انواع من الحيوان تمتلكها . كذلك لا يمكن تعريف الانسان بقولنا انه يختلف عن الحيوانات لانه يعرف كيف يصمم ويستخدم الادوات لغرض معروف لديه مقدما . والواقع ان اي مقياس واحد للقدرة نحاول بواسطته تمييز الانسان عن الحيوانات - سواء اكان القدرة على الاتصال ، او التعلم من التجربة ، او التعاون ، او حتى التصور وربما التجريد - يثبت بالدليل وجود قدرة مماثلة له في الحيوانات الاخرى .

ومع ذلك ، فمن الواضح ان الانسان يختلف عن الحيوانات الاخرى . ومن سوء الحظ ان القول الوحيد الذي يمكن تقريره موضوعيا في الوقت الحاضر (ولنلاحظ ان هذا لا يثبت صحة هذا الرأي حتما) هو ان جزءا كبيرا من طابع الانسان الفريد مستمد من مجموعة من الصفات موجودة كلها في انواع الحيوانات الاخرى ، ولكن في حالة غير متطورة فقط في كثير من الاحيان . واليك قائمة بصفات مميزة موجودة الى حد ما في الحيوانات العليا ولكنها

في ذاته الخاصة بواسطة الآخر - مع تبادل القبول ، والانبجاف ، والتأييد » .

ان حدوث المراحل الأخيرة من التطور البيولوجي للإنسان في آن واحد ، مع المراحل الأولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد ان الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة . فليس هناك شيء يمكن تسميته بطبيعة الإنسان البيولوجية الصرفة ، ولو ان هذه الطبيعة كانت موجودة لما أمكن الانتفاع بها من الوجهة العملية . فالأدوات ، والصيد والزراعة ، والبناء الأسرى والاجتماعي ، بل الدين ، والفن ، والعلم ، كلها قامت بدور في التشكيل الروائي للإنسان على النحو الذي نعرفه اليوم . ونظرا الى ان الإنسان يتطور مع ثقافته ، فانه يحتاج الى ثقافة انسانية من اجل بقائه وتأكيد ذاته بنفس القدر الذي يحتاج به الى الطعام والماء . ومن هنا ، ينبغي الا ينظر الى المناط الثقافية على انها مظاهر خارجية لطبيعة الإنسان . وكما قال « كلايد كلكهون » Clyde Kluckhohn فان المناط الثقافية تؤلف خططا وتصميمات ترسم معالم حياة الإنسان .

صحيح ان الإنسان حيوان ، ولكنه حيوان لديه قدرة هائلة على دمج جميع احساساته وإدراكاته في نماذج ذات مفزى . وهو حيوان متأمل ومفسر ، ومتشوق الى معرفة ما هو أكثر مما تقع عليه العين في المعطيات المجردة الخاصة بالتجربة . ومن طريق الجمع بين ردود أفعاله العقلية وبين الوقائع الفعلية لتجربته الحسية ، يمكنه التعامل مع بيئته المادية والاجتماعية . وجوهر نشاطه العقلي هو تكوين الرموز واستخدامها كبدائل للحقائق التي تتركها حواسه . وهو يستخدم ذكائه من اجل ادماج تجارب حياته في ثقافته وبذلك ينقل هذه التجارب من جيل الى جيل عن طريق

عمليات اجتماعية أسرع وأكثر فعالية من العمليات الوراثية . وهو يستطيع ايجاد أنواع جديدة من أنظمة الخبرة والتجربة التي تكون احجار بناء التطور النفسي الاجتماعي ، كالمفاهيم العلمية والأنظمة القانونية والقواعد الاخلاقية والأعمال الفنية .

وبفضل فكرة الذات ، والتأمل الواعي ، وإدراك ان البشر قانون ، اكتسب الإنسان شعورا بالتاريخ ، وقلقا على المستقبل . هذا القلق دفع الإنسان الى تنمية احساس بالقيم يطبقه على انشطته . ويتجلى نظام قيمه في صيافته لأهداف وإمعية على امل امكن ترجمتها الى أفعال . وربما كان أعظم مظاهر تفرد الإنسان هو اعتقاده بأنه يمكنه التخطيط للمستقبل ، بل « ينبغي » عليه فعلا ان يكبح من اجل مستقبل يتجاوز نطاق فترة حياته الخاصة .



الإنسان يصنع نفسه :

لم يطرأ على الإنسان ، من الناحية البيولوجية ، سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة . فالأدوات التي صنعها اثناء هذه العصور لا تزال تناسبنا ايدينا ، والدوافع القديمة التي شكلت ، لأول مرة ، انشطته القبلية لا تزال تمارس عملها فنيا ، والرسومات والمنحوتات الخاصة بفن الكهف وكذلك الأعمال الفنية التي ترمز الى معتقدات ما قبل التاريخ لا تزال تثير عراطفنا . ولكن ، على حين ان نوع « الإنسان العاقل » ظل في نفس الصورة أساسا من الناحية الوراثية ، فان مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود ، بل ان مفهوم التقدم ذاته يتضمن ان أحداث حياة الإنسان الاجتماعية



اذ تعبر عن مواقفها ورغباتها من خلال اصوات واوضاع ومشاهد رمزية . وتبنى ذكور طيور العرائش الاستراتيجية مخادع مزخرفة باقتان ، وهي اشخاص غرام لا تستخدم في وضع البيض بل تصمم خصيصا من اجل اغواء الاناث والزواج بهن ، ولذلك فان اقل الذكور وسامة بينون اكثر المخادع اقتانا وازهاها لونا ، وهذا يمكن ان يكون بمثابة صورة من صور التظاهر الغرض منها رفع شأن ريشهم غير الجميل . وقد اوضح كروبوتكين Kropotkin في كتابه « العون المتبادل ، عامل من عوامل التطور » ، ان الضرورات البيولوجية تؤدي في كثير من الاحيان الى حدوث اتجاهات اجتماعية بين الحيوانات ، وهي اتجاهات تشبه السلوك البشرى الفيرى . وهكذا فان الانسان حينما نظر فانه يجد ، في مكان ما في عالم الاحياء نماذج تجريبية تحاكي اى مظهر من مظاهر حياة الانسان تقريبا .

ولكن بالرغم من ان النماذج ادوات نافعة وضرورية في التحليل العلمي لمشكلات معينة ، فانها لا يمكن ان تقدم معرفة كاملة بالانسان . ذلك لان النماذج ، التي لا تمثل الطبيعة تمثيلا حقيقيا على الاطلاق ، لا تضىء سوى جانب محدود من جوانب هذه الطبيعة . هذه المحدودية ليست خاصة بدراسة الانسان او غيره من الكائنات العضوية الحية ، بل تنطبق ايضا على عالم الاحياء . وقد عبر الفيزيائي

لا تتكرر ابدا بنفس الصورة . وعلى حين ان دوام طبيعة الانسان يكمن في التركيب الكيميائي لجبلته الوراثية التي تتحكم في المواد البيولوجية التي يتكون منها جسمه ومخه ، فان التغير في حياة الانسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته ازاء تحديات البيئة الكلية . فلكي يعيش الانسان لا بد له من الاستجابة ، ومن ثم تنشيط العمليات المؤدية الى التكيف والتطور الخلاق .

ان الدوافع المميزة للانسان ، كالحاجة الى اللعب ، هي صفات شائعة في الحياة الحيوانية ، كما ان الانماط المختلفة لنشاطه وتنظيمه الاجتماعي - بما فيها الصور المرضية المشوهة لهذه الانماط - تميز المجتمعات الحيوانية الطبيعية والاصطناعية على حد سواء . ويستطيع دارسو السلوك الجنسي للانسان ان يجدوا نماذج لهذا السلوك في الزواج المنفرد عند الجيبون (٥) ، وكذلك في مشاعر الابوة المتسامحة عند الفوريلا ، وفي الخبث الذى تبديه مجموعة الاناث المنتمية الى ذكر واحد عند البايون (٦) ، وفي الهدنة المسلحة بين ذكور الشمبانزى واثانه ، وكذلك في تعدد الزوجات الودى بين نسانيس العالم الجديد (٧) والفوضى الجنسية السائدة بين النسانيس الرئسية (٨) .

ولجا الحيوانات عادة الى كثير من المظاهر السلوكية التي تمثل النمط الشائع في الانسان

(٥) الجيبون gibbon هو اصغر القرود الشبيهة بالانسان التي تضم ايضا الفوريلا والشمبانزى والاولنج

اولان .

(٦) فرد كبير يعيش على الاشجار ، وينتمي الى قرود العالم القديم ، اذ يعيش في افريقيا وجنوبي آسيا .

(٧) اى نسانيس الامريكيتين .

(٨) نسانيس صغير يشيع في الهند ، وجد في دمه عامل ثبت وجوده في دماء ٨٥٪ من البشر ، ولذلك اطلق على هذا العامل اسم العامل الرئسي rhesus factor وهو هام في عمليات نقل الدم .

منها الانسان ، ولكنها لا تفسر كيف يصبح كل شخص على ما هو عليه عن طريق سلسلة متصلة من الحوادث والقرارات الشخصية . وسوف تقدم فيما يلي بضع ملاحظات تتعلق بالفنون التشكيلية القصد منها توضيح الطريقة التي تكشف بها قدرة الانسان على الاختيار والبت عن وجود حدود لا تتعدها المعرفة البيولوجية في قدرتها على ايضاح طبيعة الانسان . فالصور الملونة ، والتماثيل ، والنقوش ، وغيرها من الاعمال الفنية التي عثر عليها في كهوف العصر الحجري القديم لا تدع مجالاً للشك في ان ملكة التعبير الفني قديمة جداً . ولم يظهر على هذه الملكة ، لا في رهاقة الحس ولا في براعة التصوير تحسن ملحوظ على مر السنين العشرين الف الماضية . ومن هنا فان المنطق يقتضينا بان القدرة على الاحساس والتصوير تمثل جوانب فيسيولوجية عميقة في طبيعة الانسان .

وأغلب الظن ان الملكة الجمالية ، على النحو الذي توجد به في الانسان ، تنبع من صفات بيولوجية شبيهة بالصفات التي تجعل الحيوانات تقوم بحركات او تبني امشاشاً تنطوى على إيقاع وتوافق أصيل . والواقع ان كل أنشطة الحيوان والانسان لا بد ان يؤثر فيها توالي الدورات الفطرية الذي يحكم العمليات الفسيولوجية ، وكذلك النظام السائد في أنماط الكون . فبعض الألوان تتناظر بالنسبة الى بصرتنا ، وبعض العناصر الموجودة في تصميم معين تبدو لنا غير متناسبة ، وذلك عندما تتعارض التجربة المكتسبة منها مع مجموعة ما من العلاقات الكامنة في اعضائنا ، او مع الإيقاعات التي ندرکها ، شعورياً او لا شعورياً ، في العالم الخارجي ، وعلى النقيض من ذلك فاننا نستاء من الطريقة التي يبدو لنا

» يوجين ب . ويجنر « Buhene p. Wigner عن هذه الفكرة بسمات ذات دلالة عميقة ، وذلك بمناسبة قبوله جائزة نوبل للفيزياء في عام ١٩٦٣ . اذ قال :

« . . ان الفيزياء لا تسعى الى تفسير الطبيعة . بل ان النجاح الكبير الذي حققته الفيزياء انما يرجع في الواقع الى حصر اهدافها في نطاق محدود : فهي لا تسعى الا الى تفسير أوجه الانتظام في سلوك الاشياء . هذا التخلي عن الهدف الأشمل ، وتحديد النطاق الذي يمكن السعي من اجل ايجاد تفسير له ، يبدو لنا ضرورة واضحة . .

وتعرف أوجه الانتظام السائدة في الظواهر التي تحاول العلوم الفيزيائية كشفها باسم قوانين الطبيعة . وهذا الاسم مناسب في الواقع الى حد كبير . فكما ان القوانين الوضعية تنظم الافعال والسلوك في ظروف معينة ولكنها لا تحاول تنظيم كل انواع الافعال والسلوك ، فان قوانين الفيزياء ايضا لا تحدد سلوك موضوعات اهتمامها الا في ظروف معينة محددة المعالم على نحو دقيق ، ولكنها تترك ، فيما عدا ذلك ، مجالاً فسيحاً للحرية » .

وعلى الرغم من ان الحرية على النحو الذي استخدمه هذا الفيزيائي عندما اشار الى الجسيمات الأولية معنى يختلف اختلافاً كبيراً عن معناها عندما تستخدم في شؤون الانسان ، فان التشبيه ، وان كان شكلياً فقط ، يساعدني إضمار السبب الذي لا يمكن من اجله ان تقدم المعلومات البيولوجية الواردة في الصفحات السابقة صورة كاملة للانسان الحي ، الذي يحاول عالم الانسانيات فهمه ويسعى الفنان الى التعبير عنه . صحيح ان البيولوجيا الكيميائية يمكن ان تصف المواد التي يتكون

الإنسان ، وهو المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاختيار ، والاستبعاد ، والجمع والبث فى الامور من وعي ، ومن ثم يستطيع التحرك نحو هدف مختار يتجاوز نطاق ما هو حاصر مباشرة فى الزمان والمكان .

ومع ازدياد المعرفة الخاصة بطبيعة الإنسان البيولوجية دقة واحكاما ، تفتتح فرص للتدبير الواسع فى مستقبل الإنسان . والواقع ان الإنسان يصبح ما يفعله ، وذلك بطريقة تدعو الى الدهشة ، ولكنها فى الوقت نفسه حقيقة تماما . فمن طريق عمليات التغذية المرتدة المعقدة التى تحكم جميع مظاهر الحياة ، تقوم طبيعة الإنسان البيولوجية بإيجاد ثقافته ، وتتغير بدورها ، بواسطة هذه الثقافة . ان الإنسان قد اصبح على ما هو عليه اليوم لانه ظل يقوم باعمال ثقافية وعقلية طوال الالوف القليلة الماضية من السنين . وسوف يتوقف نوع المخلوق الذى سيصبحه على نوع الانشطة التى يختار الاهتمام بها فى حياته . وهو الآن يسير مسرعا فى طريق اكتساب المعرفة التقنية التى سوف تمكنه من التحكم فى عملياته الفسيولوجية والعقلية . بل انه قد يعرف فى النهاية كيف يتحكم فى تركيبه الوراثي .

ان قوة الفعل التى وكدها التقدم العلمي الحديث ضخمة الى درجة ان المناقشات التقليدية التى تدور حول المثل العليا للحياة الصالحة اصبحت تنطوي الآن على معنى عملي لم يكن له اى وجود من قبل . وتتوقف الطرق التى يواجه بها البشر اخطار العالم الحديث ، ويستقلون فرصه ، على ما لديهم من معرفة علمية وتكنولوجية ، ولكنها لا تقتصر على ذلك ، بل تتوقف ايضا على المعتقدات التى يؤمنون بها ، والاهداف التى يختارونها . والواقع ان

بها منظر ، او ملمس او صوت بعض الاشياء وذلك ما لم تكن اعضاءنا وحواسنا مكونة بحيث تتوافق مع النسب والاقامات الخاصة بهذه الاشياء . وليس من المهم هنا ان يكون للرضا الذى نحصل عليه عندما تتفاعل حواسنا او اعضاءنا مع بعض الانماط والمثيرات اساس وراثي صرف ، او ان يكون نتاجا لمؤثرات تكيفية تعرض لها المرء فى باكورة حياته ، ولكن المهم هو ان الشعور بالجمال يمكن ان ينبع ويودهر بفضل ملكات فطرية بيولوجية الاصل ، وهي ملكات لا يبدو انه طرا عليها تغير هام منذ العصور الحجرية القديمة .

ولا يعني هذا كله ان القدرة على الادراك والتمثل تكفي بذاتها لان يخلق الإنسان اعمالا فنية ، ذلك لان الخلق الفني يتضمن عوامل خارجة عن نطاق العلوم البيولوجية . فعلى حين ان البشر يستجيبون لبيئتهم من خلال صفاتهم البيولوجية ، فان استجابتهم هذه لا تكون سلبية ، كما لو كانوا وسائط آلية تقع بين شقي رضى المنبه والاستجابة . بل ان استجابة الفنان ليست آلية او مدفوعة بالرغبة فى مواجهة البيئة مواجهة عملية ، وانما هي تؤلف ، على الاصح ، سلوكا تعبيريا ، اعني ان الفنان يستخدم بيئته من اجل تحقيق ذاته واهينا للتوفيق على نفسه .

وهكذا فان عملية الابداع الفني تقدم لنا توضيحا مناسباً لدور الاختيار البشرى فى تحديد مسارات العمل الفردية . فالإنسان ، الذى تستثيره حاجاته ودوافعه وحوافزه الفطرية ، يستطيع ان يختار من بين الامكانيات المتعددة المتاحة للتعامل مع الطبيعة الخارجية . والواقع ان جميع مظاهر حياة الإنسان مهيأة فرصا متشابهة للتدخل الفعال من جانب

وذلك ما لم نقرر اهدافا جديدة بمقام الانسان،
ونتخذ موقفا في الوقت الحاسم. وهذا مصداق
لقول « بول تيليتش Paul Tillich » لا
يصبح الانسان انسانا حقا الا في لحظة اتخاذ
قرار حاسم. هذا النوع من الحرية هو المعيار
النهائي للانسانية، وهو ارفع المعايير شانا.

مستقبل البشرية يتوقف على قدرة الانسان
على اتخاذ قرارات مبنية على معايير اخلاقية
وجمالية.

اتنا - نحن البشر - سوف ننساق بلا
هدف نحو حالة لا يمكننا فيها الاحتفاظ بتلك
القيم التي تجعلنا فريدين بين المخلوقات الحية،

★ ★ ★

رينيه ويج فيلسوف الجمال

د. شروث عكاشة

الفلسفة ، فهو يكتب لرواد الثقافة ، ولهذا نجد كتبه وآثاره شاقة مسيرة تتطلب جهدا ذهنيا كبيرا ، غير أنها في الوقت نفسه توسع أفق الإنسان الذي يجد في فن التصوير والتطلع الى اللوحات الفنية راحته وأنيسه . على أن « رينيه ويج » وهو يقدم أعماله في هذا الإطار لا يتعالى عن الناس ، ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق هؤلاء الرواد .

وتقوم فلسفة « رينيه ويج » على أن وظيفة الفن الرئيسية هي خلق الوسيط بين الكون

أن « رينيه ويج » فيلسوف إنسان ، آمن بأن الإنسان يقوم -- خلال فن التصوير -- بحوار قيم مع العالم المرئي أو المنظور ، وأنه بتحليل هذا الحوار يمكن الوصول الى فلسفة للفن ، وانتهى بهذا الى أنه لا يمكن الفصل بين الفن وبين الجنس البشري ، بل أنه ليرجح أن الإنسان قد وصل الى ذروة الفن وقت أن لم يكن مديكا لماهية محددة للفن .

ولا تنحصر أعمال « رينيه ويج » في ميدان الفن الفئسيح . فحسب ، بل هي تتعداه الى

والإنسان ، فالفن يهيء مكان اللقاء بين الواقع المادى للموسى والواقع الروحى المحسوس ، سواء عن طريق الفن الأخرى المحسوس الذى يحاكى الطبيعة ، أو عن طريق الفن الإبداعى الخلاق الذى يسعى الى تفسير الطبيعة .

و « دينيه ويج » صاحب نظرة تكاملية ، ينظر الى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات ، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية ، تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزيئاته الدقيقة . واذ كان خطر التخصص المبالغ فيه يهدد عصرنا ، لذا فان « دينيه ويج » دون انكار منه لأهمية البحوث الفرعية الضرورية يطمح فى أن تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة الى « الكل » .

وإذا كانت لربنيه ويج القدرة على أن يحرك النشوة فى فكر قرائه فانه يعرف كيف يثير انتباههم ، ويسبح بهم خارج حدود موضوعه الاصلى عبر الأفكار الفلسفية والعلمية ، وتاريخ الأدب التى تغنى معارفهم وتزبد لهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها .

وإذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى أولى الخطوات فى هذا الميدان ، والناقد ينتقدتها ان مدحا وان دما ، فان مؤرخ الفن يأتى فى نزاهة تامة وحيد مطلق كي يفسى الأهمية التاريخية على العمل الفنى ، كما يحل تأثير الأساندة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله . ومهما كانت العقبات التى تصادف

مؤرخ الفن فى محاولاته فهو لابد وان يلتقى « بالروح » . وهنا يجب أن تتوافر فى هذا المؤرخ ، كى يؤدى مهمته على أتم وجه ، صفات عالم النفس الذى تمكن من فهم الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الأعضاء والأحلام والحب والتصوف ، وجولات واسعة حول الزمان والمكان ، كى يحدد الدوافع النفسية التى أدت بالفنان الى أن يرسم مارسمه أو ينحت مانتحه ، وبهذا يساعد المتأمل المتفون على أن يكتشف ، بينما هو يتطلع الى العمل الفنى ، الحالة الوجدانية التى كان يعاينها الفنان وهو ينحت لنا عمله الفنى ، وبهذا أيضا تسرى فى الموسيقى والشعر والرقص هذه الوجة الخلاقة التى يدعوننا اليها بـ **رجسون** والتى ترقى بنا الى القمم ، وتحيطنا بالتأمل الأليف الذى يفتح للفكر والقلب أبواب « المعبد » ، « معبد الجمال » .

وهذا هو مافعله مؤرخ الفن الفيلسوف « دينيه ويج » *

أما **دينيه ويج** الإنسان فيكفى أن يؤكد أنه الى جانب علمه الغزير المتدفق ، وقدراته الابداعية المبتكرة ، وأحاساسه المزهف بكل همسة جمال ، وأدراكه العميق للروح التى تملى على الفنان مايقدم ، أنه الى جانب هذا انسان سخي فى صفات الانسان فيه ، فالدين يعرفونه عن قرب يعرفون أنه لم يتغير منذ بدأ يصعد سلم المجد الى أن بلغ ذروته ، وأما أخذ فى تواضعه وبساطته ونزاهته يرداد قربا

* أهم مؤلفات دينيه ويج

Dialogue avec le visible
L'art et L'âme
L'art et L'Homme
Delacroix
Musée du Louvre
Formes et Forces

(Flammarion)
(Flammarion)
(Larousse)
(Thomas and Hundson)
(Nouvelles éditions Françaises)
(Flammarion)

وحده بل شخصك كله . فانت تتمتع بموهبة تسحر بها الناس حولك ، وحديثك عطاء سماوي يتقبله الانسان كالإيمان دون مناقشة . يصفق لك الناس قبل أن تتحرك شففاك بحديث . أما خصومك - ان كان لك خصوم - يطلتون على مائدته نحن سحرا ، براعة ، ذلك أن سحرك يخفى على العقول السوقية . لقد منحك الله هذه الصفات السحرية ، فانت تضيء النفوس وتفسر الحقائق التي تبث المواهب وتؤجج الحياة كلها ، ومع ذلك فان تحليقتك وسط السحب لم يجعلك تبعد عن الأرض .

سيبقى الدور الجوهري الذي يلعبه الفن على ما كان عليه دائما ، أحد وسائل الانسان للتعبير عن نفسه ، وهذا هو الموضوع الذي ينبري له رينيه ويج وهو يعرض نظريته في الفن كتعبير عن الروح وكنشاط خلاق يفصح الفنان من خلاله عما يختلج بصدرة . فمضى يحلل وسائل الفنان في نقل مشاعره عن طريق « الخط » الى عناصر قدرته على الإيحاء لليد ، وينتقل الى تحليل « الكتلة والفراغ » وكيف كشفا من فكر الانسان عن الطبيعة المحيطة به ، ثم يتطرق الى « الضوء » الذي يكشف ويؤكد ويحجب ويضلل ، ومنه الى « اللون » وقوة تعبيره وقدرته على تحريك نفوسنا والترابطات والتداييع المتعلقة به وقدرته على استحضار الذكريات ، حتى ينتهي الى « موضوعات التصوير » . وبعد هذا يحول رينيه ويج بين الثروات الجمالية المتنوعة ، متجنباً التعميم ، ولذا قدم حالات بعينها قبين لنا الى أي مدى يكون الفن تعبيرا دقيقا عميقا عن حضارة ما منبثقا من الفكر المتطور الذي يسودها محتويا مثلها ، والى

الى قلوب عارفيه . وان سحر حديثه ليس هو وحده مصدر نجاحه ، وانما لأنه في نفس الوقت يقدم دائما اجابات لتلك التساؤلات العميقة التي يثيرها عصرنا الحالي ، ففي هذا العصر - عصر الانسان الموجه والآلة الموجهة والصاروخ الموجه - في هذا العصر الذي يواجه فيه الانسان بالتحدي تصبح ضرورة التمييز بين « الكم » وهي سمة الطابع الآلي ، وبين « الكيف » وهي سمة الطابع الانساني ؛ حتميه اكثر من أي وقت مضى . واذا كان **برودون** قد قال في القرن الثامن عشر « **الفن هو الحرية نفسها** » فان رينيه ويج قد اضاف الى الفكر ثراء جديدا في القرن العشرين بقوله « **الفن والأخلاق معا هما آخر مقل تحتمى فيه القيم البشرية فلا يقرها قط قانون الحتمية** » .

ولهذا السبب انتهى الى ان الفن هو المن المقننيات ، لأنه ينقل ارادتنا في سبيل الحياة بل ينقل الحياة نفسها ، ذلك لأنه يستخدم تلك الطاقة الجبارة التي تجعل الحياة في ذاتها جذيرة بأن نحيها . فالفن اليوم لا يبدو وسط ضخامة التاريخ واحدة عامرة بالسكينة والظلال ، ومسلاة لطيفة ، وشریطا جميلا تزين به الحياة ، بل أضحى نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد هدفه محاكاة الطبيعة على نهج **زيوكسيس** الاغريقي الذي امتلا سعادة ونشوة وهو يرتب الطير تنقر في عناد عنقايد العنب التي رسمها في لوحته .

ولست أجد خير ما أختتم به تقديمي لهذه الشخصية المتدفقة بالعلم والذكاء والمواهب ، وشغافية الروح من بعض ماخطبه به الأستاذ **بول ليو** يوم أن تقلد سيف أكاديمية الخالدين في باريس : « لقد انطلقت كلماتك المجنحة مبشرا بوجوب العالم ، لاعتراضك حدود ، وتستعيقك عواصم العالم القديم والجديد بنفس الترحاب . ليس حديثك هو الرأع

الذى أتبعه ، كما يستعان به على معرفة اللصوص الآخرين بصمات أصابعهم . وإذا كانت الحال كذلك بالنسبة للصوص الخرائن فمن باب أولى أن يكون الفنان متميزاً عن غيره بميزات تخصه إما كان مذهبه في التصوير .

قد يلجأ الفنان الى تسجيل مايراه من أشكال ومشاهد طبيعية ، وعليه حينئذ أن يكبح جماح عواطفه وانفعالاته ، وأن يلتزم بتقديم شبه كبير بين صورته وبين ما تصوره حتى تتلاشى شخصيته في صورته ، تلاهى شخصية الممثل في دور البطل الذى يؤديه ، ويبعد بذلك عن المؤلف المبدع في خلق شخصياته وصنفها بسماته الذاتية .

ولكنه حين يلجأ الى الإيحاء يتخلى عن المظاهر الحقيقية للأشياء الى حيث يبرز نبضات الحياة العنيفة المستخفية وراءها ، وهو لا يسجل حينئذ الطبيعة بل يضيئ عليها روحه ، وكانت خطوط ومبررات ، أشهر المصورين الإيحائيين ، تجرى على اللوحة وكأنها تلاحق انطبعا معينا قبل أن يغيب ، ففى لوحته التى تصور الشيطان وهو يعرض على المسيح ملكوت العالم (لوحة ١) تتحول الخطوط الوجيزة الصارمة الى اشارات موحية بمعان غير مرئية .

على أن مدى سرعة يد الفنان حين تجمع بين تسجيل نبضاته الانفعالية والعضلية المتمثلة في حركة اليد تخلق ايقاعا يحمل الانطباع الى حس المشاهد ، ويبدو من وراء النموذج المصور وكأنه صرخة يطلتها الفنان محملة بالعديد من الإيحاءات التى لم يكن يقصدها حين بدأ يرسم لوحته . وقد يلجأ الفنان الى التكوين الهندسى مستغلا ذكاه وقدرته على التجريد في تحويل الأشكال الطبيعية الى مجموعة من الرموز

أى مدى يعكس التحولات التى تصيب مجتمعا ما وطريقة معيشته .

• • •

١ - الرسم واليد

حينما يتف المراء أمام عمل فنى يصور مشهدا من المشاهد يحس في أعماقه بمعان كأنما بهمس بها اليه الفنان الخالق ، ذلك أن العمل الفنى ليس عرضا لأحد مشاهد الطبيعة فحسب ، بل هو كذلك وسيلة تعبير ينقل بها الفنان الى المشاهد خلجات فكره ونبضات حسه . فهو يعبر أحيانا في إحدى اللوحات عن تصوف روحى تعجز عنه الكلمات ، ويسترسل أحيانا في الوصف اما بأسلوب روائى جذاب أو خال من الاتارة ، وما أكثر ما تنبض مشاعره الغامضة في لوحاته فتوحى بالحركة وتفيض بالإيهام . ويملك الفنان أسلوبا يتخطى به الأسلوب الشعري والثرى معا متحدان الى النفس بصور ورموز لم تعد لها العين ، يستقيها من أفوار النفس ليعبر عن حالة شاردة بين اليقظة والحلم . فالتصوير صورة مستترة للمصور الذى رسمها على حذ قول بيكاسو . وإذا كان التصوير وسيلة الفنان الأولى في إيصال فكره الى الآخرين وتقديم صورة مجعلة للمستقبل الفاعل في أعماقه ، فانها الوسيلة التى تبرز فيها آثار تكوينه العصبى والعضلى لأن الرسم في حقيقته هو اثر حركة اليد على اللوحة ، وهى حركة يتميز بها كل انسان عن الآخر . ويستشهد رينيه ويج في كتابه « الفن والروح » على هذا للصوص الخرائن الذين يفتحونها عن طريق شغلة الأكسجين ، فمع أن وميلتهم واحدة إلا أن الفصحى الجنائى قد أثبت أن كل لص يتميز بخطة خاص به في طريقة تسليطه الشغلة على أقدال الخرائنة بما ساعدته الشرطة في أكثر الأحيان على معرفة اللص استعانة بالخط



لوحة ١ رمبوانت : الشيطان يرفض ملكوت العالم على المسيح
 ان كل خط في الرسم مشحون بالايعاد اكثر مما هو مشحون بالتمثيل ١٦٥٦م

زخرت بحساسية أرفع ، ثم انتشر هذا النهج في أغلب أنحاء أوروبا خلال عصر النهضة ، مرتبطا بالحركة الفنية والأدبية التي ازدهرت في بلاط الملوك والنبل ، والتي انحسر معها التصوير الكلاسيكي الواقعى داخل مجتمعات التجار الصغار البرجوازيين الهولنديين والفلمنكيين من أمثال **هيرانت** .

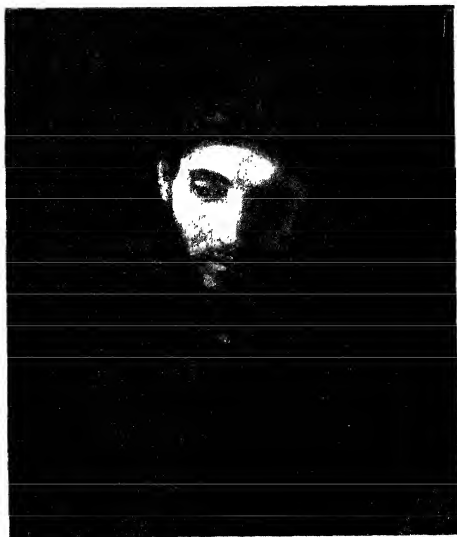
وظلت واقعية الفن الفلمنكى واقعية جادة بعيدة عن الزخرف، بينما اتسمت واقعية الفن الجرمانى بالفحالة التى انطوت على بعض استشويهاات والحركات العنيفة التى تترجم عديدا من المشاعر المخططة . وقد ارتبطت هذه الواقعية بالحضارة الألمانية التى بدأت متخلقة من حضارة جاراتها والتى اتمتدت على استخدام المبادئ أكثر مما اعتمدت على الزاظمة الموحية بالسكينة والتناسب والهندسة ، فلم يعرف الانسان الجرمانى هدوء النفس ولا نشاط الذهن اللذين يسودان المجتمعات الزراعية المستقرة ، وإنما كان يحس بالإخطار تتهده ، والقلق يعيش فى نفسه ، وظروف الطبيعة القاسية تترصده ، وقد استولت عليه بعد انهيار حضارة العصور الوسطى الدولية ، فكرة الشيطان والموت اللذين يهددان أمنه وحياته حتى نحس الخوف والوحشية فى أعماله الفنية . وإنما لنستشمر فى لوحة صلب المسيح **لجرونيغالد** صرخة المذاب والتوجع المنطلقة فى أفق يخنقه الضباب المم ، على حين لا نحس فى اللوحات اللاتينية لصلب المسيح غير الدمة والهدوء وأشراق السماء ، وإن كانت الحربان العالميتان وقلق العصر قد أصابت الروح الفرنسية بالانقباض حتى رسم الفنان **برنار بوفيه** صورة حديثه لصلب المسيح يذكرنا ما فيها من عذاب جسدى بصورة الفنان الألماني **جرونيغالد** السابقة . (لوحة ٤) .

الذهنية المتجسدة عن طريق المنحنيات والتعرجات والاكسارات المنتمية الى الدائرة أو شبه الدائرة أو الشكل البيضاوى والتي سماها هوجرت (فى القرن الثامن عشر) بخط الجمال الأساسى . وليس التكوين الهندسى فى الرسم إلا محاولة للنفاذ الى جوهر الأشياء الفاضة المتغيرة فى الطبيعة ، واخضاع الطبيعة لذهن بدلا من الانفعال بها على غرار ما يحدث مع الفنان التسجيلى أو الإيحائى . ولكن كيف يحدث اللقاء بين الفنان والعالم ، بين ذاته وموضوعاته ؟ .

هناك فنان يقبل على موضوعاته فى حب واضح مثل رمبرانت فى تصويره لوجه المسيح (**لوحة ٢**) فلم يعد التعبير هنا مبنيا على الحكايات التواترة عن المسيح ، بل ينبثق كالنور ويشع كحرارة الحب ولهبية . فالمسيح بالنسبة للفنان هو مشكلة النفس ، هو مشكلة حياته « الجوانية » الدائرية . ومثل **دى لا كروا** فى لوحاته الزاخرة بالألوان الحارة العاطفية ، وقد خلف لنا الفن الرومانسى لوحات تفيض بمحبة تسمو أحيانا الى مستوى التصوف .

وهناك فنان يتناول موضوعاته فى أثرة تدفعه الى التشبث بأحد التفاصيل مثل **آنجور** الذى يحرص على تسجيل ما يراه فى دقة بالغة . وهناك فنان يقبل على موضوعاته بروح عدوانية مثل **بيكاسو** الذى يخضع المربيات لمطالبه الدائرية ، يحطم بناءها الخارجى ثم يعيد صياغتها وفق الهاماته وأهوائه الخاصة (**لوحة ٢**) .

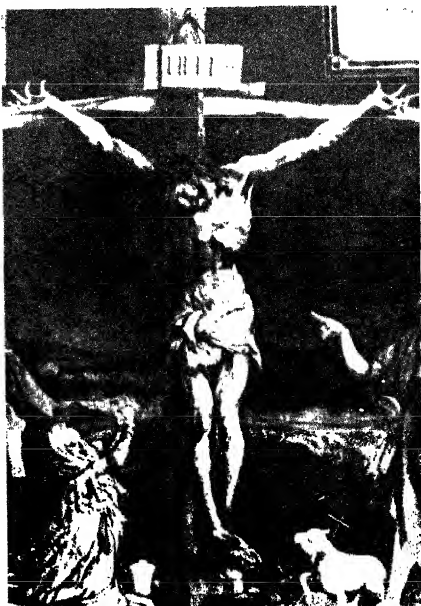
ومنذ القرن الثانى عشر ظهرت فى فرنسا ، التى كانت تسودها حينئذ الرقة المتألفة فى عالم الدين والادب ، فكرة رسم خطوط منحنية متداخلة على غرار زخارف التوريفقات ، وإن



لوحة ٢ رمبرانت : وجه المسيح يعكس حياته الجوانية الذاتية



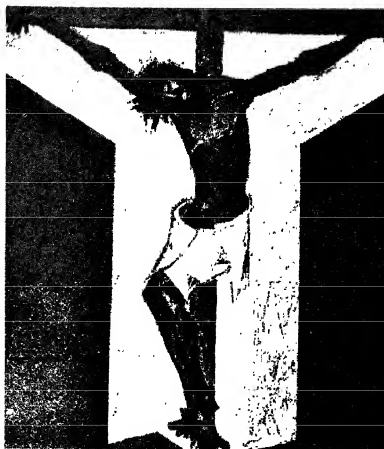
لوحة ٣ بيكاسو : امرأة



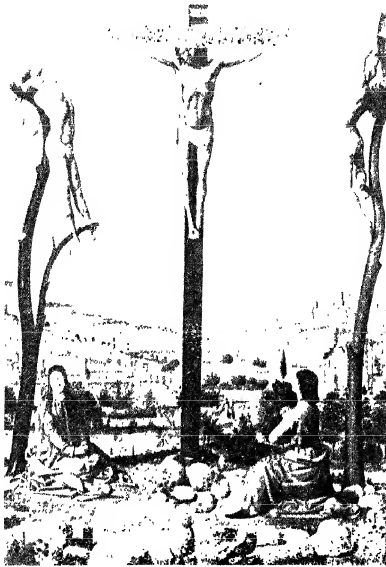
لوحة () ، ب ، ج ، د تكشف التفسيرات المختلفة لموضوع واحد من مدى تبين الكونات النفسية للمصورين
 (١ - صلب المسيح من مخطوطة فرنسية من أواخر القرن ١٤) (بيساريس)



{ پ - جرونیقالد : صلبالمسیح (بکولار)



٤ ج - انطونيلاو داماسينا : صلب المسيح (بامسترڊام)



٤ د - برنارديني : صليب المسيح ١٩٤٦ م

فائدة تحديد الإطار الخارجى للحيوان تسهيل
اصابة الصيادين له .

ومع ميلاد العصر الحجري الحديث ولدت
الهندسة ، اذ انتقل مركز الثقل في علاقات
الانسان من علاقته بحيوانات الصيد الى علاقته
بزملائه من البشر ، واخذ الانسان ينظر الى
العالم نظرة هندسية مع ظهور الحضارة
الزراعية في مصر وما بين النهرين حوالى عام
٣٥٠٠ ق.م ، فقد اجتذبت الرقعة المنزوعة
اهتمام الانسان فجعل يقسمها تقسيما منتظما
يسر زراعتها وتوزيعها الى ملكيات صغيرة ، واثر
هذا الشكل في حس الفنانين فاخذوا يخضعون
لوائحهم لنظام هندسى تتجمع فيه الاشكال
في مجالات محددة . وقد لعبت الجدران
الحجرية دورا هاما في تحديد الاشكال التى
تنقش عليها ، فظهر قانون « المواجهة » الذى
يقضى باخضاع الشكل للمادة التى تنقش
عليها على مستوى واحد دون عمق أو تجسيد ،
ثم ظهرت فكرة التماثل وفرض نموذج موحد
محدود هو تمييز الاجزاء او الاشكال المختلفة
حتى لا يختلط احدها بالآخر .

واخذت الحياة تظهر في لوحات الحضارات
الزراعية في أيقاع وتكرار استقاهما فنانون مصر
القديما من تتابع مواسم الزراعة وفصول السنة
وايقاع النمو الملحوظ في النبات . ونستطيع
ان نلمح عناية الفنان المصرى القديم في تسجيل
حركة النمو في فنونه المختلفة ، فنجدته يعنى
بابراز نمو الريش في أجنحة الطيور التى
يصورها ، واظهار طبقات الملابس التى يرسمها ،
ويشيد المعابد من مكعبات يتضمن كبيرها
صغيرها ، بينما خلا الفن العراقى المعاصر للفن
المصرى من هذا الاحساس بالنمو مكتفيا بتكرار
الوحدات التماثلية على النحو الذى نراه في
الاختام الاسطوانية .

غير ان التصوير اذا كان يعبر عن العصر الذى
ينتمى اليه ، فانه يعبر كذلك عن كيفية مواجهة
الفرد للعالم الذى يحيط به ولمصره على
الارض ، كما يعبر عن رد فعل الضغوط
الاجتماعية المختلفة في نفس الفرد ، ونستطيع
ان نتبين ذلك في اللوحات التى رسمها الفنان
فان جوخ ما بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٩٠ ، فقد
رسم في لوحته الاولى « حديقة بيت القس في
الشتاء » السماء الفسيحة المشرقة التى تتميز
بالاشياء واضحة تحتها ، وتكشف في الافق عن
ابراج كنيسة تعبر عن تصوف الفنان وانشغال
فكره بقضية اللاهائية ، حتى اذا انتقلنا الى
اللوحة الثانية وجدنا خطوطها المفتحة تكشف
عن عجلة في تسجيل خواطر تكاد تغفل من بين
يديه ، ومن شبح الجنون يكاد يقترب منه ، ثم
نحس الجنون وقد سيطر عليه في لوحته التى
تصور حقل القمح وقد بدا القمح اشبه ما يكون
بأمواج بحر متلاطمة او بلهب نار متقدة ، ثم
يصبح الجنون هو طابع خطوطه التى استحوطت
بدائية غليظة تشيع الخوف الممزق من النار
(لوحة ه) وهكذا نستطيع ان نكتشف اخلاق
الفنان من خطوطه كما نتبين اخلاق الكاتب من
طريقة كتابة حروفه وكلماته .

• • •

— الشكل والدكاء :

ولكن كيف يستخدم الفنان ذكائه لتحويل
المظهر المرنى الى رمز رسومه ؟

لا شك ان نظرة الانسان البدائى الى ظواهر
العالم المحيطة به والغريبة عليه لم تختلف كثيرا
عن نظرة الطفل الوليد ، وكان على الفنان البدائى
العصر الحجري القديم ان يحاول جهده
تمييز الاشياء احدها عن الاخر ، فكان يحدد
الإطار الخارجى للاشياء بخطوط بسيطة ، ثم
يحاول الربط بين الاشياء التى يصورها ، وكانت



لوحة هـ : قلعة الجبل من مونتساجور (باستوردام) ، تطبيق بلاستيكي



لوحة ه ب فان جونج : حديقة القصر في الشتار (بامستردام) . شجيرات دقيقة صاعدة متكررة



لوحة هـ جان جيت : منزل وسط البحر ، بعض الخط المستقر في منتجات طيبة وكثيرة مبهمة .



لوحة دقان جوح : حقل التبع مع أشجار (بالمستردام) . تطور الخط الى منتصف مكررة خلافة مسدودة .

ثورة على قوانين العمارة التقليدية ، وقد شاهده ايفيل يقضبان حديدية لم يستخدمها احد في العمارة من قبل . ومن ناحية أخرى أوحى بانشائه هذا بفكرة الارتفاع الراسي الذي أتاحه استخدام الحديد . وتعد العمارة الطبيعية الحديثة خروجاً على صفة الايقية التي تتميز بها العمارة الكلاسيكية .

وقد خرج فن النحت بدوره على قواعد التشكيل التقليدية بمحاولة التعبير عن الحركة المجردة ، واستخدام الأشكال الهندسية البحتة استخداماً متطرفاً بعيداً عن جميع قواعد الهندسة المألوفة بحيث تبرز لنا في النهاية نماذج لصور ذهنية غير موجودة في العالم المرئي .



٣ - الضوء والحياة :

يدرك الإنسان معنى النور لحظة انبثاق النهار من الليل ، وقد عرف الوعي البشري منذ ظهور الحياة الفرق بين الأبيض والأسود ، بين الحياة والموت ، بين الخير والشر . وقد لعب التباين بين الضوء والظلمة دوراً أساسياً في الفنون البدائية ، فقد كانت وظيفة الضوء هي أن يميز بين الكتل المرئية التي تحددها خطوط سوداء ، ثم تطورت وظيفة الضوء مع مرور الأيام وأصبح عليه أن يميز بين أجزاء الشيء الواحد بتدرجه عليها تدرجاً يحرك فينا الاحساس بالتنوعات والمنحنيات الموجودة في جسد معقد كالجسم البشري ، ثم اكتسب بعد ذلك وظيفة ثالثة هي إبراز الفروق بين القيم اللونية المختلفة ، وهو ما أتاح للفنان أن يميز بين درجات اللون . وقد استخدم **ليوناردو دافنشي** الضوء استخداماً ثورياً حين ابتكر طريقته المعروفة باسم « الظل المدخن » سفوماتو التي تجعل الشكل المصور يتراءى للمشاهد وكأنه مغلف بالغمام (لوحة ٦) .

وقد بقيت القواعد الهندسية التي اهتمت إليها الحضارات الزراعية ثابتة في المجالات الفنية حتى اليوم ، وما تزال الحضارة الغربية تستخدمها دون أن تضيف إليها خلال الزمن الطويل غير تقربها من الشكل البصري الوافعي إلى حد محاكاته ، وإذا كان التصوير قد قام في الأصل على تمثيل الأشكال في بعدين اثنين ، بينما قام النحت على تمثيلها في ثلاثة أبعاد ، فقد استطاع التصوير بواسطة خداع العين أن يعطى الأحياء تمثيل الأبعاد الثلاثة غير أن قواعد المنظور قد فرضت سلطة الهندسة ومبادئها الصارمة .

غير أن الفنان الزراعي قد حصر همه في تجسيد الشكل المتحرك في إحدى لحظات حركته ، ولم يستطع التعبير عن الشكل خلال حركته إلا بعد اكتشاف المادتين واستخدامهما ، وقد عاصر ذلك ظهور روح المفامرة والشغف بالابحار والكشف عن مجالات جديدة واسعة ، عبر المحيطات والصحراوات ورائنا اثر ذلك في فنون قبائل سهول آسيا الوسطى ، وفي سفن الفاينكنج التي تعتمد في تكوينها على المنحنيات الانسيابية التي تتيح لها الحركة والانطلاق في يسر وسط العواصف .

وإذا كان اكتشاف المعدن قد ترك آثاره في الفنون القديمة ، فقد لعب كذلك اكتشاف البخار في القرن الثامن عشر واكتشاف الكهرباء في القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من اكتشاف طاقات متعددة حتى الطاقة الذرية دوراً في تغيير نفسية البشر وفنونهم . وقد سجل الفن الحديث ترجمة رائعة لحركة الطاقات الجديدة التي اكتشفها الإنسان وسخرها لخدمته . وكان فن العمارة هو أول الفنون التي خضعت للاكتشافات الجديدة لاستخدام الطاقة . ويمثل برج إيفل المقام عام ١٨٨٤



لوحة ٦ ليوناردو دافنشي ، صورة شخصية لامرأة (باشمعاكس) منحف اللوفر يقضى
التجسيم على التصور الانهام بالشكل البارز. وجاء أسلوب الجلاء والدمه الذى اسكره
ليوناردو حلا بارعا للمشكلة فبدلا من تأكيد الشكل يذهب الى الوسط المحيط به ، وادت
الدقيقة المحسوبة بين السور والظلمة الى حيوية لم يعمدها لناس من قبل .

التاسع عشر هو تاريخ أساتذة الاضاءة في التصوير. وقد فرض الضوء مشكلة الظل والضوء في كل شكل منذ عهد فان آيك . وإذا كنا نجد الضوء يحدد الأجساد في بعض اللوحات فأننا نجده يخدم غرضا آخر يضفي على الأشياء طابعا مختلفا من الطابع العادى ، اذ يبرز الامكانيات الخيالية العجيبة الكامنة في الأشياء حين تتصارع فيها الظلمة مع الضوء . وقد استطاع **بلييني** إبراز وحدة المسيح في أسمى لحظات عمره حين صورته على جبل الزيتون الذى تكتنفه ظلمة الليل ، بينما تحبوا أشعة الفجر الوليد من خلف الوديان (لوحة ٧) .

وكانت الأشياء تصور في البداية في وسط يغمره ضوء خالص لا يبرز لها معه ظل، ثم أخذت الظلال تظهر مع ظهور فكرة استغلال الضوء وتأثيراته في فن التصوير الاوروبى ، ويغلب على الظن أن **كونراد فيتس** كان من أوائل الفنانين الذين أدركوا أهمية الظل في تجسيد الأشكال ، كما شغل الصراع بين الظل والضوء **كارافاجيو** ، وقد أبرز أحد تلاميذه الضوء في لوحته « الكونسير » وكأنه ينزغ الشكل من الظلمات انتزاعا دراميا عنيفا (لوحة ٨) .

ثم أخذت الأشكال تنفتت منذ أوائل عصر النهضة ، وصورت أسقف الكنائس والقصور على شكل سحاه مضيئة لا نهائية ، حتى ازدهرت المدرسة الانطباعية في القرن التاسع عشر وساد الضوء الى حد زالت فيه معالم الأشياء وعناصرها ، ولم تعد الصورة تتشكل الا من تكوينات ضوئية مختلفة . غير ان هذا التطرف في سيادة الضوء على الشكل قد ادى الى رد فعل صارخ يتمثل في التكميبيبة التى تبدى اهتماما كاملا بالأشكال ، وتحيلها الى صور ذهنية هندسية .

وظهرت في أواخر عصر النهضة محاولات للتحرر من الاشكال المألوفة التى خضعت للقواعد الجمالية التى وضعها فنانون عصر النهضة بعد تجاربهم الطويلة منذ عهد **جوتو** حتى عهد **فان ايل** ، فنحت **ميكلانجيلو** تماثيل بشرية تتلوى في عسر وكانها تصارع للخلاص من قوانين الاتزان الكلاسيكي والجمال الهادى . وكانت محاولة **ميكلانجيلو** شبيهة بازمة المؤمنين المعذبة ابان عهد الاصلاح الديني .

ولم يكن طرف ليوناردو دافينشي في فرض الضوء على اشكاله الا محاولة واضحة للهروب من سلطان الشكل . وتعد هذه المحاولة ثورة في تاريخ الفنون التشكيلية ، فقد كان أول من أتاح للضوء ان يحل محل تحديد الشكل المصور ، فلم تتوار خطوطه خلف الضوء ، بل لقد كان نفسه هو الذى يوحى بالشكل المستخفي وراءه كذلك يمثل الاهتمام بالتنوعات المختلفة التى يمكن إبرازها بتغيير درجة الضوء المحاولة الهامة في العصر الحديث لتسجيل الحياة بكل ما تنطوى عليه من تغير وغموض واكتشافات متتالية .

وإذا كان ليوناردو هو أول من فهم امكانيات الاسهام الخلاق للجلاء والعتمة في الفن فان **جورجيوني** قد خطا في اثره خطوة جديدة حين استغل « العتمة » التى يختلط فيها كل شيء ولونها وجعلها تتسق مع لراء روحه الداخلى ، حتى لم يعد من الممكن تمييز عناصر اللوحة الا بواسطة الحس .

وقد ادى اكتشاف قيمة الضوء في فنون التصوير الى ادراك اختلاف ضوء النهار من ساعة لآخرى وتنوعه الى حد يصعب معه احصاؤه . ويمكن ان نقول ان تاريخ فن التصوير منذ عصر **فان آيك** حتى عصر الانطباعيين في القرن



لوحة ٧ جيوفاثي بلليتي : عذاب السج في الحديقة . ناشونال جاليري بلندن



لوحة ٨ ماتيّا بريتي : الكونسير. ١٦٢ - ١٦٤.

أجلى كارافاجيو وبلايذه الصراع بين الشكل والضوء ، فلم يعد الضوء يستخدم
لتجسيم الشكل وإسباغ الدقة عليه بل لكي يتحطم الشكل بعنف مما قد يحدث تأثيراً
مذهلاً أحياناً

المصورين منذ عصر النهضة بأحدى مراحل الضوء بالنهار خلال تغييراته المتعددة : فضاء **بوتشيلي** مثلا ضوء فجرى ، وضوء **دوينز** ضوء ما بعد الظهيرة وضوء **جورجيوني** هو ضوء الغروب . وهكذا كان كل مصور كبير يرتبط بضوء ساعة معينة من بداية النهار الى الليل . ويعد تصوير **دلاكروا** في سقف بهو ابولو بقصر اللوفر مثلا بارزا للصراع بين الليل والنهار ، فقد اشار في تصوير ابولو وهو يقهر الافعوان بثيون الى النور وهو يتغلب على الظلام تغلب لله الروح على الشيطان أمير الظلمات .

• • •

٤ - اللون وروح الإنسان

كان اكتشاف فن التصوير لامكانيات الضوء ايدانا بالتعرف الى امكانيات الألوان النسي ليست الا للضوء المحيط بنا . ولم يكن الفنان يستخدم الألوان في البداية الا على انها عنصر زخرفة للشكل ، فكان يستخدم الألوان لمجرد التفرقة بين الأشكال المختلفة ، وظلت هذه النظرة قائمة طوال الفترة التي كان الشكل فيها سائدا في الصورة . وقد استخدم الفنان الفرنسي **جوجان** هذه النظرة حين اراد التحرر من ولع الانطباعيين بأمكانيات الضوء الكثيرة ، فآخذ يصور لوحته في مجموعات من المساحات اللونية المتداخلة .

غير ان اللون لم يقف عند حد تجميعه للشكل في المساحات اللونية المتداخلة ، بل أخذ يرتبط بالضوء ارتباطا يدوب معه فيه ويتحدبه حتى يصبحان معا وحدة لا تتجزأ ، يأخذ اللون من الضوء اشراقه ويصبغه بألوانه . ونستطيع ان نتبين الفرق الواضح بين الفسيفساء الرومانية التي تتألف من مكعبات ملونة تشكل صورة محددة السماء ، وبين

واذا كان الفنان قد نجح في إبراز الأشكال في الصورة بفضل انتصار العقل البشري والمنطق وتنظيم المرئي ، فقد كان استخدامه للضوء انتصارا لنفس الفنان التي استطاعت ان تبث أسرارها وانفعالها بقوة العالم المحيط وطاقاته خلال العمل الفني . وهكذا أصبح الضوء هو روح الأشكال المصورة وهمسة النفس البشرية في العمل الفني ، واستطعننا ان نحس به رغم انه شيء غير مادي وغير قابل للوزن ، فهو يرمز الى ما ليس مرئيا في العالم . وقديما كان افلاطون يرى ان الخير قمة الواقع وانه يعكس النور في عالم الحس ، كما يعكس الحقيقة والذكاء في عالم الفكر . وقد أعطى اكثر الفلاسفة شاعرية مغزى للضوء بسموه فوق عالم المادة ، بل ان منهم من جعله سمة المطلق الالهي الذي يهبط في نفوسنا على شكل الحقيقة والخير والجمال .

وقد عد افلاطون (٤٠٥ - ٢٧٠ م) تلميذ افلاطون الضوء مصدر جمال الأشياء ، وانتقلت نظره الى الضوء باعتباره سمة الروح التي العصور الوسطى ، فقد كان له اكبر الأثر على الفكر المسيحي منذ القرن الثالث الميلادي رغم انتمائه الى العصر القديم . وأضفى المصورون المسيحيون الأوائل على الضوء صفات الهمة وجعلوه رمزا للموضوعات المقدسة ، وحملوا اللون الذهبي الغالب على الفسيفساء البيزنطية هذه الهمة التي استندوها كذلك الى الزجاج المون بتوافد الكنائس لقدرته على تحليل الضوء ، كما عده بعض علماء اللاهوت رمزا للعداء حين نزل عليها الروح القدس لتحمل بالمسيح .

واخذ الضوء فيما بعد العصور الوسطى يعبر عن نفس الفنان أكثر مما يعبر عن النور الالهي . ونستطيع ان نقرن فن كل من كبار

آثارها إبراز فكرة جديدة في التصوير هي فكرة الكيف بدلا من الكم ، فقد أخذ الضوء يفرض نفسه على العيون ويشدها ويحرك احساس الانسان بالاختلافات الضوئية واللونية حتى يشعر بشدة الألوان المختلفة ، وهو ما لم يكن يبعثه من قبل .

ولقد أمكن تحليل درجة الضوء زيادة أو نقصانا ، أما حين أصبح الضوء ملونا فقد تغيرت طريقة القياس لأن كل لون يختلف عن الآخر ويؤثر تأثيرا متميزا على جهاز الانسان العصبي . وهكذا فإن الألوان لا تختلف كالضوء في درجتها وإنما في طبيعتها ، ثم أن لكل لون اسما ، غير أن اسم أحد الألوان لا يكتسب قيمته الحقيقية إلا اذا كان ذكره كافيا لكي يستعيد الذهن ذكرى تجربة عاشها في الواقع وشهد خلالها هذا اللون على وجه التحديد وعرف وصفه المميز ، وهي تجربة ذاتية لا يمكن نقلها لسان آخر ، في حين أنه يمكن تصوري شكل بعد تحديد معاله الهندسية ، بل يمكن تحديده بدقة بالاستعانة بالحساب ، أما اللون فيطلب جهدا من الحس لادراكه ، فهو يحس ولا يفهم .

وإذا كانت المساحة والمادة تعودان الى عالم الكم وتخضعان لمقاييسه ، فإن الحياة الجسدية الممتدة عبر الزمن ترتبط بتجربة « الشدة » ودرجاتها ، وهي تجربة ذات طبيعة « كمية » رغم خضوعها للتقدير الحسي ، على حين تنفذ الحياة الانفعالية الى عالم أكثر تنوعا وانفساحا وهو عالم « الكيف » أي الطبيعة الذاتية المحددة لكل انفعال ، والتي لا يمكن تداعها في انفعال آخر . ان تجربة الاحساس « بالكيف » هي تجربة « جوانية » ذاتية لا يمكن أن يحس بها الا من عايش التجربة بنفسه ، والعمل الفني هو محاولة « برائية » موضوعية لإبراز هذه التجربة الذاتية الجوانية التي لولا العمل

الفيلسوف البيزنطي التي يتداخل فيها اللون الذهبي مع الألوان الأخرى فيكسبها رونقا جديدا . وقد حدث ذلك أيضا في الزواج الملون لنوافذ الكنائس القوطية حيث تمتزج الأضواء والألوان فتسبغ على الشكل المصور دلالات جديدة ، مضيئة بعدا جديدا للإبعاد السابقة وهو بعد الشدة ، ذلك أن الأضواء المختلفة تحدث في سقوطها على اللون تنوعا في شدته ، وهو ما أدى الى تكاثر الألوان وتزايدها . ولم تكن ألوان الصور الجدارية المصرية القديمة لتزيد في بدايتها عن سبعة ألوان ، بلغت عشرة ألوان في عهد ازدهار الدولة الوسطى ، منها لوان اخضران ولوان ازرقان وثلاثة ألوان حمراء . وقد لعب اكتشاف الزيت كوسيلة للتصوير دورا عظيما في تطوير هذا الفن في العصر الحديث ، وذلك أن الزيت لا يقف عند حد تلونه ، بل أن سمك الطبقة التي يضيفها الفنان الى لوحته يمكن أن تمثل أعماقا وشغافيات اضافية ، وهو ما أتاح للفنانين تصوير الألوان الدقيقة التي تتضمنها الأشياء أو تسبغ في الأجواء المحيطة بها . وقد قال كروتشو أحد علماء الفن في أوائل القرن السابع : « تتألق الألوان وتفتقر مع تنوع الأضواء ، التي تتسلط عليها ضوء الشمس أو ضوء اللهب وما إليها . بل أن الظلال نفسها تصطبغ بالألوان المضادة في الأشياء المصورة » .

ومعنى هذا أن الألوان في العالم المرئي ليست ثابتة ولكنها عرضة للتغير والتألق ، وأن بعضها ينعكس على بعض بطرق لا حصر لها . وقد جعلت الحركة الانطباعية من اللون تجسيدا للطاقة الضوئية ، وحققت أكبر انتصار بتحصيره من كل قيد سوى التعبير عن الاهتزازات اللونية ، وضحت من أجله بالشكل الذي كان اللون في البداية مبدا خاضعا له . وقد ترتب على ذلك ثورة في الفن كان أهم

الصامتة التي يعبر بها عما في نفسه . واستغل فنانون فجر النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر مثل **بوتيتشيلي** و**فرا** **اتجليكو** الألوان المشتقة من الأزرق والوردي للتعبير عن موضوعات تدور حول فصل الربيع ، ونراها تشيع حيوية وشباباً بزهوها وورودها، ومشق **تسبيلو** الألوان النحاسية والذهبية والحمر والزرقة الشديدة الزرقة ، كما اختار **ميرانت** اللون الذهبي والاحمر اللهب والظلال العسلى والألوان القائمة . على أن هؤلاء جميعاً لم يعبروا باللون عن الشكل وإنما حملوه أصواتهم الجوانية التي تنتقل الى أعماق المشاهد انتقال الموجات الصوتية .

ثم ان الكشف عن هذه الطاقات الكامنة في الألوان لم يتم الا بخطى ويئدة وطويلة ، وقد اخذ سلطان اللون على النفس البشرية ينمو مع نمو وعى الانسان بطبيعته واحتياجاته . وكانت دلالة اللون في العصور الوسطى مرتبطة بالضوء اقل مما هي مرتبطة بالشكل . وقد أعطى فنانون العصور الوسطى الألوان دلالات خاصة قبل معرفة طبيعتها التعبيرية التلقائية وجعلوها بمثابة رموز . غير أن الألوان ما لبثت أن تحررت من هذه الرمية واصبحت ذات قوة تعبيرية ودلالة شعورية جديدة ، ثم اكتسب التصوير الزيتي حرية جديدة في القرن التاسع عشر فاستطاع كما قال الفنان الفرنسي الكبير **دلاكروا** « أن يعبر عما يؤثر في النفس بواسطة الأشياء التي لا تؤثر إلا في الحواس » ، ولا شك أن اللون هو أهم ما يؤثر في الحواس .

وقد وجد فنانون ما بعد عصر النهضة في الطيف اللوني وفي الاكائيات الاناهية للتأليف بين عناصره وسيلة للتعبير عن ادق الفوارق بين الأمزجة النفسية ، وكانها يمسك الفنان بيده وتراً موسيقياً يتحكم فيه على هواه . غير انه

الفنى لبقيت كامنة في الإعماق ، ولا يستمد أى شكل فنى جماله من نسب معدية او هندسية، بل من احساس الفنان « الكيفى » وانفعاله الفريد به ، وكذلك بما يضعه فيه حسه « الكيفى » الذي لا يمكن أن يتضمنه الشكل بذاته وتحديده المجرد .

وقد اختلف الفنانون في طريقة استخدام الألوان بين خاضع لتقاليد شكلية ومستهدف لتألف الألوان ، وان ظلوا مرتبطين بمفهوم مساحة الصورة غير مهتمين بقضية الشدة ، يجمعون مختلف العناصر في تكوينات متألغة مع اتخاذ التباين أساس العلاقات بين المساحات المألوفة في الصورة ، على نحو ما فعل **جوجان** و**ماتيس** الذي نحس ان بين فنه وبين الفنون الزخرفية كالفن الاسلامي علاقة وثيقة ، لأن الزخرف بطبيعته هو تجميل للمساحة اداة في خدمته .

على ان هناك مجموعة من الفنانين الذين يستغلون الألوان استغلالاً مختلفاً عن ذلك لانهم يعدونها بمثابة اصداء لنغمات كامنة في النفس . وهكذا يدرك العقل الأشياء الواضحة بينما تحس النفس بالأشياء غير الواضحة ، وهم لا يضعون الألوان متجاورة على غرار الفسيفساء اللونية ، وإنما يحاولون إبراز الامكانيات الاناهية لمرج الألوان بعضها ببعض وشحنها بلذبات تتألف مع ذلذبات النفس مشكلة ما يسمونه بالجو الفنى ، وهكذا يصبح اللون لغة وجدانية تتحدث الى نفوس المشاهدين . واذا كانت لكل لون دلالة خاصة تنفق مع حالة نفسية معينة عند المشاهد فان دلالات الألوان المختلفة حين تتألف في مجموعات متعاقبة تكتسب ابعاداً فسيحة تنفذ بها الى افوار النفس البشرية . وقد مال كل فنان عظيم الى مجموعة من الألوان اتخذ منها لغته

ذاتها وان كان منطق الأحلام هو الذى يربط بينها وأخرى خرافية مخيفة تعذب النفس بوحوشها وشياطينها . على أن هناك اختلافا تاما بين صور الفن وصور الأحلام رغم انبثاقهما من مصدر واحد ، ذلك أن العالم سلبى يستسلم لتيار رؤاه الذهنية المتدفقة بلا هدف أو رباط ، فى حين أن الفنان الإيجابى يؤلف بين صوره ويخضعها لقواعده وصياغته الذاتية المبتكرة .

ثم ان وظيفة الفنان هى ان يستلهم اعماقه ويخرج ما فيها ويصوغه صياغة فنية تجعله جديرا باهتمام الآخرين قادرا على إثارة مشاعر أكبر عدد ممكن من المشاهدين . وقد يكون هذا هو أساس طبيعة العمل الفنى المركبة : يغوص الفنان فى بادئ الأمر فى أعماق أغوار نفسه متخطيا حواجز الفكر المنطقى المستنير ليصل إلى الوحي الكامن فى اللاشعور الذى لا يلبث ان يطفو على السطح ، ثم يستخدم قواه الذهنية الواعية لتشكيل العناصر الجمالية . وقد تلعب الذاكرة دورا هاما فى تكييف ما نظمه الدهن الواسع ، فتعد الخلق الفنى حينئذ بعنصر جديد هو الخيال بمعناه المحدود بتشكيل الصور الذهنية . فالخيال منبع الأحلام والإبداع الفنى معا ، وهو يعين على اختيار الموضوع نبنى ويحقق التوازن بين العالمين الداخلى والخارجى . على أن هناك نوعين من الخيال سلبى وإيجابى ، وليست للخيال السلبى قدرة فنية خلقة ، ذلك لأن دوره فى الخلق الفنى لا يتعدى دوره فى الأحلام فهو يبرز خفايا النفس، تلك الصور التى أثرت أكبر تأثير فى الذاكرة ، وكأنه ينتقى ما يريد الفنان من الصور التى تسترجعها الذاكرة من الماضى . وكان فنانون

كان من الضرورى الكشف عن تفسير سليم لقدرة الألوان على التعبير عن حالات النفس ثم الخروج من ذلك بنظرية فنية متكاملة . وهذا هو ما فعله دلاکروا والفنان والمفكر معا . وقد أصبح دلاکروا بفضل منهجه الفنى رائدا للحركة الانطباعية والرمزية ورائد فن جوجان أيضا ، وكان يعد اللون رسالة خاصة فى الكشف عن التجربة المعاشة فى أعمال الفنان ثم فى تحويلها إلى شيء مدرك محسوس . ذلك أن الفن ليس سمة لما هو معروف مرئى بل سمة للنفى المجهول . انه لغة تختلف عن اللغة العادية التى تخاطب أفكارنا وآراءنا لانه يحمل تجارب الحياة إلى حسنا قبل ان يتدخل العقل فى تنظيمها أو صياغتها . ويستطيع العمل الفنى أن يثير فينا مشاعر لا تستطيع الكلمة المجردة ان تعبر عنها الا تعبيرا مبهما . ثم ان الفن التصويرى لا يؤثر بواسطة الشكل كما يؤثر فن العمارة أو فن النحت ، وانما يؤثر تأثيرا ابعدا مدى لانه يجمع بين البيئة والجو والضوء والألوان المختلفة فى تكوين جديد يمكن مقارنته بالتكوين الموسيقى . بل لقد تحدث دلاکروا عن « موسيقى اللون المصورة » وقلده فى ذلك الكثيرون من المصورين من بعده . ثم ان الفضل يعود إليه فى اعتباره الفن تعبيرا عن خفايا نفس الفنان دون وعى منه بذلك ، وقد فتح الفنانون من بعده أعينهم على هذه الحقيقة فأخذوا يصوتون إلى الأصوات الخفية الصارخة فى أعماقهم ليعبروا عنها برموز ملونة من العالم المرئى .

• • •

٥ - الصورة والأحلام

اتخذ كثير من فناني غرب أوروبا منذ عصر النهضة من الأحلام موضوعات صورههم ، فتجدهم قد شكلوا تكوينات ذهنية معقولة فى

كل حدث لارادة كائن حتى قد يخفى عليه، وكان يعتقد ان كائنا شبيها بالانسان يمكن داخل النار ، وان نمة ارادة تختفى وراء ظواهر الطبيعة المختلفة . وذلك هو النهج الذى يتبعه الخيال مع الأحلام فهو يكشف عن خفايا النفس ويجسدها في شيء من العالم المثلوى . وكذلك يفعل الشاعر والفنان حين يواجهان ما يعجزان عن التعبير عنه فيلجآن الى الرموز لانها البديل الوحيد للمجهول والمعلوم معا .

في اعماق الفنان غريزة خاصة هى غريزة ابتكار الرموز التى يستطيع عن طريقها وبواسطة عملية اختيار ارادية خلق عالم مكون من عناصر الكون نفسها غير أنها تتألف وتقيم حسب الدلالات التى يسبغها الفنان على الأشياء . وقد تحددت لعناصر الكون الرئيسية الأربعة (الماء والنار والهواء والأرض) دلالات رمزية في عالم الفن : فالهواء شفاف مضى رقيق لا تكاد تدركه الحواس وان أحسن المرء به ، والماء ملىء بالألغاز غامض متحرك ، وفي النار رونق وضوء وحركة عنيفة ، والأرض ثقيلة جادة .

وقد تميز بعض الفنانين بقلبة أحد هذه الرموز على صورهم حتى سمو باسم هذا الرمز أو ذاك ، فاطلق على « كوروكو » اسم فنان الهواء ، وسمى قورن بفنان الماء ، وقيل عن فان جوج انه فنان النار ، أما كورويه فهو فنان الأرض .

وقد برز فنانان في معركة التحرير التى أدت لى ازدهار الفن في العصر الحديث هما اتسور وشاجال :

وقد ورث جيمس اتسور الفنان البلجيكي الذى عاش في أواخر القرن التاسع عشر ذلك الوالع بتصوير القبح والفرد في عالم مجنون لا يخضع

المؤثرات البيئية في تكييف الخيال الفني . وعلى عكس الخيال السلبي الذى يعمل بطريقة شبه لا ارادية ، يعمل الخيال الإيجابي عملا واعيا يستخدم فيه الذكاء والارادة ويلتزم عناصر الجمال . وليست اللغة الحيوانية لأحلامنا واللغة الانسانية لغتنا الا رغبائنا التى يتشكل منها نسيج حياتنا وتعبّر عن نفسها في الصور والرؤى الدهنية .

غير ان هناك فارقا بين انكاسات رغبائنا وبين الصور المعبرة عنها شبيها بالفارق بين عمل العبقرى المبدع وبين نقل تلميذه الأمين عنه . فاذا كانت لصورة العبقرى الأصيلة دلالة فان الصورة المنقولة لا تتضمن الا ظلال من دلالة الأولى . وفي فن العبقرى خيال ايجابي يتيح له التعبير بلغة صامتة متميزة نابغة من رغبته التى تعكس حالته النفسية الخاصة ، كما يحلم رائد الصحراء الظائم المحروم بينابيع الماء المثلج . ونحن نحس هذه اللغة الصامتة الخاصة في أعمال كبار الفنانين من امثال روبنس ودينوار الذين يعبران عن تدهلهما بجسد المرأة (لوحة ٩) بل لقد أعلن وينسوار صراحة : « اننى اصاحب المرأة بفرشاتى » .

وقد اكتشف التحليل النفسي في الأحلام لغة خاصة بالخيال في لغة الرموز . والرميز بطبيعته خادع عصي الفهم ، فقد يتخذ موقفين متباينين : قد يكون مباشرا يكشف عن الشيء الغامض بطبيعته، وقد يعمل على اخفاء المشاعر التى تحاول الظهور فنكتبتها أو نتجاهلها . هذه الامكانية المزدوجة جعلت من الرمز لغة قادرة على التعبير عن مشاعرنا وعن اخفائها كذلك . ولم يكن الانسان البدائى قادرا على التعبير عن مشاعره الخفية الا برموز مأخوذة من العالم المثلوى . وقد نسق فيما بعد بين هذه الرموز المثلوية، وشكل منها اسطورة خافية اسند فيها



لوحة ٩ دويتز : حفل باكفوس بنفسم اربا دنى عروس الاله باكفوس

ويحاول تمييز كل منهما بمناصره الثابتة ، فاذا نظر الى الحياة الذهنية او الحسنية بحث أولا عن الذات البشرية التي يعدها مركزا لكل شيء ، واذا نظر الى العالم الخارجي ركز اهتمامه على المادة المحسوسة التي تملأ الفراغ ، ثم يسعى بعد ذلك للكشف عن قوانين بناء كل من هذين العالمين ، وهى قوانين العقل والمنطق التي تسود العالم الداخلي ، وقوانين الشكل والتشكل التي يقوم عليها العالم الخارجي ، وهكذا يقيم تعارضا بين العالمين حيث تقف النفس البشرية مسلحة بالفكر في مواجهة العالم المادى ، تتأمل الكون كله بحواسها وتتعرف عليه بفكرها حتى تخضعه لاصول منطقها في وعى وفهم دقيقين . ومع ذلك يرى الغرب قيام روابط كثيرة بين العالمين من خلال هذه المواجهة بينهما ، كتلك الروابط التي تجمع بين صديقين يتنافسان في حلبة المصارعة وفق مجموعة من القاييس المحدودة . ويضع الغرب مقيارا يحدد الفواصل بين العالمين فهو يسلم بأن العالم الخارجى قابل للتفسير وانه يخضع للقواعد التي يشكلها الانسان في ذهنه ، كما يخلق نوعا من التواطؤ بين ثبات المادة المحددة بحسب اشكالها وبين ثبات القواعد العقلية في ذهن كل انسان . وهو بهذا لا يعترف بالنوعين الرئيسيين من انواع القلق الذي يمزق البشر ، وهما الشعور بالضيق اللاهائى والشعور بالارتداء على سطح مجرى الزمن المضطرب الصاخب ، الامر الذي يطعن البشر على وضعهم ويمنحهم قدرة على الثبات في مواجهة اماسير الحياة .

اما الشرق فلا يضع مثل هذه الفواصل المميزة بين الانسان والعالم ، ولا يسلم بوجود مسافة بين الانسان وبين ما يتأمله في محاولته للمعرفة ، بل يقيم معرفة الانسان بالعالم على فكرة الاتحاد والاتصاق والحب ، حتى قال الفيلسوف الهندى « كبير » في القرن الخامس

لنطق الحياة : فوجوه اقنصة وجماليهم ، وخطوطه تنفتحت ويدب فيها الغناء ، واشخاصه تتحول الى حشرات مخيفة ومضحكة معا ، ولوحاته كلها نهب للموت والضحك . على ان فنه هذا ليس وليد الصدفة والاعتباط ، بل وليد خيال يتحكم فيه ارادة صارمة ، ترى الاشياء جميلة والانسان قبيحا . وتتضمن كل لوحة من لوحاته تطبيقا فلسفيا يتناول البشر والعالم الذى يعيش فيه اشخاصه ، والذى يقدمه في صورة مدمرة تبرز معها الاوصار بين الناس ، وكأنه لا يرى الجمال الا حين يختفى الانسان (لوحة ١٠) .

اما شاجال الذى يرجع اليه اغلب الفضل في تحرير الصورة الفنية فتزخر لوحاته بمشاهد صباه في الاحياء اليهودية في روسيا ، وبكل ما كان فيها من عاطفة وحنين الى الماضى اذى مضى ولن يعود ، وقد سجلها في اوضاع لا تخضع لقانون الجاذبية ولا لقواعد المنظور مما جعلها تبدو وكأنها معلقة في الهواء لا تتحرك الحركات المألوفة ، ولا تتخذ الاوضاع المتعارف عليها ، فهي تحمل دون شك اثرا كبيرا من عالم الاحلام حيث يسبح الانسان في الفضاء ، وحيث تميل الدور على جوانبها دون ان تستقط ، فالزمن في رايه - نهر بلا ضفاف - وقد كتب في ترجمته اللاتينية كلمة تعد مفتاح فنه فقال : « يبدو لى ان الفن حالة نفسية قبل ان يكون شيئا آخر » . (لوحة ١١) .

• • •

٤ - الفن والفكر :

يتلخص التباين بين الشرق والغرب في ميادين الفكر والفن في نظرة كل منهما الى جوهر الفكر البشرى المتبلور ، في التمييز بين العالم الداخلى والعالم الخارجى ، فيهتم الغرب بتحديد هذين العالمين تحديدا ثابتا دائما ، فهو يفصل بينهما



لوحة ١٠ السود : تيمو واليهيكن الطويلة . يخفي الرواق عند السور وراء القبة جوفاء أرضها الضخام



لوحة ١١ مارك شاغال : الكونسير . مع ميري الزمن زخم ذكريات الماضي والحاضر نفس الشبان وترقص على انقسام موسيقى الفن

ادراكا دقيقا له ، وكان فكره وقواعد منطقته صورة لقوانين الطبيعة والبناء الكوني ، وشكل جسده وتناسبه نموذجاً مصغراً للعالم المحيط به ، بل لقد اتخذ الفن الاغريقي من الجسد الانساني موضوعه الرئيسي ومعياره لقياس اى بناء . كذلك اصبحت المظاهر التى حاول الشرق اختراقها للنفاذ الى سر الوجود هى اساس الواقع عند الاغريق ما دامت خاضعة لقوانين العقل البشرى الذى عثوه منبع الحقيقة كلها . وقام الفكر الاغريقى على قاعدة كبرى هى « الموضوعية والتجريد » ، فكان الانسان الاغريقى يأخذ الواقع أساساً للفكرة ، وينظر الى الانسان لكي يصل الى تصور الاله، ويتأمل الطبيعة ليخلق الجمال الفنى النموذجى ، وهكذا تختلط في الفكر الاغريقى المثالية والواقعية ، الحواس والعقل . ويستخلص الفنان الجمال من الطبيعة - على انه المادة الرئيسية في تجربته الفنية - ثم يبرزه بجهده الفكرى . وقد لعب الفكر دوراً هاماً في عالم الجمال عند الاغريق حتى أنهم حاولوا رد نظراتهم الجمالية الى أفكار رياضية بحتة على غرار ما فعل فيثاغوراس حين قال ان العدد هو جوهر الأشياء . ذلك أن الاغريق ركزوا اهتماماتهم فيما يمكن تحديده ، وخاصة ما يمكن تحديده بالأعداد ، بينما لم تستطع روما بعد انتصارها على اليونان غير إبراز النزعة الطبيعية والمدرسية على حساب المثالية المجردة التى تجلت في الحضارة اليونانية وخاصة في عمارتها القائمة على العلاقات والنسب بين الخطوط المستقيمة ، وهكذا ادخلت روما المنحنيات في عمارتها والالوان في فنها التصويرى .

على ان العبقرة اليونانية التى ضربت روما قاعدتها القومية قد انتشرت على شواطئ البحر المتوسط وأخذت تمتزج بالتأثيرات

عشر : « لقد جعل الخالق من العالم الداخلى والعالم الخارجى وحدة لا تجزأ » . وليس هذا هو موقف « كبير » وحده بل أنه موقف الفلاسفة ورجال الدين جميعاً في الهند ، فهم لا يؤمنون بوجود الحياة في أعماق النفس وفي الطبيعة الخارجية خلف ستار المظاهر المادية الخادع . وقد نادى بودا في القرن السادس قبل الميلاد بالغاء الفوارق بين الخارجى والداخلى لان الشكل يفقد معناه بالنسبة لذلك الذى اختفى وجمد ولم يعد من الممكن الاسماك به ، كما أنه لا يؤمن بوجود « الانسا » بل بوجود « الاتمان » أى الذات غير المحددة ، ويمد الحياة سراباً ولا يؤمن الا بحقيقة وحيدة هى « السمسرا » أى محيط الحياة المتموج .

ويتجاهل الفن الشرقى الأشكال المحددة والتعبير عن الذات ، ولا يسعى الفنان الشرقي وراء الابتكار والأصالة ، وإنما يمضي طبعاً على نهج القواعد المتوارثة لأنه يعد نفسه وسيلة اتصال بين الإنسان والحياة الكونية غير العاقلة . وهكذا يحدد هدفه في إيضاح لين الحياة وإيقاعها اللانهائي . ومع أن فلسفة الهند الفنية هى فلسفة الشرق عامة ، إلا أن هناك فروقا تميز بها الفنون الشرقية الأخرى ، وتزداد هذه الفروقات حدة في الصين واليابان ، حيث نجد فنيهما يقترب في مفهومه من الفن الغربى لاهتمامه التزايد بالحياة اليومية .

ومضى الغرب في طريق مختلف عن طريق الشرق ، فلم يشغل نفسه بالأفكار الغيبية المتصلة بالحياة الكونية ، وجعلت الحضارة الاغريقية من الإنسان أساساً للحقيقة ومقياساً لها ، بل لقد قال پروتا جوراس « الإنسان مقياس كل شيء » .

كان إحساس الانسان بالواقع عند الاغريق



التقديمية المتمثل في الميل إلى الأشكال الهندسية، وإلى التناسب والانسجام الشكلي الذي يعكس الحقيقة الإلهية والذي جعل القديس أوغسطين يفضل العمارة والموسيقى على الفنون التشكيلية التي يبعد تجردها من النسب، الإنسان من التأمل في المادة لذاتها . وتتجلى ثنائية موقف العصور الوسطى من الحقيقة المادية في الطرازين المثاليين لهذه العصور وهما طراز الرومانسك والطراز القوطي . فلقد اتخذ طراز الرومانسك والفكر ومن مفاهيمه التي يفرضها على الحياة الواقعية نقطة بدايته ، بينما قام الطراز القوطي على الخضوع لايحاءات الحياة الواقعية ثم تكييف انطباعاته بذكائه وحساسيته حتى يخرجها في إطار ساحر جذاب . وكان الانتقال من الرومانسك إلى القوطي مواكبا لتحول العصور الوسطى من نظريات القديس أوغسطين المتأثر بفلسفة أفلاطون إلى نظريات توما الأكويني المتأثر بفلسفة أرسطو ، وكان بين الفيلسوفين تباين في فهم حقائق الوجود والكون . كان أفلاطون يعد العالم المادى هو اللاوجود ، ويرى أنه ليس إلا انعكاسا لنماذج صافية مجردة سماها « المثل » ، وهى التى تشرها أفلوطين في القرن الثالث بأن لا شكل لها ولا لون وأن الوجود الحقيقى كامن فيها لا فى انعكاساتها على الأرض . وذلك هو السر فى غلبة الطابع التجريدى فى الفن المسيحى فى قرونه الأولى وخاصة الفن البيزنطى .

على أن العالم المرئى إذا كان بالنسبة لفلاسفة العصور الوسطى رمزا لله فقد كان فى الوقت نفسه عائقا لأنه كان يشهد الإنسان إلى البحث عن منبع الحقيقة من خلاله ، وهكذا كانت المادة مجرد وسيلة لادراك ما وراء المادة . وحينما اكتملت الترجمات اللاتينية خلال القرن الثانى عشر عن الدراسات العربية لابن سينا وابن رشد لأفكار أرسطو التى كانت تدرس بجامعة

الوافدة من الشرق وتأثيرات البرابرة، واكتسبت الفن اليوناني المهزوم وسيلة جديدة للتعبير فى ظل الامبراطورية الرومانية ، هى وسيلة الرمز الذى أصبح أقوى أثرا من الكلمة والفكرة . كذلك تعانقت التأثيرات الدينية فظهرت نزعات صوفية شرقية ، ودخلت عقيدة إيزيس وأوزيريس صوفية مابعد روما ، وبالمثل عقيدة « مترا » الفارسية . وكان زحف « المسيحية » من الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط بداية ثورة فى التصوير ، اذ اتجه الفنان من العالم البشرى المرئى إلى العالم الإلهي اللامادى ، وظهر فن مسيحى يستخدم الرمز والايحاء ويتجنب التسجيل والمحاكاة ، كما تشكل فكر مسيحى اخذ عن أفلاطون نظريته عن التباين بين العالم الخارجى وبين العالم المثالى المطلق حيث يكمن الجمال الخالص العصى على الوصف . وظهرت أفلاطونية حديثة فى الاسكندرية على يد « أفلوطين » فى القرن الثالث ، استطاعت ان تخطو بالعالم من الفكر القديم إلى فكر العصور الوسطى . وفى ظل هذه الأفلاطونية الحديثة نما الفن المسيحى متجاهلا أهمية مظاهر الأشياء وتكوينها المنطقى ، متخذاً من الصورة وسيلة لنفاذ النفس إلى العالم الإلهي ، وهذا هو ما يفسر أسلوب الفن البيزنطى الخاص الذى تجاهل الواقعية إلى التجريد ، والعقلانية إلى الايحاء، وقواعد محاكاة لطبيعة المنطقية كقواعد المنظور، إلى ما يشير النفس من الوان وأضواء .

وظل الفن طوال العصور الوسطى متأثرا بهذا اللقاء بين العناصر المتنافرة من الحضارات المختلفة التى قامت فى حوض البحر المتوسط ، والتي لم تفقد الحضارة اليونانية اللاتينية تأثيرها فيها رغم قيام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وحافظ الفن على جوهره الروحاني رغم استعانتها بشراء المادة وروعتها فى التعبير عن جوهره ، كما حافظ على تراث العصور

لوحاته الدينية خلال القرن الخامس عشر إثارة المشاعر عن طريق الإيهام بالواقعية بدلاً من تحريك الفكر بالرموز والمصطلحات ، وقد كان الاهتمام بالإيهام بداية الأصالة الغربية في الفن وهي التي ظهرت حين استطاع **فان آيك** تطوير التصوير بألوان الزيت إلى حد محاكاة الطبيعة . وقد بقيت هذه الواقعية قاعدة الفن الغربي العامة حتى أواخر القرن التاسع عشر حين ظهر التصوير الفوتوغرافي الذي أدى إلى رد فعل ضد الواقعية في الفنون التصويرية غير الآلية .

على أنه قد ظهرت مع بداية عصر النهضة نظريات جمالية أخرى كردود فعل لواقعية العصور الوسطى : فظهر في إيطاليا صراع بين الواقعية وبين العودة إلى الفلسفة اليونانية القائمة على وجوب تحكم الفكر والمنطق فيما هو محسوس ، كما ظهرت كذلك النزعة الموضوعية العلمية المتمثلة في ليوناردو ، أثنشي والتي أدت إلى نمو روح العلم وإلى الكشف العلمية ، والتي برزت في الفن إلى جانب ظهورهم في الفلسفة ، وتمثلت في الاهتمام بما توحى به الحواس بوصفها المصدر الوحيد للمعرفة في شتى الميادين الفنية .

وبقيت الحياة الفكرية في أوروبا أسيرة التناقض بين الفلسفة الأفلاطونية القائلة بأن الحقيقة كامنة في العقل والروح وبين الفلسفة الأرسطية القائلة بأنها كامنة في الحواس . وقد اتجه الفن الحديث اتجاهها أفلاطونيا لردّه الحقيقة إلى مجرد رمز ومضمون روحي معين على نحو ما نراه في فن جوجان . وتجد صورا **أفلاطونية** يسود فيها **التطلع إلى القواعد العامة** و**اتكار وجود الاستثناءات** ، و**ترتبط بنظم اجتماعية استبدادية تطوى الأفراد داخل الجماعة** صاحبة السيادة ، كما تميل إلى **الصيغ الذهنية القديمة** حيث **يخضع العقل لمبادئ ثابتة**

طليطلة بالأندلس انتقلت إلى جامعة باريس عام ١٢١٥ بعد أن كانت هذه الجامعة تحرم دراسة الميتافيزيقا وطبيعتها ، وأخذت أفكار أرسطو تسود وتنتزع مكان الصدارة من أفكار أفلاطون .

ولعب فلاسفة الفرنسيين الدور الهام في تمهيد الطريق لسيادة فلسفة أرسطو التي تقود الإنسان إلى عالم الحقائق المجسدة وتعطى اهتمامها للعالم المادي حتى فسر القديس فرنسيس الأسيزي الحب الإلهي بأنه الانطلاق إلى الله عبر العالم المادي ، كما أحب الخليفة بوصفها أثر الخالق . وكذلك اتجه الفنانون الإيطاليون من تشيمابوي إلى جيوتو إلى الواقعية بدلا من التجريدية البيزنطية . كما رأى القديس بونا فونورا المحبة الإلهية في المخلوقات سواء كانت كائنات حية أو جمادا ، وهو ما يعد خطوة نحو علم الطبيعة وفق مذهب أرسطو الذي يعد المخلوقات أشياء حقيقية ذات قيمة ذاتية^{١٥} .

وفرض البهر الأكبر وتلميذه توما الأكويني النظرية الأرسطية شيئا فشيئا ، وكان عماد تدريسهما للفلسفة المنهج الاستقرائي المعتمد على الخبرة المحسوسة بدلا من المنهج الاستنباطي المأخوذ من حقائق مسلم بها ، ومن ثم كان الاهتمام بالطبيعة أكثر من الاهتمام بالأفكار . ويمكننا أن نحدد انعكاس الفلسفة الأرسطية في الفن في تغير موقف الفنان من الحقيقة ، وانتقاله من معالجة الطبيعة بمعالجة ذهنية تجريدية هندسية إلى اتخاذ الطبيعة كما هي موضوعا لفنه فزخرف بها كنائسه كما نحت تماثيل واقعية ، وأخضع العمارة لقوانين المادة وخاصة قانون الجاذبية الذي يعود إليه الفضل في ابتكار أشكال وطرز جديدة رائعة . كذلك حاول الفنان القوطي في

الجامع التي عرفت فيما بعد باسم مجالس ترنت ثم بولونيا ، كما أنشأت ما عرف باسم الحركة المضادة للأصلاح الديني . وكان الآباء اليسوعيون هم رأس الرمح في حركة المقاومة الكاثوليكية ، وقد نظموا حركة معاداة للبروتستانتية حتى في المحيط الفني ، وجابهوا واقعية الفن البروتستانتى وفرديته بالقوة الجماعية للفن ، وحددوا حرية الفنان بقوانين لا تقبل المناقشة ، وسخروا الفن لثلاثة عواطف الجماهير وتحريك أعجابهم بالخزفة الباهرة التي يحس الإنسان امامها بالفاتلة والتي تنبض بالحياة وثائق الاحساس . وقد قال مولينوس اليسوعى « ان الكنيسة هى صورة السماء على الأرض فكيف لا نزينها بأثمن ما نملك من وسائل ؟ » . وازدهر على اثر ذلك فن الباروك بالتواءاته الغريبة وزخارفه المبالغ فيها ، وألوانه المليئة بالحرارة والتوهج وأشكاله الصارخة العنيفة ، وقد أضاف الكاردينال باليوى عام ١٥٩٤ : « ان الكنيسة تود ان تلهب أرواح أبنائها » ، ولم يكن ذلك بتحريك الاحاسيس وحدها بل والانفعالات أيضا ، فقدمت المشاهد الحانية والمهيبة والمؤثرة بصورة الحماسة المشتعلة وألم الشهيد العذب . وهكذا يذهب المثل الأعلى لعصر النهضة مدقوها بواسطة السيل الجارف الذى يتدفق بالعلم الذى أحس به المصور كاراتشى ، وبعظمة الباروك وحسبته ، وهو الذى علا بتماثيل يوليئى في القرن السابع عشر ، وألهب فن التصوير في فينسيا على أيدي **تيتوليو** ومنافسين من وسط أوروبا ، وكذلك بالسذاجة الواقعية التى طورها **كارافاجيو** حتى جعلها تؤثر تأثير الصدمة العنيفة كرد فعل للبالغات الخيالية . وبعد لوحة روبنس أعظم لوحة تصور هذه الاهتزازة التى أهملت رقة التعبير الفردى من أجل إبراز الحركة الصاخبة (لوحة ٩) .

مقبرة . ونجد عصورا ارسطوية تزدهر فيها اليول الشخصية والتعبيرات عن التراث . فعلى حين كان فن الرومانسك في العصور الوسطى الاطالونيا اوفسطينيا ، كان عصر النهضة في ايطاليا ارسطويا يلتمس الوحي من المصادر المباشرة في الكون ، ويقوم على الملاحظة ومعرفة الحقيقة بطريقة ايجابية يعمل فيها الفكر من أجل اكتشاف قوانين الطبيعة كقواعد التطور التى ترمى الى فهم تكوين الأشكال وتنظيمها من وراء مظهرها المجرد ، والتى ساعدت على خلق مفهوم فنى جديد هو المفهوم الجمالى الناتج عن التنسيق الفنى .

وقد برزت في عصر النهضة أهمية الإنسان وأهمية فكره وتجاربته الحسية بعد أن كان الله هو مصدر كل شيء في العصور الوسطى . فقامت فنون شمالى أوروبا على تجارب الإنسان الحسية كما قامت فنون إيطاليا على عظمة فكره . وأعلن الفيلسوف فيثشيون أن السماء في متناول البشرية مهما علت ، وأن الإنسان يفرض مشيئته حيث كان . أنه يحاول أن يكون موضع الثناء والحمد وأن يخلد مثل الآلهة .

وكان هذا الاهتمام بالإنسان وهو ليد نزعة ارسطو أساس نمو الفكر البروتستانتى القائم على الاعتماد على الضمير الذاتى في العبادة . وقد وجد التعبير الذاتى متنفسا في الفن كما وجده في الدين وخاصة في البلاد البروتستانتية الشمالية ، ودعمه مبررات وفيرمير في هولندا . ولا شك أن الاتجاه البروتستانتى الى التعبير الذاتى كان يعمل في داخله بذرة الحركة الرومانتيكية التى ظهرت في العصر الحديث . على أن الكنيسة قد أحست خطر البروتستانتية فقامت لتواجه التحدى بمجامعها المقدسة التى عقدتها فيما بين عام ١٥٤٥ وعام ١٥٦٣ وهى

ومع اضطلاله القرن التاسع عشر اخذ تأثير الفلسفة الألمانية يستحوذ على الفكر الأوروبي بأسره . وقد لعبت فرنسا في ذلك دورا هاما اذ حملت مبادئ الرومانتيكية الألمانية ومهدت الطريق لانتشارها مع اهتمامها بالخواص الفردية والانفعالات الداخلية وديناميكية الحياة بدلا من التعميمات المجردة التي نادت بها الفلسفة الألمانية في بادئ الامر . وقد امتدت فلسفة « النور » « آوفكلارونج » الفرنسية الى ألمانيا كذلك، كما اعانت الاتجاهات الجديدة في العلوم والفلسفة على البحث والاكتشاف وهما جوهر الرومانتيكية ، وتطورت مبادئ علم حساب التفاصل والتكامل الذي يهتم بالتتابع وبما هو لا نهائي من حيث الصغر أو الكبر ، كما اخذت فكرة اللاوعي والذرات الروحية تلعب دورها في تكييف الوعي العام والدوق الفني في أوروبا .

وكان دلاكروا من أهم مفكرى الفنانين في القرن التاسع عشر . وقد كتب بحثا طويلا عام ١٨٥٧ أثبت فيه تغير معايير الجمال تبعا لتغير الحضارة ، كما كشف عن النسبية في الطبيعة الفردية لكل فنان ، ورأى أن الفنان بطبيعته انسان فريد متميز حتى يمكن أن نقول أن فرديته وشخصيته المتميزة هما سر مبقريته حين يقدم لنا وجها جديدا أو فريداً للأشياء التي بصورها .

على أن الفن الفرنسي الذي هجر تقاليده الى الرومانتيكية لم يلبس أن عاد سيرته الأولى في ملاحظة ظواهر الحياة ملاحظة دقيقة لا تعوقها المبادئ الجمالية والمثالية المختلفة حتى جاء **جوستاف كوربيه** وقال : « أن التصوير محاكاة للأشياء المرئية وأن أساس الواقعية انكارها ... » ومن يومها ولدت النزعة الطبيعية في الفن .

وإذا كان الصراع الديني قد أدى الى تبلور مواقف معادية في إيطاليا كما رأينا فقد ابتعث الحماسة الدينية في كل من أسبانيا وفرنسا . وقد تأثرت أسبانيا وهي قلعة الكاثوليكية التي لم تنجح البروتستانتية في اقتحامها بالتيار الصوفي الذي حملته الحلاج من العراق في القرن العاشر والذي أتى به المسلمون من أمثال **أبي مدين** في أشبيلية و**أبن عربي** في مرسية . وظهر قديسون يمثلون هذا التيار الصوفي كالقديسة **تيريز** و**يوحنا الصليبي** كما مثله بين الفنانين المصوران **دوباران** ، و**الجريكو** .

ويرى في فرنسا تياران متميزان في أوائل القرن السابع عشر يتجه أحدهما نحو الإيمان القريب من البروتستانتية ويمثله المصور **فيليب دي شامبين** ، ويميل الآخر الى العذوبة والهدوء على نحو ما نراه في لوحات المصور **لوسوير** .

وظهر في فرنسا الفنان **يوسسان** معاصر **ديكارت** فأبدع النزعة التشكيكية التي ترمى الى امتناع النفس بتنسيق الخطوط والألوان ، ولجأ الى التعبير الذي يربط بين نفس الفنان والمشاهد لفنه ، وهو الذي يرجع اليه الفضل في ظهور الفن الكلاسيكي .

ثم كان القرن الثامن عشر هو القرن الذي تجاهل المبادئ الذهبية وفضل الاعتماد على الحواس ، لأنه كان يهدف الى الامتاع وإثارة الخيال ، وتطورت الناحية الحسية الى شهوانية نحو ما نرى في أعمال **فانو** و**بوشيه** و**فراجونار** . وقد اتجه الفن خلال هذا القرن نحو الخطوط الحركية والانحناءات والتوجعات والهروب من التعامل الهندسي ، وظهرت حركة الباروك المفرطة المعتلة والركوكو القائمة على تقليد أشكال الأصداغ والمحارات في فنى العمارة وصناعة الأثاث .

الجامعة لتختار بين فقة الجماعة التي تهددها خطر العمى وبين قلق الفرد الذي يصيح في سر عامل نفى وتحلل . ولن يكون الحل في اختيار احد الاتجاهين المتعارضين اللذين يحمل كل منهما مودا ومخاطر بل في محاولة لم تبذل بعد للتوفيق بينهما .

علّم فاسارى ليوناردو دافنشى ورافائيل وميكلانجلو اعظم فناني عصر النهضة ، فقد تمثلت في رافائيل جميع التيارات التي سادت عصره ، وحمل فن ميلانجلو الارهاصة باتجاهات المستقبل ، في حين كان ليوناردو قمة للروح العلمية التي كانت قد اخذت تنمو قبل ظهوره ، كما كان اول عبقرى حقق الكثير من التجارب العلمية التي خاضت العقول منذ اكثر من قرنين ، وكانت نظريته الفكرية توجها للجهود التي بذلت في اواخر العصور الوسطى فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر . ومع هذا لم يجد فن ليوناردو ترحيبا كبيرا من معاصريه الذين لم ينظروا اليه الا على انه مهندس ، والذين قامت فلسفتهم على المذهب الانساني الذي كان في حقيقته تجديدا للمثل الافلاطونية واحياء لفلسفة افلاطون بينما انتمى ليوناردو الى المدارس الفكرية الارسطية التي ازدهرت في اواخر العصور الوسطى ، عاكفا على البحث التجريبي الخاص بالطبيعة كما هي في الواقع (لوحة ١٢) .

ونستطيع ان نشيخ الصراع بين ليوناردو ومعاصريه في كتاباته العديدة حين كتب يقول :

« سيتهمني امدائي بالصور عن التعبير لان ثقافتى ليست ادبية ، مهملين ان اعمالي نتيجة خبرتي لا نتيجة قراءتي ، والخبرة استاذ كل كاتب ، وقد اضلها استاذًا لى واذا كنت لا اشير الى كتاب آخرين كما يفعل غيرى فان هذا يكسب كتاباتي قوة خاصة ، اذ اننى اعتبر الخبرة استاذًا اسألدهم » .

كما جاءت صيحة أندريه جيد في كتابه « اللااخلاقى » : « ان مايميز بينى وبين الآخرين هو ما استطع ان اقلوه وحدى دون ان يقوله غيرى او يسبقنى اليه » فكانت هذه الصيحة شعارا للفن الحديث في القرن العشرين الذى يقوم على الاصالة والجدة ومعاداة الافكار التى سبق معرفتها . غير ان الواقع المادى والقوانين العقلية قد وقفت في وجه هذا الاتجاه الجديد ، واصبح امام الفن طريقان : فاما ان يكون اداة للامتناع واما ان يكون تعبيراً عن الدات ، وهما الطريقتان اللذان تقاسما المدارس الحديثة . وقد حمل فن الامتناع الثقيلات المختلفة التى ظهرت في فن **جوجان** والتعبيرية ، ثم فن **سيزان** بتكويناته القوية الى الحركة التجريدية . بينما انسح فن التعبير عن الدات المجال للكشف عن اعماق حياة الفنان الروحية ، وقد مثله فان جوج والحركة الوحشية الفرنسية ونس ادوار مونش والحركة التعبيرية الالمانية والسريالية التى تستلهم العقل الباطن الذى حصر سيجموند فرويد عنه الستار في اوائل هذا القرن .

وفي النصف الثانى من القرن العشرين يجد الفنان نفسه مضطرا للاختيار بين اتجاهين احدهما اتجاه الشعبية في الفن ، وهو في حقيقته امتداد للواقعية البرجوازية منذ قرن كامل ، لان ماديته ليست الا انعكاسا دوجماتيكا لها . والاتجاه الثانى هو الفن المحدد تماما غير انه يستعاض عن نضجه بابتكارات استغرافية . وتقف أوروبا الهزيمة بين الاتجاهين مثقلة بماضيها وبمستقبلها حين تتلام مع الاوضاع الجديدة ، موزعة بين اهتمامها بالمحافظة على تراثها وبين رغبتها في الانطلاق نحو المغامرة الخلاقة ، ويعكس الفن الوليد الغامض هذا الانقسام في البشرية . ويبدو ان الثقافة لم تتحرر بعد من تقاليدها



لوحة ١٢ ليوناردو دافنشي
١٢ | سرطان البحر



١٢ ب الزينة



١٢ ج ليوناردو شامل أكثر الأسرار مراوغة : طبيعة السوائل وحركة المياه

وصف نفسه في كتابه « الموسوعة الاطلمية » بأنه تلميذ التجربة ، كما هاجم فيه آراء افلاطون في علم الهندسة والرياضيات والعلوم . بينما عد ارسطو امام الفلاسفة لاهتمامه الكبير بالعالم المادى ، وكثيرا ما اقتبس من آرائه في الاخلاق والطبيعة ، واغترف من كتبه عن الارض والسماء والارصاد الجوية ، كما اعترف بفضل ابن سينا في تقديم ارسطو الى العصور الوسطى في القرن الحادى عشر الميلادى .

واذا كان ارسطو قد قال : « ان الافكار العامة وليدة التجارب وحدها » ، وطلق على ذلك توماس الاكوينى بقوله : « ان الافكار العامة ليست الا تجريدا لاشياء المحسوسة ، وان على النفس ان تستقى كل معارفها من العالم الحسى وخاصة العالم الحسى المعقول ، وهو ما يؤكد استحالة معرفة الاله معرفة مباشرة وفقا لهذه النظرية » ، فانا نجد ان ليوناردو قد كتب في احدى مذكراته ما يثبت قبوله هذا الرأى حين قال : « ان الامور الدهنية التى لا تتبع من الحس امور باطلة ويستحيل ان تنولد عنها اية حقيقة » .

وقد دفع الاهتمام بالنسبة لليوناردو الى الاهتمام بالمحسوسات وخاصة بما يدركه بحاسة البصر وبينما كان الافلاطونيون في عصره يؤمنون بان الاشعة تنبثق من العين وتقع على الاشياء ، حذا هو حذو ارسطو وقال بان العكس هو الصحيح ، وابدى استجابته بالتقاء الاشكال والالوان واجزاء العالم كله في العين التى تشبه في رايه الهرم الذى تستقبل قمته اشعة كل شيء ، وكان يرى ان الجو مشحون بالاهرامات المكونة من المستطيلات التى تتجمع في العين من كل تلك الاشياء المضئية .

• • •

كذلك هاجم أعداء العلم والسفسطائيين الذين يعنى بهم النظريين قائلا :

« انكم تخطئون انتم والسفسطائيون ، وتجرون آخرين معكم الى الخطا حين تحتقرون العلوم وخاصة الرياضه التى تشمل الحقيقة .

وبقى الصراع قائما بين العلم والادب بعد ليوناردو حتى اليوم مميزا للحضارة الاوربية ، فلم يحدث مثل هذا الانشقاق في حضارة غيرها ، وبقيت اوروبا تعيش في ظل تقليد مزدوج : تقليد الاداب وليده النهضة او ما نسميه بالانسانيات ، وتقليد العلوم التى تتضمن مفاهيم الدقة والموضوعية والنظام الذى يخضع لضابط خارجى عن الذهن . والمهم في هذا كله هو ملاحظة ان ليوناردو رائد التجارب العلمية كان وليد العصور الوسطى المتأخرة وليس وليد عصر النهضة .

وتؤكد مذكرات ليوناردو انه كان يهتم بقراءة مؤلفات القدامى الذين كتبوا في العلوم والتاريخ الطبيعى . واثرت تلك القراءات في فنه خاصة في صوره التى رسمها بالقلم الرصاص ، والتى حاول فيها تقديم صورة دقيقة للواقع في رسمه للبشر والحيوانات والنباتات . اما قراءاته الايطالية فكانت موزعة بين كتب الاخلاق والجبر والرياضة والجراحة والطب والزراعة والموسيقى والرحلات والسحر وما يدور حول رمزية الاحجار . ولم يكن يعطى اهمية لافلاطون . وقد خلق على بحث كتبه « فتشينو » عن علم اللاهوت الافلاطونى فقال في سخرية : « اننى اترك للرهبان الذين يعرفون اسرار الكون والوحى والالهام مهمة الفصل فيما قاله عن تعريف النفس » .

كان ليوناردو معارضا للوحى او الهوس الذى يعد عنصرا مهما في الفكر الافلاطونى ، وقد

٥ - الفن والمجتمع :

تعد الأعمال الفنية سجلا صادقا لعادات المجتمع وتحولاته التي تترك أثرها الجلي في أساليب الفكر والتدقيق ، ثم أن فهمنا للواقع الاجتماعي يحدد تفسيرنا لمظاهر هذا الواقع .

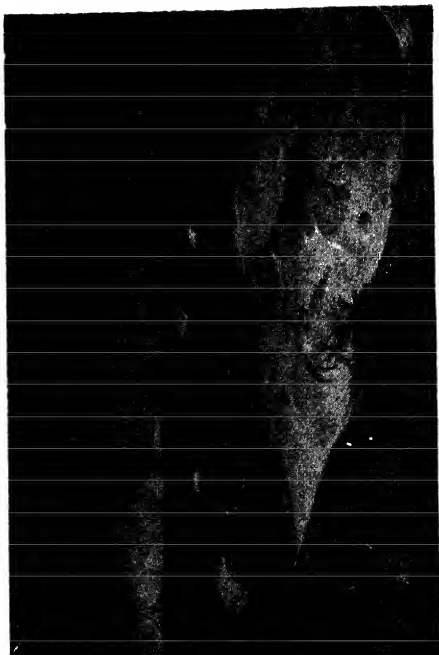
وقد حدث لمجتمعات العصور الوسطى التي كانت تسودها الأرستقراطية بنظام فروسيتهما أن استسلمت لسيادة طبقة جديدة هي طبقة البرجوازية التي أخذت تطالب بواقعية جديدة تتلاءم مع أذواقها وأهوائها وأساليب حياتها ، وغدا الفن الفلمنكي أوضح تعبير عن هذه الحضارة الجديدة بعد تبلورها في بلاد الفلاندر .

والواقع أن كل حضارة ظهرت منذ فجر التاريخ تميزت بحقيقة خاصة ، وكانت الحقيقة في الحضارة الهندية القديمة هي الوهم وزيف العالم ، وكانت الحقيقة عند البدائيين هي وجود قوى سحرية تحرك العالم ، وكانت الحقيقة في الفن الكلاسيكي الذي ازدهر على شواطئ البحر المتوسط هي القناع الذي يخفي وراءه حقيقة لا تراها العين ولكنها أصفى من القناع الذي يستترها ، وهي الحقيقة التي سماها أفلاطون « المثل » والتي أطلق عليها فيثاجوراس « العدد » باعتبارها مبدأ لا يفسر ولكنه يسجل على شكل أرقام ، وهو ما يفسر بحث الفن القديم عما وراء المظهر الخارجي ، عن النموذج الخالد والنسب الكاملة . ورات العصور الوسطى الحقيقة في روح العالم التي تختفي وراء العالم المرئي وهي الله ، وليست واقعية الفن القوطي إلا مجموعة رموز ومفاتيح لماهية الله . وقد شهد فن القرن الخامس عشر اتجاها جديدا في الواقعية انتقل معه الواقع من عالم الأفكار المجردة الى عالم الحواس أو على حد قول ديكرات : « يستطيع المرء أن يجد

فلسفة علمية تؤهلنا لنكون سادة الطبيعة والمسيطرين عليها بدلا من تلك الفلسفة النظرية الخالصة القائمة على الحدس والتي تدرس في المدارس » . ثم جاءت المدرسة الفلمنكية بالمذهب الوضعي البرجوازي بعد هزيمة الاقطاع المبكرة في بلادها فخدمت روح التصوف والتأمل النظري التي كانت تميز العصور الوسطى ، وظهرت الواقعية متضامنة مع البرجوازية في هولندا في منتصف القرن الخامس عشر ثم شملت أوروبا كلها خلال القرن التاسع عشر وانتصرت الأفكار المادية ، وارتبط الفن بالعلوم والفلسفة وهو الارتباط الذي بقي حتى عصرنا الحديث والذي نجده واضحا في ظهور الانطباعية في الفن ، القائمة على تفتيت المادة وحالتها الى جزئيات في نفس الوقت الذي وصل فيه علم الطبيعة الى تحليل المادة الى ذرات ، كما نسا الفن التجريدي الذي لا يعترف بمظاهر الأشياء ويعتمد على تكوينات الفنان الذهنية ، مع ظهور نظرية علمية تدعى أن بناء الكون رياضي خالص وأن الأرقام هي الحقيقة الوحيدة .

على أن إبه حركة فنية لم تكن تنقطع تماما عما قبلها رغم اختلافها عنها في جوهرها . ولا شك أن الفن الفلمنكي رغم واقعيته واختلافه عن الفن القائم على الإيمان بالحياة الروحية والقيم الدينية كان ينطوي على شعور روحي نلمسه واضحا في أعمال بعض الفنانين الهولنديين من القرن السابع عشر من أمثال **ميرابانت وفيرمير ورويندال** .

إن ميزة الفن الفلمنكي هي أنه ادخل في تطور الفنون عنصرا جديدا هو تحريك إحساس المشاهد بالعالم المادي عن طريق حواسه ، فالفنان الفلمنكي يبعثنا ننغمس حتى بالضوء والجزو وكأنها أشياء محسوسة ذات كيانه يمكن رؤيته (لوحة ١٣) .



لوحة ١٤ بروميل : العاصفة . حجب الوبع بالبرق والرياح والاضواء المتلألئة . ذلك التنظيم الأني
لمدى الإيطاليين . لقد التقط الفنان كراما هو مصور في تيارات كاسحة من الظلمة .

الوسطى التي لم يكن يتميز فيها وجهه عن آخر ، وقد حرك جونسالفيس الحزن أمام الموت في نفوس ابنائه صغره حتى انبعث في كل أعمال الفن البرتغالي من بعده ، وأصبح هذا الحزن الذي يبرز وحدة الانسان أمام قدره ، السمة المميزة للثقافة البرتغالية كلها . وتلمح في صورة للمسيح « هاهو ذا الرجل » من أعمال مدرسة جونسالفيس عن حسرة الانسان وحيرته أمام فناء العالم (لوحة ١٤) .

وبقى التيار الكلاسيكي في القرن السابع عشر محصوراً في فرنسا - الملك وحاشيته لتوافق السلطة المركزية مع ما في الكلاسيكية من احترام للنسب وللنظام . ولم يندثر تيار الباروك الذي ازدهر في القرن السادس عشر كرد فعل لحركة الإصلاح البروتستانتية والقائم على التطرف والمبالاة في تجسيد الانفعالات الحارة ، وإنما بقي في الريف الفرنسي بعيداً عن سطوة الحكم المركزي والأرستقراطية التي هجرت الريف لتقيم في قرى حول قصر الملك القوي لويس الرابع عشر ، وكانت تولد أهم مراكز الباروك الفرنسي بفضل الفنان انطوان ريفال رائد مدرسة الباروك الفرنسية في القرن الثامن عشر ومؤسس أكاديمية تولوز التي تخرج منها أئمة وقساوسة جمع هذا الفنان بين عنف الباروك ووحدة التباين التقليدية عند الكارافيجين ، بين نقاء الخطوط وتنافر اللون ، بين التناقض والغرابة ، بين هدوء التشكيل وصخب المواقف البشرية .

• • •

٦ - الفن والقومية :

اتجهت أغلب المدارس الفنية الإيطالية التي كانت ترمي إلى تحديد مفهوم الجمال تحديداً دقيقاً ، وإخضاعه لنظم وقواعد نحو فلورنسا وروما وبولونيا ، وهي المدن التي تمررت فيها النزعة الكلاسيكية في القرن السابع عشر ثم

انتقلت الواقعية من الاقاليم الفلمنكية إلى البرتغال خلال زيارة الفنان المبدع جان فسان آيك الذي هز قدومه الفنانين البرتغاليين ، ومع حركة التبادل الفني الواسعة التي كانت قائمة بين الفلمنكيين والبرتغال . غير أن البرتغال قد خطت خطوة أبعد نحو اكتشاف الروح الحديثة ومنحت الفن الغربي حسي الفرد وقلقه . والواقع أن واقعية القرن الخامس عشر لم تكن إلا خطوة نحو الفردية التي كان تطورها من أهداف الغرب .

ويمكننا القول بأن الفضل في ظهور الفردية في الفن البرتغالي إنما يرجع إلى الفنان نونو جونسالفيس الذي تميز برسم وجوه بشرية ينطوي كل منها على سر نفس تعبر عن التجاعيد والعيون المدققة في الأفاق البعيدة ، وكانت البيئة البرتغالية بأشدة هذا الاهتمام بالتعبير عن النفس ، فقد كان الشعب البرتغالي المثل على محيط لامتناهى يشعر في أعماق نفسه بالوحدة التي يحسها الملاح المحصور بين الماء والسماء ، وما أشبه الحياة المرتبطة بالبحر الفسيح بحياء البدو في الصحراء في تحريكها للانطواء والتأمل في مسائل الحياة والخلود . وقد نجح الفن البرتغالي في التعبير عن الفردية تعبيراً يميز كل إنسان عن الآخر . بل كان اهتمام الفنان البرتغالي بفردية موضوعه سبباً في محاولته إضفاء البروز والكثافة على لوحاته إلى حد يوهم المشاهد معه بأنها واقعية . وقد نجح في التخلل على سطحية الصورة بإكسابها عمقا عن طريق التشكيل والتجسيم اللذين كانا يبدوان في النحت أكثر مما يشاهدان في التصوير ، وقد انتشرت هذه الصور الشبيهة بالتماثيل في أوروبا كلها ، على أن أهم ما أنتجه جونسالفيس هو كشفه عن أسرار الانسان ، فقد صور العيون وكأنها متأملات تطل على أحلام الأفراد الداخلية ، وهي ميزة تميزه عن فن العصور



لوحة ١٤ نونو جونزاليس

١٤ الفرسان . كل منهم مشغول بنفسه ومصيره وتجههيناه نحو اللانهاية



١٤ ب ها هو ذا الرجل في القرن ١٥



وقد لعب جورجيوني دورا هاما في ابراز الحياة الكامنة في الأشياء على حساب شكلها المجرد باستغلال الضوء وتنوعاته خلال سماعات النهار ، كما اضاف بليني عنصر الاثارة للصورة بولعه بما رآه في الشرق خلال زيارته للسلطان التركي محمد الثاني عام ١٤٧٩ م امور مشيرة للدهشة والإعجاب وخاصة النسيج . ويمكن وصف التصوير في البندقية بأنه من مشر تحول الى فن حساس ، ذلك أن كل احساس يتحول عادة الى انفعال ، وكل انفعال يساعد على إيجاد حالة روحية معينة ، ويمكننا القول بعبارة فنية أن الرسم يتحول الى اللون ، والشكل يتحول الى الجو المحيط به ، والذهنى الخالص يتحول الى العاطفى الخالص ، وبينما كان الفنان الإيطالى عامة ينظر الى فنه على أنه فرع من فروع العمارة بما يتضمنه من قواعد ونسب ، كان فنان البندقية ينظر اليه على أنه موسيقى يهدف الى إثارة حالات نفسية معينة .

ويرجع الفضل في التحول من التشكيل الى الموسيقى الى ثلاثة من أحسن فناني البندقية وهم **تسسيانو وفيرونيوزي وتنتوريو** ، وكانوا لا يؤمنون بمحاكاة الواقع بل بخلق عالم جديد قائم بذاته داخل إطار الصورة يتمتع العين بأضوائه وألوانه ، ويشير الإعجاب بصرف النظر عن حقيقة الموضوع الذى يصوره . وهكذا كان هدف فن البندقية الرئيسى هو إثارة الحالات النفسية المختلفة من طريق الصورة ، وهى الحالات النفسية التى حاولت الرومانتيكية أن تثيرها فيما بعد من حزن صياني تحركه شدة الشهوة الى شعور عميق بسرعة تقلبات الزمن .

فاذا انتقلنا الى فرنسا وجدنا التصوير الفرنسى يهدف الى اجادة تصوير الشخصيات وتصوير الطبيعة . وقد وجد الدوق الفرنسى فيها وسيلة للتعبير عما يكمن في النفس ، وأن

الكلاسيكية المحدثة في القرن التاسع عشر ، بينما اتجهت المدارس التى تبثى التخلص من قبضة النظام الجمالية التقليدية نحو البندقية مهد الحركات الثورية الإيطالية التى يلهم جوها الشعاعى التجديد والابتكار . وقد تركت البندقية أثرا واضحا على المصورين الفرنسيين الرومانتيكيين مثل **دلاگرو** الذى تلقى الهامه الاول من لوحات **تسسيانو وفيرونيوزي** الموجودة بمتحف اللوفر ، بل لقد كانت البندقية أحد المراكز الرئيسة لحركات التجديد الفنية التى انتشرت في أوروبا الغربية بأسرها . وقد تميزت عن جميع مدن إيطاليا ، فعلى حين كانت الموانئ الإيطالية مفتوحة للتأثيرات الخارجية حتى تأثرت نابولى بالتصوير الأسباني ، وتأثرت جنوا بـ **روبنز وفان آيك** ، وعلى حين كانت روما تصمد للتيارات البيزنطية والجرمانية من أجل تدعيم شخصيتها ، كانت البندقية مركزا هاما يربط بين الشرق والغرب ويصل ألمانيا بإيطاليا . لقد تأثرت بمغظمة الفنون البيزنطية وبواقعية فنون الشمال الحسية ، كما أثرت بدورها في الحركة الفنية الأوروبية .

على أن فن البندقية كان فنا حسيا يرد كل شيء للادراك البصرى للمادة ، على غرار ما كان يحاوله الفنانون الفلمنكيون في الشمال ، ولعل تشابه البيئة في كل من هذين المراكزين هو الذى خلق هذا التقارب بين الفن الفلمنكى وفن البندقية . وكانت الطبقة السائدة هنا وهناك هى طبقة التجار وأصحاب السفن ، ولم يجمع السلطة في أى من البلدين حاكم واحد ، وكان فنان البندقية يصور المادة لذاتها ولا تثيره من لذة حسية في نفس المشاهد والفنان ، على عكس فنان بيرونطه الذى كان مولعا بالمسادة لما تسببه من دلالة على الموضوعات العامة او الدينية التى ليست لها صفة الفردية .

تركز اهتمام الفن الفرنسي خلال تاريخه الطويل على الصورة الانسانية دون اهتمام بتمثيل الطبيعة في خلفية الصورة ، على غرار الشعوب الشمالية التي عشت هي الاخرى الصورة الانسانية .

وقد اختلفت صور الأشخاص في الفن الفرنسي باختلاف العصور ، وان توزعت المدارس الفرنسية بين الوقاء والابتسام تغلب احداها هذا وتغلب الاخرى ذلك ، وان تواكبا معا في كل وجه بشرى حتى يمكن القول بان الوجه الفرنسي يعبر عن وقار مبسم . وقد غلب على الصورة الانسانية في العصور الوسطى تعبير عن حماسة شبه دينية ، بينما اتسمت في عصر النهضة بطابع الترفيه الممتزج بالشهوة ، ثم اخلت تعبر في القرن السابع عشر عن التوتر النفسي الشديد ، وعبرت في القرن الثامن عشر عن لذة الحياة ومتعتها ، حتى اذا جاء عصر الثورة وبداية عصر الامبراطورية اخلت الصورة تعبر عن التطلعات القومية التي تبرز في ملامح الحزم والعزم والتفكير العميق المتمثلة في وجوه الرجال والتي تبدو في ملامح الكياسة والرقية والشاعرية التي تكسو وجوه النساء . لقد حفلت صور هذه الفترة بالتعبير عن طبيعة النفس الفرنسية وعر فطوره وولعه بالتفكير في اسباب وجوده وفي اهداف حياته وفي اساليب الوصول الى هذه الاهداف ، ومن احساسه بالمسؤولية من توجيه حياته ، وبما يميزه من كبرياء متمتجة بالنطق وميل الى اخضاع سلوكه لقواعد عامة .

والواقع ان كل شعب يمثل نموذجاً بشرياً خاصاً ، فالاسباني شديد التصوف لا يقبل المساومة ولا انصاف الحلول ، والالمانى محارب خاضع للسلطة ، والانجليزى تاجر وفلاح ، اما الفرنسي فانه من قديم الزمان فلاح وجندى

في نفس الوقت ، يخضع لنظام تقبيله عن اقتناع واختيار حر . غير انه قد اضيف الى هذا النموذج التقليدى نموذج فرنسي جديد يمثل ساكن المدن من الطبقات المتوسطة . على ان الفرنسي شديد الاهتمام بالمرأة وجمالها حتى اننا نرى الدوق الرفيع بارزا في صور المرأة الفرنسية كما نحس انها رمز للحلم وللوحى الفنى .

وقد لعب وضع فرنسا الجغرافى بين هولندا واطاليا دورا في تاريخها بين تقاليد الشمال والجنوب ، وان غلب على فنانيها استلها من الشمال في تصوير الوجوه البشرية والتأثر بالواقعية الفلمنكية والهولندية . وقد استوحى عاشقو العرى ومصورو الانسان باعتباره جزءا من الطبيعة فنون ايطاليا وتقاليدها .

وظهر التباين واضحا في مدارس فرنسا الشمالية والجنوبية ، وارتبط ازدهار تصوير الوجه في اوائل القرن السابع عشر بظهور طائفة من الفلاسفة الريفيين المولعين بالانطواء والبحث فيما وراء الطبيعة ، كما ارتبط تدهوره بارتقاء لويس الرابع عشر عرش فرنسا وهو المؤمن بالديكتاتورية والسلطة المركزية دون الاهتمام بمشاكل النفس ، حتى كثرت بساعات الرشا على اوجه لا يتميز احدها على الآخر بميزة شخصية او فردية .

والواقع ان تصوير الأشخاص في فرنسا يعكس حياة الشعب النفسية ، فلم يكن يعرض من الانسان غير مظهره الخارجى في العصور الوسطى وكأنه جسد بلا روح ، ثم أخذ يظهر اهتماما بالحركة والقلق . ولعل سر هذا الاهتمام مرده الى نظرة هنرى بوجسون الفيلسوف الفرنسى الى ان تاريخ الافكار الغنية او العلمية هو تاريخ الانتصار على العناصر المتحركة في الطبيعة . وقد حاولت العصور

٧ - الفن والفرد :

تألفت النزعة الانسانية في عصر النهضة فأخرجت الانسان من عالم الفبيات والدينيات الى عالم الطبيعة الذى يعيش به ، وتحول الحوار الداخلى بينه وبين الاله الخفى الى حوار بينه وبين الطبيعة ، وأخذ الفنان يسجل مظاهر العالم مصورا الانسان على انه جزء من هذه الطبيعة ، وازداد الشعور بعالية الانسان وعظمته مما . قال روبنس اشهر فنانى هذه النزعة الانسانية : « اننى اعد العالم بأسره وطننا لي » ولم يجر باحثا وراء الطبيعة ، ولم يمن بمشاكل الانسان النفسية وانما اهتم بالمعنى العميق الكامن فى الطبيعة . كان روبنس شديد الميل الى انجاز اعمال كبيرة تصور جوانب الحياة المختلفة بدلا من الاعمال الصغيرة التى تشبع الفضول أو التأمل الداخلى ، فقد دفعه شعوره العام بحياة العالم كله الى تجاهل التحديد الدقيق ، فجمع بين كائنات العالم المختلفة وأضوائه العديدة في مجال واحد (لوحة ١٦) ولهذا لم يخضع تكويناته الفنية للقوانين التقليدية من التماثل وثبات الاشكال ، وانما كانت تظهر في أشكال غير مالوفة تكثر فيها الانحناءات والاتروامات وكأنها تدنمها تيارات في حركة مستمرة .

على ان روبنس قد أعطى اهتمامه الاكبر لجسد الانسان فصوره مليشا بالحياة والحرارة ، ولم يكن يحدد خطوطه الخارجية حتى يعبر بذلك عما يشيخه من حركة وحياة . ومع مرور الأيام أخذ روبنس يمنح اهتمامه للجانب الروحي للانسان ومضى يصور الجسد البشرى ليضيف الى تعبيره عن بهجة الحياة رهيته من الموت ، وعناؤه في سعيه من اجل لقمة العيش ، وحين أوشكت حياة روبنس على الانتهاء أخذت نظره تمتد الى الفاز الكون والى العالم الاخرى .

الوسطى في بدايتها اخضاع كل شيء لحقيقة ثابتة هي الإيمان الديني المتمثل في كنيسة ذات نظام دقيق وفي شريعة لا تقبل الجدل ، غير أن نهضة القرن السادس عشر قد تفجرت من نوعتين مهدفتان الى تخليص الفرد من هذا الجو الثابت ، فاحلت النزعة البروتستانتية حرية الارادة محل الإيمان الأعمى ، وخلصت النزعة الانسانية الفن من النظر اليه على أنه قربان للاله وجملته وسيلة لارضاء اسمى ما في النفس البشرية .

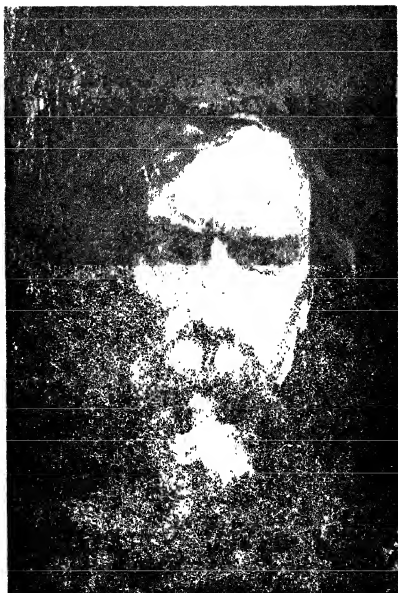
واهتم القرن الثامن عشر بتصوير الانسان في بيئته العادية وعلى طبيعته دون اسياغ هالة خاصة عليه ، ودون إثارة المشاعر نحوه ، وقد تحررت صورة الانسان من كل ما يحد حركته ، بينما حاول القرن التاسع عشر التعبير عن مكونات النفس عبر نظرات العيون خاصة . وكانت عصور التنوير والقلق الإجتماعي دائما هي العصور الذهبية لصورة الوجه البشرى ، كما حدث في عصر الاسرة الثامنة عشرة في الدولة المصرية القديمة حين تدهورت ديانة آمون التقليدية ، وحلت محلها عقيدة اخناتن ، وكما حدث في اواخر عهد الدولة الرومانية حين تعددت العقائد وتنافست ، وكما حدث في فرنسا في القرن السادس عشر عند انطفاء إيمان العصور الوسطى ، ثم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع ظهور الحركات الثورية المتنوعة .

وكان اهتمام القرن التاسع عشر بكشف مكونات النفس ايدانا بخروج فن التصوير عن قواعده التقليدية ، فقد أخذ الفنان يضحي بالتشكيل التقليدي للوجه البشرى من اجل الكشف عن الانفصالات الداخلية والقلق النفسي (لوحة ١٥) .



لوحة ١٥

١٥ اداويد : رجل ذو قيمة . احتلت الشخصية المكانة الاولى
في القرن التاسع عشر



١٥ ب كازبو : صورة شخصية للفنان . احرقى لهاب
الرومانسية الملامح العنصرية فكشف عن فنى الانسان الداخلى



١٥ ج كارير : الفونس دوريه . غدا الأسى الشخصي في نهاية
القرن التاسع عشر لونا من الانهالك يتجلى في التقنية



١٥ دوليه : صورة شخصية للفنان . مع المدرسة الانطباعية
تتلاقى الشخصية والحياة الباطنة ، مهتمة بالامانة البصرية



لوحة ١٦ روبنز : ميد جميع القديسين الى احساس روبنز
بعاليه الانسان يعود الفضل في تخطيه حدود الشكل الحسية
والابناء بالانصهار النام بين الناس والاشياء والضوء والفراغ
مما اسفر عن عالم متوادم نابض مشغول كالحيط

وقد لعبت مدارس بولونيا وروما دورا في تشكيل ثقافته الفنية ، كما امدته مدارس البندقية بالحساسية الكامنة في فنه ، وقد يكون له في تصوير المشاهد الخلوية اسلوب يحمل الذوق الروماني . وتتجلى بمقربة يوسان في تنسيقه بين حبه وتفكيره لا يجعل احدهما يقلب الآخر ويخفيه ، ولهذا يجب ان نفهم كلاسيكية يوسان على انها تنسيق واع لكل ما يكمن في النفس من غرائز واحاسيس وافكار معا .

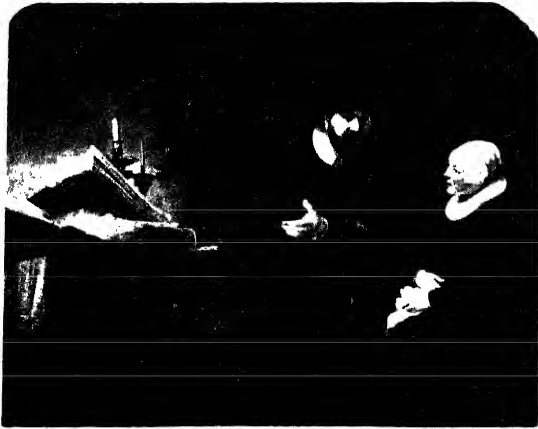
اما ديموانته فقد لعب ظهور البيروستاتية دورا في تشكيل عبقريته . ولما كانت البيروستاتية عبادة فردية على عكس العبادة الكاثوليكية الجماعية ، تعمل على ابراز الجوانب الذاتية للفرد وتعطي أهمية كبرى لمسئوليته الشخصية امام الله ، فقد وجه ديموانته اهتمامه للجوانب الفردية واخرج العديد من الصور الشخصية التي حاول فيها التعبير عن الحالات النفسية لشخصياته . بل انه وجه اهتماما كبيرا بصورته هو ، وكانما كان يبحث عن ذاته خلال تسجيله للتعبيرات المختلفة التي تتتابع على وجهه . وقد برع في تصوير وجهه الى حد التعبير بمجرد نظرة خاطفة او لفحة بسيطة عن انفعالات روحه المختلفة ، وكذلك حرص في تصويره للآخرين على اختيار حركة مميزة تكشف سر شخصياتهم (لوحة ١٧) .

على انه اهتم خاصة بأسرار النفس في لحظات العزلة والوحدة التي يتأمل الانسان فيها سر الوجود وعلاقة الانسان بالله ، وهو ما تشهد به صوره المجملية التي يلخص فيها الشكل الخارجي بخطوط سريعة ، مركزا اهتمامه في نظرة التأمل المنبعثة من العيون (لوحة ١٨) ، بل ان اغلب لوحاته تجسد احساس الانسان بالعزلة في هذه الحياة ومواقفه المختلفة حيال

ولعل الفنان الفرنسي الكبير يوسان لم يكن رائد الكلاسيكية الجامدة لحسب حسابا روت كتب تاريخ الفنون وانما كان الى جانب ذلك عبقريا فريدا كما اوحى بذلك تعليقات **دلاگروا** . كان يوسان فلاحا فرنسيا يهيم كغيره بكل ما هو محسوس فكفكف على تصويره في لوحاته متجنباً المعاني المجردة التي تعد عماد النزعة الكلاسيكية . وهكذا لم تكن عبقريته ذهنية تعليمية ، وانما كان عبقريا في احساسه بالحياة في همومها وفي حبه الرنفي للطبيعة والذي جعله يبرزها في لوحاته على انها موضوعه الرئيسي لا على انها خلفية لوضوئها ، كما كان يوسان مولعا بجسم المرأة لدانته ولما يحركه من اعجاب وشهوة لا يوصفه قناعا لمنى تجریدی .

ويمكن تحديد عبقرية يوسان في ولعه بالطبيعة وبالعقل معا . وقد كان تطور العلاقة بين هذين العاملين هو الذي يحكم تطوره الفني ، واذا كانت حماسه للحياة قد غلبت على عمله الفني في سنوات نضجه الأولى فيبدو انه اخذ يخضع لفكره في منتصف عمره . على انه قد اهتم في احدى فترات حياته بتلوين الوجه البشري بطريقة تجعله اقرب الى النحت منه الى التصوير .

ونستطيع ان نلخص حساسية يوسان في اتجاهين مهمين : هما ولعه بالوان النبات والترتيل الطبيعية ، ثم توفيقه بين روح الانسان وروح الطبيعة ، محاولا تطبيق قواعد الحياة النفسية الانسانية على عالم الطبيعة بحيث يبرزه في انساق جميل ونظام معقول . وقد ادى تفكير يوسان هذا الى اهماله الشخصيات التي يصورها ضمن لوحاته وتركيز اهتمامه على غرار فائو - بالتشكيل العام للوحته والتوفيق بين عناصر اللوحة الانسانية وغير الانسانية .



لوحة ١٧ رمبرانت : الفاعظ انسلي وزوجته



لوحة ١٨ وميرانت : امرأة قرب النافذة

هذه العزلة . وقد ذهب رمبرانت في كشفه عن العزلة الإنسانية الى الكشف عن المحبة التي تربط بين الناس بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الله لان المحبة وسيلة التغلب على العزلة ، معبرا عن هذه المحبة في لوحاته التي صور فيها المسيح .

وقد برز فنان آخر في تصوير العزلة هو « فاتو » الذي اعتزل العاصمة الفرنسية خلال حكم لويس الرابع عشر . وقد أفرغ مرضه المبكر بالسل مزجا من الحزن والأناقة في أغلب لوحاته حتى تميز فنه بهما . وكان فنه في بداية حياته فنا قصصيا يتصف بواقعية وعمق احساس بحياة الريف الذي يعيش فيه والمثقل بآثار الحروب ، ثم سيطر احساسه بقصر الحياة وآلامها على فنه فأخذ يشيع في لوحاته حزنا مستعبدا خلال جو من اللهو الذي يهيم عليه الظلام . وقد برز احساسه بالحزن والفناء اللذين يهددان كل ما يفعله الانسان حتى في تصويره للمواقف المرحية أو الحفلات المانقة في بلاط لويس الرابع عشر ، حتى يوحى جوها العام بالحزن الذي لا يظهر في أوجوه الشخصية (لوحة ١٩) .

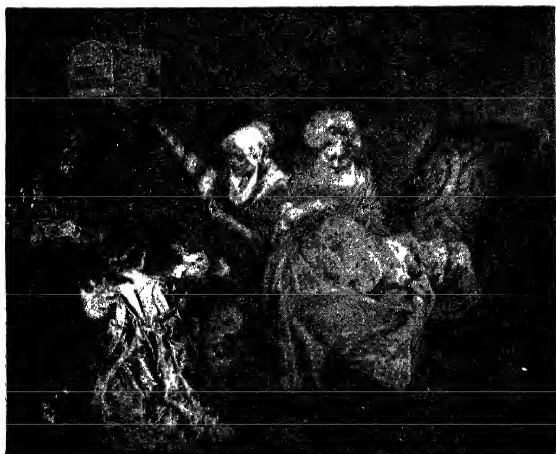
كانت نهاية العصور الوسطى نهاية لروح التضامن الجماعي وازدهار الروح الفردية التي غيرت من شكل الفن الذي كان في العصور الوسطى نوعا من الحرف التي تخضع لنظام مرتبط بدوق العصر الجماعي وحولته الى عمل فنان مبدع متميز . وقد وضع الفنان الفرنسي **دلاكروا** والشاعر الفرنسي **بودلير** فلسفة لهذا الاتجاه الجديد حين جمل من وظيفة المصور مواجهة العالم المرئي واستغلال عناصر الطبيعة للتعبير عن ذاتيته الفردية ، وقد اتخذ بودلير من الطبيعة قاموسا له ، فهي معجم المراثيات ومخزن الصور التي يختار منها الفنان ما

ينسقه في تشكيل جديد خلاق يعبر به عما يختلج في نفسه من أهواء وميول . ولم يعد الواقع هدفا يبغي الفنان الوصول اليه بل نقطة بداية ينطلق منها ، كما أصبح العمل الفني على حد تعبير دلاكروا جسرا موصلا بين النفوس ، أو بين نفس الفنان ونفوس مشاهدي فنه ، ونجد في (اللوحة ٢٠) ، تنسيقا جديدا لعناصر من الواقع تعبر عن انفعال نفسي هو شعور الانسان العظيم بالوحدة ، وهو معنى لا يمكن ادراكه من رؤية عناصر الواقع منفردة .

وهكذا لم يعد الفن نتاج القدرة على محاكاة الواقع بل القدرة على الإيحاء بانفعالات ومشاعر نفسية شبيهة بقدرة الموسيقى على التأثير في السامع . بل ان دلاكروا نفسه قد اقترح مرة عزم سيمفونية خلال مرض صورته حتى يرداد تأثيرها نفاذا الى نفس المشاهد ، كما أعلن بودلير في إحدى قصائده عن وجود تجاوب بين العطور والألوان والأصوات .

وقد شغلت الألوان مكانا ملحوظا في فن دلاكروا لشدة تأثيرها على النفس بينما وجهت المدارس الفنية الكلاسيكية السابقة عليه اهتمامها بالخطوط والأشكال باعتبارها ترجمة ذهنية للواقع المرئي ، فأسبغ دلاكروا بألوانه صبغة شاعرية خلاقية على أعماله الفنية . وكان يقول : « من أبدع فنا أبدع شعرا » والحق الفيلسوف لا ينتزج في القرن الثامن عشر الى انطواء كل فن حقيقي على غرض شاعري حين قال : « تكمن في العمل الفني قدرة على إنتاج شيء يشبه أعمال الإله في صورة مصغرة » .

على ان الفنانين الرومانتيكيين المحيطين ببودلير ودلاكروا قد انغمسوا في تعاطي المخدرات الجديدة التي اكتشفت في أوائل القرن التاسع عشر والتي تفوق الخمر في



لوحة ١٩ فانو : واجب لكل مرحلة من مراحل العمر



لوحة ٢. ديلاكراو : ناسو في بيت التجانين . سخرية المجانين بالشاعر واستوحاد المبتغى

« نحن ضحايا دوامة يفقد فيها الأحياء ذاتيتهم دون أن تختفى مادتهم . اننا نصس اننا نسيح في فراغ ، يفلت الواقع المادي من أيدينا ، ويتفتت كل شيء دون أن نوقف تطله أو أن نمسك بطرف منه . ان الكائن يتهاوى أو يتفتت ونحن معه نخفى » .

ويتساءل ريشيه ويج في النهاية بعد هذه النظرة الى الحياة المعاصرة ان كنا نعيش في عصر افلاس تام ، أم في عهد ميلاد جديد ، فيقول :

« حاول الإنسان منذ فجر التاريخ اعطاء العالم معنى خاصا ، فجعل للطبيعة وجهها بشريا مفايرا لوجوه البشر ، وملأ عالم الغيب بالآلهة وأشباح شبيهة به فلم يحس بالوحدة وسط عالم الآلهة المتعددة . فاذا ظهر عصر الآله الواحد صورة الإنسان على هواه خلال العصور المتتامة : فجعله في العصور الوسطى مجموع الألفاظ التي تهدد كيان البشر ، ونسب إليه ارادة لإبلاك الإنسان حياته الا الخضوع ، وصوره في القرن السابع عشر قريبا من البشر حين جعله تجسيدا للعقل الإلهي الأعظم الذي لا تختلف قواعده كثيرا عن قواعد عقولنا ، ثم ذوب في القرن الثامن عشر فكرة الآله في فكرة الكائن الأعظم والخالق الذي أنشأ العالم دون أن يهتم كثيرا بما يجري فيه . وخلال الثورة الفرنسية تحول الآله الى مجرد قضية منطقية من قضايا المنطق ، ثم أخذ العالم مكان الله وانكر وجوده وجعل الكمال في مستقبل البشرية لا في ماضيها . وانتشرت فكرة التقدم التي اعطت الأهمية الكبرى لعقل الإنسان وقدرته . غير انه كلما حقق العلم انتصارا جديدا ترايد قلق الإنسان على مصيره في العصر الحديث واحس بالظلمة تحيط به وشعر بتفاهته وقصور علمه ، وازداد حيرة وتخطبا بين الإيمان

تأثيرها ، وكانوا يهدنون من وراء ذلك الى « تعدد ذواتهم » فقد كانت الفردية هي هدف الرومانسيين الأول . ويقدروا ماكانت الكلاسيكية تحاول أن تتطلع الى مركز انزان النفس في الإنسان وهو عقله الواسع ، كانت الرومانتيكية تهدف الى التهرب من هذا المركز ودفع الإنسان خارج دائرة نفسه بحثا عن المجهول والغريب والغموض العادة ، ولهذا امتلأت صصور الرومانتيكيين بالضخامة والحركة والرجب لان هذه العناصر تخرج الإنسان من مركز انزانه الطبيعي . على ان المخدرات لايمكن ان تكون خالقة لقدرة على عمل شيء بل هي خالقة لوهم على ادم هذا الشيء ، وكذلك ظن الرومانتيكيون ان المخدرات تمنحهم القدرة على اختراق غلاف الغموض السلي المحيط بالحياة فقد كانوا يتطلعون الى الدوبان في العالم .

• • •

٨ - الفن واللامعقول

يحس انسان القرن العشرين انه قد اقصى عن مركز العالم كما طرد جده آدم من الفردوس . غير ان مركز العالم هنا لا يعنى مركزه الجغرافى الذى انكر وجوده جاليليو وانما مركزه المعنوى ، فقد كان الانسان يظن ان اشعاعه فكره هي التى تغى الظلمات ، فاذا بالأرض تستحيل تحت قدميه الى بحر مظلم عميق ، واذا هو يحس احساس الفريق الذى تلاحب به الامواج : حياته شبيهة بقطعة من الخشب يتشبث بها وسط الموج . وقد انعكس هذا الشعور بالفوضى وعدم الاطمئنان على الفن الذى جاهد لينجاوحد حدود العقل وحدود المألوف بحثا عن رمز جديدة في عالم مجهول تجعل لحياته معنى . وقد قال العالم فيهلتر :

بالله أو الكفر به وكأنما عاد من حيث بدأ ، وذلك أن النظريات العلمية الكثيرة عن نشأة الكون وتشكيل المادة قد أظهرت قصور العقل البشرى عن ادراك العالم ادراكا كاملا ومطلقا ، فمازال في استطاعة الإنسان أن يكتشف ويقدر ولكنه لا يملك أن يطل أو يفسر .

وقد بدأت فنون القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تسخر من محاكاة الواقع ، وكانت الحركة التكميلية أول محاولة جريئة صور فنانوها الواقع وكأنه يلوح من خلال مرآة محطمة ، كما ترك فنانو الحركة السريالية أيديهم تهيم على لوحاتهم دون ضابط أو منطق (لوحة ٢١) ساخرين من الواقع بتكوين اللوحة من عناصر واقعية لا تلتصق عادة في الواقع ومن ثم تأخذ شكل الأحلام وتخرج إلى دائرة اللامعقول كان يضعوا وسط الصحراء معزقا تنبثق منه شجرة ويتدفق منه ماء يشكل تحته غديرا (لوحة ٢٢) ، ثم تآلى الحركة التعبيرية التجريدية مستهدفة الخروج عن منطق مألوف وتشكيل واقع جديد على اللوحة لا ينتمى إلى واقع معروف .

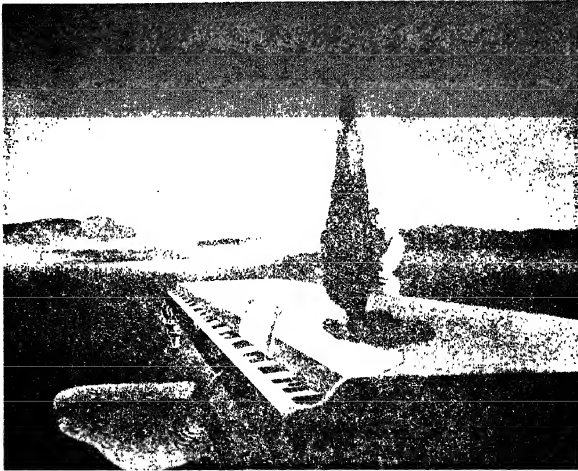
ويمكن تلخيص ثورة القرن العشرين في عجزها عن تقديم تحليل منطقي وإع لأعمال البشر . وقد لوحظ اليوم أن اللامعقول الذي صور في بادئ امره شبه ثورة نفسية تجاه تحلل الحضارات والنظم الفكرية المرونة قد أصبح منتجما يحس الإنسان إلى جانبه بالراحة والمتعة ، ولا نزاع في أنها متعة مريضة تحمل خطرا داهما على عقل البشر ، غير أنه مما يبعث على بعض الاطمئنان أن بوادر عدم الاستسلام للامعقول قد أخذت تنمو في بعض الاتجاهات التجريدية الجديدة في الفن المعاصر .

لقد أخذ الفن الحديث يعكس الأزمة النفسية العميقة التي يمر بها الغرب في هذا

القرن ، وتكشف الاتجاهات الفنية الحديثة عن رغبة كبيرة في الهروب إلى آفاق غريبة أو بدائية ظهرت في الولع بالفن الزنجرى القديم مع بداية القرن العشرين . وليس الاتجاه إلى الفنون البدائية الا ظاهرة من ظواهر عودة العقل الواعى إلى العقل الباطن برموزه وأحلامه الغريزية . فأخذ الوجه الانسانى النبيل يختفى شيئا فشيئا من الفن المعاصر لتحل محله صورة الحيوان المتوحش الذى يرمز في الخيال البشرى إلى الحضارة القديمة . ومن الطبيعى أن يهرب العقل الانسانى إلى التفكير فيها كلما حاصره أزمت الحياة المعاصرة . وهذا هو مايفسر لنا إلى حد بعيد انتشار الأفلام المخيفة التى تجمع بين اكتشافات العلم الحديثة وظهور الوحوش التاريخية القديمة .

على أن الحيوان الوحشى يلعب دورا آخر في الخيال البشرى لأنه يرمز كذلك للشيطان الذى يسيطر على كثير من شئون الحياة ، وهكذا يخشى العقل الباطن الحيوان ويتلمسه في آن واحد . وقد عاش الإنسان في أواخر العصور الوسطى تجربة معاللة لتجربتنا الحالية حين أحس القلق أمام عصر جديد يجهل ملامحه فأخذت مخاوفه تتركز في الشيطان الذى يبدو في صورة حيوان خرافى (لوحة ٢٣) .

وحقيقة الامر أن الإنسان دائم البحث عن تفسير لوجوده في هذا العالم منذ التلى به فيه ، وقد وجد ما يهدىء من روعه ويكسبه بعض الاتزان خلال بعض العصور ، قديما امدهته الحضارة الاغريقية بقوانين تنظم العالم على غرار القواعد التى تنظم الفكر الانسانى ، فاخفى القلق من حياة الإنسان وأحس بنفسه سيذاً للكون وأصبح الموضوع الرئيسى في الأعمال الفنية التى لم تهتم بحيوان سوى



لوحة ٢٢ سلفادور دالي : مصدر الأصوات السريالية تنفرب بالمفلاتية عرض الحائط . هيبتا تحتلفك أجزاء الواقع
بظهرها المألوف للعين يجرى ترتيبها عابثا إذ يتوسل العقل باللاشعور



لوحة ٢٢ في حالات الشك وعدم الاستقرار يستحضر الخيال الحيوان الشرير ويمثل به الشيطان ذو الالف وجه يعبر كل منها عن تهديدات سوداء

٢٢ أورس جراف : الشيطان

يتبع راهبا



٢٢ ب ليونارد فينشي : فيلاجريا

ان النفس البشرية تتطوى على نور آخر غير ضوء النهار يراه الانسان خلاله كلما اغمض عينيه وتأمل ذاته . وقد عرف **الجريكو** هذا النور وحاول تصويره في لوحاته مجردا من ملابسنه المادية مشعا من اعماق النفس مضيا ماحولها ، والمج **دلاتور** ايضا الى هذا النور الجديد في صورة فتاة مغمضة العينين حاملة مشعلا مضيا (لوحة ٢٦) ، وأشار اليه **ميراث** كذلك في صورته الشهيرة للملك **شاؤول** وهو يصفي الى عزف داوود على قيثارته (لوحة ٢٧) .

والحق ان الانسان يحيا بين ضوئين ، ضوء النهار الذي يرى فيه حقائق الحواس والذكاء ، وضوء الليل المنبعث من اعماقه والذي يرى فيه حقائق النفس وهما ضوء الواقع وضوء التصرف .

واذا كان الانسان يجد في المجال المضيء كل شئ مرئيا ومعقولا بمجرد نتج مشيئه وارهاف حواسه فهو يدرك بذكائه ما تنقله الحواس بمعنى انه يفهمه ، ووسط هذا العالم المليء بالمرئيات يحلم انسان الغرب بسيادته هذا العالم بذكائه وأعماله ومعارفه العلمية ، فان هذا الحلم ضرب من الأوهام لان هذا الضوء لا يوضح سوى ظاهر الأشياء دون أن يصل الى كشف باطنها وجوهرها وقلبها .

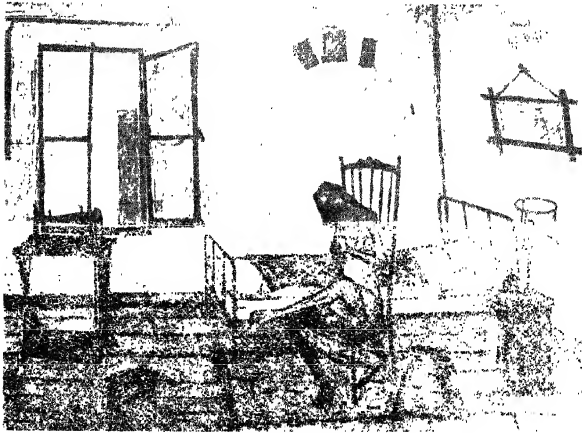


لقد جاء عيسى برسالة المحبة التي تخفف من قصور هذا الضوء لان المحبة تدفع المرء الى محاولة التوغل في أعماق الأشياء والفنان فيما حوله وهو ما يصل به الى عالم الروح وإلى أضواء التأمل في الليل ، وهكذا يدع الانسان عالم الضوح والنور الى عالم ليل النفوس عابرا الليالي الثلاث التي تكلم عنها القديس

بالجواد خادم الانسان ، حتى اذا أشعست الفزوات البرية القلق في العصور الوسطى ظهرت صور الحيوانات المخيفة في الأعمال الفنية وبرز التنين والأفعوان معبرين عن قلق الانسان وخوفه . واذا كان الإيمان بالله هو المعبر الوحيد للانسان الى الطمأنينة ، فقد تزايدت في عصرنا هذا مخاوف الانسان وأخذ يرمز لها في أعماله الفنية بحيوانات رهيبة من حشرات قاتله غير مألوفة ، بل لقد فقد الانسان نفسه وجهه المألوف وأرتدى قناع حيوان والتفكير هي الأخرى في صورة ذلك الحيوان نفسه .

لقد تزايدت مخاوف الانسان مع الفتوحات العلمية في الحضارة الحديثة لتزايد ادراكه لجهله ، وامتلاء العالم من حوله بالأفانز ، ولم يعد يرى نفسه سييدا للكون بعد تحريره لقوى مجهولة أصبحت تهدده بالدمار فامتلات نفسه بأسا وسيطر على عاله حزن عميق (لوحة ٢٤) .

وقد اشتد ولع العصر الحاضر بالتعبير عن أزمته النفسية بأوهام رمزية تشفى عن خوارق مخيفة بعد تزايد ميل الانسان الى الاتجاه نحو اللاشعور ، فقد أصبحت الخوارق التي تتألف من أشياء مألوفة رمزا لقلق الانسان المعاصر كما كان الشيطان في القرن الخامس عشر رمزا لهذا القلق وقد ظهر اثر ذلك في الفنون بتقديم أشياء غير محددة الشكل تتضمن عناصر موحية ، فالوالت الذي يهدد الانسان بمعنى في حقيقته القضاء على كل الاشكال ، غير أن الغلبة في النهاية لأبد أن تكون لعناصر الحياة الكامنة في الأشياء التي يستوحىها الفنان وهو يشكل خوارقه الغريبة (لوحة ٢٥) .

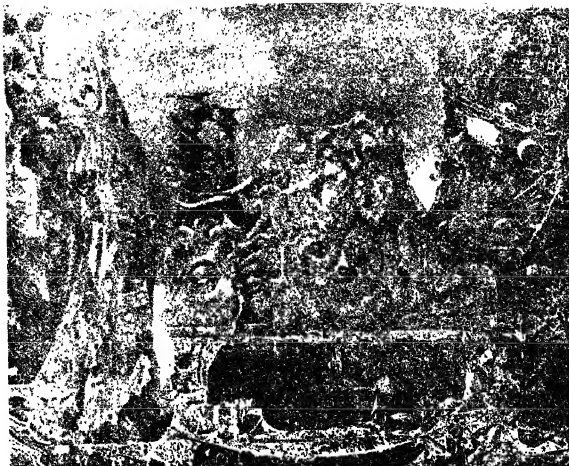


لوحة ٢٤

٢٤ | برنار بوفيه : الحجره



٢٤ | جورج نوك : نفق الترو ، الآلة سحق الانسان وتدمير المرأة فزعة يحاول ان يحمي جنبها من الوجوه الجسادة
الابشائية ، ويلا التماثل البارد الواحد المحيط بها نفسها بالشمعية والخوف والرهبة



لوحة ٢٥ ماكس ارنست : عين الصمت . غدت ممالك الحيوان والنبات والجماد غير متمايزة في عالم فيه كل شيء ماضي اما الى الغناء او الولادة ... خطوة واحدة فحسب ويفقد كل ما تبقى سرايا



لوحة ٢٦ جورج ديلاور : القديس سياستيان (تفصيل) اذا
كان الضوء المشتق من الظلال فندطم الاشكال في فن كارافاجيو
واتباعه فان الضوء يؤكد الاشكال في فن ديلاور بتسييف
التجسيم . فالضوء هنا يعبر عن الوحدة الروحية الكامنة
وراء العيون المسبلة



لوحة ٢٧ روبرت : داود وشاؤول . تبدو موسيقى داود فجأة الصمت اليهم الذي لف شاؤول فارتفع حجاب الليل
وبدأت عيناه تفتقران ستر السلام

وابن عربى فى مدينة اشبيلية ، كما تألق بعد ذلك ابن عطاء الله فى الاسكندرية واخيرا ابن مباء فى مدينة فاس وهو الذى لخص فلسفة هؤلاء جميعا فى القرن الرابع عشر حين قال : « يملك الليل ميزات لا توجد فى النهار » . وقد لح فى تصوير الضوء النفسى الغريب الذى يتألق فى الليل كارافاجيو الذى يعد من اهم مصورى عصر مقاومة الاصلاح الدينى ، وكذلك جورج دلائور ، وكان لا يعدان الليل رمزا للشر بل وسيلة للتأمل والوجد ، ولعلهما كانا يصوران فى لوحاتهما ما سماه القديس يوحنا الصليبي « الليلة المظلمة لنار العشيق التى لا يشرق فيها نور غير لهيب القلب المتقد » .



تعيش مملكة الانسان على ضوء النهار، بينما لا تبدأ المملكة الالهية الا مع ظلمات الليل حيث يسطع نور تصوفى لم يسجله سوى القليل من العباقرة مثل الفنان العظيم ومبرانت .

يوحنا الصليبي على انها المراحل نحو الاتحاد بالله وهى : ليل الحواس الذى تفلق فيه النوافذ على العالم الخارجى ، ثم ليل الذكاء الذى يترك فيه المرء عالم الملاحظة والادراك ، واخيرا ليل النفس الذى يحس الانسان فيه بقلق وهو يفوس فى الكهف النفسى الشبيه بقبور الموتى ، والذى يولد فى نهايته نور جديد غير نور الزمان والمكان هو نور اللانهاية والحقائق المطلقة .

وقد كتب الحلاج الصوفى الذى صلب لجرأة افكاره فى بغداد ملتقى الثقافة الشرقية والاغريقية قبل عام ١٠٠٠ يقول : « ان الفجر الذى اقيم به يشرق فى قلب الليل المتوهج ولن يغرب ابدا » . وكانت افكار الحلاج هذه هى النبع الذى تدفق حتى بلغ فى القرن الحادى عشر غرب أوروبا واسبانيا تحت لواء الاسلام ، ولعله هو الذى نشر الخصوبة فى الارض التى ازدهر فيها تصوف القديس يوحنا الصليبي والقديسة تريز ، فقد تألق ابو مدين

سيرة فرجينيا وولف^(١)

عرض وتحليل النثر لمحمد محمد

مقدمة :

السيرة ان يتوخى الحرص في معالجة الشخصية المبدعة . فحياة الفنان شجرة قد تموت اذا اقتلعناها لتتأمل جذورها . وفي الكتابة عن حياة الفنان ، الى اى حد نذهب ؟ هل نركز اهتمامنا على تكوينه الجسدى - وزنه وسنه وامراضه (٢) ام على فصيلة دمه ؟

يقول كارلايل : « لا توجد في العالم ملحمة شعرية الا وكانت في جوهرها سيرة ، حياة انسان . » ولهذا تختلف كتابة السير عن التاريخ اختلافا كبيرا ، كما يجب الفصل بينهما تماما ، في الغايات والوسائل . على كاتب

(١) Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 1 Virginia Stephen 1882 to 1912, London, 1973, the Hogarth Press.

Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 2 Mrs. Woolf 1912 to 1941, London, 1973, The Hogarth Press.

(٢) Dr. Bett, W. R. : The Infirmities of Genius, London, 1952, Medical Viewpoints Series.

يعرض هذا الكتاب رأى الطبيب في الانتاج الادبى لخمسة عشر ادبياً منهم كارلايل وشيلى ووالث وبتمان وادجار الان جو وبودلير وبنزافيه وبايرون ويبين ما للمرض والاعطال الجسدية من آثار في تكوين الفكر وفي خلق المبدعة .

ذلك التفاعل بين البيئة والمجتمع من جانب ،
وحياة الفنان وقدراته الخلاقة من جانب آخر .

نجد مؤلفنا مشغولا طول الوقت بقصاصات
من الورق والمذكرات واليوميات والتسجيلات ،
نجده يرقب خطواتها وتحركاتها وسكناتها
كالخبر أو كرجل البوليس ، تضعيف وقته
ووقت القارئ في تفاصيل لا مفرى لها -
كشراء فستان أو حضور حفل أو الانتقال من
منزل الى آخر أو استقبال زوار . وهذه
اللحظات المتفرقة في حياة الفرد لا تظهر اهميتها
الا بعد فترة طويلة ، فهي ذرات تشبه الواحدة
منها الاكترون . ومراقبة ورصد الكترون
واحد من المستحيل علميا ولكن العالم (كاتب
السيرة) يستطيع أن يراقب سلوك «مجموعة»
منها ليستطيع التنبؤ بمسارها . فذرات
الحياة اليومية متشابهة بضمب ، كما في علم
الفيزياء ، أن نفرق بين واحدة وأخرى . فلا
فرق بين تناول الافطار أو الغداء أو العشاء
في أى يوم من أيام الاسبوع ، أو الخروج
للتسوق أو للرياضة أو ركوب قطار أو طائرة .
ولكن عندما تبدأ هذه الذرات (وتهتم فيرجنيا
ولف بها اهتماما بالغا في قصصها) في التراكم
وفى التشكل في قوالب ، تتخذ لنفسها انماطا
مميزة وتتلاحم لتأخذ مسارا معينا ، بعد أن
كانت مجرد لحظات متفرقة . ومن هنا تبرز
سمات الشخصية الفنية وتحدد ملامحها
الرئيسية . ثم تدور هذه الذرات أو اللحظات
في مدارات معينة حول بؤرة أو نواة هي جوهر
الذات الفنية ، التى سرعان ما تدرك أن هذه
الذرات المدارية ما هي الا اشعاعات تخرج من
النواة ذاتها - جوهر الفنان - بعد أن كانت
في بادىء الامر تأتي من الخارج لتلتصق

من أى زاوية ننظر اليه ؟ شجرة العائلة ، أمه
وأبيه ، الاماكن التى زارها ، المنازل التى عاش
فيها ، تكوينه الذهني ، الحضارة التى امتصها ،
الكتب التى قرأها ، يوم أن حملته أمه (٣)
وكيف وفى أية لحظة ؟ لكل هذه الاسباب
مجتمعة وغيرها ، تظل حياة الفنان المبدع سرا
غامضا مهما حاولنا سبر افوارها . ويقول
يونج ، وكأنه يحذرنا من التماهى في هذا
التنقيب في حياة الفنان : « أن كل انسان مبدع
هو في الحقيقة شخصان أو مجموعة من
الاشداد ، ففى جانب من شخصيته نراه
انسانا أو فردا له حياته الخاصة ، وفى جانب
آخر نراه مجهولا ، مجرد عملية خلق وإبداع . »

لم يحاول المؤلف أن يسبر غور نفسية
فيرجينيا وولف ، ولم يستطع أن يعالج حياتها
من زوايا معينة تعكس لنا طريقة المزج بين
« أحداث الحياة المادية » وبين « عملية تكوين
العمل الادبي » . ويمكننا أن نقول بأن العمل
الادبي وتر في مثلث منفرج الزاوية أحد اضلاعه
يمثل حياة الاديب المادية والآخر حياته الفنية .
والعمل الادبي محصلة القوتين ، ولكون المثلث
منفرج الزاوية لا يمكن ، علميا ، لأحد الاضلاع
أن يصبح صفرا . فتجارب الحياة تتصلق
الفنان وتؤثر في اعماله بشكل ملحوظ حتى
ولو حبس نفسه في برج عاجى يعزله عن العالم
من حوله . وإذا نجح كاتب السيرة في إبراز
هذه المعادلة الصعبة أعطى حوادث التاريخ
بعدا نفسيا ينفذ الى أعماق العمل الادبي
ويغيره امام القارئ . فالفنان انسان حر
ومعتد في آن واحد ، وعلى كاتب السيرة أن
يقيم في كل مرحلة من مراحل حياة الاديب

(٣) ذهب لورنس ستيرن الى هذا الذى في قصته « تريسترام شاندى » ويعتبر المجلد الاول في فنون القصة
العديدة (١٧١٤ - ١٧٦٨) .

فرحها بقالب من الزيد تتسلمه من صديقة لها
اثناء الحرب ، أو بقطعة من السمك تقوم بقلها
في الزيت وكان التجربة تجربة فنية كما يقول
لنا صديقها فورستر .

مايمعنا في هذه الترجمة هو تسجيل المؤلف
لحالاتها النفسية المتعاقبة ومنها نرى انها كانت
متصوفة تمسك بالحياة بالوانها المختلفة .
وتأخذ عليه انه لم يتعلم من فيرجينيا وولف
طريقة رسم الشخص من عدة زوايا في آن
واحد ، واتصاع بل واستسلم للرد الخطي
الزمني ، فخرج التمثال في بعد يخلو من
التجسيد . كان يجب عليه الا يربط تحركات
جسدها بل تنوع فكرها بصورة اعمق . كنا
نود مثلا ان نراه يناقش اثر فلسفة **جورج مور**
الجمالية في فكرها وفي مجموعة بلومزبري ،
فهو فهرس الجزء الاول له سبع اشارات وفي
الجزء الثاني اشارة واحدة . وبينما تحظى
قصتها « مسر دالواي » بثلاث اشارات ترى
ان علاقة فيرجينيا وولف الائمة بشقيقتها من
زوجة ابيها تحظى بنصيب الاسد .

كان الباحثون ينتظرون ظهور هذه السيرة
بفارغ الصبر . فحتى عام ١٩٧٢ لم يكن لدينا
في مكتبة فيرجينيا وولف سيرة يعتمد عليها .
وكان الباحث يلجأ - للتعرف على خلفية
اعمالها وحياتها - الى كتاب **آيلين بيبست**
« الفراشة والنجم » الذي صدر عام ١٩٥٥
وبه فقرات طويلة مقتبسة من الرسائل المتبادلة
بين فيرجينيا وولف وفيكتوريا ساكفيل
وينست . وكان المصدر الثاني هو « اليوميات »
الذي صدر عام ١٩٥٣ محتويا على مجموعة
لا بأس بها من مذكراتها ويومياتها وتبلغ في ٢٨
جزءاً ، وتعتبر المصدر الثرى لتفهم فنها
القصصي وطريقتها في التفكير . والمصدر
الثالث ترجمة **لينارد وولف** الدالية ونشر

بالنواة . وفي مجال هذه القوة النووية يتفاعل
الفنان والانسان . وهذا هو ما فشل فيه
الكاتب كما سنبين ، وكما يوبح بنفسه لنا في
الجزء الثاني وفي صفحة ١٠٩ حين يقول :

« في الفترة بين يونيو ١٩٢٥ وديسمبر ١٩٢٨
انتهت فيرجينيا من كتابة « الى الفئسار »
وجاءتها فكرة « الامواج » ، وهما كتابان اجمع
كثير من النقاد على انهما من انجازاتها العظيمة .
وربما يكون هذا هو المكان المناسب الذي يجب
عنده ان نحاول دراسة عقلها وهو يعمل حتى
لو اضطررنا ، في هذا التفحص والتدقيق ،
الى التخلي عن أي ادعاء لحرصنا على منهج
التسلسل الزمني ونفاخر ، بل ونخاطر ،
بالولوج الى دائرة يصعب علينا بكل تأكيد ان
نجد فيها طريقنا بسهولة . ولقد اشارت
فيرجينيا الى مخاطر هذا الاتجاه بقولها :
« ... ومع ذلك يدعي كاتبو السير انهم
يعرفون الناس » .

وباليتعلم منها ، ويؤكد لنا انه « لكي
يلم كاتب السيرة بما يعمل في نفس المؤلف
فعليه ان يكون اما انها او يكون المؤلف ذاته » .
وعندما انكبت فيرجينيا وولف نفسها على
كتابة سيرة صديقها الرسام **دوجر فواي** لم
تجد في ذلك العمل لذة تذكر ، فقد كانت
سيرته مجرد سرد منظم لوقائع حياته ، وقائع
سهلة بسيطة لم تستطع ان تمارس في سردها
حريتها الادبية . وكان ذلك يضجرها .

كان من الصعب على المؤلف ان يدرك المعاني
الخفية التي تكمن وراء هذه الحقائق البسيطة
السهلة ، فقد كان اتجاه فيرجينيا وولف منذ
البداية اتجاها « صوليا » . لم تكن الحرب
الاولى ولا الثانية اغنيتهما المفضلة ، ولم تهتم
بالسياسة او الدين ، ولكنها حرصت على
تذوق كل قطرة من طغرات الحياة بعادل

يطل بنا الكاتب في الجزء الاول على اسرة فيرجينيا وولف قبل مولدها بأكثر من مائة عام. وتمتد جذور الاسرة الى منتصف القرن الثامن عشر في مقاطعة ابردين باسكتلندة . لقد وضع الجد ستيفن ثقته في خالقه حتى ليخيل للمرء ان بينه وبين الله عمار . نراه يطرح امرأة الغرام ، وفي نفس الوقت يتجنب من امرأة اخرى طفلا . ويتزوج الاولى وتجد الثانية لنفسها زوجا ويصبح ابن السفاح فيما بعد قسيسا مبعولا .

من الصفحات الاولى - ومن صورة المؤلف على غلاف الكتاب - يظهر لنا جلجا روح المؤلف التهمكية الساخرة المرحة واسلوبه السلى لا يخلو من الاشارات والتلميحات الخفية . ينجب السيد ستيفن سبعة أبناء وبنتين . وحسب تقاليد العائلات في ذلك الوقت ينتشر الابناء على وجه الارض بحثا عن المغامرة والثروة . يتدرب أحد ابنائه على اعمال الحمامة ثم يشتغل بالتجارة ، واخيرا تتحطم سفينته بجوار ساحل دورسيت ، لكنه يتمكن من انقاذ نفسه ومن معه من البحارة ويتزوج سبيلا ميلنر . ولم يحالفه الحظ في التجارة فاستقر به المقام في السجن . لكنه لم يياس ، بل دفعه هذا المازق الى التقاط قلمه ليكتب دفاما عن نفسه وعن قضيتيه ، وبهذا صار مثالا يحتذى به من افراد العائلة فيما بعد ، وكان اول من يكتب كتابا عن عائلة ستيفن . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ان مر جيل من آل ستيفن دون ان يضيف الى انجازات العائلة الادبية .

استن* جيمس ستيفن لعائلته تقاليد معينة وهي مناقشة قضاياها كتابة ، وبسطها في قاعة المحكمة . لم يكتف رب هذه الاسرة بذلك بل اثار اعتراضات على طريقة معاملة السجناء في

الجزء الاول منها « البنو » Sowing عام ١٩٦٠ ، والثاني « الثنو » Growing عام ١٩٦١ ، والثالث « البداية من جديد » Beginning Again عام ١٩٦٤ ، ثم « انحدار على طول الطريق » Down Hill all عام ١٩٦٧ ، واخيرا « العبرة بالترحال لا بالوصول » The Journey not the Arrival عام ١٩٦٩ . ويعتبر كتاب كويتين بيل الاول « بلومزيرى » Bloomsbury ١٩٦٨ افضل بكثير ، ولو انه قصير ، من كتابه الحالي .

الجزء الاول : ١٨٨٢ - ١٩١٢

يخيل لقارئ العمل الادبي احيانا ان الاديب يحاول ان ينقل له تجربة ذاتية معينة يدسها خلال ثنايا عمله الادبي . ويود القارئ والدارس معا لو انه كان على علاقة اوثق بالاديب الذي يقرأ له ، يود ان يعرف عن حياته شيئا يسر له طريقه فيما غمض من جوانب اعماله ، ويعينه على تعرف طريقه في متاهاته . وقراءة السير قد يكون نوعا من الفضول وجب الاستطلاع ويشهد على ذلك اهتمام القراء بصفحات الاجتماعيات في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . والمأم القارئ بجوانب عديدة من حياة الكاتب شيء مستحب يعاونه على تكوين فكرة شاملة ، وان كان هذا المنحى في النقد الادبي والذي يعتمد على تفسير العمل الادبي في ضوء حياة صاحبه أحد المدارس النقدية القديمة . يريد القارئ ان يعرف سبب هذا الفتر الجنسي في قصص فيرجينيا وولف ، وسبب انتحارها . يريد القارئ والباحث ان يكون على صلة بالمؤلف ، بزوجها ، باختها ، بصديق حميم ، ليطلعنا على دخائل اموره . وذلك كله ، ربما لارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا اولا ، ولتوضيح الجوانب الغامضة في العمل الادبي ثانيا .

ابنها فيما بعد : « هل تذكر شيئا فعله والدك لأنه شيء سار ؟ » واجابها الابن بلباقة « نعم ، ذات مرة ، عندما تزوجك » .

قبل ان يفرغ المؤلف من سير جيمس ستيفن J. Stephen . اراد ان يؤكد اهتمام العائلة بالفن واحترامها له ، ويقصد فن الكتابة ، اما الفنون الاخرى كالموسيقى والرسم فلم تحظ بشسط وافر من اهتمام العائلة ، وكان من بين اصدقائه جون ستيتوت ميل . وانجب سير ستيفن اربعة اولاد وبنتا واحدة . وتوفي احد الاولاد في طفولته والاخر في ريعان شبابه وعاش الآخرون وهم جيمس وكارولين وليزلى : والد فيرجينيا . وولفت كارولين في حب فتى ولكنه هجرها وسافر الى الهند ، ولم يسمع به احد فتحطم قلبها واقعدها المرض وهى في سن الثانية والعشرين وفي النهاية التحقت بجمعية دينية (٤) .

كان لا بد ان يبرز الاخ الاكبر في حياته وتوقع الجميع له مستقبلا باهرا في المحاماة بينما توقع الجميع للأخ الأصغر ، ليزلى ، بأن يكون قسيسا . واتجه جيمس الى لندن والمحاماة ثم الصحافة ، والتحق ليزلى بجامعة كمبردج ورسم قسيسا عام ١٨٥٩ كما كان متبعا في ذلك الوقت لن يصبح زميلا بالكلية . وفي عام ١٨٦٢ وكان في سن الثلاثين نراه يخلع لباس الكهنوت ويتجه للحياة الدنيوية ويترك كمبردج ويلهب الى لندن معدما دون مستقبل واضح أمامه . وفي لندن يساعد اخوه في الحصول على عمل الا وهو الاشراف على « قاموس السير الوطنية » وتغترف بفضل كموورخ وفيلسوف واديب ومحرر لمجلة كورنيل . كان أسلوبه يتميز بالقوة والموضوعية وفي الوقت ذاته

السجن ذاته وكادت الامور ان تنتهي بثورة . فالسجن من أجل عدم الوفاء بالدين امر لا يليق بأدبيين ، ويتناقى مع الحقوق الانسانية والعدل والسياسة . وادرك في النهاية ان مواهبه تناسب حرفة المحاماة لا التجارة . ولم يسمح له بممارسة المحاماة لانه كان يفتقر الى اصالة المحتد ، الى الثروة والجاه ، الى ضبط النفس . وتوفي وهو في سن السابعة والاربعين وترك ستة من الاولاد يهيم منهم الثاني واسمه جيمس (١٨٧٩ - ١٨٥٩) .

والتحق جيمس بكلية ماريشال بأبردين ليدرس القانون ، واكتشف انه لن يستطيع ان يشق طريقه بسهولة ، فقد كان عليه ان يدرس اللاتينية . ولم يقف مكتوف الأيدي ، والتقط قلمه ليكتب احتجاجا ، ونجح وهو في سن السابعة عشرة ان يغير لوائح الكلية لكي تتفق وميوله ورغباته . واصبح فيما بعد عضوا بارزا في البرلمان وفي المجتمع وحصل على لقب سير . وورث عن والده حبه للعمل وكان يجد متسعا من الوقت ليعمل اكثر من ٣٠٠٠ كلمة قبل تناول افطاره لتنتشر في Edinburgh Review . كان عملاقا في الانتاج الادبي وعملاقا في تحصيله للمعرفة ولكنه كان تعيسا في حياته ، ولم تصل انجازاته الى مستوى مطامحه لانه كان متشائما جدا وخجولا جدا . كان مقتنعا ببقبح وجهه ولم يسمح اطلاقا بوضع مرآة في حجرته . كان يأمل ان يكون قسيسا او ناسكا ، وكان يحرم نفسه من ملذات الحياة ، ويقال انه دخن سيجارا في يوم من الايام واصعب بمذاقه ونكهته الى درجة انه اقسام الا يدخن سيجارا مرة اخرى . وخطر بباله ان يلجأ الى السموط كبديل وسرعان ما افرغ الصندوق من النافذة . وتسال زوجته

يتميز بالرفقة والإخلاص وقوة التخيل ، أى أنه كان أقرب الى الفنان الاديب منه الى الفيلسوف المؤرخ .

وتزوج من صغرى بنات القصصي الفيكتوري المشهور **فانري** صاحب « سوق الفرو » Vanity Fair . ولا نعرف الكثير عن زوجته هذه فقد كانت ترتبط باختها ارتباطا قويا الى ان اكتشف ليزلى أنه عندما تزوجها أصبح وكأنه قد تزوج الاختين . وتنافس الزوج والاخت في السيطرة على الزوجة . وانجب منها ابنته لورا عام ١٨٧٠ وتوفيت الزوجة وهى تضع مولودها الثاني عام ١٨٧٥ .

فى مساء ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ، وقبل بضعة ساعات من وفاة الزوجة ، قامت امرأة شابة تدعى مسز هيربرت دوكرىث بزيارة عائلة ليزلى . كان لها من زوجها السابق جورج وستيلا وجيرالد ، ونشأت بينها وبين ليزلى صداقة بعد وفاة زوجته انتهت بزواجه منها (جوليا) عام ١٨٧٨ . وكانت امرأة شجاعة استطاعت ان تعنى بأولادها الثلاثة وابنة زوجها المجنونة لورا . كان ليزلى فى الخمسين وهى فى سن الأربعين وما زالت امرأة مخضبة . وازافا فانيسا بعد عام واحد الى العائلة وفى العام التالي أنجبت ولدا (توبى) . وهنا صمما على الحد من النسل فقد كانت احوال العائلة غير مرضية . ولكن ادوات منع الحمل لم تكن متطورة وبعد عام ونصف وصلت فيرجينيا ولحقها فى العام التالي اديبان (٥) .

فيرجينيا ستيفن :

لقد أدركت فرجينيا منذ البداية أن الدماء

التي في عروقتها تأتي من رافدين ، وأن القدر قد شاء أن تكون سليلة أسرتين مختلفتان في العادات والثقافة . وذهبت الى ابعد من ذلك كما يقول المؤلف :

« كانت تعتقد أن هذين الرافدين المتنافرين المتنافسين يتصادمان ويتدفقان ويجريان باضطراب دون تآلف وانسجام في دماها » .

لقد كان عرق آل ستيفن يتميز بسلوك أسرى معين ، فقد كان معظم افراد الاسرة من اصحاب القلم يتمتعون بموهبة الكتابة ويجدون لذة فى التعبير عن انفسهم باللغة الانجليزية . ولكنهم كانوا يكتبون بأسلوب تطفى عليه روح الحيشيات فى القضايا ، وينظرون الى الادب على انه وسيلة للاقناع وليس غاية فى حد ذاتها . كانوا يهتمون بالحقائق الملموسة والوضوح ولا يهتمم الحس والعاطفة او جمال اغنية او صورة . كان لال ستيفن شجاعة خلقية وقوة بدنية وطاقة ذهنية . كانوا يخطون امامها كالعالمات ، شخصيات قوية فى مقدورها أن تقترف أعمالا وحشية (٦) .

اما افراد عائلة والدتها (آل پاتيل) فلم يكونوا من المفكرين أو الكتاب أو الادباء ، بل كانوا يتميزون بجمال الوجه ودقة التقاطيع والاناقة والاستقرائية . ونرى هذا الجمال فى صور افراد العائلة وخاصة فى نساءها ، تلك النساء اللاتي افتنن بهن الرسامون . ويمكن ان نطلق على هذين الرافدين « النثر والشعر » ، « الادب والفن » ، الذكر والمؤنث ، « الرجالي والنسائي » .

يزخر الجزء الاول بتفاصيل كثيرة من حياة فيرجينيا مولدها وطفولتها وصباها وشبابها .

(٥) لسز دافراى فى « الى الغدار » اربعة اولاد وبناتان .

(٦) ترمز مسز دافراى فى « الى الغدار » الى زوجها فى أماكن عديدة فى القصة « بمنظار نحاسى » Beak of Brass

تدهورت صحة والدها عام ١٨٨٨ ويصاب بازمة حادة ويلزم الفراش عام ١٨٩١ ، وينصحه الأطباء بالتخلي عن الإشراف على (قاموس السير الوطنية) كان أكثر ما يشغل بال رب الأسرة حالتهم المالية . وحاولت الزوجة أن تخفف من أعباله بتحمل مسؤوليات كثيرة ، واعتلت صحتها وتوفيت عام ١٨٩٥ . وحزن الزوج على زوجته حزنا شديدا وكان في سن الثالثة والستين وبحاجة للرعاية . وتسلمت ستيلامور المنزل .

جورج وحياة فيرجينيا العاطفية :

بلغ أخوها (من أمها) السابعة والعشرين ، وأخذت تصرفاته حيال فيرجينيا وستيلامور كما يقول المؤلف ، تحول من مجرد حنان وعاطفة نحو أختيه إلى عاطفة مشبوبة يشوبها ميل جنسي . فكان يداعب أخته فيرجينيا وهي تستذكر دروسها وتنقل الداعبة فيما بعد إلى حجرة النوم . ويدخل كيويدها حياتها في غير صورته التقليدية وتتعرف على « الحب » بصورة تختلف عن الصورة الأفلاطونية البريئة التي رسمتها في ذهنها . وأحسست فيرجينيا أن جورج قد أنسد حياتها العاطفية قبل أن تبدأ ، ولما كانت تخرج من هذه النواحي الجنسية والعاطفية أثرت الصمت وأصبحت ترتب منها واضطرت ، لكي تحمي وتحمي نفسها منها ، إلى اتخاذ مواقف سلبية جامدة باردة حيالها (٨) . ولا يستطيع المؤلف أن يجزم بأن هذه الصدمة العاطفية هي التي أدت إلى تلك الهزات النفسية العنيفة التي أصيبت بها فيرجينيا فيما بعد ، وربما عاود جورج وقاحته في تاريخ لاحق بعد وفاة والدتها .

فهي لم تعلم الكلام إلا في سن الثالثة ، وعندما انطلق لسانها بالكلام أصبحت الكلمات اسلحتها المفضلة . كانت حجرة الأطفال مكانا للحب والمنازعات في آن واحد . ونشأت بينها وبين أختها فانيسا علاقة خاصة بالرغم من التباين الواضح في الشخصيتين ، ومنذ البداية اتفقتا على أن تصبح فيرجينيا كاتبة وفانيسا رسامة . كانت فانيسا تصر على إبراز العاطفة في شكل منظور ، أما فيرجينيا فكانت ترى العاطفة على أنها شيء يفوح عطره في حوار بين شخصين .

لم يحرص الوالد على أن يقوم بمراشيم التعميد لأولاده . وقبل أن تبلغ السابعة من عمرها كانت والدتها تعلمها اللاتينية والفرنسية والتاريخ ، بينما أخذ الوالد على عاتقه تعليم أولاده الرياضيات بالإضافة إلى الرسم والرقص والموسيقى وحسن السلوك والمشي والجلوس . ونقرأ عن محاولاتها الأولى في الكتابة ويلاحظ المؤلف قدرتها على خلق المواقف ووصفها ، كما يلاحظ أن خلق الحكمة هو موطن الضعف في قصصها .

قضت فيرجينيا فترات سعيدة من حياتها في مدينة سانت آيفز الساحلية وتدخل الفراشات والبحر والأمواج وسماك البيلشارد حياتها في وقت مبكر (٧) . كانت هذه الفترة أسعد فترات حياتها ، ولكن سعادتها في هذا الفردوس لم تدم طويلا وسرعان ما أظلت أشباح الجنون والموت والفاجعة على حياتها . فقد أصيب ستيفن ، ابن عمها ، في حادثة أثرت على قواه العقلية ففقد صوابه . وأخذت تصرفاته تقلق بال الأسرة وتهدد حياتهم ، وأخذ يطارح ستيلامور وإلاحتها في كل مكان . ثم

(٧) أنظر أعمالها : « الاسواق » ١٩٢١ ، « موت الفراشة ومقالات أخرى » ١٩٤٢ .

(٨) يظهر هذا الاتجاه واضحا في قصتها « مسر دالواي » ، (إلى الغدار) في المجلات الزوجية .

شيخ الموت يطاردنا :

تصاب اختها العروس بالتهاب في الغشاء البريتوني وتسجل فيرجينيا ذلك في يومياتها بتاريخ ٢٩ إبريل ١٨٩٧ وتعر الازمة بسلام وبامر الطبيب بخروج ستيل في زهات قصيرة وكان على فيرجينيا ان تصاحبها . وخيل اليها ان الشوارع تعج بأشباح الموت في كل مكان . وتعرض لحادثة فعلا في ٢٥ فبراير ، وفي ٢٦ مارس تشاهد مركبة وهي تدهس سيدة على دراجة ، وفي ٨ مايو تشاهد حادثتين في بيكاديللي ، وفي ١٢ مايو يسقط حصان احدي هذه المركبات ميتا امامها ، وفي ١٣ مايو ترى اصطداما بين عربة يجرها حصان جامع وعربة نقل اخرى . ويتساءل المؤلف : هل حدث كل هذا فعلا ؟ لقد كانت صحتها بعد زواج ستيلا ومريضها في تدهور مستمر . ويقصصها الطبيب مرة اخرى ويصف لها العلاج السابق . ويعتقد المؤلف انها كانت تبالغ في وصف هذه الحوادث ولو ان حادثة السيدة التي دهستها العربة كانت قد وقعت فعلا .

وتتحسن حالتها في نهاية العام ، وكانت ستيللا على وشك ان تضع مولودها الاول . ولكن فيرجينيا كانت تحس احساسا عميقا بان نهاية ستيللا قد دنت وتدون في يومياتها : « لقد عوفيت هذه البقرة واصبحت مرحة ، تنظ من سريرها الخ ... الحمد لله ، ومع ذلك - » ومن « مع ذلك » هذه يدرك القارئ ان شيئا ما كان على وشك الحدوث ، وتجدها في اواخر شهر ابريل تشكو مما كانت تسميه « التملل » ، نوع من التلق والاضطراب النفسى . وتوامسها اختها ستيللا وتفاذر

لقد بدأت حياتها العاطفية بجرح غائر لم تستطع منه الشفاء ، كما انها لم ترغب طوال حياتها في الاعتراف بهذه الذكريات الاليمة او في تذكرها . ولكنها كانت تذكر وتذكر ما يصاحب هذه الحالات النفسية من اعراض جسدية . ففي مذكراتها في هذه الفترة لا تذكر ما تعرض له ذهنها من اضطراب وثشوش ، مع علمنا بانها كانت تسمع ما اطلقت عليه فيما بعد « تلك الاصوات المريبة » ، بل تشير الى عوارض اخرى جسدية فيرتفع نبضها الى درجة لا تطاق ، وتصبح سرعة الغضب عصبية المزاج ، ثم سرعان ما يصيبها الاكتئاب والفتور . اصبحت تخشى الناس وتخافهم ويحمر وجهها خجلا اذا ما خاطبها احد ، وكانت لا تنظر الى غريب وجهه في الطريق وتمشى منكسة الرأس .

لم يكن في وسع طبيب العائلة ، الدكتور سيتون Seton الا ان يمنعها من القراءة والدراسة . فاشار عليها باتباع نظام بسيط في الحياة مع زهات قصيرة خارج البيت اربع ساعات يوميا . كانت مهمة ستيللا ان تخرج معها في هذه الزهات اما على الاقدام او تصاحبها الى الطابق العلوى في الاوتوبيس (٩) .

وتزوجت اختها ستيللا عام ١٨٩٧ من **جلاه هيل** ، واستقر راي فيرجينيا واخوانها منذ ذلك اليوم على كتابة اليوميات . وواظبت فيرجينيا على الكتابة لفترة ستة اشهر . وفي هذه اليوميات نرى نواح متعددة من جوانب شخصيتها . فنراها تشمل الزيارات المختلفة لحدائق الحيوانات ومعارض الفنون والمسرح او لما عرف فيما بعد بالصور المتحركة او السينما في قامة البرث .

بمجموعة كبيرة من الكتب . وفيها كانت تستقبل اصداقها ومدرساتها . كانت للحجرة ستائر زرقاء وجدرانها بيضاء ، وكانت طريقته في الكتابة تثير العجب . كانت تستعمل مكتبا ارتفاعه ثلاثة اقدام وست بوصات وله سطح مائل . وكان المكتب مرتفعا لا يسمح لها بالكتابة الا وهي واقفة . وحاولت ان تعال لهذا الوضع الشاذ : لقد كانت فانيشا ترسم على لوحاتها وهي واقفة لكي تستطيع ان تبعد عن اللوحة من آن لآخر وتنظر اليها عن بعد . وقد دفع ذلك فيرجينيا الى الاحساس بان عملها لن يكون على قدم المساواة مع ما تقوم واختها بانجازه الا اذا كتبت هي بهذه الطريقة - ولهذا كانت تقف ، ولسنوات عديدة ، في هذا الوضع الشاذ الذي اتعبها » .

وفي عام ١٩٠٢ اتعم على والدها بلقب سير واصيب بالسرطان وتوفي في ٢٢ فبراير ١٩٠٤ .

السلوك في السفر ، الانهيار العصبي الثاني ، محاولة الانتحار الاولى :

ترك اولاد سير ليزلي منزلهم ، منزل الحزن المظلم ، الى منزل آخر على ساحل بمبروك . وفي اول ابريل ١٩٠٤ سافرت فيرجينيا وفانيشا وتوبى وادريان الى فلوريس ، ومنها الى باريس ليلتقوا بكلايف بيل ويزوروا مرسوم رودين Rodin . وفي ٩ مايو تعود فيرجينيا واختها فانيشا الى انجلترا ، وفي ١٠ مايو يصيبها الانهيار العصبي الثاني ، فتنتقل الى مانور هافس في نوتنجهام للاستشفاء .

بدأت فيرجينيا تشك في اختها واتخذ حزنها على والدها طابعا هستيريا ، وبدأت المعرضات ،

منزل ستيل الى منزلها ، وبعد ايام ابلغها جورج وفانيشا بان ستيل فوتيت اثر عملية جراحية . كانت وفاة ستيل مأساة بحق . ونجد فيرجينيا تتجنب الرجال وتقع في حب مادي (من فرع عائلة والدتها) وتعترف فيما بعد بانها المرأة الوحيدة التي احببتها (١٠) وكانت عاطفة فيرجينيا تختلف عن عاطفتها نحو جورج . ويكتنف الغموض تحركات الاسرة التي تنتقل فيما بين عامي ١٨٩٧ - ١٩٠٤ الى منزل رقم ٢٢ هايد بارك جيت ، ويجعل المؤلف تفاصيل يوم عادي من ايام هذه الفترة على النحو التالي :

« يبدأ اليوم بجولة تقوم بها فانيشا على ظهر حصان اهواه لها جورج . يبدأ الافطار في الثامنة والنصف صباحا ، فانيشا وجيرالد اولاً ، ثم ليزلي وادريان ، وعادة ما يصل كلاهما متأخرين الى المدرسة . ثم تنزل فانيشا الى الدور الارضي لترتب مع صوفي وجبات ذلك اليوم . وتوجه على دراجة في رداء طويل وعلى رأسها قبعة فضفاضة الى مدرسة السيدة « كوب » للفنون . وقد يقوم جيرالد بتوصيلها الى شرق المدينة بعربته وهو في طريقه الى دار النشر التي أسسها عام ١٨٩٨ . وينزل جورج وفيرجينيا فيما بعد وقد اولدى جورج ابهى حظه استعدادا لحياة لندن . وربما يحكى لفيرجينيا عن مغامراته في الليلة السابقة وذلك قبل ان ينطلق الى عمله .. ويدخل ليزلي الى مكتبه ويظل فيه طوال ساعات الصباح بينما تصعد فيرجينيا الى الطابق العلوي ومعها ليديل وسكوت (١١) لتقرأ سوفوكليس ويوريبيديس ، او تخط رسالة او مقالا . كان مقرها المفضل حجرة الاطفال في اعلى المنزل ، وكانت تزخر

(١٠) تظهر في شخصية سالي في قصتها « مسز دالواي » .

(١١) قاموس ليديل وسكوت (يوناني - انجليزي) .

وتتكون من توبى كلايف بيل وديزموند
ماكارتني .

كان لينارد وولف اول الشبان الذين دعاهم
توبى للعشاء ، وذلك قبل سفره الى سيلان
في ١٧ نوفمبر ١٩٠٤ ، وكان ذلك اول لقاء بين
لينارد وولف وفيرجينيا . ووصفه ليتون
ستراتشي « بأنه يشبه سوفيت وعلى استعداد
لقتل زوجته ! » فقد كان لينارد يحترق الجنس
البشرى ونراه يترك انجلترا ليعيش في الادغال
يظل النמוש يكتنفه حتى عودته .

اما ليتون ستراتشي فكان من الواضح أن
اسمه سيلمعي في يوم من الايام ، بينما كان
ديزموند ماكارتني على ثقة كبيرة بنفسه وسيما
موهوبا . اما كلايف بيل فكان اقرب فرد في هذه
المجموعة ويهوى الرسم ، وتبدأ فيرجينيا صلتها
بمحرر المحقق الادبي للتايمز ، واستمرت تكتب
في هذا المحقق حتى وفاتها . فقد دعا رئيس
التحرير والدها للاسهام بانتاجه فيها عند
نشرها عام ١٩٠٢ ونراه يتصل بفيرجينيا في
مارس ١٩٠٤ . وتميزت جماعة بلومزبري
بالتباعد والتعالي ، الى حد ما ، وكان معظم
افرادها من العقلاء واصحاب الافكار
الجديدة الجريئة في الادب والرسم والفن .

وفي عام ١٩٠٥ قامت بزيارة قصيرة لاسبانيا
مع أخيها ادريان وخلفت الرحلة انفعالات شتى
في نفسها تظهر في قصتها « رحلة الى الخارج »
The Voyage Out . وفي هذا العام عاودها
الحنين الى سانت آيفز فعاادت اليها ووصلوا
في المساء حتى تولاند هاوس وكانهم اطفال قد
عادوا بعد جولتهم في ضواحيها . وفتحت
فيرجينيا بوابة المنزل بجرأة ، وصعدوا الدرج
المؤدي الى الباب الرئيسي وشاهدوا الجرار
الحجرية واحواض الزهور والشرفة والنوافذ

وعدهن ثلاث ، وكانهن شيطانات : كانت
تسمع اصواتا غريبة تحنها على الاتيان باعمال
حمقاء ، واعتقدت أن هذه التخييلات نتيجة
للإفراط في الاكل فحمرت نفسها من الطعام .
ونقلتها فيوليت ديكنسون الى منزلها في بورنام
وروز ، وهناك حاولت الانتحار بالانلقاء بنفسها
من نافذة ، ولحسن الحظ لم تكن النافذة
عالية . كانت تردق في فراشها « تستمع الى
الفيصور وهي تغني باليونانية ، وترى الملك
ادوارد السابع مختفيا بين نبات الازالية
الصخراوى وبسبب بلغة سوقية » وظلت
فيرجينيا « مجنونة » طوال هذا الصيف .
ويعتقد المؤلف أن هذه المحاولة لم تكن الاولى
فقد قالت لجاك هيل عند وفاة الملكة فيكوريا
في يناير ١٩٠١ : « جاك ، هل تعتقد أنني
سأنتحر ؟ » .

جماعة بلومزبري والهروب من الماضي :

كان انتقال العائلة الى منزلهم الجديد في رقم
٤٦ ميدان جوردون بمثابة هروب من الماضي
بكل ما فيه . كان اخوهم جيرالد سعيدا
بانفصاله عن اولاد « ستيفن » ، ولكن جورج
لم يقبل فكرة ترك أخته مع توبى وادريان ،
وأصر على السكن معهم وواصل تودده لفيرجينيا
من جديد حتى تزوج من ليدى مارجريت .

واحتلبل منزلهم في جوردون سيكوير
- مجموعة طيبة ومجموعة رديئة : مجموعة
ديموقراطية ومجموعة استقراطية . ويمكننا
أن نقول أن المجموعة الاولى كانت تتكون من
هؤلاء الصامتين الهادئين الذين يبحثون عن
الحقيقة ، يجلسون في دائرة حول امامهم جورج
مور وهم ساكنون سيدني. تيرنر ولينارد
ولف وليتون ستراتشي ، والمجموعة الاخرى
وهي أكثر اهتماما بالأمور الدنيوية ، وأكثر
ثرثرة وضجيجا أيام الخميس من كل اسبوع ،

جامعة بلومزبرى بل وربما، كما يقول المؤلف ، في أخلاقيات الطبقة الوسطى بوجه عام في إنجلترا . وتغير المناخ الفكرى والاجتماعى وترتب على هذا التغير نتائج خطيرة ولكنها لم تكن بالقوة التي تكفي لتغيير أسلوب حياتها وأسلوب تفكيرها . ففى هذه الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٨) كانت تعد ليلاد « رحلة الى الخارج » وشغلته هذه القصة في السنوات الخمس التالية . كما شغلت نفسها بكتابة مسرحية لم يبق لدينا منها سوى فقرات مبثورة ، بالإضافة الى قصة طويلة وأخرى قصيرة . وكان على ما يبدو له سبع مخطوطات لقصتها « رحلة الى الخارج » حرقها جميعا . وألقت فيرجينيا بنفسها في دوامة العمل المتواصل فكانت تكتب المقالات لـ « مجلة كورنيل » والملاحق الادبية للتايمز والجارديان ، ولكنها لم تنشر اى قصة حتى بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها .

وتعود بعد هذا الاستطراء القصير الى اخلاقيات جماعة بلومزبرى . كان أفراد المجموعة يعتقدون ان الشخص المناسب لفيرجينيا هو ليتون سترانش ولكنه ، كما يؤكد المؤلف : كان لوطيا . وتعلق اختها على هذا الراى : « افضل ان يكون ليتون زوجا لاختي بدلا من اى رجل آخر اعرفه ولكن الطريقة الوحيدة التي اراها تحقق ذلك هي ان يقع في غرام اديان (اخوها) وحتى لو حدث ذلك فقد يرفضه اديان » . وفى هذا الخطاب اشارة واضحة الى شذوذه الجنسي . وسرعان ما يظهر على مسرح الحوادث زوج آخر هو ادوارد هيلتون يونج ، ولكنه لم يعجبها فقد كان كما وصفته اختها « كالفيل في محل للخزف والصيني » . ويشير المؤلف - وهو ابن اختها فانيسا - الى التجاذب الذى حصل بين

المضيئة (١٢) . وكان المنزل يسدو وكأنه في انتظارهم . ومكثوا في سانت آيفز حتى اكتوبر . وكان من دواعي سرورهم ان يحظوا بمنظر صيد وفير من سمك البيلشارد . وبعد عودتهم الى لندن انشغلت فيرجينيا بالتدريس في كلية مودلى وهو معهد مسانى معظم طلابه من العمال والعمالات .

وجدت عائلة ستيفن انه من الواجب زيارة اليونان مهد الحضارة الغربية . وفى اوائل القرن العشرين كان من الممكن ان يعثر الرجل الانجليزى الذى نال قسطا من الثقافة الكلاسيكية على اشياء كثيرة مبهجة في اليونان وعلى الكثير ايضا مما يشير حزنه في اليونان الحديثة . فقد يذهب لليونان بحثا عن فكرة معينة ويصدمه الواقع المر . وكان توبى من هذا الصنف من الناس ، وكانت فيرجينيا تراقب فرحه وخيبة امله باهتمام وتعاطف في آن واحد . وواصلت فيرجينيا رحلتها الى القسطنطينية ، وعاد توبى الى لندن مصابا بحمى التيفود وتوفى في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٦ . وبعد وفاته بيومين وافقت فانيسا على الاقتران من كلايف بيل وتم الزواج في فبراير ١٩٠٧ .

الرجل الاول في حياة فيرجينيا ، تغير المناخ الفكرى :

يعتبر والتر هيدلام اول « رجل » في حياة فيرجينيا العاطفية وكان يكبرها بأربعة وعشرين عاما . ولم توافق فانيسا على هذه العلاقة لانها كانت تراه زير نساء يهتم بالفتيات الصغيرات . وحزنت فيرجينيا عليه حزنا شديدا عندما توفى عام ١٩٠٨ .

وتأتى لحظة حاسمة في تطور اخلاقيات

(١٢) انظر منزل سنز دماوى في « الى النار » .

زوجا ، وادرك ان جنة الزواج التي يحلم بها شيء مسجل . وعاونته فيرجينيا على الفرار منها . لقد راودتها فكرة الزواج منه وراقبتها ولكنها ، كما اعترفت فيما بعد ، كانت « جبانة جنسيا » ، وان خبرتها الجنسية الوحيدة مع الرجال كانت تجربة مفرغة تثير الاشمئزاز . ومع ذلك كانت ترغب في الزواج ، فقد بلغت السابعة والعشرين من عمرها وتعبت من كونها عانساً ، تعبت من عيشتها مع أخيها اديان . وكانت في حاجة الى زوج تحترم عقله وتفكره ، فقد كانت تقدر الذكاء الخلاق . كان شذوذ ليتون الجنسي بمثابة مصدر ضمان وطمانينة لها ، وكزوج لن يكون ملحا ولن يكون من الصعب « ارضاءه » وكانت تأمل ان يتطور هذا الزواج « الاخرى » في المستقبل الى علاقة وطيدة بينهما . لقد كانت تجربتها مع ليتون تجربة مريدة محزنة حقاً . وافترق الاثنان ، وذهب هو الى برايتون ، وشغلت هي نفسها بالعمل المتواصل . لقد بدأ عام ١٩٠٩ بداية محزنة وانتهى بتصدع العلاقات بين افراد جماعة بلومزبرى .

فيرجينيا ستيفن وامبراطور الحبشة :

يأتى عام ١٩١٠ وبالتحديد في ١٠ فبراير ونرى فيرجينيا في القطار المتوجه الى وايמות من محطة بادنجتون وقد ارتدت عملة شرقية وحول رقبتها سلسلة ذهبية تتدلى حتى خصرها وترتدى قفطانا مطرزا ، وقد صبغت وجهها بصبغة سمراء وعلى وجهها شارب ولحية انيقة . كان الثلاثة الآخرون في صحبتها - دكان جرائد وانتوني باكستون وجاى ريدلى يرتدون نفس اللباس . اما اديان فكان يرتدى قبعة عالية وملابس رسمية ومعه هوارس كول في زى رسمى لموظف من وزارة الخارجية البريطانية .

فيرجينيا وزوج اختها (والد المؤلف) . فيعد زواج اختها وجد كلايف يبل نفسه متهما بحب فيرجينيا . ويستطرد المؤلف فيقول :

« لقد لجأت الى كلمة « مغاللة » لاننى لو اطلقت على هذه « المودة » كلمة « فضيحة » ، فقد توحى ان كلايف قد نال ما يريه . ولكن الامر في الحقيقة لم يكن اقل او اكثر من خيانة زوجية لطيفة بسيطة انتهت في الفراش » . (ص ١٣٠ ، الجزء ١) .

ويسال عما كانت تريد فيرجينيا من هذه العلاقة . ويجب بانه لو كانت فيرجينيا قد وقعت في غرام أحد فلن يكون سوى اختها ثانياً ، فالرسائل بينهما لم تنقطع ، وكلها تشبه الرسائل الغرامية . ويحاول تحليل هذا الموقف الفريب وتبريره بأساليب شتى . ونرى فيرجينيا تسجل في معرض حديثها عن عائلة يبل : « سيطلب الفصل بينهما » (تقصد فانيسا وزوجها) بعض الوقت » .

ان كان لهذه العلاقة اى اثر عاطفى في حياة فيرجينيا ، فهو نجاح كلايف في ان يجعلها تحس بحاجتها الى « رجل » ، وهذا هو ما فشل فيه والتر هيدلام من قبل . هذا بالإضافة الى انه كان يؤمن بمعقريتها ، وفي هذا المجال ايضا كان له فضل عليها يفوق فضل ليتون ستراتشى . فقد كان الاخير يرحب بمناقشة الموضوعات الادبية والفنية معها لا اعمالها هي ، بل ويعتبر نفسه نداً لها .

وفي ١٧ فبراير ١٩٠٩ يحضر ليتون ستراتشى الى منزلها ويطلب يدها ، وتوافق على الزواج منه . ولكنه اكتشف ان الامر ليس بهذه البساطة فقد واه ان يكتشف انها من الجنس الآخر (اللطيف) وراعته مدرستها وسداجتها . وانزعج حين ادرك انها قد تقبله

بلومزبري تغير مزاج المجموعة الفني ، واعتنقوا مذهب سيزان التجديدي ، ولم تعد فلسفة جورج مور تستقطب أفكارهم ، واغتصب سيزان عرش جورج مور كما اغتصب روجر فرأى منصة ليتون ستراتش .

وتوطدت العلاقة بين فيرجينيا وروجر فرأى بعد زيارة للقسطنطينية واخذ يكتشف ابعادا جديدة في شخصية فيرجينيا . وتنعد العلاقات الانسانية والعاطفية مرة اخرى وتشابك . فتبيل فانيسا الى روجر فرأى وتعجب به ، وفي النهاية تستسلم الاختان للامر الواقع . ففي عام ١٩٠٨ . كانت اجتماعات جماعة بلومزبري تتميز بالحوار المكشوف اما في عام ١٩١٠ فكانت تتميز بالعلاقات والتصرفات المكشوفة دون حياء وكتب فيرجينيا تقول : « ان الطيبة البشرية تغيرت في ديسمبر ١٩١٠ » واقرحت فانيسا ان يكونوا جمعية متحررة من كل القيود وخاصة الجنسية . ولم يكن ذلك مستغربا فقد حضرت فيرجينيا وفانيسا الحفل الراقص الذي اقامه الفنانون الانطباعيون في فساتين عارية الكتفين قصيرة وكانهما فتاتان من لوحات جوجان . ودار همس في هذه الفترة يؤكد ان فيروردون سكوير مارست فانيسا الجنس مع مانيتاردكين علنا في حجرة استقبال ازدحمت بالمدموين . ولكن المؤلف ينفي هذه الشائعة .

هكذا تعاقب العشاق والمعجبون - كلايف بيل والثر لام وسيدنى واترلو . ومن الشخصيات التي توافدت على منزلها والتر لام وادوارد مورجان فوستر . وفي عام ١٩١١ دعت فانيسا اختها لقضاء اجازة في منزل ريفي في جيلفورد . وهناك التقت فيرجينيا بافراد جماعة جديدة اطلقت على نفسها « الوثنيون المحدثون » ، وكانت خلفية هذه

كان الغرض من هذه الرحلة خداع البحرية البريطانية واختراق الحراسة المضروبة حول السفينة الحربية دريدنوت Dreadnought والتمتع بجولة على احدى قطع بحرية في الاسطول البريطاني .

وقد خططت فيرجينيا لهذه العملية بمساعدة كول الذي خطط لخدمة مماثلة عندما زار جامعة كمبردج على انه سلطان زانزار ، واستقبله معه وكان عمدة المدينة وطاف به في ارجاء كليات الجامعة ثم ودعوه بحفاوة حتى محطة القطار . وابلغ كول جريدة الديلي ميل بالخدمة وغضب معه منه .

وكانت عملية السفينة الحربية مماثلة . فقد ارسل احد اصدقاء كول القبطان السفينة برقية مذيلة بامضاء وزارة الخارجية تطلب فيها بزيارة امبراطور الحبشة للسفينة زيارة رسمية . ونفذت الخطة ، ووصلت الحاشية مع الامبراطور لتجد في استقبالها ضابط الاتصال على ظهر السفينة . واستعرضوا حرس الشرف وتولى اديان ترجمة خطاب القبطان للامبراطور (فيرجينيا) بلغة هي خليط من اللغة السواحلية واللابينية واليونانية .

ونقل كول الخبر ونشرته جريدتا الاكسبريس والمرور في الصفحة الاولى وبعاوين رئيسية ، وزاد اهتمام الصحفيين عندما علموا ان فيرجينيا كانت احد افراد الحاشية .

الانطباعية المتأخرة : Post-Impressionism

تعرف كلايف بيل عام ١٩١٠ على الفنان روجر فرأى ، واصبح مع فانيسا من انصاره المتحمسين ، فقد اشرف روجر فرأى على معرض الفن الانطباعي المتأخر عام ١٩١٠ . ولم تهتم فيرجينيا بهذا الفن في بادئ الامر ، وبعد زيارات روجر فرأى لمنزلها وبانضمامه لجماعة

عام ١٩٠٤ ، وهم ليتون وساكسون وديزيموند
ماكارتى وكلايف بيل وفورستر ، وعن طريقهم
اتصل بفانيسا وروجر فراى وفيرجينيا . كان
لينارد قد تعلم في هذه الفترة ان يعيش بمفرده
كرجل بوليس يرعى مصالح الامبراطورية وينفذ
سلطة الحاكم ويحكم على الناس بالاعدام
وينفذ الحكم فيهم . ويبدو انه عشق هذا
العمل ولكن جماعة بلومزبرى استطاعت ان
توقظه من هذا الحكم الامبراطورى . وسرعان
ما انسجم مع حياته الجديدة في كمبردج .

وتوطدت الصداقة وتكررت الزيارات . وفي
٤ ديسمبر ١٩١٢ انتقل الى حجرتين في الطابق
العلوى في منزلها في ٣٨ ميدان برنزويك باجر
قدره ٣٥ شلن في الاسبوع .

وطلب يدها في ١١ يناير ١٩١٢ ووافقت
على الزواج منه في ٢٩ مايو ١٩١٢ ، وكان هذا
القرار هو خير ما فعلته في حياتها .

المجموعة تختلف عن خلفية جماعة بلومزبرى .
كان معظم أعضائها من أبناء الشخصيات
الفيكتورية الثرية ، حصلوا على تعليم
جامعى ويدبنون بالاشتراكية ويناصرون
فلسفة جورج مور . وتأثرت فيرجينيا بسلوك
أفراد هذه المجموعة ونراها تستحم مع روبرت
بروك عارية في ضوء القمر اثناء اجازة قضتها
معه من ١٤ الى ١٩ أغسطس عام ١٩١١ . كان
استحمامها عارية نوعا من التحرر يليق باختها
فانيسا . وتعاودها النوبات العصبية وتكتب
لاختها في يونيو ١٩١١ : « لم استطع الكتابة
وخرجت كل الشياطين سوداء كثيفة الشعر .
ها أنا في التاسعة والعشرين ، دون زواج ، مثال
لافضل ، دون اطفال مجنونة ايضا ، لا اجيد
الكتابة . »

ويعود لينارد وولف من سيلان عام ١٩١١ ،
وتوجه لمقابلة اصدقاء كمبردج الذين تركهم



وتقنتها بنفسها وجعلها أكثر استجابة، ويعاونها في التغلب على الخوف من « الرجل ». وتبدد هذا الأمل فقد أرسلت من ساراجوسا لصديقتها كاترين كوس تحدثها عن برودها الجنسي وينتهى خطابها بقولها : « ربما مازلت الآنسة س . »

وبعد عودتهما الى إنجلترا استشارا فانيشا فكتبت بدورها تقول : « كان يبدو أنهما في غاية السعادة ولكن من الواضح أنهما كانا قلقين بشأن برود فيرجينيا . يبدو أنني أزعجتها ولكنني واسيته بقولي أنني كنت اعتقد أنهما لم تفهما أو تقدر الرغبة الجنسية في الرجل . ومن الواضح أنها مازالت لا تجد لهذه المصطلحات في العملية الجنسية وهذا غريب . كانا يتشوقان لمعرفة المرة الأولى التي أحست فيها بهزة الجماع . ولم أنذكر . »

كانت فانيشا ولينارد ومعهما فيرجينيا يميلون الى اللقاء اللوم على جورج الذي خلف في حياتها الجنسية هذا الجرح الفاتر ، وربما كانت على استعداد نفسى بطبيعتهما للتنور من هذا اللقاء الجسدى بين الرجل والمرأة ، وربما

الجزء الثانى : ١٩١٢ - ١٩٤١ :

العروس :

ارتاح أصدقاء فيرجينيا لنبا خطبتها الى لينارد ماعدا كلايف بيل . ويحكى لنا المؤلف من مقابلة فيرجينا لعائلة وولف . ولم تترك المقابلة اثرا حسنا في نفسها فقد كانت مسر وولف والدة لينارد « تتراس » عائلة كبيرة .

تم تسجيل عقد الزواج في مكتب تسجيل سالت بانكراى وربما كان ذلك هو السبب في عدم حضور مسز وولف . وتم التسجيل بسرمة لم يرتح لها مسجل عقود الزواج ، فقد كان ضعيف البصر وكان اليوم ممطرا تخلله البرق والرعد ، واختلطت عليه الاسماء الغريبة « فيرجينيا وفانيشا » ولم تتركه فانيشا يؤدي عمله ، بل كانت تقاطعه من آن لآخر لتسأله عن الخطوات القانونية التى عليها ان تتبعها لتغير اسم ابنها في السجلات . وانتهت مراسيم « كتب الكتاب » وبدأ شهر العسل ، وفكر العروسان في قضائه في ايسلنده في بادىء الامر ثم استقر بهما الرأى اخيرا على اسبانيا . وفي برشلونة كان الطعام رديئا ، وفي مدريد كانت الحرارة لا تطاق ، فهربا الى توليدو ومنها الى ساراجوسا . ومن اسبانيا توجهها الى مرسيليا ومنها الى شمال ايطاليا ثم البندقية وعادا في ٣ اكتوبر ١٩١٢ الى منزلها في ميدان برنوك .

اكتشف الاثنان بعد زواجهما ان كلامهما يكمل الآخر ، وكان الحب الذى بينهما من القوة بحيث استطاعا التغلب على مشاكل الزواج في المستقبل وعلى جنون فيرجينيا . ويجب ان تؤكد ان هذا الحب لم تمتد جلوره الى الحياة الجسدية . كان اصدقاء فيرجينيا يأملون ان ينجح لينارد في ان يعيد اليها التوثق

في حالتها وكثيرا ما يحجم المحلل النفسى عن علاج المرضى الذين اصابوا بالجنون فعلا . وربما عجز فرويد نفسه عن علاجها بعد انهارها العصبى الأول . ولم يسمع أحد بنظريات فرويد في إنجلترا عندما اصابها الانهيار العصبى الثانى في ١٩٠٤ . وحتى في عام ١٩١٣ لم يكن العلاج النفسى الفرويدى معروفا . فقد بدأ ارنيست جونز يمارس العلاج النفسى في لندن عام ١٩١٣ . وتعد مدام مايكوكاميا Mme. M. Kamiya حاليا سيرة بالولوجية لفرجينيا وولف وربما تساعدنا على تفهم مرضها النفسى ، وعلى ما اذا كان التحليل النفسى امل في شفاؤها . ويبدو لكاتب السيرة ، كما بدا لزوجها ، ان مرضها هو الجنون الاكتئابى ، وهو مرض لا يستجيب المريض فيه للتحليل النفسى .

فشل العلاج بالعمل ، مطبعة هوجارت :

بدأت تماثل للشفاغى أوائل عام ١٩١٥ وبدأت في كتابة يومياتها واحتفلت بعيد ميلادها الثالث والثلاثين في ٢٥ يناير . واستقر رأيها ، ووافقها زوجها ، على شراء آلة للطباعة والإقامة في هوجارت هاوس في ديتشموند . ولم يمض شهر حتى يعاودها الصداق وتدخل إحدى المصححات في مارس ، وفي الشهر ذاته تنشر « رحلة إلى الخارج » (٢٦ مارس ١٩١٥) .

تعتبر هذا الانهيار عما سبقه في المرحلة الأولى . فتراها تدخل في مرحلة من مراحل جنون الثروة والتشوش الفكرى والاستمرار في الكلام دون توقف حتى ينتهى بها الامر الى اللغو والبريرة ، ثم تسقط مشنبا عليها وتظل في غيبوبة لفترة طويلة . وفي نهاية عام ١٩١٥ أصبح من الجلى انها لم تعود امرأة عادية ، وكان من المتوقع ان يعاودها الجنون في أية لحظة وتصاب بنكسة اشد وأقوى من التى قبلها .

كانت الشهوة الجنسية ضعيفة فيها . وكتبت فيتا ساكفيل ويست فيما بعد : « لقد كانت تبغض حب التملك وحب السيطرة في الرجال وتكره فيهم صفة الفحولة » . وبالرغم من ذلك كله كانت تود لو انها انجبت اطفالا . ولكن الاطباء اجمعوا على انه من الخطورة ان تصبح « أما » . وظلت طوال حياتها تحسد اختها فانيسا فقد انجبت ثلاثة أطفال ، مؤلفنا احدهم .

وانتهت من قصتها « رحلة إلى الخارج » في مارس ١٩١٣ وفي إحدى فقرات القصة وصف لحالتها النفسية ، ونوبات الارق التى كانت تعانيه :

« تلك الليالى الطويلة التى لا تنتهى عند الساعة الثانية عشرة ولكنها تمتد الى الاعداد المزدوجة الثالثة عشرة ، الرابعة عشرة وهكذا حتى تصل الى العشرينات ، ثم الثلاثينات وبعد ذلك الى الاربعينات ... وليس هناك ما يمنع هذه الليالى من ان تفعل ذلك اذا ارادت . »

وتسوء حالتها الصحية وتشتد فيها النزعة الانتحارية ، فتتناول مائة حبة من حبوب الفيروئال لتقضى على حياتها وتظل في رعاية الممرضات حتى نهاية العام .

ويلقى المؤلف باللوم على فانيسا وادريان . كان يجب عليهما ان يطلعا لينارد قبل زواجه منها على حالتها بالتفصيل . لقد حرصا على اخفاء جنونها . وحاول زوجها علاجها عن طريق الراحة والاسترخاء وتناول الوجبات في مواعيد منتظمة وتجنب الالارة الدهنية . كان يقرأ في ذلك الوقت « تفسير الاحلام » لفرويد . ومن العسير علينا ان نجزم بغاثة التحليل النفسى

كتاب من الوزن الثقيل يتبعه آخر من الوزن الخفيف (ما كانت تطلق عليه كلمة « الملوحة ») او « مزحة » . كانت قصتها « الليل والنهار » ١٩١٩ من النوع الخفيف ، عمل « استجمامي » هذا بالاضافة الى عملها في « الملحق الادبي » للتايمز . وتتسلم مطبعة جديدة وتضيف مطبعة يدوية أخرى الى دار هوجارث وتشغل نفسها عام ١٩١٨ بجمع الحروف ورسها وتنتهي من كتابة أكثر من مائة ألف كلمة في « الليل والنهار » .

وتدق اجراس النصر في ١١ نوفمبر ١٩١٨ وفي ١٥ نوفمبر يلتقي الشاعر توماس ستيرنز اليوت بفيرجينيا وولف لأول مرة .

« عوليس » و « فيرجينيا واليوت » :

ذهبت هاريت ويفر ، صاحبة مطبعة Egoist ، في ابريل ١٩١٨ ، ومعهما مخطوط « عوليس » لجيمس جويس ، وكانت تأمل ان تقوم دار هوجارث بنشرها . كانت « عوليس » عملا ادبيا لم تستطع فيرجينيا وولف ان ترفضه او تقبله ، لقد اعجبت بالقصة وكانت عبقرية جويس واضحة فيها كل الوضوح ، لقد اثار القصة فيها الإعجاب والحسد والخوف في آن واحد . كانت تعتقد ان للقصة جوانبها الجمالية ولكنها لا تخلو من الخشونة والسوقية أحيانا . لقد خيل اليها ان كتابا آخر قد انتزع قلبها من يدها ليحط في جرة ماصجرت هي عن التعبير عنه او خجلت من كتابته . لقد هالها ما رأت في « عوليس » وكانت تضع جويس في مرتبة واحدة مع ازرا باوند « المعلم الكبير » وتشير اليهما بعبارة « هؤلاء الناس » وكانهم من العالم السفلي . وبثاقب بصرها احسبت بأهمية هذا العمل ، ولكنه كان يفوق امكانيات مطبعة هوجارث البدائية . كان عليها ان تبحث عن

تبعد عامين من النوبات المتعاقبة كان من الواضح ان عقلها قد أصابه خلل ، وان شخصيتها قد اهتزت بعنف .

الحرب العالمية الأولى :

عزلتها مطبعة هوجارث عن لندن في الفترة ١٩١٥ - ١٩١٦ ، « وتلاشت جماعة بلومزبري كما يتلاشى ضباب الصباح » واستقطبت الحرب اصداقها ، ففي يناير ١٩١٦ صدر قانون التجنيد الاجباري والتعبئة العامة ، واستدعى كل او معظم اصداقها للجيش ، وبالطبع رفضوا التجنيد احتجاجا على هيستريا الحرب . وواجه معظمهم المحكمة التي وان كانت قد اكبرت فيهم روح الاخلاص والصدق ، الا انها حكمت عليهم اما بالعمل اليدوي او بالسجن او بارغامهم على الالتحاق بصوف القاتلين . وفي مواجهة الخطر الداهم تجمع اعضاء بلومزبري مرة أخرى .

تتبع فيرجينيا في قصصها لتلك الفترة منهجا واضحا وتسير على نسق معين : ففي الصفحات الأخيرة من « رحلة الى الخارج » نراها وقد ازاحت القطاء لتكشف عما يتمثل في عقلها الباطن ، ويفوق الرقيب الفرويدي وتزحف احلامها من كهوفها وتخرج وتطل علينا بشياطينها . لقد كانت تلعب بالنار ودفع بها هذا الكتاب الى حافة الجنون المطبق ، ولم تكن على استعداد للمجازفة بمخاطرة أخرى ، ولهذا نراها تبدأ في كتابة شيء « مقبول » شيء « هاديء » ، يخلو من الانفعال العصبى والافتكار « القريبة » وظلت تسير على هذا النوال :

فترى « اور لاندو » تتبع « الى الغنار » ، وقصتها « فلوس » تأتي بعد « الاسواج » وتأتي « ثلاث جنهيات » بعد « السنوات » -

وتضخم العمل في المطبعة ، ونشرت لاليوت وكاترين مانسفيلد وميدلتون موري وفروستر وماكسيم جوركي . وانشغل الاثنان في جمع الحروف وفي الطباعة وتنظيف الآلات واللصق والتجليد والتغليف وتصدير الطرود والرد على الرسائل . وظل جميع من يعملون في مطبعة هو جارت يحملون بأن هذا العمل الجهنمي المصنئ ربما يؤدي في النهاية الى الراحة التي ينشدونها في جنة الجماليات .

وفي يونيو ١٩٢٢ يحضر اليوت الى مطبعة هو جارت ليقرأ « الأرض الخراب » وتكتب فيرجينيا في مذكراتها :

« لقد غناها وانشدنا ونغمها . وهي تتميز بالجمال وقوة العبارة ، التناسق ، الكثافة . ما الذي يجعلها تتناسك ، لست أدري ... وعلى كل حال فهي تخلف في الفرد عاطفة قوية . اسمها « الأرض الخراب » وتفسرها ماري هتشنسون ... على انها سيرة توم (اليوت) الذاتية - سيرة مقتضبة » .

وكان من الظلم لشاعر موهوب كاليوت ان يكد في عمله موظفا مغمورا في احد البنوك . وافتحوا له اعتمادا لجمع ٣٠٠ جنيه سنويا ولمدة خمس سنوات ليوفر له تفرغا لشعره . وكان الحساب باسم اولد نجتون وليدي اوتولاين وفيرجينيا في بنك لويدز ووزعت ليدي اوتولاين منشورا على الاصدقاء تحثهم على التبرع . واجتمعت فيرجينيا باليوت وفروستر في ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢ ودار الحديث حول « عوليس » وامعجت فيرجينيا بدفاع

جامع حروف محترف ، هذا بالإضافة الى ان اصدقاء لينارد حذرهم من مغبة نشر « عوليس » ، فقد تعرض دار هو جارت للمحاكمة والكتاب للمصادرة . (١٣)

ومن اهم الصعاب التي واجهت فيرجينيا في تلك الفترة مشكلة الخدم والأعمال المنزلية . كانت تقضى حوائجها اما سيرا على الاقدام او باستعمال دراجة . ولكي تحصل على الضوء كانت تلجأ الى الشموع التي كان شحمها يتساقط على السجاجيد ، او تلجأ الى المصابيح التي تعمل بالكروسين ودخانها ، وتقليم اشراطها وتلميع وتنظيف زجاجاتها كل صباح . كانت تحصل على الدفاء باستعمال الخشب او الفحم ، وكان عليها ان تحمل الفحم في دلو كبير وتنظف المدفأة من الرماد . ولكي تحصل على ماء ساخن للاستحمام كان عليها ان تسخنه فوق الموقد ، اما الماء البارد فكان عليها ان تضخه من مضخة خارج المنزل الى خزان كل يوم . لم يكن هناك حمام في الطابق العلوي ، ولا مرحاض ، وكانت اعمال الطهي والتنظيف اعمال مضنية وقادرة وبطيئة .

حظيت فيرجينيا في هذه الفترة بصداقة اليوت . كان في نظرها رجلا امريكيا يثق مهلبا . وذهب اليها اليوت ومعه ثلاث أو أربع قصائد ، وكانت معجبة به لذلك له وشاعريته وان لم تتفق معه في كل آرائه . فقد كان يؤمن بعقيدة ازرا باوند ، كما كان شديد الإعجاب بجيمس جويس . ورافقت فيرجينيا ولينارد على نشر قصائده واعادت للطباعة في يناير ١٩١٩ .

« مستر بينيت ومسر براون » أو الصراع

بين القديم والجديد :

بعد يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ يوما مشهودا في حياة فيرجينيا ، فقد دعيت الى لقاء محاضرة من « الشخصية في فن النثر الحديث » أمام جماعة في كمبرج تطلق على نفسها اسم « المحدثون » أو « المارقون » . واختارت عنوانا للمحاضرة : « مستر بينيت ومسر براون » وصارت المحاضرة فيما بعد بمثابة بيان أدبي عن آمال المحدثين وتبدأ المحاضرة : « نحن نرتجف على على شفا عصر من أعظم عصور الأدب الإنجليزي » وكانت تشير بالضمير « نحن » الى « الطليعيين » . وكما يحدث في مثل هذه البيانات الأدبية أو السياسية ، يطالب اصحابها بإفساح المجال للجديد ، وبإزاحة العوائق التي تقف في طريق هذا الزحف ، ومنها بعض المعوقات التي تراكمت وتكلسست على مر العصور : تلك القصص الانيقية المهذبة المصقولة ، تلك السير الرائعة والتراجيم المسلية ، تلك الآراء النقدية المألوفة المدهشة ، تلك القصائد والأشعار الموسيقية العذبة التي تتغنى ببراعة الأزهار والأغنام والوديان الخضراء والعيون الزرقاء والتي يطلق عليها جمهور الناس « الانتساج الأدبي » . وأول عمل جاد امام هذا الفريق المجدد هو ازالة آثار بينيت وجالزوروي وهـ . جـ . ويلز ، (١٥) فهم الإعداء الحقيقيون للذين نجحوا في طمس الغاية الفريدة للأدب ، وعلى « كشف الحقيقة التي تجسدها مسر براون الغامضة » . فلا يحدثنا بينيت عنها إلا فيما

البوت عنها وتحليله للقصة ، ثم جاء موضوع العون المالى لفرض البوت قبوله بالرغم من اقبال المتبرعين على العطاء .

وبدأت فيرجينيا في الإعداد لقصتها « مسر دالواي » ، وخرجت قصتها « حجرة يعقوب » الى النور في أكتوبر ١٩٢٢ ، وتعتبر بداية لنسوجها الفني وشهرتها .

فيرجينيا ومسر رامزاي في « الى الغنار » :

نراها بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ وكأنها مسر رامزاي . ومن الممكن استخلاص بعض خيوط هذه الفترة من خصلة حياتها على النحو التالي : حيرة دائمة ودام عفشال ، عدم قدرتها على انجاب الاطفال ، حسد يأكل قلبها من آن لآخر ، فقد استطاعت فانيسا ان تكون اسرة وبالرغم من مسؤولياتها العائلية استطاعت ان تعيش ميشة اكثر طلاقة وحرية من حياة فيرجينيا . احسنت فيرجينيا بان حياتها ، وقد جاوزت الأربعين ، قد بدأت تغفل من بين يديها ، وانه من الممكن ، كما تكرر وتؤكد في « الى الغنار » (١٤) ، ان تمسك بهذه الحياة وبهذه اللحظات ، او على الاقل ، وبطريقة غامضة ، من الممكن ان تجعل نبض هذه الحياة يدق ببطء .

وتاقت الى المدينة ، وعادت الى لندن لتحثك بمجموعة جديدة من الشبان المرموقين أمثال جورج رينولدز ، وأنجوس دافيد سون ، ولوكاس ، وريموند مورتيمر ، ولورد ديفيد سيسيل .

(١٤) تتكرر عبارة Life Stand Still here عدة مرات في القصة . ولرمل لوحة ليلي بريسكو الى توقف

الزمن وتجميده .

(١٥) انظر « اعلام القصة في الادب الإنجليزي الحديث » طه محمود طه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٦ - المقدمة ص

١٠ - ٥٠ .

السير في طريق شائك ، اما جويس واليوت ،
فبالرغم من تجنبهم اخطاء كثيرة ، الا ان اهتمامهما
يمكن الاول لحجم مادته المروع ، والثاني لعدم
انضباطه . ولكنها لن تقول لمن الغلبة ؛ ومن
سيحز النصر . الا ان البيان يخطط لبرنامجها
في السنوات العشر التالية ، ويعطى بصورة
واضحة فكرة عن حياتها .

وتنتهى من « مسز والواى » في ٩ اكتوبر
١٩٢٤ ويقول لنا المؤلف انها لم تتحدث عن
مؤلفاتها كثيرا في رسائلها ولكنها فعلت ذلك
في رسالة للرسام جاك رافيرا الذى كتب لها
يشرح وجهة نظره في الفرق بين الكتابة والرسم .
فمن الامور العسيرة في الكتابة مسار الكلمات
في « خط » وكذلك الافكار ، الفكرة تلو الفكرة .
فلا يستطيع القارئ او الكاتب ان يقرأ أو يكتب
الا كلمة بعد كلمة . وعندما يكتب الاديب كلمة
واحدة فهو كمن يلتقى بحصاة في بحيرة فيطير
ترشاشها أولا في الهواء في كل اتجاه قبل ان
تفوس الى الاعماق مخلفة على السطح موجات
دائرية تتسع وتوسع حتى تختفى في اركان
البحيرة الغامضة . وهذه الحركة لا يمكن لها
ان تتم الا اذا لجأ الكاتب الى الفنون التصويرية
المنقوشة ، كان يضع هذه الكلمة الموحية في
وسط الصفحة ثم يحيطها بخرافات من المعانى
التداعية (١٦) . وهكذا يقترب الكاتب من
الرسام في تحقيق ما يمكن ان نطلق عليه
التزامن او التواكب او التوافق او الآنية في
الزمان والمكان . ومن العسير على العقل ان
يدرك بطريقة الجيشتانت هذا التواكب ،
فالتفكير سبيل في « تنابع » والقارئ لا يدرك
وهو يقرأ في صفحة ٢٧٥ مثلا ما يحدث في
صفحة ٣١ . وارسلت له فيرجينيا تقول ان

• يختص بإيجار حجرتها ، ويقول لنا ويلز ما
يجب ان يكون عليه إيجار حجرتها ، اما
جانزوروى فيخبرنا بأنها لا تستطيع ان تدفع
إيجار حجرتها . ولا يستطيع احدهم ان يكشف
عن شخصية مسز براون الحقيقية ويسير
غورها لانهم لا يهتمون « بجوهر » مسز براون .
كانت شخصية مسز براون متقلبة تتغير
كالحرباء حسب الموقف والمناسبة ، تتغير بتغير
الزاوية التى نطل عليها منها . وفي النهاية
تصبح مسز براون (او أى شخصية) مجرد
« شيء » او « موضوع » ، مجموعة من
الخواطر ، حزمة من الذكريات ، بعضها واضح
حاضر في ذهنها ، والبعض الآخر عالق وملتصق
بافكار وذكريات شخصيات اخرى ، وهذه
الذكريات تظهر ثم تختفى لتحل مكانها ذكريات
اخرى . وتستطيع مسز براون اليقظة الواهية
ان تذكر اسمها وتعرف جيدا انها مسز براون
ويمكنها ان تذكر عمرها ولكن من العسير عليها
ان تذكر اول وجبة ولكنها ، مع ذلك ، تستطيع
بطريقة غامضة ان « ترى » لعبتها الاولى : ذلك
الدب الصغير ، وخاصة عيونه السوداء التى
تشبه الازرار اذا اشتمت رائحة ااث معين .
هذه هى مسز براون التى لم يعرفها بينيت
اطلاقا ولا سمع بها ويلز . وعندما تموت مسز
براون ويحتل جسدها ويختلط بأديم هذه
الارض ، ربما لا يبقى لدينا منها سوى هذه
السحابة من الذكريات ، هذه الحبات التى
ينظمها ويربطها خيط رفيع لا تكاد نراه .

وبعد ان تحدثنا عن هذه المجموعة المادية
« المضللة بقرينها الذى ينتمى اليه اعلام امثال
فورستر ولورنس فهم يتميزون بالشجاعة
والاقدام ، ولكنهم ضيعوا جهودهم الاكبر في

يمكن في الاعماق أحيانا وتارة يظهر على سطح الماء .

وتدخل في دوامة الامواج حتى تصاب بانهايار مفاجيء في ١٩ اغسطس ١٩٢٥ وتظل معتلة لمدة شهرين .

الرجل والراة : اولارندو :

تنوطد « الصداقة » بين فيرجينيا وولف وساكيل ويست (مسز هارولد نيكلسون) ويحرص المؤلف على ابراز هذه العلاقة بمثل حرصه على ابراز العلاقة بينها وبين كاترين مانسفيلد فيقول :

« لقد وقعت فيتا في غرام فيرجينيا . ولما كانت غيرة متوقدة الحس أحببتها كما لوكان رجل قد أحبها . بتلف رجالي لنوع من الاشباع الجسدى - حتى عندما كانت فيرجينيا في ذلك الوقت في الاربعينات من عمرها ... وكانت قد فقدت سحر جمالها وبالرغم من رهبة فيتا منها . »

ومما لدى المؤلف من أدلة يتضح ان العلاقة كانت من جانب واحد . ولا تكتب فيرجينيا عن علاقتها بكاترين بمثل الحماس الذى تكتب به عن علاقتها بفيتا . ونجد جلدور قصتها « اولارندو » في هذه العلاقة . فيطل القصة شاب وسيم يقع في غرام ملكة سرغان ماتهجره . ويمتكن في منزله الريفى لتبدأ أعمال سير توماس براون ، وتمر حوادث القصة سريعة فنراه يقضى ليلة مع الراقصة روزنيا ثم يصاب بغيبوبة لمدة اسبوع يظل فيها فاقد الوعي ويصحو ليجد نفسه قد تحول الى

الرسام يتمتع بهوبة التعبير وكان عليها ان تتجنب ، على حد قولها ، (الشكل التقليدى المحملة التى تشبه خط السكة الحديدية) .

ونرى في « مسز دالواى » طريقة السرد الاشعاعية « التى تصور لنا فكرتين او اكثر في آن واحد ، او كما يقول جويس (١٧) »

Two Thinks at a time وكان من الضروري ان تضغ في قصتها التالية « الى الفنار » الرسامة ليلي بريكو وتنتهى القصة بانتهاى لوحة ليلي الزيتية : « ووسمت خطا هناك ، فى الوسط . » وفى الفترة من يونيو ١٩٢٥ الى ديسمبر ١٩٢٨ اتمت « الى الفنار » ووضعت الخطوط الاولى لفكرة قصتها « الامواج » ونقرا في مذكراتها :

« استيقظت ، ربما الساعة ٣ . آه انها تبدأ ، انها آتية -

الرمب - فهى تشبه الموجة المؤلة التى تتضخم حول القلب -

تطوحنى في الهواء . انا نصصة ، نصصة مكتوبة منقبضة -

يا الهى ، انى اتمنى الموت . ولكن لماذا هذا الاحساس ؟

لارقين الموجة وهى تعلق . انى ارصدها فانيسا . اطفال . اخفاق . نعم . انى ادرك ذلك . اخفاق . اخفاق . ونعلق الموجة . »

وتشير يومياتها في تلك الفترة الى صورة مغرقة « لزمنقة » تهددها بالخطر ، تراها تشق الامواج . وربما ترمز الى خطر داهم يلاحقها او الى حيوان يريد افتراسها . وترمز الزمنقة الى وحش شرير له اتياب حادة

منها ومن اصدقائها احتراماً أكثر عن كونه مجرد « زوجها »

ومع اليوت تلتحم في مناقشة دينية ، فقد أصبح اليوت من اتباع الكنيسة الانجلو كاثوليكية . وتغيرت نظرتهم الى العالم واصبحت حياته مجرد فترة اعداد للآخرة . لقد استطاع ان « يخلص » نفسه بينما ظلت فيرجينيا ولينارد من المارقين المحكوم عليهم بالهلاك الابدي . ولكن المؤلف يقول لنا انه لو استعملنا كلمة « الدين » بمعناها الواسع العريض لوجدنا في قصصهما شيئاً من الدين ، فقد كانت تصف نفسها بأنها « متصوفة » ، ولكنها لم تؤمن بالآخرة ولا بوجود الخالق وظلت طوال حياتها من اللا أدريين .

الامواج :

انتهت من « الامواج » في ٢٩ مايو ١٩٣٠ ونقرأ في يومياتها . « سواء كانت جيدة ام رديئة ، لقد تمت . لقد احسست بكل تأكيد عند النهاية انها لم تنته فقط بل تمت - اكملت . لقد تمت صياغة الشيء في عجلة ، مقطوع الاوصال ، اهرق ذلك . ولكنني قد اوقعت في شبابي تلك الزعنفه التي ظهرت على سطح الماء والتي رايتها في المستنقعات من نافذتي » .

لقد وصلت الى القمة عند نشر « الامواج » في فبراير ١٩٣١ . وفي ٢٥ يناير ١٩٣٢ بلغت الخمسين من عمرها وبدأت تشعر بالاجهاد جسدياً وعقلياً . وحزنت حزناً شديداً على وفاة صديقها ليتون ستراتشي ، ثم تاتي وفاة روجر فراي عام ١٩٣٤ لتضيف الى احزانها .

امراة وتعيش ليدى اورلاندو عبر القرون وتقابل العظماء والادباء وتزوج من بحار وتنجب طفلاً ونصل بها الى عام ١٩٢٨ لتستقر في منزل ساكفيل العائلي !

هذا التحول في شخصية القصة من رجل الى امراة يوحى باغرب التفسيرات والتأويلات كما يؤكد ، الى حد ما ، مايزعمه المؤلف من ان العلاقة لم تكن مجرد علاقة افلاطونية بين امراة واخرى بل تعدتها الى العناق والمضاجعة . ويصرح بأنه مهما كانت نوعية العلاقة بينهما فهناك من الدلائل ما يوحى بأنها ، اى فيتا ، لم تثر فيرجينيا كما ان فيرجينيا لم تشبع فيتا .

وتعتبر « اورلاندو » شبه ترجمة ذاتية لفيرجينيا لانها تخلد هذا الحب الذى تكنه لفيتا ، ومن القصة نلم باطراف حياتها اليومية في هذه السنوات .

فورستر واليوت وفيرجينيا :

يدخل فورستر حياتها مرة ثانية بعد ان انتهت حياته الادبية وبدأت هى حياتها الفنية . لم تشده تجاربها التجديدية في كتابة القصة ، وكان يعتقد انها بعدت بقصصها عن التقاليد المرمية وبالتالي من الحياة . كان يخشى كل منهما الآخر ، وكان فورستر سعيداً مع بنى جنسة من الرجال (١٨) ويجد في « اتونتها » شيئاً مؤمجا .

كان يرتاح الى زوجها لينارد وهو الذى شجعه على الانتهاء من « رحلة الى الهند » وكان يتعاطف مع لينارد ، ويحس بأنه يستحق

(١٨) انظر قصته « موريس » التى نشرت بعد وفاته فقد بدأها عام ١٩١٣ وانتهى منها عام ١٩١٤ ونشرت عام ١٩٧١ وفيها يناقش فورستر مذهب المواتة . Homosexuality.

بعد حرب ، وكانت فيرجينيا تكره العنف ، فهو مظهر من مظاهر الفجولة بذكرها بالرجل . وتدهام سوق الأوراق المالية في أمريكا وظهرت البطالة والثورة والثورة المضادة ، وبالتالي الشيوعية والفاشية ثم الحرب العالمية الثانية .

« السنوات » :

وواصلت الكتابة في « السنوات » ، وترى ان القصة طويلة ويجب تلخيصها فقد كانت تختلف عن سابق قصصها . كانت تسير بها في طريق مختلف قد يؤدي الى طريق مسدود . وعادتها الاحلام المزعجة والاضطرابات الذهنية . وتعود اليها فتقنها بنفسها بعد ان قرا زوجها المخطوط ويستقبل النقاد القصة بالترحيب والثناء .

ثم تصدم مرة أخرى ، ويقتل ابن اختها فانيسا (جوليان) في اسبانيا واهتز جسمها وعقلها . كان فوت جوليان كموث توبي قبله بثلاثين عاما يشكل تحديا لها وكانت ندا لهذا التحدي .

ونشرت عام ١٩٣٨ « ثلاث جنبيات » وفيها تدافع عن الظلم وعن حقوق المرأة ، ولكن حوادث تلك الفترة كانت تدور لا حول حقوق المرأة بل حول حقوق الدول .

وتصوت ليدى أوتولابن موريل في ابريل ١٩٣٩ وكالارين كوكس في مايو وأم زوجها في يوليو ١٩٣٩ . وامتلات شوارع لندن باللاجئين وكان منهم فرويد ، وزارته فيرجينيا وأهداها زهرة نرجس !

كانت تقضى معظم وقتها في التجول في شوارع لندن ، وكانها تقول لها « وداعا » واصلت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ . وفي مارس كانت قد رفضت الدكتوراه الفخرية من جامعة ليدربول .

كان ليتون يمثل ماغيها وروجر فرأى حاضرها . وزاد من حزنها ان صداقتها مع فيتا انتهت هي الاخرى ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعرضت قصصها وفيها في هذه الفترة لتقيد شديد . وصفاها الامير ميرسكي بانها عقلانية متعالية ووصفها سوينرتون بانها « بالغة متجولة تروج لمخدرات واليهون الراسمالية » . لقد اساء اليها الاخير ولكن الطعنة التي عاجلها بها ويند هام ليويس . لقد كانت في اعتقاده « شيئا تافها » ، « في غاية الصالة » « ما عاد احد ياخذها مأخذ الجد في يومنا هذا » .

واحسنت بأقول نجمها . كان من الممكن ان تجد انتصارا لها عام ١٩٢٤ في فورستر ولورنس واليوت وجويس . وبعد عشرات وتبدل الحال ، وفشرت الحرب الادبية لخلو الميدان من انتصارها . كان ويلز هو الوحيد الباقي على قيد الحياة من الجيل القديم ، اما لورنس فتوفي عام ١٩٣٠ وكذلك ليتون وتوقف فورستر عن الكتابة ، اما جويس فكان مشغولا بكتابة « فينيجانز ورك » . اما الذين ظلوا احياء من معاصريها فكانوا الدوس هكسلي وبريستلي واليول وديفيد جارنيت ورو ماركولي ، ولم يتحقق لاحد منهم ان يواصل الكفاح والثورة على التقاليد الادبية التي كانت تنادى بها عام ١٩٢٤ . ونراها تقف وحدها وقد تغير المناخ الفكري والادبي والسياسي ، وقد فقدت انتصارها واعداها على حد سواء .

بتغيير المناخ الادبي اخذ جمهور الادباء ينادى بالبعد عن الفن للفن والاتجاه بالادب الى « الالتزام » والى « الاصلاح الاجتماعي الفعال » . كان هتلر يمسك بزمام الامور ، واجتاحت اليابان منشوريا ، وفي عام ١٩٣٥ غزا الايطاليون الحبشة . وفي عام ١٩٣٦ بدأت الحرب الاهلية الاسبانية . حرب بعد حرب

برايتون وفحصتها اوكتافيا ثم عادا الى رود ميل وارسلت اوكتافيا الى فيرجينيا رسالة تطمئنها ، وفي اليوم التالى اتصلت بهما تلفونيا للاستفسار عن صحتها ولكن الوقت كان قد فات .

في صباح الجمعة ٢٨ مارس ١٩٤١ خرجت فيرجينيا كعادتها الى حجرتها في حديقة المنزل وهناك سطرت رسالتين واحدة لزوجها والاخرى لاختها فانيسا . وفي الرسالتين تؤكد انها عادت تسمع هذه الاصوات المزعجة ، وانها على ثقة من استحالة شفائها . وعادت الى المنزل لتكتب رسالة اخرى لزوجها ، ثم انسلت خارج المنزل ومعها عصاها وشقت طريقها عبر الوادى الى شاطئ النهر . كان لينارد يعرف انها حاولت الانتحار غرقا قبل ذلك ولهذا نراها قد اعدت العدة هذه المرة لكي لا تفشل محاولتها . وتركت عصاها على شاطئ النهر وحشرت حجرا في جيب معطفها وسعت الى حتفها ، « الى تلك التجربة » وهذا ما قالته لصديقتها فيشا ، « التى لن اصفها » .

قضت معظم وقتها بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ في منزل ريفي بجوار نهر اوز ، وطافت بلذنها فكرة الانتحار هى وزوجها واعدا لذلك العدة - اما عن طريق غاز السيارة المحترق او باستعمال المورفين . وفي مذكراتها ويومياتها تشير الى زمان ومكان الانتحار من آن لآخر .

وعدلت من وضع منضدتها ، فقد بدأت تمسح منازل الطيبة ، حتى تشرف على ربوع انجلترا الخضراء . وسقطت قبلة بالقرب من المنزل وفجرت شاطئ النهر واندفعت مياه نهر اوز لتغمر الوديان وتسيل لتصل الى مشارف حديقة منزلها . وامام المنزل تشكلت وتكونت بحيرة امتلأت بالطيور المائية . وكان هذا مصدرا لسعادتها .

ونسال متى بدأ الظلام يكتنف حياتها ونجد انه من الصعب ان نحدد لذلك وقتا معينا . ونصل في يوميات لينارد الى يوم ١٨ مارس ويسجل ان صحتها معتلة . وعرضها على اوكتافيا ، طبيبة من اصدقائه . واخذها الى



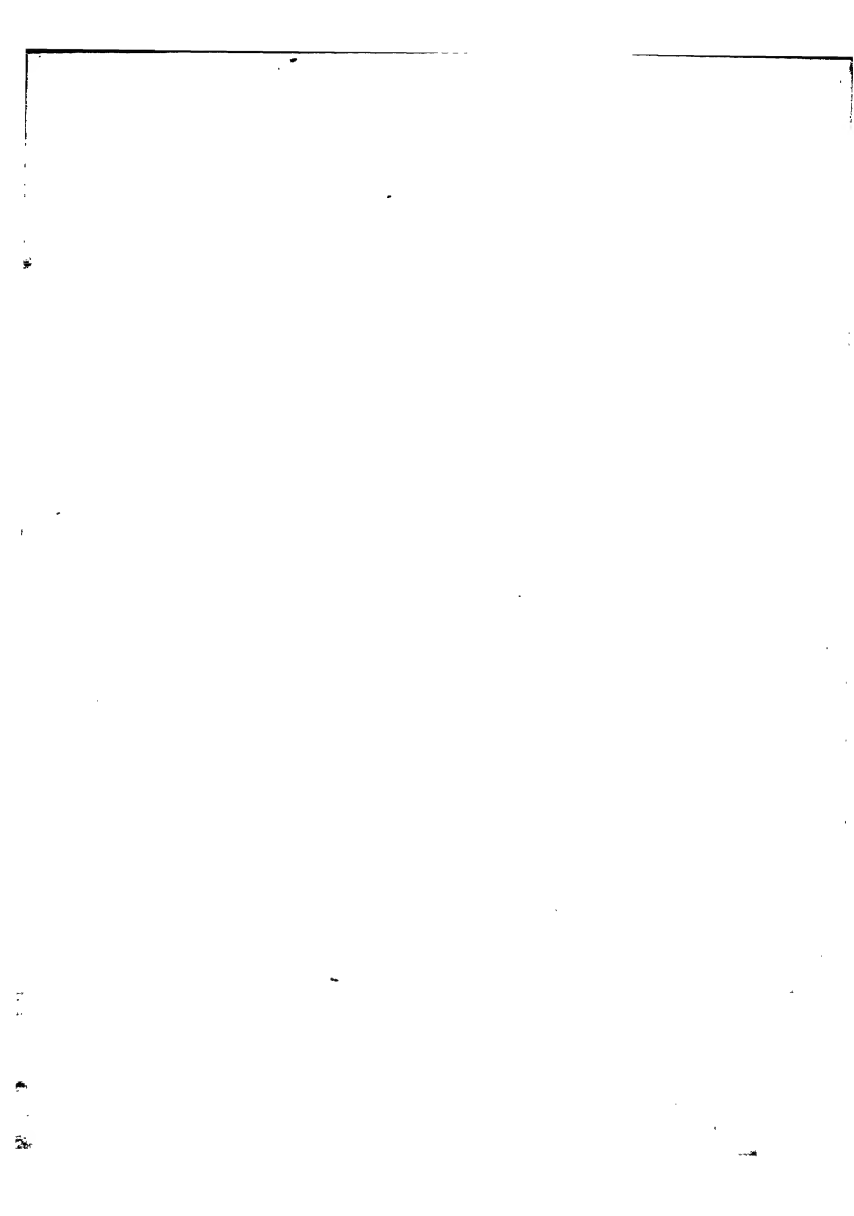
General Organization Of the Alex.
Univ. Library (GOAL)

★ ★ ★ Bibliotheca Alexandrina

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الإصدار القادمة

- (1) Baker, John R., Race, Oxford University Press, London, 1974.
- (2) Cavaliero, Glen, John Cowper Powys : Novelist, Clarendon Press, Oxford, 1973.
- (3) Forge, Anthony, Primitive Art & Society, Edit., Oxford University Press, London, 1973.
- (4) Iyer, Raghavan N., The Moral and Political Thought of Mahatma Gandhi, New York, Oxford University Press, 1973.
- (5) Macfarquhar, Roderick, The Origins of the Cultural Revolution, Contradictions Among the People 1956 — 1957, Oxford University Press, 1974.



العدد التالى من المجلة

العدد الاول المجلد السادس

ابريل مايو يونيه ١٩٧٥
قسم خاص عن الموسيقى
بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	٥	سوريا	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	٥	المتاهرة	٢٥٠	دينار
البحرين	٤٠٠	قلس	٤٠٠	السودان	٢٥٠	دينار
اليمن الجنوبية	٤٠٠	قلس	٤٠٠	ليبيا	٣٥	قروش
اليمن الشمالية	٤٠٠	ريال	٤٠٠	مستط	٤٠٠	دينار
العراق	٣٠٠	قلس	٣٠٠	الجزائر	٥	دينار
لبنان	٤٠٠	ليرة	٤٠٠	تونس	٥٠٠	دينار
الأردن	٢٥٠	قلس	٢٥٠	المغرب	٥	دينار

مطبعة حكومة الكويت